

تأملات شيخ الإسلام ابن تيمية
في

القرآن الكريم

سورة يوسف

رقية محمود الغرايبة

الفهرس

2	الفهرس
10	مقدمة سورة يوسف
16	يوسف 1-3
37	يوسف 4-18
54	يوسف 19-34
99	يوسف 35-49
116	يوسف 50-57
134	يوسف 58-68
138	يوسف 69-87
157	يوسف 87-100
184	يوسف 101-111

الفهرس (2)

2 _____ الفهرس

10 _____ مقدمة سورة يوسف

10 _____ الحسد من امراض القلوب

يوسف 1-3 16

16 _____ فواتح السور

17 _____ القرآن العربي كلام الله

18 _____ النبي بين لأصحابه معانى القرآن كما بين لهم ألفاظه

19 _____ العقل يسمى به العلم الذي يعمل به والعمل بالعلم

19 _____ تدبر القرآن وفقهه وعقله

20 _____ الذي يسمع ما جاءت به الرسل سمعا يعقل به ما قالوه ينجو

21 _____ مدح الله وأثنى على من كان له عقل

21 _____ تعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا

22 _____ معرفة ما جاء به الرسول و ما أراده بألفاظ القرآن و الحديث هو أصل العلم و الإيمان

23 _____ كل ما قصه الله فهو أحسن القصص

33 _____ أسماء القرآن

33 _____ " أن الله هدى نبيكم بهذا القرآن فاستمسكوا به "

34 _____ الله سبحانه يكلم عباده بواسطة رسول يرسله ولهذا جاء بلفظ الجمع

35 _____ لطائف لغوية

يوسف 4-18 37

37 _____ المؤمن يبغى بوساوس الشيطان

38 _____ الحاسد ظالم معتد والمحسود مظلوم مأمور بالصبر والتقوى

40 _____ تأويل الأحاديث

40 _____ الاخبار بالغيب من دلائل النبوة

41 _____ " تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول الا ما يرضي الرب "

42 _____ الالهامات الصادقة العادلة هي من وحي الله

43 _____ الايمان وان تضمن التصديق فليس هو مرادفاله

43 _____ الإيمان يقتضي طمأنينة وسكونا

44 _____ كل مقدمات تخالف بيان الله ورسوله فإنها تكون ضلالا

46 طمع العبد في ربه ورجاؤه له يوجب عبوديته له
47 الشكوى إلى الله لا تنافي الصبر الجميل
51 يجيء الوصف في القرآن مستعملا في الكذب
52 لطائف لغوية

54 يوسف 19-34

54 احتمال الهوان والأذى في طاعة الله على الكرامة والعز في معصية الله
62 الحسنة الثانية قد تكون من ثواب الأولى
62 "إن النظر سهم من سهام إبليس مسموم"
63 الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك
63 الإعتبار الذي يوجب إنتهار النفوس عن معصية الله والتمسك بالتقوى
64 العشق مرض نفساني
66 الإصرار على العشق ولوازمه قد يكون أعظم من الزنا الواحد
70 الهم همان هم خطرات وهم إصرار
72 الفرق بين الهم والارادة
73 يوسف الصديق لم يذكر الله عنه ذنبا
75 قوة يوسف ومحبهته لله كانت أقوى من جمال امرأة العزيز
76 توحيد الله وإخلاص الدين له هو قلب الإيمان
76 الكمال المطلق للإنسان
77 "أفعال البر يفعلها البر والفاجر ولن يصبر عن المعاصي إلا صديق"
79 بين الله أن عباده هم الذين ينجون من السيئات
81 الحرية حرية القلب والعبودية عبودية القلب
83 الله يصرف عن عبده الفحشاء بإخلاصه لله
85 من رحمة الله بعبده المخلص ان يصرف عنه ما يغار عليه منه
86 الإنسان لا يفعل الحرام إلا لضعف إيمانه ومحبهته
87 يبتلى بالفاحشة أهل الاعراض عن الاخلاص لله
87 علاج من أصابه جرح مسموم
89 سلطان الشيطان واغواؤه انما هو لغير المخلصين
91 برهان الايمان
92 النكاح رق فلينظر أحدكم عند من يرق كريمته
92 الخطأ الاثم
94 الفواحش مما اتفق أهل الأرض على استقباحها

- 94 من كلام العرب وغيرهم انهم ينفون الشيء في صيغ الحصر
- 95 باطنه أجمل من ظاهره
- 95 الرد على الذين يقولون ان الملائكة افضل من البشر
- 96 يوسف لم يكن مشركا لا في عبادته ولا توكله
- 96 لطائف لغوية

يوسف 35-49 99

- 99 الإحسان يتناول الإخلاص وغيره
- 100 المراد بلفظ التأويل في لغة القرآن
- 101 الحكم لله وحده ورسله
- 103 تولي يوسف الصديق على خزائن الأرض لملك مصر وكان هو وقومه كفارا
- 103 معرفة حدود الاسماء واجبة
- 104 المشركون انما يعبدون أسماء تصوروها في خيالهم الفاسد
- 104 المطالبة بالدليل الشرعي
- 105 الرد على من قال ان الاسم هو المسمى وأن كل شيء يستحق الألوهية كاستحقاق الله لها
- 108 الدين الحق هو طاعة الله وعبادته
- 109 كمال بني آدم وسعادتهم ونجاتهم لا تحصل إلا بعبادة الله وحده
- 110 فرق الله سبحانه بالقرآن وبالإيمان بين أمره الديني وخلق الكوني
- 111 نسيان الخير يكون من الشيطان
- 112 سمي الله الأنبياء صديقين
- 112 لطائف لغوية

يوسف 50-57 116

- 116 يوسف ممن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى
- 121 الإشراف لا يكون إلا من مقر بالله
- 122 الاسماء مختصة بالله اذا اضيفت اليه لا يشركه فيها غيره
- 123 إن الله لا يهدي كيد الخائنين
- 123 { إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ }
- 124 الامر والنهي من لوازم وجود بني آدم
- 124 الرد على قول المفسرين ان يوسف قال { وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي }
- 125 الولاية لها ركنان القوة والأمانة
- 126 أتى الله سبحانه الملك لبعض الكفار كما أتاه لبعض الأنبياء
- 126 الواجب انما هو فعل المقدور

- 127 _____ يدفع أعظم المفسدتين باحتمال أدناهما
- 127 _____ علق السعادة بالإيمان والتقوى
- 128 _____ أجر الآخرة خير للمؤمنين المتقين
- 129 _____ سيئات المصائب والجزاء من سيئات الأعمال وإن الطاعة سبب النعمة
- 130 _____ الإحسان يجمع كمال الإخلاص لله ويجمع الإتيان بالفعل الحسن
- 130 _____ خلق الله سبحانه الخلق لدار القرار
- 131 _____ المظلوم المحسود إذا صبر و إتقى الله كانت له العاقبة
- 131 _____ قد يعطف على الايمان بعض أنواعه الرفيعة
- 132 _____ لطائف لغوية

134 يوسف 58-68

- 134 _____ الله سبحانه أرحم الراحمين
- 135 _____ النذر وعد مؤكد
- 135 _____ التوكل لله وحده لا شريك له
- 136 _____ التوكل المأمور به ما يجتمع فيه مقتضى التوحيد والعقل والشرع
- 136 _____ قول يعقوب عليه السلام { لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ } لم يناقض توكله
- 137 _____ "إذا سألت فاسئلي الله وإذا استعنت فاستعن بالله"
- 137 _____ الفرق بين أمر الله الدينى وخلق الكونى
- 138 _____ لطائف لغوية

138 يوسف 69-87

- 139 _____ الظلم أمر نسبى إضافى
- 139 _____ حكم ضمان السوق
- 140 _____ جحود الصانع لم يكن دينا غالبا على أمة من الأمم قط
- 140 _____ العقل يفهم من المطلق قدرا مشتركا بين المسميين وعند الاختصاص يقيد ذلك
- 141 _____ تقسيم اللغة الى حقيقة ومجاز تقسيم مبتدع محدث
- 142 _____ الدين هو التعاهد والتعاقد
- 142 _____ رفع الدرجات والأقدار على قدر معاملة القلوب بالعلم والإيمان
- 144 _____ صنفاً إذا صلحوا صلح الناس العلماء والأمرء
- 144 _____ يجيء الوصف فى القرآن مستعملاً فى الكذب
- 145 _____ الفرق بين الحكم الدينى والحكم الكونى
- 145 _____ الاستيناس ليس هو الاياس

- 147 من أخبر غيره بشيء فقد شهد به
- 147 في اللغة يكون أمران متلازمان فيطلق الإسم عليهما
- 149 لغة القرآن والحديث
- 151 دعاء الله واستغاثته به واشتكاؤه إليه لا ينافي الصبر المأمور به
- 153 حزن القلب لا ينافي الصبر على المصائب
- 154 قول القلب وعمله هو الأصل
- 155 لطائف لغوية

يوسف 87-100 157

- 157 المؤمنون لا ييأسون من روح الله
- 158 الله تعالى يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ
- 159 لا بد من التقوى بفعل المأمور والصبر على المقدور
- 160 من الخطأ الظن بأن نعيم الدنيا لا يكون إلا لأهل الكفر والفجور
- 166 المؤمن يصبر على المصائب و يستغفر من الذنوب
- 167 صاحب العاقبة المحمودة
- 168 شروط القيام بالواجبات من الدعوة الواجبة وغيرها
- 168 أمر من يبغى بالعشق أن يعف و يكتم و يصبر
- 169 بالتقوى والصبر يتحقق النصر على عدوه من الكفار والمنافقين
- 170 من يتق و يصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين
- 170 بيان قول الشيخ عبد القادر لابد لكل مؤمن في سائر أحواله من ثلاثة أشياء
- 172 العبد له في المقدور حالان
- 173 من احتج بالقدر على ترك المأمور فقد عكس الايمان والدين
- 175 لفظ الخطأ يستعمل في العمد وفي غير العمد
- 176 في قصة يوسف أنواع من العبرة للمظلوم والمحسود والمبتلى بدواعي الفواحش
- 177 القديم خلاف الحديث
- 177 الذنوب المعصية
- 178 من الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه
- 178 التأويل في لغة القرآن
- 179 {إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ}
- 180 السجود على ضربين سجود عبادة محضة وسجود تشريف
- 180 الإحناء عند التحية منهي عنه
- 181 لطائف لغوية

- 184 _____ دين الأنبياء كلهم الإسلام
- 185 _____ دين الأنبياء واحد وان تنوعت شرائعهم
- 185 _____ حقيقة دين الإسلام
- 186 _____ دين الإسلام مبنى على أصليين
- 186 _____ بكمال العبودية لله يبرأ من الكبر والشرك
- 188 _____ الأنبياء أفضل الخلق
- 188 _____ الأمر باتباع السلف
- 188 _____ من النبوة ما يكون ملكا
- 189 _____ الصالح من استوت سريرته وعلانيته على ما يرضى ربه
- 190 _____ الحكمة من نفي شهادة محمد لهذه الأمور الغائبة وحضوره لها
- 191 _____ الأخبار عن الأمم الماضية لا يمكن أن تعلم بالحدس وقوى النفس
- 192 _____ الاخبار بالغيب من أعلام رسالته ودلائل نبوته
- 193 _____ القرآن هو شرف لمن آمن به من قومه وغيرهم
- 193 _____ تعليم القرآن والعلم بغير أجره أفضل الأعمال وأحبها إلى الله
- 194 _____ ما يخصه من أخبار المؤمنين والكفار هو من باب الآيات
- 194 _____ حقيقة التوحيد
- 196 _____ توحيد الربوبية لم يناع في أصله أحد من بنى آدم
- 199 _____ التوحيد والإشراك يكون في أقوال القلب ويكون في أعمال القلب
- 201 _____ قياس المشركين الذين عدلوا بالله وجعلوا لله أندادا
- 201 _____ العبادة تجمع غاية الحب وغاية الذل
- 202 _____ أصل الشر هو الإشراك بالله كما أن أصل الخير هو الإخلاص لله
- 203 _____ من أقر بالقضاء والقدر دون الأمر والنهي الشرعيين فهو أكفر من اليهود والنصارى
- 204 _____ من اكتفى بالحقائق الكونية ولم يتبع الحقائق الدينية كان من أتباع إبليس والكافرين
- 206 _____ من إتبع الرسول دعا إلى الله على بصيرة
- 207 _____ كل من كان للرسول أتبع كان أولى الناس به في الدنيا والآخرة
- 207 _____ الدعوة إلى الله هي الدعوة إلى الإيمان به وبما جاءت به رسله
- 208 _____ سبيل من اتبعه
- 209 _____ "لا تهلك أمة حتى يتبعوا أهواءهم ويتركوا ما جاءتهم به أنبياؤهم"
- 209 _____ هل الدعوة عامة تتعين في حق كل مسلم ومسلمة أم لا؟
- 209 _____ ليس لأحد أن يضع للناس عقيدة ولا عبادة من عنده

- 210 أخبر أنه يدعو إلى الله وإلى صراطه المستقيم
- 210 بعث الله سبحانه محمدا صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق
- 211 الدعوة إلى الله واجبة على من اتبعه
- 216 وصف باليقين والهدى والبصيرة
- 217 اتفاق الرسل كلهم في أصول الدين
- 217 ليس في النساء نبية
- 218 العقل هو العلم الذي يعمل به والعمل بالعلم
- 219 جعل الله الرسل من أهل القرى
- 219 الطريق العقلية في القياس والاعتبار
- 221 من آيات الأنبياء إهلاك الله لمكذبيهم ونصره للمؤمنين
- 222 {حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا}
- 228 الرحمة تحصل بالقرآن
- 229 أفضل النعم نعمة الإيمان
- 229 كل ما يحتاج الناس إلى معرفته بينه الله ورسوله بيانا شافيا
- 230 جامع الجامع جامع و دليل الدليل دليل
- 231 يذكر الله سبحانه الأصل المعتبر به ليستفاد حكم الفرع منه
- هل يجوز الخوض فيما تكلم الناس فيه من مسائل أصول الدين وإن لم ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم فيها كلام أم لا؟
- 231
- 232 ما ذكره من أحوال الامم الماضية يقاس عليها أحوال الامم المستقبلية
- 234 الله سبحانه كما ينكر التسوية بين المختلفات فهو يسوي بين المتماثلات
- 235 القصص المذكورة في الكتاب ليست بمنزلة ما يفترى من القصص المكذوبة
- 235 اعظم صفات العقل معرفة التماثل والاختلاف
- 236 أسماء القرآن
- 237 لطائف لغوية

مقدمة سورة يوسف

الحسد من امراض القلوب

ومن امراض القلوب الحسد كما قال بعضهم في حده انه اذى يلحق بسبب العلم بحسن حال الأغنياء فلا يجوز ان يكون الفاضل حسودا لأن الفاضل يجرى على ما هو الجميل وقد قال طائفة من الناس إنه تمنى زوال النعمة عن المحسود وان لم يصير للحاسد مثلها بخلاف الغبطة فإنه تمنى ملها من غير حب زوالها عن المغبوط والتحقيق ان الحسد هو البغض والكراهة لما يراه من حسن حال المحسود وهو نوعان احدهما كراهة للنعمة عليه مطلقا فهذا هو الحسد المذموم واذا ابغض ذلك فإنه يتألم ويتأذى بوجود ما يبغضه فيكون ذلك مرضا في قلبه ويلتذ بزوال النعمة عنه وان لم يحصل له نفع بزوالها لكن نفعه زوال الألم الذي كان في نفسه ولكن ذلك الألم لم يزل إلا بمباشرة منه وهو راحة واشده كالمريض الذي عولج بما يسكن وجعه والمرض فإن بغضه لنعمة الله على عبده مرض فان تلك النعمة قد تعود على المحسود واعظم منها وقد يحصل نظير تلك النعمة لنظير ذلك المحسود والحاسد ليس له غرض في شئ معين لكن نفسه تكره ما انعم به على النوع ولها قال من قال انه تمنى زوال النعمة فان من كره النعمة على غيره تمنى زوالها بقلبه و النوع الثاني ان يكره فضل ذلك الشخص عليه فيجب أن يكون مثله او افضل منه فهذا حسد وهو الذي سموه الغبطة وقد سماه النبي حسدا في الحديث المتفق عليه من حديث ابن مسعود وابن عمر رضي الله عنهما انه قال لاحسد الا في اثنتين رجل اتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها ورجل اتاه الله مالا وسلطه على هلكته في الحق هذا لفظ ابن مسعود ولفظ ابن عمر رجل اتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار ورجل اتاه الله مالا فهو ينفق منه في الحق آناء الليل والنهار وراه البخارى من حديث أبي هريرة ولفظه لاحسد الا في اثنتين رجل اتاه الله القرآن فهو يتلوه الليل والنهار فسمعه رجل فقال ياليتنى أوتيت مثل ما اوتى هذا فعملت فيه مثل ما يعمل هذا ورجل اتاه الله مالا فهو يهلكه في الحق فقال رجل ياليتنى اوتيت مثل ما اوتى هذا فعملت فيه ما يعمل هذا فهذا الحسد الذي نهى عنه النبي الا في موضعين هو الذي سماه اولئك الغبطة وهو ان يحب مثل حال الغير ويكره ان يفضل عليه فإن قيل اذا لم سمى حسدا وإنما أحب أن ينعم الله عليه قيل مبدأ هذا الحب هو نظره إلى إنعامه على الغير وكراهته ان يتفضل عليه ولولا وجود ذلك الغير لم يحب ذلك فلما كان مبدأ ذلك كراهته ان يتفضل عليه الغير كان حسدا لأنه كراهة تتبعا محبة واما من احب ان ينعم الله عليه مع عدم ثقافته إلى احوال الناس فهذا ليس عنده من الحسد شئ ولهذا يبغض غالب الناس بهذا القسم الثاني وقد تسمى المنافسة فيتنافس الاثنان في الأمر المحبوب المطلوب كلاهما يطلب ان يأخذه وذلك لكراهية أحدهما ان يتفضل عليه الآخر كما يكره المستبقيان كل منهما ان يسبقه الآخر والتنافس ليس مذموما مطلقا بل هو محمود في الخير قال تعالى { إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ } {22} عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ } {23} تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ } {24} يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ } {25} خِتَامُهُ مِسْكَ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ } {26} المطففين 22-26 فأمر المنافس ان ينافس في هذا النعيم لا ينافس في نعيم الدنيا الزائل وهذا موافق لحديث النبي فإنه نهى عن الحسد إلا فيمن اوتى العلم فهو يعمل به ويعلمه ومن اوتى المال فهو ينفقه فاما من اوتى علما ولم يعمل به ولم يعلمه او اوتى مالا ولم ينفقه في طاعة الله فهذا لا يحسد ولا يتمنى مثل حاله فإنه ليس في خير يرغب فيه بل هو معرض للعذاب ومن ولي ولاية فيأتيها بعلم وعدل أدى الأمانات إلى اهلها وحكم بين الناس بالكتاب والسنة فهذا درجته عظيمة لكن هذا في جهاد عظيم كذلك المجاهد في سبيل الله والنفوس لا تحسد من هو في تعب عظيم فلماذا لم يذكره وإن كان المجاهد في سبيل الله أفضل من الذي ينفق

المال بخلاف المنفق والمعلم فان هذين ليس لهم فى العادة عدو من خارج فان قدر أنهما لهما عدو يجاهدانه فذلك أفضل لدرجتهم وكذلك لم يذكر النبى المصلى والصائم والحاج لأن هذه الأعمال لا يحصل منها فى العادة من نفع الناس الذى يعظمون به الشخص ويسودونه ما يحصل بالتعليم والانفاق والحيد فى الأصل إنما يقع لما يحصل للغير من السؤدد والرياسة وإلا فالعامل لا يحسد فى العادة ولو كان تتعمه بالأكل والشرب والنكاح أكثر من غيره بخلاف هذين النوعين فانهما يحسدان كثيرا ولهذا يوجد بين أهل العلم لهم أتباع من الحسد مالا يوجد فيمن ليس كذلك وكذلك فيمن له اتباع بسبب إنفاق ماله فهذا ينفع الناس بقوت القلوب وهذا ينفعهم بقوت الأبدان والناس كلهم محتاجون إلى ما يصلحهم من هذا وهذا ولهذا ضرب الله سبحانه مثلين مثلا بهذا ومثلا بهذا فقال {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} {75} وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} {76} النحل 75-76 والمثلان ضربهما الله سبحانه لنفسه المقدسة ولما يعبد من دونه فان الأوثان لا تقدر لا على عمل ينفع ولا على كلام ينفع فاذا قدر عبد مملوك لا يقدر على شئ وأخر قد رزقه الله رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستوى هذا المملوك العاجز عن الاحسان وهذا القادر على الاحسان المحسن إلى الناس سرا وجهرا وهو سبحانه قادر على الاحسان إلى عباده وهو محسن إليهم دائما فكيف يشبهه به العاجز المملوك الذى لا يقدر على شئ حتى يشرك به معه وهذا مثل الذى اعطاه الله مالا فهو ينفق منه آناء الليل والنهار و المثل الثانى إذا قدر شخصان أحدهما ابكم لا يعقل ولا يتكلم ولا يقدر على شئ وهو مع هذا كل على مولاة اينما يوجهه لا يأت بخير فليس فيه من نفع قط بل هو كل على من يتولى أمره وأخر عالم عادل يأمر بالعدل ويعمل بالعدل فهو على صراط مستقيم وهذا نظير الذى اعطاه الله الحكمة فهو يعمل بها ويعلمها الناس وقد ضرب ذلك مثلا لنفسه فانه سبحانه عالم عادل قادر يأمر بالعدل وهو قائم بالقسط على صراط مستقيم كما قال تعالى {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} { آل عمران 18 } وقال هود {إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} {هود 56} ولهذا كان الناس يعظمون دار العباس كان عبد الله يعلم الناس واخوه يطعم الناس فكانوا يعظمون على ذلك ورأى معاوية الناس يسألون ابن عمر عن المناسك وهو يفتيهم فقال هذا والله الشرف او نحو ذلك هذا وعمر بن الخطاب رضى الله عنه نafs ابا بكر رضى الله عنه الانفاق كما ثبت فى الصحيح عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال امرنا رسول الله ان نتصدق فوافق ذلك مالا عندي فقلت اليوم اسبق ابا بكر ان سبقته يوما قال فجئت بنصف مالى قال فقال لى رسول الله ما ابقيت لاهلك قلت مثله واتى ابو بكر رضى الله عنه بكل ما عنده فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ابقيت لاهلك قال ابقيت لهم الله ورسوله فقلت لا اسابقك الى شئ ابدا فكان ما فعله عمر من المنافسة والغبطة المباحة لكن حال الصديق رضى الله عنه افضل منه انه خال من المنافسة مطلقا لا ينظر الى حال غيره وكذلك موسى فى حديث المعراج حصل له منافسة وغبطة للنبي حتى بكى لما تجاوزه النبي صلى الله عليه وسلم فقيل له ما يبكيك فقال ابكى لان غلاما بعث بعدى يدخل الجنة من امته اكثر ممن يدخلها من امتى اخرجاه فى الصحيحين وروى فى بعض الالفاظ المروية غير الصحيح مررنا على رجل وهو يقول ويرفع صوته اكرمه وفضلته قال فرفعناه إليه فسلمنا عليه فرد السلام فقال من هذا معك يا جبريل قال هذا احمد قال مرحبا بالنبي الامى الذى بلغ رسالة ربه ونصح لامته قال ثم اندفعنا فقلت من هذا يا جبريل قال هذا موسى ابن عمران قلت ومن يعاتب قال يعاتب ربه فيك قلت ويرفع صوته على ربه قال إن الله عز وجل قد عرف صدقه وعمر رضى الله عنه كان مشبها بموسى ونبينا

حاله افضل من حال موسى فانه لم يكن عنده شيء من ذلك وكذلك كان في الصحابة ابو عبيدة بن الجراح ونحوه كانوا سالمين من جميع هذه الامور فكانوا ارفع درجة ممن عنده منافسة وغبطة وإن كان ذلك مباحا ولهذا استحق أبو عبيدة رضي الله عنه أن يكون امين هذه الأمة فإن المؤمن إذا لم يكن في نفسه مزاحمة على شيء مما أوتمن عليه كان احق بالامانة ممن يخاف مزاحمته ولهذا يؤتمن على النساء والصبيان الخصيان ويؤتمن على الولاية الصغرى من يعرف انه لا يزاحم على الكبرى ويؤتمن على المال من يعرف انه ليس له غرض في اخذ شيء منه وإذا أوتمن من في نفسه خيانة شبه بالذئب المؤمن على الغنم فلا يقدر ان يؤدي الامانة في ذلك لما في نفسه من الطلب لما أوتمن عليه وفي الحديث الذي رواه الامام احمد في مسنده عن أنس رضاه الله عنه قال كنا يوما جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من اهل الجنة قال فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوء قد علق نعليه في يده الشمال فسلم فلما كان الغد قال النبي مثل ذلك فطلع ذلك الرجل على مثل حاله فلما كان اليوم الثالث قال النبي صلى الله عليه وسلم مقاتله فطلع ذلك الرجل على مثل حاله فلما قام النبي صلى الله عليه وسلم اتبعه عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه فقال انى لاحيت ابى فاقسمت ان لا ادخل عليه ثلاثا فان رأيت ان تؤينى اليك حتى تمضى الثلاث فعلت قال نعم قال أنس رضي الله عنه فكان عبد الله يحدث انه بات عنده ثلاث ليال فلم يره يقوم من الليل شيئا غير انه إذا تعار انقلب على فراشه ذكر الله عز وجل وكبر حتى يقوم الى صلاة الفجر فقال عبد الله غير انى لم اسمعه يقول إلا خيرا فلما فرغنا من الثلاث وكدت ان احقر عمله قلت يا عبد الله لم يكن بينى وبين والدى غضب ولا هجرة ولكن سمعت رسول الله يقول ثلاث مرات يطلع عليكم رجل من اهل الجنة فطلعت انت الثلاث مرات فأردت أن أوى اليك لأنظر ما عملك فاقتدى بذلك فلم أرك تعمل كثير عمل فما الذى بلغ بك ما قال رسول الله قال ما هو إلا ما رأيت غير اننى لا أجد على احد من المسلمين في نفسى غشا ولا حسدا على خير أعطاه الله إياه قال عبد الله هذه التى بلغت بك وهى التى لا نطبق فقول عبد الله بن عمرو له هذه التى بلغت بك وهى التى لانطبق يشير إلى خلوه وسلامته من جميع أنواع الحسد وبهذا أثنى الله تعالى على الأنصار فقال { وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤِثِّرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَأَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ } الحشر 9 اى مما اوتى اخوانهم المهاجرون قال المفسرون لا يجدون فى صدرهم حاجة اى حسدا وغيظا مما اوتى المهاجرون ثم قال بعضهم من مال الفئ وقيل من الفضل والتقدم فهم لا يجدون حاجة مما اوتوا من المال ولا من الجاه والحسد يقع على هذا وكان بين الأوس والخزرج منافسة على الدين فكان هؤلاء إذا فعلوا ما يفضلون به عند الله ورسوله احب الآخرون ان يفعلوا نظير ذلك فهو منافسة فيما يقربهم إلى الله كما قال { وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ } المطففين 26 واما الحسد المذموم كله فقد قال تعالى فى حق اليهود { وَكَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ } البقرة 109 يودون اى يتمنون ارتدادكم حسدا فجعل الحسد هو الموجب لذلك الود من بعد ما تبين لهم الحق لأنهم لما رأوا انكم قد حصل لكم من النعمة ما حصل بل ما لم يحصل لهم مثله حسدوكم وكذلك فى الآية الاخرى { أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا } 54 { فَمِنْهُمْ مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا } النساء 54- 55 وقال تعالى { قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ } 1 { مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ } 2 { وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ } 3 { وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ } 4 { وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ } 5 { الفلق 1-5 وقد ذكر طائفة من المفسرين انها نزلت بسبب حسد اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم حتى سحره سحره ليبيد بن الاعصم اليهودى فالحاسد المبغض للنعمة على من انعم الله عليه بها ظالم معتد والكاره لتفضيله المحب لممائلته منهى عن ذلك إلا فيما يقربه الى الله فاذا احب ان

يعطى مثل ما اعطى مما يقربه الى الله فهذا لا بأس به واعراض قلبه عن هذا بحيث لا ينظر الى حال الغير افضل ثم هذا الحسد ان عمل بموجبه صاحب كان ظالما معتديا مستحقا للعقوبة الا ان يتوب وكان المحسود مظلوما مأمورا بالصبر والتقوى فيصبر على اذى الحاسد ويعفو ويصفح عنه كما قال تعالى {وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } البقرة 109 وقد ابتلى يوسف بحسد اخوته له حيث قالوا { **إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ } يوسف 8** فحسدوهما على تفضيل الأب لهما ولهذا قال يعقوب ليوسف { **لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ } يوسف 5** ثم إنهم ظلموه بتكلمهم فى قتله وإلقائه فى الجب وبيعه رقيقا لمن ذهب به إلى بلاد الكفر فصار مملوكا لقوم كفار ثم إن يوسف ابتلى بعد ان ظلم بمن يدعوه إلى الفاحشة ويراود عليها ويستعين عليه بمن يعينه على ذلك فاستعصم واختار السجن على الفاحشة وأثر عذاب الدنيا على سخط الله فكان مظلوما من جهة من احبه لهواه وعرضه الفاسد فهذه المحبة احبته لهوى محبوبها شفاؤها وشفائها إن وافقها واولئك المبغضون ابغضوه بغضة اوجبت ان يصير ملقى فى الجب ثم اسيرا مملوكا بغير إختياره فأولئك أخرجوه من إطلاق الحرية إلى رق العبودية الباطلة بغير إختيار وهذه الجأته إلى ان اختار ان يكون محبوسا مسجوناً باختياره فكانت هذه أعظم في محنته وكان صبره هنا صبيرا إختياريا إقترن به التقوى بخلاف صبره على ظلمهم فان ذلك كان من باب المصائب التي من لم يصبر عليها صبر الكرام سلا سلو البهائم والصبر الثانى افضل الصبرين ولهذا قال { **إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } يوسف 90** وهكذا إذا اودى المؤمن على إيمانه وطلب منه الكفر أو الفسوق أو العصيان وإن لم يفعل أودى وعوقب فاختر الأذى والعقوبة على فراق دنيه اما الحبس واما الخروج من بلده كما جرى للمهاجرين حيث اختاروا فراق الأوطان على فراق الدين وكانوا يعذبون ويؤذون وقد أودى النبي بأنواع من الأذى فكان يصبر عليها صبيرا إختياريا فانه إنما يؤذى لئلا يفعل ما يفعله بخلاف المصائب التي تجرى بلا إختيار العبد كالمرض وموت العزيز عليه واخذ اللصوص ماله فان تلك إنما يثاب على الصبر عليها لا على نفس ما يحدث من المصيبة لكن المصيبة يكفر بها خطاياها فان الثواب إنما يكون على الأعمال الاختيارية وما يتولد عنها والذين يؤذون على الايمان وطاعة الله ورسوله ويحدث لهم بسبب ذلك حرج أو مرض أو حبس أو فراق وطن وذهاب مال واهل او ضرب او شتم او نقص رياسة ومال هم فى ذلك على طريقة الانبياء واتباعهم كالمهاجرين الاولين فهؤلاء يثابون على ما يؤذون به ويكتب لهم به عمل صالح كما يثاب المجاهد على ما يصيبه من الجوع والعطش والتعب وعلى غيظه الكفار وان كانت هذه الآثار ليست عملا فعله يقوم به لكنها متسببة عن فعله الاختيارى وهى التي يقال لها متولدة وقد اختلف الناس هل يقال انها فعل لفاعل السبب او لله او لفاعل لها والصحيح انها مشتركة بين فاعل السبب وسائر الاسباب ولهذا كتب له بها عمل صالح والمقصود ان الحسد مرض من امراض النفس وهو مرض غالب فلا يخلص منه الا قليل من الناس ولهذا يقال ما خلا و ان الحسد مرض من امراض النفس وهو مرض غالب فلا يخلص منه الا قليل من الناس ولهذا يقال ما خلا جسد من حسد لكن اللئيم بيديه والكريم يخفيه وقد قيل للحسن البصرى ايحسد المؤمن فقال ما انساك اخوة يوسف لا ابالك ولكن عمه فى صدرك فانه لا يضرك مالم تعذبه يدا ولسانا فمن وجد فى نفسه حسدا لغيره فعليه ان يستعمل معه التقوى والصبر فيكره ذلك من نفسه وكثير من الناس الذين عندهم دين لا يعتدون على المحسود فلا يعينون من ظلمه ولكنهم ايضا لا يقومون بما يجب من حقه بل اذا ذمه احد لم يوافقوه على ذمه ولا يذكرن محامده وكذلك لو مدحه احد لسكتوا وهؤلاء مدينون فى ترك

المأمور في حقه مفرطون في ذلك لا معتدون عليه وجزاؤهم انهم يبخسون حقوقهم فلا ينصفون ايضا في مواضع ولا ينصرون على من ظلمهم كما لم ينصروا هذا المحسود واما من اعتدى بقول او فعل فذلك يعاقب ومن اتقى الله وصبر فلم يدخل في الظالمين نفعه الله بتقواه كما جرى لزينب بنت جحش رضي الله عنها فانها كانت هي التي تسامى عائشة من ازواج النبي وحسد النساء بعضهن لبعض كثير غالب لا سيما المتزوجات بزواج واحد فان المرأة تغار على زوجها لحظها منه فانه بسبب المشاركة يفوت بعض حظها وهكذا الحسد يقع كثيرا بين المتشاركين في رئاسة او مال اذا اخذ بعضهم قسطا من ذلك وفات الآخر ويكون بين النظراء لكرهة احدهما ان يفضل الآخر عليه كحسد اخوة يوسف وكحسد ابني آدم احدهما لآخيه فانه حسده لكون ان الله تقبل قربانه ولم يتقبل قربان هذا فحسده على ما فضله الله من الايمان والتقوى كحسد اليهود للمسلمين وقتله على ذلك ولهذا قيل اول ذنب عصى الله به ثلاثة الحرص والكبر والحسد فالحرص من آدم والكبر من ابليس والحسد من قابيل حيث قتل هابيل وفي الحديث ثلاث لا ينجو منهم احد الحسد والظن والطيرة وسأحدثكم بما يخرج من ذلك اذا حسدت فلا تبغض واذا ظننت فلا تحقق واذا تطيرت وامض رواه ابن ابي الدنيا من حديث ابى هريرة وفي السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم دب اليكم داء الامم قبلكم الحسد والبغضاء وهي الحالقة لا اقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين فسماه داء كما سمي البخل داء في قوله وأي داء ادوا من البخل فعلم ان هذا مرض وقد جاء في حديث آخر اعوذ بك من منكرات الاخلاق والاهواء والادواء فعطف الأدواء على الاخلاق والاهواء فإن الخلق ما صار عادة للنفس وسجية قال تعالى {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} القلم 4 قال ابن عباس وابن عيينة واحمد بن حنبل رضي الله عنهم على دين عظيم وفي لفظ عن ابن عباس على دين الاسلام وكذلك قالت عائشة رضي الله عنها كان خلقه القرآن وكذلك قال الحسن البصري أدب القرآن هو الخلق العظيم واما الهوى فقد يكون عارضا والداء هو المرض وهو تالم القلب والفساد فيه وقرن في الحديث الاول الحسد بالبغضاء لان الحاسد يكوه او لا فضل الله على ذلك التغير ثم ينتقل الى بغضه فان بعض اللازم يقتضى بغض الملزوم فان نعمة الله اذا كانت لازمة وهو يحب زوالها وهي لاتزول الا بزواله ابغضه واحب عدمه والحسد يوجب البغى كما اخبر الله تعالى عن قبلنا انهم اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم فلم يكن اختلافهم لعدم العلم بل علموا الحق ولكن بغى بعضهم على بعض كما يبغى الحاسد على المحسود وفي الصحيحين عن انس بن مالك رضي الله عنه ان النبي قال لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله اخوانا ولا يحل لمسلم ان يهجر اخاه فوق ثلاث ليال يلتقيان فيصد هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام وقد قال في الحديث المتفق على صحته من رواية انس ايضا والذي نفسى بيده لا يؤمن احدكم حتى يحب لآخيه ما يحب لنفسه وقد قال تعالى {وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لِيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا} {72} وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا} {73} النساء 72-73 فهؤلاء المبطئون لم يحبوا لأخوانهم المؤمنين ما يحبون لأنفسهم بل ان اصابتهم مصيبة فرحوا باختصاصهم وان اصابتهم نعمة لم يفرحوا لهم بها بل أحبوا ان يكون لهم منها حظ فهم لا يفرحون الا بديننا تحصل لهم او شر دنيوى ينصرف عنهم إذا كانوا لا يحبون الله ورسوله والدار الآخرة ولو كانوا كذلك لا حبوا اخوانهم واحبوا ما وصل اليهم من فضله وتألما بما يصيبهم من المصيبة ومن لم يسره ما يسر المؤمنين ويسوءه ما يسوء المؤمنين فليس منهم ففي الصحيحين عن عامر قال سمعت النعمان بن بشر يخطب ويقول سمعت رسول الله يقول مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه شئ تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر وفي الصحيحين عن ابى موسى الأشعري رضي

الله عنه قال قال رسول الله المؤمن للمؤمن كالبنيان يبشده بعضه بعضا وشبك بين اصابعه والشح مرض والبخل مرض والحسد شر من البخل كما في الحديث الذي رواه ابودواد عن النبي أنه قال الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار وذلك ان البخل يمنع نفسه والحسود يكره نعمة الله على عباده وقد يكون في الرجل اعطاء لمن يعينه على اغراضه وحسد لنظرائه وقد يكون فيه بخل بلا حسد لغيره والشح اصل ذلك وقال تعالى { وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } الحشر 9 وفي الصحيحين عن النبي صلوات الله عليه وسلم انه قال إياكم والشح فانه اهلك من كان قبلكم امرهم بالبخل فبخلوا وامرهم بالظلم فظلموا وامرهم بالقطيعة فقطعوا وكان عبد الرحمن بن عوف يكثر من الدعاء في طوافه يقول اللهم قنى شح نفسي فقال له رجل ما اكثر ما تدعو بهذا فقال إذا وقيت شح نفسي وقيت الشح والظلم والقطيعة والحسد يوجب الظلم فصل بالبخل والحسد مرض يوجب بغض النفس لما ينفعها بل وحبها لما يضرها ولهذا يقرن الحسد بالحقد والغضب¹

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 111- 121

~ §§ يوسف (مكية) 111 §§ ~

يوسف 1-3

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ {1} إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ {2} نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنَّ الْغَافِلِينَ {3}

فواتح السور

قال تعالى {الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ} يوسف 1 ليس في القرآن من حروف الهجاء التي هي أسماء الحروف إلا نصفها وهي أربعة عشر حرفاً وهي نصف أجناس الحروف نصف المجهورة والمهموسة والمستعلية والمطبقة والشديدة والرخوة وغير ذلك من أجناس الحروف وهو أشرف النصفين والنصف الآخر لا يوجد في القرآن إلا في ضمن الأسماء أو الأفعال أو حروف المعاني التي ليست باسم ولا فعل فلا يجوز أن نعتقد أن حروف المعجم بأسمائها جميعها موجودة في القرآن لكن نفس حروف المعجم التي هي أبعاض الكلام موجودة في القرآن بل قد اجتمعت في آيتين إحداهما في آل عمران والثانية في سورة الفتح {ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً} آل عمران 154 الآية و{مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ} الفتح 29 الآية¹

أن المتشابه الحروف المقطعة في أوائل السور يروى هذا عن ابن عباس و على هذا القول فالحروف المقطعة ليست كلاماً تاماً من الجمل الإسمية والفعلية وإنما هي أسماء موقوفة ولهذا لم تعرب فإن الأعراب إنما يكون بعد العقد والتركيب وإنما نطق بها موقوفة كما يقال أ ب ت ث و لهذا تكتب بصورة الحرف لا بصورة الإسم الذي ينطق به فإنها في النطق أسماء ولهذا لما سأل الخليل أصحابه عن النطق بالزاي من زيد قالوا زاً قال نطقتم بالإسم وإنما النطق بالحرف زه فهي في اللفظ أسماء وفي الخط حروف مقطعة ألم لا تكتب ألف لام ميم كما يكتب قول النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ القرآن فأعربه فله بكل حرف عشر حسنات أما إنني لا أقول ألم حرف ولكن ألف حرف و لام حرف و ميم حرف و الح لغة الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه يتناول الذي يسميه النحاة أسماً وفعلًا وحرفًا ولهذا قال سيبويه في تقسيم الكلام إسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس بإسم ولا فعل فإنه لما كان معروفًا من اللغة أن الإسم حرف والفعل حرف خص هذا القسم الثالث الذي يطلق النحاة عليه الحرف أنه جاء لمعنى ليس بإسم ولا فعل وهذه حروف المعاني التي يتألف منها الكلام و أما حروف الهجاء فتلك إنما تكتب على صورة الحرف المجرد وينطق بها غير معربة ولا يقال فيها معرب ولا مبنى لأن ذلك إنما يقال في المؤلف فإذا كان على هذا القول كل ما سوى هذه محكم حصل المقصود فإنه ليس المقصود إلا معرفة كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم ثم يقال هذه الحروف قد تكلم في معناها أكثر الناس فإن كان معناها معروفًا فقد عرف معنى المتشابه وإن لم يكن معروفًا وهي

¹ - مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 448-449

المتشابه كان ما سواها معلوم المعنى و هذا المطلوب و أيضا فإن الله تعالى قال { مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ } آل عمران 7 و هذه الحروف ليست آيات عند جمهور العلماء و إنما يعدها آيات الكوفيون و سبب نزول هذه الآية الصحيح يدل على أن غيرها أيضا متشابه و لكن هذا القول يوافق ما نقل عن اليهود من طلب علم المدد من حروف الهجاء¹

و أما جمهور الأمة و أهل الحديث و الفقه و التصوف فعلى ما جاءت به الرسل و ما جاء عنهم من الكتب و الآثار من العلم و هم المتبعون للرسالة اتباعا محضا لم يشوبوه بما يخالفه من مقالة الصابئين و هو أن القرآن كلام الله لا يجعلون بعضه كلام الله و بعضه ليس كلام الله و القرآن هو القرآن الذى يعلم المسلمون أنه القرآن حروفه و معانيه و الأمر و النهى هو اللفظ و المعنى جميعا و لهذا كان الفقهاء المصنفون فى أصول الفقه من جميع الطوائف الحنفية و المالكية و الشافعية و الحنبلية إذا لم يخرجوا عن مذاهب الأئمة و الفقهاء إذا تكلموا فى الأمر و النهى ذكروا ذلك و خالفوا من قال إن الأمر هو المعنى المجرد و يعلم أهل الآثار النبوية أهل السنة و الحديث عامة المسلمين الذين هم جماهير أهل القبلة أن قوله تعالى { الم { 1 } ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ { 2 } } البقرة 1-2 و نحو ذلك هو كلام الله لا كلام غيره و كلام الله هو ما تكلم به لا ما خلقه فى غيره و لم يتكلم به²

القرآن العربى كلام الله

و قال تعالى { الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ { 1 } إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ { 2 } } يوسف 1-2 و الله سبحانه تكلم بالقرآن العربى و بالتوراة العبرية فالقرآن العربى كلام الله كما قال تعالى { فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ { النحل 98 } إِلَى قَوْلِهِ { لِسَانَ عَرَبِيٍّ مُبِينٌ { 103 } } النحل 103 فقد بين سبحانه أن القرآن الذى يبذل منه آية نزله روح القدس و هو جبريل و هو الروح الأمين كما ذكر ذلك فى موضع آخر من الله بالحق و بين بعد ذلك أن من الكفار من قال { إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ { 103 } } النحل 103 كما قال بعض المشركين يعلمه رجل بمكة أعجمى فقال تعالى { لِسَانَ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ { 103 } } النحل 103 أى الذى يضيفون إليه هذا التعليم أعجمى { وَهَذَا لِسَانَ عَرَبِيٍّ مُبِينٌ { 103 } } النحل 103 ففى هذا ما يدل على أن الآيات التى هى لسان عربى مبين نزلها روح القدس من الله بالحق كما قال فى الآية الأخرى { أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُفْتَرِينَ { الأنعام 114 } و الكتاب الذى أنزل مفصلا هو القرآن العربى باتفاق الناس و قد أخبر أن الذين آتاهم الكتاب يعلمون أنه منزل من الله بالحق و العلم لا يكون إلا حقا فقال { يَعْلَمُونَ { الأنعام 114 } ولم يقل يقولون فان العلم لا يكون إلا حقا بخلاف القول و ذكر علمهم ذكر مستشهد به³

¹ - مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 420-421 و الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 411 و مجموع الفتاوى ج: 12 ص:

103

² - مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 36

³ مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 38-39

وقال تعالى {الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ} {1} إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ {2} يوسف 1-2
 فهذا يتضمن إنعام الله على عباده لأن اللسان العربي أكمل الألسنة وأحسنها بيانا للمعاني فنزول
 الكتاب به أعظم نعمة على الخلق من نزوله بغيره وهو إنما خوطب به أولا العرب ليفهموه ثم من
 يعلم لغتهم يفهمه كما فهموه ثم من لم يعلم لغتهم ترجمه له من عرف لغتهم وكان إقامة الحجة به على
 العرب أولا والإنعام به عليهم أولا لمعرفتهم بمعانيه قبل أن يعرفه غيرهم¹

النبى بين لأصحابه معانى القرآن كما بين لهم ألفاظه

يجب أن يعلم أن النبى بين لأصحابه معانى القرآن كما بين لهم ألفاظه فقوله تعالى {لَتُبَيِّنَنَّ
 لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ} النحل 44 يتناول هذا وهذا وقد قال أبو عبد الرحمن السلمي حدثنا الذين كانوا
 يقرئونا القرآن كعثمان بن عفان وعبدالله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبى صلى
 الله عليه وسلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل قالوا فتعلمنا القرآن
 والعلم والعمل جميعا ولهذا كانوا يبقون مدة فى حفظ السورة وقال أنس كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل
 عمران جل فى أعيننا وأقام ابن عمر على حفظ البقرة عدة سنين قيل ثمان سنين ذكره مالك وذلك
 أن الله تعالى قال {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ} ص 29 وقال {أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ
 الْقُرْآنَ} النساء 82 وقال {أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ} المؤمنون 68 وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن
 وكذلك قال تعالى {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} يوسف 2 وعقل الكلام متضمن لفهمه
 ومن المعلوم أن كل كلام فالمقصود منه فهم معانيه دون مجرد الفاظه فالقرآن أولى بذلك وايضا
 فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتابا فى فن من العلم كالطب والحساب ولا يستشرحوه فكيف بكلام الله الذى
 هو عصمتهم وبه نجاتهم وسعادتهم وقيام دينهم وديناهم ولهذا كان النزاع بين الصحابة فى تفسير
 القرآن قليلا جدا وهو وان كان فى التابعين أكثر منه فى الصحابة فهو قليل بالنسبة الى من بعدهم
 وكلما كان العصر اشرف كان الاجتماع والاتلاف والعلم والبيان فيه أكثر ومن التابعين من تلقى
 جميع التفسير عن الصحابة كما قال مجاهد عرضت المصحف على ابن عباس أوقفه عند كل آية منه
 وأسأله عنها ولهذا قال الثورى اذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به ولهذا يعتمد على تفسيره
 الشافعى والبخارى وغيرهما من أهل العلم وكذلك الامام أحمد وغيره ممن صنف فى التفسير يكرر
 الطرق عن مجاهد أكثر من غيره والمقصود أن التابعين تلقوا التفسير عن الصحابة كما تلقوا
 عنهم علم السنة وان كانوا قد يتكلمون فى بعض ذلك بالاستنباط والاستدلال كما يتكلمون فى بعض
 السنن بالاستنباط والاستدلال²

¹الجواب الصحيح ج: 2 ص: 69

²مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 332-333

العقل يسمى به العلم الذي يعمل به والعمل بالعلم

ان اسم العقل عند المسلمين وجمهور العقلاء إنما هو صفة وهو الذي يسمى عرضاً قائماً بالعاقل وعلى هذا دل القرآن في قوله تعالى لعلمك تعقلون وقوله {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا} {الحج46} وقوله {قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ} آل عمران118 ونحو ذلك مما يدل على ان العقل مصدر عقل يعقل عقلاً وإذا كان كذلك فالعقل لا يسمى به مجرد العلم الذي لم يعمل به صاحبه ولا العمل بلا علم بل إنما يسمى به العلم الذي يعمل به والعمل بالعلم ولهذا قال أهل النار {لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ} {الملك10} وقال تعالى {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا} {الحج46} والعقل المشروط في التكليف لا بد أن يكون علوماً يميز بها الإنسان بين ما ينفعه وما يضره فالمجنون الذي لا يميز بين الدراهم والفلوس ولا بين أيام الأسبوع ولا يفقه ما يقال له من الكلام ليس بعاقل أما من فهم الكلام ويميز بين ما ينفعه وما يضره فهو عاقل ثم من الناس من يقول العقل هو علوم ضرورية ومنهم من يقول العقل هو العمل بموجب تلك العلوم والصحيح أن اسم العقل يتناول هذا وهذا وقد يراد بالعقل نفس الغريزة التي في الإنسان التي بها يعلم ويميز ويقصد المنافع دون المضار كما قال أحمد بن حنبل والحارث المحاسبى وغيرهما ان العقل غريزة وهذه الغريزة ثابتة عند جمهور العقلاء كما أن في العين قوة بها يبصر وفي اللسان قوة بها يذوق وفي الجلد قوة بها يلمس عند جمهور العقلاء¹

الناس يدركون بعقولهم الامور الدنيا فيعرفون ما يجلب لهم منفعة في الدنيا وما يجلب لهم مضرة وهذا من العقل الذي ميز به الانسان فانه يدرك من عواقب الافعال ما لا يدركه الحس ولفظ العقل في القران يتضمن ما يجلب به المنفعة وما يدفع به المضرة²

تدبر القرآن وفقهه وعقله

و قال تعالى {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} {محمد24} وقال {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} {النساء82} وقال تعالى {أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ} {المؤمنون68} وقال تعالى {فَبَشِّرْ عِبَادَ {17} الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ} {الزمر17-18} وقال {وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا} {الفرقان73} وقال {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} {يوسف2} وقال {كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} {هود1} وقال {كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} {3} {بَشِيرًا وَنَذِيرًا} {4} {فُصِّلَتْ 3-4} إلى قوله {وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ} {فُصِّلَتْ 5} فإذا كان كثير من القرآن أو أكثره مما لا يفهم احد معناه لم يكن المتدبر المعقول إلا

¹مجموع الفتاوى ج: 9 ص: 286

²مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 311

بعضه و هذا خلاف ما دل عليه القرآن لا سيما عامة ما كان المشركون ينكرونه كآيات الخبرية و الأخبار عن اليوم الآخر أو الجنة و النار و عن نفي الشركاء و الأولاد عن الله و تسميته بالرحمن فكان عامة إنكارهم لما يخبرهم به من صفات الله نفيًا و إثباتًا و ما يخبرهم به عن اليوم الآخر و قد ذم الله من لا يعقل ذلك و لا يفقهه و لا يتدبره فعلم أن الله يأمر بعقل ذلك و تدبره و قد قال تعالى { وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ } {42} وَمِنْهُمْ مَّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ } {43} يونس 42-43 و قال { وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا } {44} وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا } {46} الإسراء 45-46 الآية¹

أن نفي علم التأويل ليس نفيًا لعلم المعنى ونزيده تقريرًا أن الله سبحانه يقول { وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } {27} قرآنًا عربيًّا غير ذي عوج لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } {28} الزمر 27-28 وقال تعالى { **الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ** } {1} **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** } {2} **يوسف 1-2** فأخبر أنه أنزله ليعقلوه وأنه طلب تذكرهم وقال أيضا { وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لَضَرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } {الحشر 21} فحضر على تدبره وفقهه وعقله والتذكر به والتفكير فيه ولم يستثن من ذلك شيئًا بل نصوص متعددة تصرح بالعموم فيه مثل قوله { أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا } {محمد 24} وقوله { أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا } {النساء 82} ومعلوم أن نفي الاختلاف عنه لا يكون إلا بتدبره كله والافتدبر بعضه لا يوجب الحكم بنفي مخالفه ما لم يتدبر لما تدبر²

الذي يسمع ما جاءت به الرسل سمعا يعقل به ما قالوه ينجو

قال تعالى { فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى } طه 44 أن التذكر سبب الخشية و الخشية حاصلة عن التذكر فذكر التذكر الذي هو السبب و ذكر الخشية التي هي النتيجة و إن كان أحدهما مستلزمًا للآخر كما قال { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ } {37} ق 37 و كما قال أهل النار { لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ } {الملك 10} و قال { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ } {الحج 46} فكل من النوعين يحصل به النجاة لأنه مستلزم للآخر فالذي يسمع ما جاءت به الرسل سمعا يعقل به ما قالوه ينجو و إلا فالسمع بلا عقل لا ينفعه كما قال { وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ } {محمد 16} و قال { وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ

¹مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 430

²مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 306

الصُّمُّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ { يونس 42 } وقال { **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** } يوسف 2 و كذلك العقل بلا سمع لما جاءت به الرسل لا ينفع و قد اعترف أهل النار بمجيء الرسل فقالوا { قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ } الملك 9 و كذلك المعتبرين بآثار المعذبين الذين قال فيهم { **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا** } الحج 46 إنما ينتفعون إذا سمعوا أخبار المعذبين المكذبين للرسل و الناجين الذين صدقوهم فسمعوا قول الرسل و صدقوهم¹

مدح الله وأثنى على من كان له عقل

ومن كان مسلوب العقل أو مجنوناً فغايبته أن يكون القلم قد رفع عنه فليس عليه عقاب ولا يصح إيمانه ولا صلاته ولا صيامه ولا شيء من أعماله فإن الأعمال كلها لا تقبل إلا مع العقل فمن لا عقل له لا يصح من عباداته ولا فرائضه ولا نوافله ومن لا فريضة له ولا نافلة ليس من أولياء الله ولهذا قال تعالى { **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى** } طه 54 أي العقول وقال تعالى { **هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حُجْرٍ** } الفجر 5 أي لذي عقل وقال تعالى { **وَأَتَقُونَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ** } البقرة 197 وقال { **إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ** } الأنفال 22 وقال تعالى { **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** } يوسف 2 فإنما مدح الله وأثنى على من كان له عقل فأما من لا يعقل فإن الله لم يحمده ولم يثن عليه ولم يذكره بخير قط بل قال تعالى عن أهل النار { **وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ** } الملك 10 وقال تعالى { **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ** } الأعراف 179 وقال { **أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا** } الفرقان 44 فمن لا عقل له لا يصح إيمانه ولا فرضه ولا نفعه²

تعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً

قال أبو عبدالرحمن السلمى لقد حدثنا الذين كانوا يقرؤوننا القرآن كعثمان بن عفان وعبدالله بن مسعود وغيرهما انهم كانوا اذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل قالوا فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً وقد قام عبدالله بن عمر وهو من أصاغر الصحابة في تعلم البقرة ثمانين سنين وانما ذلك لأجل الفهم والمعرفة وهذا معلوم من وجوه أحدها أن العادة المطردة التي جبل الله عليها بنى آدم توجب اعتناءهم بالقرآن المنزل عليهم لفظاً ومعنى بل أن يكون اعتناءهم بالمعنى أوكد فانه قد علم أنه من قرأ كتاباً في الطب أو الحساب أو النحو أو الفقه أو غير ذلك فانه لا بد أن يكون راغباً في فهمه وتصور معانيه فكيف بمن قرأ كتاب الله تعالى المنزل اليهم الذي به هداهم الله وبه عرفهم الحق والباطل والخير والشر والهدى والضلال والرشاد والغي فمن المعلوم أن رغبتهم في فهمه وتصور معانيه أعظم

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 185

²مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 437 و الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 266

الرغبات بل اذا سمع المتعلم من العالم حديثا فانه يرغب في فهمه فكيف بمن يسمعون كلام الله من المبلغ عنه بل ومن المعلوم أن رغبة الرسول في تعريفهم معاني القرآن أعظم من رغبته في تعريفهم حروفه فان معرفة الحروف بدون المعاني لا تحصل المقصود اذا اللفظ انما يراد للمعنى الوجه الثانى أن الله سبحانه وتعالى قد حضهم على تدبره وتعقله واتباعه في غير موضع كما قال تعالى { كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ } ص29 وقال تعالى { أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا } محمد24 وقال تعالى { أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ } المؤمنون68 وقال تعالى { أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا } النساء82 فاذا كان قد حض الكفار والمنافقين على تدبره علم أن معانيه مما يمكن الكفار والمنافقين فهمها ومعرفتها فكيف لا يكون ذلك ممكنا للمؤمنين وهذا يبين أن معانيه كانت معروفة بينة لهم الوجه الثالث أنه قال تعالى { إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } يوسف2 وقال تعالى { إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } الزخرف3 فبين أنه أنزله عربيا لأن يعقلوا والعقل لا يكون الا مع العلم بمعانيه¹

معرفة ما جاء به الرسول و ما أراده بألفاظ القرآن و الحديث هو أصل العلم و الإيمان

وقال تعالى { الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ } {1} { إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } {2} يوسف1-2 أن معرفة ما جاء به الرسول و ما أراده بألفاظ القرآن و الحديث هو أصل العلم و الإيمان و السعادة و النجاة ثم معرفة ما قال الناس في هذا الباب لينظر المعاني الموافقة للرسول و المعاني المخالفة لها و الألفاظ نوعان نوع يوجد في كلام الله و رسوله و نوع لا يوجد في كلام الله و رسوله فيعرف معنى الأول و يجعل ذلك المعنى هو الأصل و يعرف ما يعنيه الناس بالثانى و يرد الى الأول هذا طريق أهل الهدى و السنة و طريق أهل الضلال و البدع بالعكس يجعلون الألفاظ التى أحدثوها و معانيها هي الأصل و يجعلون ما قاله الله و رسوله تبعا لهم فيردونها بالتأويل و التحريف إلى معانيهم و يقولون نحن نفسر القرآن بالعقل و اللغة يعنون أنهم يعتقدون معنى بعقلهم و رأيهم ثم يتأولون القرآن عليه بما يمكنهم من التأويلات و التفسيرات المتضمنة لتحريف الكلم عن مواضعه و لهذا قال الإمام أحمد أكثر ما يخطئ الناس من جهة التأويل و القياس و قال يجتنب المتكلم في الفقه هذين الأصلين المجمل و القياس و هذه الطريق يشترك فيها جميع أهل البدع الكبار و الصغار فهي طريق الجهمية و المعتزلة و من دخل في التأويل من الفلاسفة و الباطنية الملاحدة و أما حذاق الفلاسفة فيقولون ان المراد بخطاب الرسول صلى الله عليه و سلم إنما هو أن يخيل إلى الجمهور ما ينتفعون به في مصالح دنياهم و ان لم يكن ذلك مطابقا للحق قالوا و ليس مقصود الرسول صلى الله عليه و سلم بيان الحق و تعريفه بل مقصوده أن يخيل إليهم ما يعتقدونه و يجعلون خاصة النبوة قوة التخيل فهم يقولون أن الرسول صلى الله عليه و سلم لم يبين و لم يفهم بل و لم يقصد ذلك و هم متنازعون هل كان يعلم الأمور على ما هي عليه على قولين منهم من قال كان يعلمها لكن ما كان يمكنه

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 158

بيانها و هؤلاء قد يجعلون الرسول أفضل من الفيلسوف و منهم من يقول بل ما كان يعرفها أو ما كان
حاذقا في معرفتها و انما كان يعرف الأمور العملية و هؤلاء يجعلون الفيلسوف أكمل من النبي صلى
الله عليه و سلم لأن الأمور العملية أكمل من العلمية فهؤلاء يجعلون خبر الله و خبر الرسول صلى الله
عليه و سلم إنما فيه التخييل و أولئك يقولون لم يقصد به التخييل و لكن قصد معنى يعرف بالتأويل و
كثير من أهل الكلام الجهمية يوافق أولئك على أنه ما كان يمكنه أن يبوح بالحق في باب التوحيد
فخاطب الجمهور بما يخيل لهم كما يقولون إنه لو قال إن ربكم ليس بداخل العالم و لا خارجه و لا
يشار إليه و لا هو فوق العالم و لا كذا و لا كذا لفرت قلوبهم عنه و قالوا هذا لا يعرف قالوا فخاطبهم
بالتجسيم حتى يثبت لهم ربا يعبدونه و ان كان يعرف أن التجسيم باطل و هذا يقوله طوائف من أعيان
الفقهاء المتأخرين المشهورين الذين ظنوا أن مذهب النفاة هو الصحيح و احتاجوا أن يعتذروا عما
جاء به الرسول صلى الله عليه و سلم من الإثبات كما يوجد في كلام غير واحد و تارة
يقولون إنما عدل الرسول صلى الله عليه و سلم عن بيان الحق ليجتهدوا في معرفة الحق من غير
تعريفه و يجتهدوا في تأويل ألفاظه فتعظم أجورهم على ذلك و هم اجتهدوا في عقلياتهم و تأويلاتهم
و لا يقولون إنه قصد به إفهام العامة الباطل كما يقول أولئك المتفلسفة و هذا قول أكثر المتكلمين النفاة
من الجهمية و المعتزلة و من سلك مسلكهم حتى ابن عقيل و أمثاله و أبو حامد و ابن رشد الحفيد و
أمثالهما يوجد في كلامهم المعنى الأول و أبو حامد إنما ذم التأويل في آخر عمره و صنف الجام
العوام عن علم الكلام محافظة على هذا الأصل لأنه رأى مصلحة الجمهور لا تقوم إلا بإبقاء
الظواهر على ما هي عليه و إن كان هو يرى ما ذكره في كتبه المضمون بها أن النفي هو
الثابت في نفس الأمر فلم يجعلوا مقصوده بالخطاب البيان و الهدي كما و صف الله به كتابه و نبيه
حيث قال { هُدَى لِّلْمُتَّقِينَ } البقرة 2 و قال { هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ } آل عمران 138 و قال { **إِنَّا**
أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } يوسف 2 و قال { وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ
{ العنكبوت 18 و قال { كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ } إبراهيم 1 و
أمثال ذلك و قال النبي صلى الله عليه و سلم تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها
بعدي إلا هالك و قال تعالى { وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن
سَبِيلِهِ } الأنعام 153 و قال { قَدْ جَاءَكُمْ مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ } {15} { يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ
رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ
مُّسْتَقِيمٍ } {16} المائدة 15-16 و قال { مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا
نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } الشورى 52 و قال { فَالَّذِينَ آمَنُوا
بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } الأعراف 157¹

كل ما قصه الله فهو أحسن القصص

ويوسف الصديق وإن كان أجمل من غيره من الأنبياء وفي الصحيح أنه أعطى شطر الحسن فلم
يكن بذلك أفضل من غيره بل غيره أفضل منه كإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وموسى وعيسى
ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين ويوسف وإن كانت صورته أجمل فإن إيمان هؤلاء وأعمالهم كانت
أفضل من إيمانه وعمله وهؤلاء أودوا على نفس الإيمان والدعوة إلى الله فكان الذين عادوهم معادين

¹مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 354-373

الله ورسوله وكان صبرهم صبرا على توحيد الله وعبادته وطاعته وهكذا سائر قصص الأنبياء التي في القرآن ويوسف عليه السلام إنما آذاه إخوته لتقريب أبيه له حسدا على حظ من حظوظ الأنفس لا على دين ولهذا كان صبره على التي راودته وحبس الذين حبسوه على ذلك أفضل له من صبره على أذى إخوته فإن هذا صبر على تقوى الله باختياره حتى لا يفعل المحرم وذلك صبر على أذى الغير الحاصل بغير اختياره فهذا من جنس صبر المصاب على مصيبته وذلك من جنس صبر المؤمن على الذين يأمرونه بالمعاصي ويدعونه إليها فيصبر على طاعة الله وعن معصيته ويغلب هواه وشهوته وهذا أفضل فأما صبر إبراهيم وموسى وعيسى ونبينا صلوات الله وسلامه عليهم على أذى الكفار وعدواتهم على الإيمان بالله ورسوله فذلك أفضل من هذا كله كما أن التوحيد والإيمان أفضل من مجرد ترك الزنا وكما أن تلك الطاعات أعظم فالصبر عليها وعلى معاداة أهلها أعظم وأيضا فهو لاء كانوا يطلبون قتل من يؤمن وإهلاكه بكل طريق لا يحبون المؤمنين أصلا بخلاف يوسف فإنه إنما ابتلى بالحبس وكانت المرأة تحبه فلم تعاقبه بأكثر من ذلك وقوله تعالى { نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ } يوسف 3 سواء كان القصص مصدر قص يقص قصصا أو كان مفعولا أي أحسن المقصوص فذلك لا يختص بقصة يوسف بل قصة موسى أعظم منها قدرا وأحسن ولهذا كرر ذكرها في القرآن وبسطها قال تعالى { فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ } القصص 25 ولهذا قال { بِمَا أُوحِيَ إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ } يوسف 3 وقد قرئ { أَحْسَنَ الْقَصَصِ } يوسف 3 بالكسرة ولا تختص بقصة يوسف بل كل ما قصه الله فهو أحسن القصص فهو أحسن مقصوص وقد قصه الله أحسن قصص¹

قال تعالى { نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أُوحِيَ إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ } يوسف 3 وأحسن القصص قيل إنه مصدر وقيل إنه مفعول به قيل المعنى نحن نقص عليك أحسن الإقتصاص كما يقال نكلمك أحسن التكليم ونبين لك أحسن البيان قال الزجاج نحن نبين لك أحسن البيان والقاص الذي يأتي بالقصة على حقيقتها قال وقوله { بِمَا أُوحِيَ إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ } يوسف 3 أي بوحينا إليك هذا القرآن ومن قال هذا قال بما أوحينا إليك هذا القرآن وعلى هذا القول فهو كقوله نقرأ عليك أحسن القراءة وندلوا عليك أحسن التلاوة والثاني أن المعنى نقص عليك أحسن ما يقص أي حسن الأخبار المقصوصات كما قال في السورة الأخرى { اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ } الزمر 23 وقال { وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا } النساء 122 ويدل على ذلك قوله في قصة موسى { فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ } القصص 25 وقوله { لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ } يوسف 111 المراد خبرهم ونبأهم وحديثهم ليس المراد مجرد المصدر والقولان متلازمان في المعنى كما سنبينه ولهذا يجوز أن يكون هذا المنصوب قد جمع معنى المصدر ومعنى المفعول به لأن فيه كلا المعنيين بخلاف المواضع التي يباين فيها الفعل المفعول به فإنه إذا انتصب بهذا المعنى إمتنع المعنى الآخر ومن رجع الأول من النحاة كالزجاج وغيره قالوا القصص مصدر يقال قص أثره يقصه قصصا ومنه قوله تعالى { فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا } الكهف 64 وكذلك إقتص أثره وتقصص وقد إقتصت الحديث رويته على وجهه وقد إقتص عليه الخبر

¹ منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 317-319

قصصا وليس القصص بالفتح جمع قصة كما يظنه بعض العامة فإن ذلك يقال في قصص بالكسر واحدة قصة والقصة هي الأمر والحديث الذي يقص فعلة بمعنى مفعول وجمعه قصص بالكسر وقوله {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ} يوسف 3 بالفتح لم يقل أحسن القصص بالكسر ولكن بعض الناس ظنوا أن المراد أحسن القصص بالكسر وأن تلك القصة قصة يوسف وذكر هذا طائفة من المفسرين ثم ذكروا لم سميت أحسن القصص فقيل لأنه ليس في القرآن قصة تتضمن من العبر والحكم والنكت ما تتضمن هذه القصة وقيل لإمتداد الأوقات بين مبتدأها ومنتهاها وقيل لحسن محاورة يوسف وإخوته وصبره على أذاهم وإغضائه عن ذكر ما تعاطوه عند اللقاء وكرمه في العفو وقيل لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين والإنس والجن والأنعام والطيور وسير الملوك والمماليك والتجار والعلماء والجهال والرجال والنساء ومكرهن وحيلهن وفيها أيضا ذكر التوحيد والفقهاء والسير وتعبير الرؤيا والسياسة والمعاشرة وتدبير المعاش فصارت أحسن القصص لما فيها من المعاني والفوائد التي تصلح للدين والدنيا وقيل فيه ذكر الحبيب والمحبوب وقيل {أَحْسَنَ} يوسف 3 بمعنى أعجب والذين يجعلون قصة يوسف أحسن القصص منهم من يعلم أن القصص بالفتح هو النبأ والخبر ويقولون هي أحسن الأخبار والأنباء وكثير منهم يظن أن المراد أحسن القصص بالكسر وهؤلاء جهال بالعربية وكلا القولين خطأ وليس المراد بقوله {أَحْسَنَ} الْقَصَصِ يوسف 3 قصة يوسف وحدها بل هي مما قصه الله ومما يدخل في أحسن القصص ولهذا قال تعالى في آخر السورة { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ } {109} حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ } {110} لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } {111} يوسف 109-111 فبين أن العبرة في قصص المرسلين وأمر بالنظر في عاقبة من كذبهم وعاقبتهم بالنصر ومن المعلوم أن قصة موسى وما جرى له مع فرعون وغيره أعظم وأشرف من قصة يوسف بكثير كثير ولهذا هي أعظم قصص الأنبياء التي تذكر في القرآن ثناها الله أكثر من غيرها وبسطها وطولها أكثر من غيرها بل قصص سائر الأنبياء كنوح وهود وصالح وشعيب وغيرهم من المرسلين أعظم من قصة يوسف ولهذا ثنى الله تلك القصص في القرآن ولم يثن قصة يوسف وذلك لأن الذين عادوا يوسف لم يعادوه على الدين بل عادوه عداوة دنيوية وحسده على محبة أبيه له وظلموه فصبر واتقى الله وإبتلى صلوات الله عليه بمن ظلمه وبمن دعاه إلى الفاحشة فصبر واتقى الله في هذا وفي هذا وإبتلى أيضا بالملك فإبتلى بالسراء والضراء فصبر واتقى الله في هذا وهذا فكانت قصته من أحسن القصص وهي أحسن من القصص التي لم تقص في القرآن فإن الناس قد يظلمون ويحسدون ويدعون إلى الفاحشة ويبتلون بالملك لكن ليس من لم يذكر في القرآن ممن إتقى الله وصبر مثل يوسف ولا فيهم من كانت عاقبته أحسن العواقب في الدنيا والآخرة مثل يوسف وهذا كما أن قصة أهل الكهف وقصة أهل القرنين كل منهما هي في جنسها أحسن من غيرها فقصة ذي القرنين أحسن قصص الملوك وقصة أهل الكهف أحسن قصص أولياء الله الذين كانوا في زمن الفترة فقوله تعالى {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ} يوسف 3 يتناول كل ما قصه في كتابه فهو أحسن مما لم يقصه ليس المراد أن قصة يوسف أحسن ما قص في القرآن وأين ما جرى ليوسف مما جرى لموسى ونوح وإبراهيم وغيرهم من الرسل وأين ما عودى أولئك مما عودى فيه يوسف وأين فضل أولئك عند الله وعلو درجاتهم من يوسف صلوات الله عليهم أجمعين وأين نصر أولئك من نصر يوسف فإن يوسف كما قال الله تعالى {وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ

بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَسَاءَ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ {يوسف 56} و أذل الله الذين ظلموه ثم تابوا فكان فيها من العبرة أن المظلوم المحسود إذا صبر و إتقى الله كانت له العاقبة و أن الظالم الحاسد قد يتوب الله عليه و يعفو عنه و أن المظلوم ينبغي له العفو عن ظالمه إذا قدر عليه و بهذا إعتبر النبي صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة لما قام على باب الكعبة و قد أذل الله له الذين عادوه و حاربوه من الطلقاء فقال ماذا أنتم قائلون فقالوا نقول أخ كريم و ابن عم كريم فقال إني قائل لكم كما قال يوسف لأخوته {قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّومَ يَعْفُرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} يوسف 92 و كذلك عائشة لما ظلمت و افتري عليها و قيل لها إن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله و توبي إليه فقالت في كلامها أقول كما قال أبو يوسف { فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ } يوسف 18 ففي قصة يوسف أنواع من العبرة للمظلوم و المحسود و المبتلى بدواعي الفواحش و الذنوب و غير ذلك لكن أين قصة نوح و إبراهيم و موسى و المسيح و نحوه ممن كانت قصته أنه دعا الخلق إلى عبادة الله و حده لا شريك له فكذبوه و آذوه و آذوا من آمن به فإن هؤلاء أوذوا إختياراً منهم لعبادة الله فعودوا و أوذوا في محبة الله و عبادته بإختيارهم لولا إيمانهم و دعوتهم الخلق إلى عبادة الله لما أوذوا و هذا بخلاف من أؤذي بغير إختياره كما أخذ يوسف من أبيه بغير إختياره ولهذا كانت محنة يوسف بالنسوة و امرأة العزيز و إختياره السجن على معصية الله أعظم من إيمانه و درجته عند الله و أجره من صبره على ظلم إخوته له ولهذا يعظم يوسف بهذا أعظم مما يعظم بذلك ولهذا قال تعالى فيه { كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ } يوسف 24 و هذا كالصبر عن المعاصي مع الصبر على المصائب فالأول أعظم وهو صبر المتقين أولياء الله قال سهل بن عبد الله التستري أفعال البر يفعلها البر و الفاجر ولن يصبر عن المعاصي إلا صديق و يوسف صلوات الله عليه كان صديقاً نبياً و أما من يظلم بغير إختياره و يصبر فهذا كثير و من لم يصبر صبر الكرام سلا سلو البهائم و كذلك إذا مكن المظلوم و قهر ظالمه قتاب الظالم و خضع له فعفوه عنه من المحاسن و الفضائل لكن هذا يفعله خلق كثير من أهل الدين و عقلاء الدنيا فإن حلم الملوك و الولاة أجمع لأمرهم و طاعة الناس لهم و تأليفهم لقلوب الناس و كان معاوية من أحلم الناس و كان المأمون حلماً حتى كان يقول لو علم الناس محبتي في العفو تقربوا إلى بالذنوب ولهذا لما قدر على من نازعه في الملك و هو عمه إبراهيم بن المهدي عفا عنه و أما الصبر عن الشهوات و الهوى الغالب لله لا رجاء لمخلوق ولا خوفاً منه مع كثرة الدواعي إلى فعل الفاحشة و إختياره الحبس الطويل على ذلك كما قال يوسف { رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ } يوسف 33 فهذا لا يوجد نظيره إلا في خيار عباد الله الصالحين و أوليائه المتقين كما قال تعالى { كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ } يوسف 24 فهذا من عباد الله المخلصين الذين قال الله تعالى فيهم { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ } الحجر 42 ولهذا لم يصدر من يوسف الصديق ذنب أصلاً بل الهم الذي هم به لما تركه الله كتب له به حسنة ولهذا لم يذكر عنه سبحانه توبة و إستغفاراً كما ذكر توبة الأنبياء كآدم و داود و نوح و غيرهم و إن لم يذكر عن أولئك الأنبياء فاحشة و لله الحمد و إنما كانت توباتهم من أمور آخر هي حسنات بالنسبة إلى غيرهم ولهذا لا يعرف ليوسف نظير فيما إبتلى به من دواعي الفاحشة و تقواه و صبره في ذلك و إنمات يعرف لغيره ما هو دون ذلك كما في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال سبعة يظلهم الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله إمام عادل و شاب نشأ في عبادة الله و رجل معلق قلبه بالمسجد إذا خرج حتى يعود إليه و رجلان تحابا في الله إجتمعا على ذلك و تفرقا عليه و رجل دعتة امرأة ذات منصب و جمال فقال إني أخاف الله و رجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه و رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه و إذا كان الصبر على الأذى لئلا يفعل الفاحشة أعظم من

صبره على ظلم إخوته فكيف بصبر الرسل على أذى المكذبين لئلا يتركوا ماأمروا به من دعوتهم إلى عبادة الله وحده وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر فهذا الصبر هو من جنس الجهاد في سبيل الله إذ كان الجهاد مقصودا به أن تكون كلمة الله هي العليا وأن الدين كله لله فالجهاد والصبر فيه أفضل الأعمال كما قال النبي صلى الله عليه وسلم رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله وهو حديث صحيح رواه الإمام أحمد والترمذي وصححه وهو من حديث معاذ بن جبل الطويل وهو أحب الأعمال إلى الله فالصبر على تلك المعصية صبر المهاجر الذي هجر ما نهى عنه وصبر المجاهد الذي جاهد نفسه في الله وجاهد عدو الله الظاهر والباطن والمهاجر الصابر على ترك الذنب إنما جاهد نفسه وشيطانه ثم يجاهد عدو الله الظاهر لتكون كلمة الله هي العليا ويكون الدين كله لله وصبر المظلوم صبر المصاب لكن المصاب بمصيبة سماوية تصبر نفسه ما لا تصبر نفس من ظلمه الناس فإن ذلك يستشعر أن الله هو الذي فعل به هذا فتتأسف نفسه من الدفع والمعاقبة وأخذ الثأر بخلاف المظلوم الذي ظلمه الناس فإن نفسه تستشعر أن ظالمه يمكنه دفعه وعقوبته وأخذ ثأره منه فالصبر على هذه المصيبة أفضل وأعظم كصبر يوسف صلوات الله عليه وسلامه وهذا يكون لأن صاحبه يعلم أن الله قدر ذلك فيصبر على ذلك كالمصابب السماوية ويكون أيضا لينال ثواب الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين وليسلم قلبه من الغل للناس وكلا النوعين يشترك في أن صاحبه يستشعر أن ذلك بذنوبه وهو مما يكفر الله به سيئاته ويستغفر ويتوب وأيضا فيرى أن ذلك الصبر واجب عليه وأن الجزع مما يعاقب عليه وإن ارتقى إلى الرضا رأي أن الرضا جنة الدنيا ومستراح العابدين وباب الله الأعظم وإن رأي ذلك نعمة لما فيه من صلاح قلبه ودينه وقربه إلى الله وتكفير سيئاته وصونه عن ذنوب تدعوه إليها شياطين الإنس والجن شكر الله على هذه النعم فالمصائب السماوية ولآدمية تشترك في هذه الأمور ومعرفة الناس بهذه الأمور وعلمهم بها هو من فضل الله يمن به على من يشاء من عباده ولهذا كانت أحوال الناس في المصائب وغيرها متباينة تباينا عظيما ثم إذا شهد العبد القدر وأن هذا أمر قدره الله وقضاه وهو الخالق له فهو مع الصبر يسلم للرب القادر المالك الذي يفعل ما يشاء وهذا حال الصابر وقد يسلم تسليمه للرب المحسن المدبر له بحسن إختياره الذي لا يقضي للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له كما رواه مسلم في صحيحه عن صهيب عن النبي صلى الله عليه وسلم وهذا تسليم راض لعلمه بحسن إختيار الله له وهذا يورث الشكر وقد يسلم تسليمه للرب المحسن إليه المتفضل عليه بنعم عظيمة وإن لم ير هذا نعمة فيكون تسليمه تسليم راض غير شاكر وقد يسلم تسليمه لله الذي لا إله إلا هو المستحق لأن يعبد لذاته وهو محمود على كل ما يفعله فإنه عليم حكيم رحيم لا يفعل شيئا إلا لحكمة وهو مستحق لمحبتة وعبادته وحمده على كل ما خلقه فهذا تسليم عبد عابد حامد وهذا من الحمادين الذين هم أول من يدعى إلى الجنة ومن بينهم صاحب لواء الحمد وآدم فمن دونه تحت لوائه وهذا يكون القضاء خيرا له ونعمة من الله عليه لكن يكون حمده لله ورضاه بقضائه من حيث عرف الله وأحبه وعبده لإستحقاقه الألوهية وحده لا شريك له فيكون صبره ورضاه وحمده من عبادته الصادرة عن هذه المعرفة والشهادة وهذا يشهد بقلبه أنه لا إله إلا الله والإله عنده هو المستحق للعبادة بلاف من لم يشهد إلا مجرد ربوبيته ومشيتته وقدرته أو مجرد إحسانه ونعمته فإنهما مشهدان ناقصان قاصران وإنما يقتصر عليهما من نقص علمه بالله وبدينه الذي بعث به رسله وأنزل به كتبه كأهل البدع من الجهمية والقدرية الجبرية والقدرية المعتزلة فإن الأول مشهد أولئك والثاني مشهد هؤلاء وشهود ربوبيته وقدرته ومشيتته مع شهود رحمته وإحسانه وفضله مع شهود إلهيته ومحبتة ورضاه وحمده والثناء عليه ومجده هو مشهد أهل العلم والإيمان من أهل السنة والجماعة التابعين بإحسان للسابقين الأولين

من المهاجرين والأنصار وهذه الأمور لبسطها موضع آخر والمقصود هنا أن هذا يكون للمؤمن في عموم المصائب وما يكون بأفعال المؤمنين فله فيه كظم الغيظ والعفو عن الناس ويوسف الصديق صلوات الله عليه كان له هذا وأعلى من ذلك الصبر عن الفاحشة مع قوة الداعي إليها فهذا الصبر أعظم من ذلك الصبر بل وأعظم من الصبر على الطاعة ولهذا قال سبحانه في وصف المتقين الذين أعد لهم الجنة {وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} {133} الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} {134} وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ اللَّهُ لَنُوبِ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ} {135} أُولَٰئِكَ جَزَاءُ هُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} {136} ال عمران 133-136 فوصفهم بالكرم و الحلم و بالإففاق و كظم الغيظ و العفو عن الناس ثم لما جاءت الشهوات المحرمات و صفهم بالتوبة منها فقال {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ} {ال عمران 135} فوصفهم بالتوبة منها وترك الإصرار عليها لا بترك ذلك بالكلية فإن النبي قال في الحديث الصحيح كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة فالعينان تزنيان وزناهما النظر والأذن تزني وزناها السمع واللسان يزني وزناه المنطق واليد تزني وزناها البطش والرجل تزني وزناها المشي والقلب يتمنى ويشتهي والفرج يصدق ذلك ويكذبه وفي الحديث كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون فلا بد للإنسان من مقدمات الكبيرة وكثير منهم يقع في الكبيرة فيؤمر بالتوبة ويؤمنون أن لا يصروا على صغيرة فإنه لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع إستغفار ويوسف صلى الله عليه وسلم صبر على الذنب مطلقاً ولم يوجد منه إلا هم تركه الله كتب له به حسنة وقد ذكر طائفة من المفسرين أنه وجد منه بعض المقدمات مثل حل السراويل والجلوس مجلس الخائن ونحو ذلك لكن ليس هذا منقولاً نقلاً يصدق به فإن هذا لم ينقل عن النبي ومثل هذه الإسرائيليات إذا لم تنقل عن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعرف صدقها ولهذا لا يجوز تصديقها ولا تكذيبها إلا بدليل والله تعالى يقول في القرآن {كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِن عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} {يوسف 24} فدل القرآن على أنه صرف عنه السوء ولو كان قد فعل صغيرة لتاب منها والقرآن ليس فيه ذكر توبته و من وقع منه بعض أنواع السوء والفحشاء لم يكن ذلك قد صرف عنه بل يكون قد وقع وتاب الله عليه منه والقرآن يدل على خلاف هذا وقد شهدت النسوة له أنهن ما علمن عليه من سوء ولو كان قد بدت منه هذه المقدمات لكانت المرأة قد رأت ذلك وهي من النسوة اللاتي شهدن وقلن ما علمنا عليه من سوء وقالت مع ذلك {وَلَقَدْ رَاودَتْهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ} {يوسف 32} وقالت {أَنَا رَاودَتْهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ} {يوسف 51} وقوله سوء نكرة في سياق النفي فدل ذلك على أن المرأة لم تر منه سوءاً فإن الهم في القلب لم تطلع عليه ولو أطلعت عليه فإنه إذا تركه الله كان حسنة ولو تركه مطلقاً لم يكن حسنة ولا سيئة فإنه لا إثم فيه إلا مع القول أو العمل وأما قصة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم صلوات الله عليهم فتلك أعظم و الواقع فيها من الجانبين فما فعلته الأنبياء من الدعوة إلى توحيد الله وعبادته ودينه وإظهار آياته وأمره ونهيه ووعدده ووعيده ومجاهدة المكذبين لهم والصبر على أذاهم هو أعظم عند الله ولهذا كانوا أفضل من يوسف صلوات الله عليهم أجمعين وما صبروا عليه و عنه أعظم من الذي صبر يوسف عليه و عنه و عبادتهم لله وطاعتهم و تقواهم وصبرهم بما فعلوه أعظم من طاعة يوسف و عبادته وتقواه أولئك أولوا العزم الذين خصهم الله بالذكر في قوله {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمَنكَ وَمِنَ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ} {الأحزاب 7} وقال تعالى {سَرَّعَ لَكُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا

تَنَفَّرُوا فِيهِ { الشورى 13 } و هم يوم القيامة الذين تطلب منهم الأمم الشفاعة وبهم أمر خاتم الرسل أن يقتدى في الصبر فقيل له { فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعُرْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ } { الأحقاف 35 } فقصصهم أحسن من قصة يوسف ولهذا ثناها الله في القرآن لا سيما قصة موسى قال الإمام أحمد بن حنبل احسن أحاديث الأنبياء حديث تكليم الله لموسى { والمقصود هنا أن قوله } أَحْسَنَ الْقَصَصِ { يوسف 3 } قد قيل إنه مصدر وقيل إنه مفعول به و القولان متلازمان لكن الصحيح أن القصص مفعول به وإن كان أصله مصدرا فقد غلب استعماله في المقصوص كما في لفظ الخبر والنبأ و الإستعمال يدل على ذلك كما تقدم ذكره وقد إعترف بذلك أهل اللغة قال الجوهري وقد قص عليه الخبر قصصا والإسم أيضا القصص بالفتح وضع موضع المصدر حتى صار أغلب عليه فقوله { أَحْسَنَ الْقَصَصِ { يوسف 3 } كقوله نخبرك أحسن الخبر ونبؤك أحسن النبأ } ونحدثك أحسن الحديث ولفظ الكلام يراد به مصدر كلمة تكليما ويراد به نفس القول فإن القول فيه فعل من القائل هو مسمى المصدر والقول ينشأ عن ذلك الفعل ولهذا تارة يجعل القول نوعا من العمل لأنه حاصل بعمل وتارة يجعل قسيما له يقال القول والعمل وكذلك قد يقال في لفظ القصص و البيان و الحديث و الخبر و نحو ذلك فإذا أريد بالقصص و نحوه المصدر الذي سماه الفعل فهو مستلزم للقول والقول تابع وإذا أريد به نفس الكلام والقول فهو مستلزم للفعل تابع للفعل فالمصادر الجارية على سنن الأفعال يراد بها الفعل كقولك كلمته تكليما وأخبرته إخبارا وأما ما لم يجر على سنن الفعل مثل الكلام والخبر ونحو ذلك فإن هذا إذا أطلق ريد به القول وكذلك قد يقال في لفظ القصص فإن مصدره لقياسي قصا مثل عدا ومداه مدا وكذلك قصه قصا وأما قصص فليس هو قياس مصدر المضعف ولم يذكروا على كونه مصدرا إلا قوله { فَأَرْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا } { الكهف 64 } وهذا لا يدل على أنه مصدر بل قد يكون إسم مصدر أقيم مقامه كقوله { وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا } { نوح 17 } و إن جعل مصدر قص الأثر لم يلزم أن يكون مصدر قص الحديث لأن الحديث خبر ونبأ فكان لفظ قصص كلفظ خبر ونبأ وكلام

وأسماء المصادر في باب الكلام تتضمن القول نفسه وتدل على فعل القائل بطريق التضمن واللزوم فإنك إذا قلت الكلام والخبر والحديث ونبأ والقصص لم يكن مثل قولك التكليم والأنبياء والإخبار والتحديث ولهذا يقال أنه منصوب على المفعول به وإسم المصدر ينتصب على المصدر كما في قوله { وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا } { نوح 17 } فإذا قال كلمته كلاما حسنا وحدثته حديثا طيبا وأخبرته إخبارا سارة وقصصت عليه قصصا صادقة ونحو ذلك كان هذا منصوبا على المفعول به لم يكن هذا كقولك كلمته تكليما وأنبأته أنباء فتبين أن قوله { أَحْسَنَ الْقَصَصِ { يوسف 3 } منصوب على المفعول وكل ما قصه الله فهو أحسن القصص ولكن هذا إذا كان يتضمن معنى المصدر ومعنى المفعول به جاز أن ينتصب على المعنيين جميعا فإنهما متلازمان تقول قلت قولا حسنا وقد أسمعته قولا ولم يسمع الفعل الذي هو مسمى المصدر وإنما سمع الصوت وتقول قال يقول قولا فتجعله مصدرا والصوت نفسه ليس هو مسمى المصدر إنما مسمى المصدر الفعل المستلزم للصوت ولكن هما متلازمان ولهذا تنازع أهل السنة والحديث في التلاوة والقرآن هل هي القرآن المتلو أم لا وقد تقطن إبن قتيبة وغيره لما يناسب هذا المعنى وتكلم عليه وسبب الإشتباه أن المتلو هو القرآن نفسه الذي هو الكلام والتلاوة قد يراد بها نفس حركة التالي وفعله وقد يراد به الأمران جميعا فمن قال التلاوة هي المتلو أراد بالتلاوة نفس القرآن المسموع وذلك هو المتلو ومن قال غيره أراد بالتلاوة حركة العبد وفعله وتلك ليست هي القرآن ومن نهى عن أن يقال التلاوة هي المتلو أو غير المتلو فلأن لفظ التلاوة يجمع الأمرين كما نهى الإمام أحمد وغيره عن أن يقال التلاوة هي المتلو أو غير المتلو

فلأن لفظ التلاوة يجمع الأمرين كما نهى الإمام أحمد وغيره عن أن يقال لفظي بالقرآن مخلوق أو غير مخلوق لأن اللفظ يراد به الملفوظ نفسه الذي هو كلام الله و يراد به مصدر لفظ يلفظ لفظا وهو فعل العبد وأطلق قوم من أهل الحديث أن لفظي بالقرآن غير مخلوق وأطلق ناس آخرون أن لفظي به مخلوق قال ابن قتيبة لم يتنازع أهل الحديث في شيء من أقوالهم إلا في مسألة اللفظ وهذا كان تنازع أهل الحديث والسنة الذين كانوا في زمن أحمد بن حنبل وأصحابه الذين أدركوه ثم جاء بعد هؤلاء طائفة قالوا التلاوة غير المتلو وأرادوا بالتلاوة نفس كلام الله العربي الذي هو القرآن وأرادوا بالمتلو معنى واحدا قائما بذات الله وقال آخرون التلاوة هي المتلو وأرادوا بالتلاوة نفس الأصوات المسموعة من القرآن جعلوا ما سمع من الأصوات هو نفس الكلام الذي ليس بمخلوق ولم يميزوا بين سماع الكلام من المتكلم و بين سماعه من المبلغ له عنه فزاد كل من هؤلاء وهؤلاء من البدع ما لم يكن يقوله أحد من أهل السنة والعلم فلم يكن من أهل السنة من يقول إن القرآن العربي ليس هو كلام الله ولا يجعل المتلو مجرد معنى ولا كان فيهم من يقول إن أصوات العباد وغيرها من خصائصهم غير مخلوق بل هم كلهم متفقون على أن القرآن المتلو هو القرآن العربي الذي نزله روح القدس من الله بالحق وهو كلام الله الذي تكلم به ولكن تنازعوا في تلاوة العباد له هل هي القرآن نفسه أم هي الفعل الذي يقرأ به القرآن والتحقيق أن لفظ التلاوة يراد به هذا وهذا ولفظ القرآن يراد به المصدر ويراد به الكلام قال الله تعالى { إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ } {17} فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ {18} ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ } {19} القيامة 17-19 وفي الصحيحين عن ابن عباس قال إن علينا أن نجعله في قلبك وتقرأه بلسانك وقال أهل العربية يقال قرأت الكتاب قراءة و قرآنا و منه قول حسان ضحوا بأشمط عنوان السجود به يقطع الليل تسبيحا و قرآنا وقد قال تعالى { فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ } النحل 98 و قال تعالى { وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا } الأعراف 204 و هم إنما يستمعون الكلام نفسه ولا يستمعون مسمى المصدر الذي هو الفعل فإن ذلك لا يسمع فقوله { نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ } يوسف 3 من هذا الباب من باب نقرأ عليك أحسن القصص و نتلو عليك أحسن القصص كما قال تعالى { نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ } القصص 3 وقال { فَإِذَا قَرَأْتَهُ } القيامة 18 قال ابن عباس أي قراءة جبريل { فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ } القيامة 18 فاستمع له حتى يقضي قراءته والمشهور في قوله { فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ } النحل 98 أنه منصوب على المفعول به فكذلك أحسن القصص لكن في كلاهما معنى المصدر أيضا كما تقدم فيه معنى المفعول به ومعنى المصدر جميعا وقد يغلب هذا كما في قوله { إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ } {17} فالمراد هنا نفس مسمى المصدر وقد يغلب هذا تارة كما في قوله { فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا } الأعراف 204 وقوله { قُلْ لئن اجتمعت الإنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ } الإسراء 88 وقوله { إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ } الإسراء 9 وغالب ما يذكر لفظ القرآن إنما يراد به نفس الكلام لا يراد به التكلم بالكلام الذي هو مسمى المصدر ومثل هذا كثير في اللغة يكون أمران متلازمان إما دائما وإما غالبا فيطلق الإسم عليهما ويغلب هذا تارة وهذا تارة وقد يقع على أحدهما مفردا كلفظ النهر و القرية و الميزاب ونحو ذلك مما فيه حال ومحل فالإسم يتناول مجرى الماء والماء الجاري وكذلك لفظ

القرية يتناول المساكن والسكان ثم تقول حفر النهر فالمراد به المجرى و تقول جرى النهر فالمراد به الماء وتقول جرى الميزاب تعنى الماء ونصب الميزاب تعنى الخشب و قال تعالى { وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ

وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ { النحل 112 والمراد السكان في المكان وقال تعالى {وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ { الأعراف 4 وقال تعالى {وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا { يوسف 82 وقال تعالى {وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا { الكهف 59 وقال تعالى {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ { هود 102 وقال تعالى { لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا { الشورى 7 وقال تعالى {فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَبُرُّ مُعْتَلَّةً وَقَصِرَ مَشِيدٍ { الحج 45 و الخاوي على عروشه الممكن لا السكان وقال تعالى { أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا { البقرة 259 لما كان المقصود بالقرية هم السكان كان إرادتهم أكثر في كتاب الله وكذلك لفظ النهر لما كان المقصود هو الماء كان إرادته أكثر كقوله { وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ { الأنعام 6 وقوله { وَفَجَّرْنَا خِلَافَهُمْ نَهْرًا { الكهف 33 فهذا كثير أكثر من قولهم حفرنا النهر وكذلك إطلاق لفظ القرآن على نفس الكلام أكثر من إطلاقه على نفس التكلم وكذلك لفظ الكلام والقول والقصص و سائر أنواع الكلام يراد بها نفس الكلام أكثر مما يراد بها فعل المتكلم وهذه الأمور لبسطها موضع آخر والمقصود هنا أن قوله تعالى { نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ { يوسف 3 المراد الكلام الذي هو أحسن القصص وهو عام في كل ما قصه الله لم يخص به سورة يوسف ولهذا قال { بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ { يوسف 3 و لم يقل بما أوحينا إليك هذه السورة والآثار الماثورة في ذلك عن السلف تدل كلها على ذلك وعلى أنهم كانوا يعتقدون أن القرآن أفضل من سائر الكتب وهو المراد والمراد من هذا حاصل على كل تقدير فسواء كان أحسن القصص مصدر أو مفعولا أو جامعا للأمرين فهو يدل على أن القرآن وما في القرآن من القصص أحسن من غيره فإننا قد ذكرنا أنهما متلازمان فأيهما كان أحسن كان الآخر أحسن فتبين أن قوله تعالى { أَحْسَنَ الْقَصَصِ { يوسف 3 كقوله { اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ { الزمر 23 والآثار السلفية تدل على ذلك والسلف كانوا مقرين بأن القرآن أحسن الحديث و أحسن القصص كما أنه المهيم على ما بين يديه من كتب السماء فكيف يقال إن كلام الله كله لا فضل لبعضه على بعض روى ابن أبي حاتم عن المسعودي عن القاسم أن أصحاب رسول الله ملوا ملة فقالوا حدثنا يا رسول الله فأنزل الله { نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ { يوسف 3 ثم ملوا ملة فقالوا حدثنا يا رسول الله فنزلت { اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ { الزمر 23 ثم ملوا ملة فقالوا حدثنا يا رسول الله فأنزل الله { أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ { الحديد 16 وقد روى أبو عبيد في فضائل القرآن عن بعض التابعين فقال حدثنا حجاج عن المسعودي عن عون بن عبدالله بن عتبة قال مل أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم ملة فقالوا يا رسول الله حدثنا فأنزل الله تعالى { اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ { الزمر 23 قال ثم نعته فقال { كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِي تَفْشَعُ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ { الزمر 23 إلى آخر الآية قال ثم ملوا ملة أخرى فقالوا يا رسول الله حدثنا شيئا فوق الحديث ودون القرآن يعنون القصص فأنزل الله { الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ {1} إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ {2} نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ {3} يوسف 1-3 قال فإن أرادوا الحديث دلهم على أحسن الحديث وإن أرادوا القصص دلهم على أحسن القصص ورواه ابن أبي حاتم بإسناد حسن مرفوعا عن مصعب بن سعد عن سعد قال نزل على رسول الله القرآن فتلاه عليهم زمانا فقالوا يا رسول الله لو قصصت علينا فأنزل الله تعالى { الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ {1} إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ {2} نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ {3} يوسف 1-3 فتلاه عليهم زمانا ولما كان القرآن أحسن الكلام نهوا عن إتباع ما سواه قال تعالى { أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ { العنكبوت 51 وروى النسائي

وغيره عن النبي أنه رأي بيد عمر بن الخطاب شيئا من التوراة فقال لو كان موسى حيا ثم إتبعتموه وتركتموني لضللتم وفي رواية ما وسعه إلى إتباعي وفي لفظ فتغير وجه النبي صلى الله عليه وسلم لما عرض عليه عمر ذلك فقال له بعض الأنصار يا ابن الخطاب ألا ترى إلى وجه رسول الله فقال عمر رضينا بالله ربا وبالإسلام ديننا وبمحمد نبيا ولهذا كان الصحابة ينهون عن إتباع كتب غير القرآن وعمر إنتفع بهذا حتى أنه لما فتحت الإسكندرية وجد فيها كتب كثيرة من كتب الروم فكتبوا فيها إلى عمر فأمر بها أن تحرق وقال حسبنا كتاب الله و روى ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا إسماعيل بن خليل حدثنا علي بن مسهر حدثنا عبدالرحمن بن إسحاق عن خليفة بن قيس عن خالد بن عرفطة قال كنت عند عمر بن الخطاب إذ أتى برجل من عبد القيس مسكنه بالسوس فقال له عمر أنت فلان ابن فلان العبدي قال نعم قال وأنت النازل بالسوس قال نعم فضربه بقناة معه فقال له ما ذنبي قال فقرأ عليه **{الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ {1} إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ {2} نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنَّ الْعَاقِلِينَ {3} يوسف 1-3}** فقرأها عليه ثلاث مرات و ضربه ثلاث ضربات ثم قال له عمر أنت الذي إنتسخت كتاب دانيال قال نعم قال إذهب فإمحه الحميم والصوف الأبيض ولا تقرأه ولا تقرئه أحدا من الناس فقرأ عليه عمر هذه الآية ليبين له أن القرآن أحسن القصص فلا يحتاج معه إلى غيره وهذا يدل على أن القصص عام لا يختص بسورة يوسف ويدل على أنهم كانوا يعلمون أن القرآن أفضل من كتاب دانيال ونحوه من كتب الأنبياء وكذلك مثل هذه القصة مأثورة عن ابن مسعود لما أتى بما كتب من الكتب محاه وذكر فضيلة لقرآن كما فعل عمر رضي الله عنهما وروى ابن أبي حاتم عن قتادة **{ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ {يوسف 3}** قال من الكتب الماضية وأمور الله السالفة في الأمم **{ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ {يوسف 3}** وهذا يدل على أن أحسن القصص يعم هذا كله بل لفظ القصص يتناول ما قصه الأنبياء من آيات الله غير أخبار الأمم كقوله تعالى **{ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا {الأنعام 130}** وقال في موضع آخر **{ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُم {الزمر 171}**¹

الله سبحانه يحكم ويفتى ويقص ويصف كلامه بأنه يحكم ويفتى ويقص

فإن الله أخبر بشهادته لرسوله في غير موضع وسمى ما أنزله شهادة منه في قوله **{ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ {البقرة 140}** فدل على أن كلام الله الذي أنزله وأخبر فيه بما أخبر شهادة منه وهو سبحانه يحكم ويشهد ويفتى ويقص ويبشر ويهدى بكلامه ويصف كلامه بأنه يحكم ويفتى ويقص ويهدى ويبشر وينذر كما قال **{ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ {النساء 127}** **{ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ {النساء 176}** وقال **{ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ {النمل 76}** وقال **{ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ {يوسف 3}** وقال **{ قُلِ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ {الأنعام 57}** وقال **{ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ {الإسراء 9}** وكذلك سمي الرسول هاديا فقال **{ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ {الشورى 52}** كما سماه بشيرا ونذيرا وسمى القرآن بشيرا ونذيرا فكذلك لما كان هو

¹مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 18- 42

يشهد للرسول وكان والمؤمنين بكلامه الذي أنزله وكان كلامه شهادة منه كان كلامه شاهداً منه كما كان يحكم ويفتى ويقص ويبشر وينذر¹

أسماء القرآن

أسماء القرآن القرآن الفرقان الكتاب الهدى النور الشفاء البيان الموعظة الرحمة بصائر البلاغ الكريم المجيد العزيز المبارك التنزيل المنزل الصراط المستقيم حبل الله الذكر الذكرى تذكرة المتشابه المثاني {مُتَشَابِهًا مَّثَانِيًّا} الزمر 23 {أَحْسَنَ الْقَصَصِ} يوسف² 3

فبين أنه أنزل هذا القرآن مهيمنا على ما بين يديه من الكتب والمهيمن الشاهد المؤمن الحاكم يشهد بما فيها من الحق وينفي ما حرف فيها ويحكم بإقرار ما أقره الله من أحكامها وينسخ ما نسخه الله منها وهو مؤتمن في ذلك عليها وأخبر أنه أحسن الحديث وأحسن القصص³

فالقرآن أفضل وأشرف وفيه من العلم أعظم مما في التوراة والإنجيل وقد بين الله تعالى فضله عليهما في غير موضع⁴

"أن الله هدى نبيكم بهذا القرآن فاستمسكوا به"

أن أصل العلم الإلهي ومبدأه ودليله الأول عند الذين آمنوا هو الإيمان بالله ورسوله وعند الرسول هو وحى الله اليه كما قال خاتم الأنبياء أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وقال الله تعالى له {قُلْ إِنْ ضَلَلْتُمْ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُمْ فِيمَا يُؤْتِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ} سبأ 50 وقال {وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى} الضحى 7 وقال {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ} يوسف 3 فأخبر أنه كان قبله من الغافلين وقال {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} الشورى 52 وفي صحيح البخارى فى خطبة عمر لما

¹ مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 68

² مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 2

³ الجواب الصحيح ج: 2 ص: 272

⁴ الجواب الصحيح ج: 2 ص: 416

توفى النبي كلام معناه أن الله هدى نبيكم بهذا القرآن فاستمسكوا به فإنكم (فيه نقص هنا) وتقرير
الحجة في القرآن بالرسول كثير كقوله {رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ
الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} النساء 165¹

يغلط كثير من الناس في قول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح الذي رواه ميسرة قال
قلت يا رسول الله متى كنت نبيا وفي رواية متى كتبت نبيا قال وآدم بين الروح والجسد فيظنون أن
ذاته ونبوته وجدت حينئذ وهذا جهل فإن الله إنما نبأه على رأس أربعين من عمره وقد قال له {
بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ} يوسف 3 وقال {وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى
{الضحى 7 وفي الصحيحين أن الملك قال له حين جاءه اقرأ فقال لست بقارئ ثلاث مرات ومن
قال أن النبي صلى الله عليه وسلم كان نبيا قبل أن يوحى إليه فهو كافر باتفاق المسلمين وإنما المعنى
أن الله كتب نبوته فأظهرها وأعلنها بعد خلق جسد آدم وقبل نفخ الروح فيه كما أخبر أنه يكتب رزق
المولود وأجله وعمله وشقاوته وسعادته بعد خلق جسده وقبل نفخ الروح فيه كما في حديث العرياض
بن سارية الذي رواه أحمد وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إني عبد الله وخاتم
النبیین وفي رواية أني عبد الله لمكتوب خاتم النبیین وأن آدم لمجنول في طينته وسأنبئكم بأول ذلك
دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيس ورؤيا أمي رأت حين ولدتني أنه خرج منها نور أضاءت له قصور
الشام وكثير من الجهال المصنفين وغيرهم يرويه كنت نبيا وآدم بين الماء والطين
وآدم لا ماء ولا طين ويجعلون ذلك وجوده بعينه وآدم لم يكن بين الماء والطين بل الماء بعض
الطين لا مقابله²

الله سبحانه يكلم عباده بواسطة رسول يرسله ولهذا جاء بلفظ الجمع

قال تعالى {وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ
بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ} الشورى 51 فالله تعالى إذا أرسل رسولا من الملائكة أو من البشر برسالة كان مكلما
لعباده بواسطة رسوله بما أرسل به رسوله وكان مبينا لهم بذلك كما قال تعالى {قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ
أَخْبَارِكُمْ} التوبة 94 أي بواسطة رسوله وقال {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَمِعْ لَهُ فَجَاءَهُ سَمْعًا يَكُونُ لَهُ مِنْ
مِن تَبَا مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} القصص 3 وقال {**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ**
بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ} يوسف 3 فكانت تلك التلاوة والقراءة
والقصص بواسطة جبريل فإنه سبحانه يكلم عباده بواسطة رسول يرسله فيوحى بإذنه ما يشاء ولهذا
جاء بلفظ الجمع فإن ما فعله المطاع بجنده يقال فيه نحن نعمل كذا والملائكة رسل الله فيما يخلقه
ويأمر به فما خلقه وأمر به بواسطة رسوله من الملائكة قال فيه نحن فعلنا كما قال تعالى {فَإِذَا قَرَأْتَ
فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ} القيامة 18 وفي الصحيحين عن ابن عباس قال إن علينا أن نجتمع في قلبك ثم أن
نقرأه بلسانك فإذا قرأه جبريل فاستمع له حتى يفرغ كما قال في الآية الأخرى {وَلَا تَعْجَلْ

¹مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 2

²مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 278

بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُفْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ { طه 114 أي لا تعجل بتلاوة ما يقرؤه جبريل عليك من قبل أن يقضي جبريل تلاوته بل استمع له حتى يقضي تلاوته ثم بعد هذا اقرأ ما أنزله إليك وعلينا أن نجمع ذلك في قلبك وأن تقرأه بلسانك ثم أن تبينه للناس بعد ذهاب جبريل عنك ¹

لطائف لغوية

1- قال تعالى **{الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ {يوسف 1}** أنه لما أنزل قوله ذلك الكتاب وتلك آيات الكتاب ونحو ذلك لم يكن الكتاب المشار إليه قد أنزل تلك الساعة وإنما كان قد أنزل قبل ذلك فصار كالغائب الذي يشار إليه كما يشار إلى الغائب وهو باعتبار حضوره عند النبي يشار إليه كما يشار إلى الحاضر وتلك في المؤنث مثل ذلك في المذكر ومع هذا فأشار إلى القرآن كما قال تعالى **{وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ {الأنبياء 50}** ولهذا قال غير واحد من السلف ذلك الكتاب أي هذا الكتاب يقولون المراد هذا الكتاب وإن كانت الإشارة تكون تارة إشارة غائب وتارة إشارة حاضر ²

2- وأما على قول جمهور أهل السنة الذين يقولون إنها مفعولة للرب لا فعل له إذا فعله ما قام به والفعل عندهم غير المفعول فيقولون إنها مفعولة للرب لا فعل له وإنما فعل للعبد كما يقولون في قدرة العبد إنها قدرة للعبد مقدورة للرب لا أنها نفس قدرة الرب وكذلك إرادة العبد هي إرادة للعبد مرادة للرب وكذلك سائر صفات العبد هي صفات له وهي مفعولة للرب مخلوقة له ليست بصفات له ومما يبين ذلك أن الله تعالى قد أضاف كثيرا من الحوادث إليه وأضافه إلى بعض مخلوقاته إما أن يضيف عينه أو نظيره كقوله تعالى **{اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى {الزمر 42}** وقال تعالى **{وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ {الأنعام 60}** مع قوله تعالى **{قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ {السجدة 11}** وقوله **{تَوَفَّنَهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرَطُونَ {الأنعام 61}** وقال **{نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ {يوسف 3}** وقال **{إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصِّلُ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ {النمل 76}** ³

3- جاء بصيغة الجمع في قوله **{نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ {يوسف 3}** وهذا مثل قوله **{وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ {ق 16}** **{فَإِذَا قَرَأْتَ الْقِيَامَةَ {القيامة 18}** **{نَتْلُوا عَلَيْكَ {القصص 3}** و **{إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ {القيامة 17}** **{نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ {الكهف 13}** و **{عَلَيْنَا بَيَانُهُ {القيامة 19}** فالقرآن هنا حين يسمعه من جبريل والبيان هنا بيانه لمن يبلغه القرآن ومذهب سلف الأمة وأئمتها وخلفها أن النبي

¹ منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 380-382

² الجواب الصحيح ج: 2 ص: 275

³ منهاج السنة النبوية ج: 3 ص: 242

صلى الله عليه وسلم سمع القرآن من جبريل وجبريل سمعه من الله عز وجل وأما قوله
 {نَتَلُوا} القصص 3 و {نَفْصُ} الكهف 13 {فَإِذَا قَرَأْنَاهُ} القيامة 18 فهذه الصيغة في
 كلام العرب للواحد العظيم الذى له أعوان يطيعونه فاذا فعل أعوانه فعلا بأمره قال نحن فعلنا كما
 يقول الملك نحن فتحنا هذا البلد وهزمتنا هذا الجيش ونحو ذلك لأنه انما يفعل بأعوانه والله تعالى رب
 الملائكة وهم {لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ} الأنبياء 27 و {لَا يَعصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ
 وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} التحريم 6 وهو مع هذا خالقهم وخالق أفعالهم وقدرتهم وهو غنى عنهم وليس
 هو كالمملك الذى يفعل أعوانه بقدرة وحركة يستغنون بها عنه فكان قوله لما فعله بملائكته نحن فعلنا
 أحق وأولى من قول بعض الملوك وفي الصحيحين عن ابن عباس قال كان النبي صلى الله عليه
 وسلم يعالج من التنزيل شدة وكان يحرك شفتيه فقال ابن عباس أنا أحركهما لك كما كان رسول الله
 يحركهما وقال سعيد بن جبير أنا أحركهما كما رأيت بن عباس يحركهما فحرك شفتيه فانزل الله
 {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ} 16 {إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ} 17 {القيامة 16-17 قال جمعه لك فى
 صدرك وتقرأه} {فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ} {القيامة 18} فإذا قرأه رسولنا وفى لفظ فإذا قرأه جبريل
 فاستمع له وأنصت {ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ} {القيامة 19} أي نقرؤه فكان رسول الله بعد ذلك إذا أتاه
 جبريل استمع فإذا انطلق جبريل قرأه النبي كما قرأه¹

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 233 و مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 512 و مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 128 و
 مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 299

يوسف 4-18

{4} إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ {5} قَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ {6} وَأَبُو يُوْسُفَ إِذْ قَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ {7} إِذْ قَالَ لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحِبُّ إِلَيَّ أَيْبَانًا مَنَا وَنَحْنُ عَصَبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ {8} أَفْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ {9} قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوْهَ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ {10} قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ {11} أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَزْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ {12} قَالَ إِنِّي لَيَحْزَنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّنْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ {13} قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذَّنْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَاسِرُونَ {14} فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ {15} وَجَاوَزُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ {16} قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذَّنْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ {17} وَجَاوَزُوا عَلَى قِمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ {18}

المؤمن يبغى بوساوس الشيطان

قال تعالى {4} إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ {5} قَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ {6} وَأَبُو يُوْسُفَ إِذْ قَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ {7} إِذْ قَالَ لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحِبُّ إِلَيَّ أَيْبَانًا مَنَا وَنَحْنُ عَصَبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ {8} أَفْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ {9} قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوْهَ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ {10} قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ {11} أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَزْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ {12} قَالَ إِنِّي لَيَحْزَنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّنْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ {13} قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذَّنْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَاسِرُونَ {14} فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ {15} وَجَاوَزُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ {16} قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذَّنْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ {17} وَجَاوَزُوا عَلَى قِمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ {18}

قال تعالى {4} إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ {5} قَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ {6} وَأَبُو يُوْسُفَ إِذْ قَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ {7} إِذْ قَالَ لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحِبُّ إِلَيَّ أَيْبَانًا مَنَا وَنَحْنُ عَصَبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ {8} أَفْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ {9} قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوْهَ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ {10} قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ {11} أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَزْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ {12} قَالَ إِنِّي لَيَحْزَنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّنْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ {13} قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذَّنْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَاسِرُونَ {14} فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ {15} وَجَاوَزُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ {16} قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذَّنْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ {17} وَجَاوَزُوا عَلَى قِمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ {18}

فان قراءة القرآن على الوجه المأمور به تورث القلب الايمان العظيم وتزيده يقينا وطمأنينة وشفاء
وقال تعالى { وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا }
الإسراء 82 وقال تعالى { هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ } آل عمران 138 وقال تعالى {
هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ } البقرة 2 وقال تعالى { فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا } التوبة 124 وهذا مما يجده كل
مؤمن من نفسه فالشيطان يريد بوساوسه أن يشغل القلب عن الانتفاع بالقرآن فأمر الله القارئ اذا قرأ
القرآن أن يستعيز منه قال تعالى { فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ } {98} إِنَّهُ لَيْسَ
لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } {99} إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ
مُشْرِكُونَ } {100} النحل 98-100 فان المستعيز بالله مستجير به لاجيء اليه مستغيث به من الشيطان
فالعائد بغيره مستجير به فاذا عاذ العبد بربه كان مستجيرا به متوكلا عليه فيعيذه الله من الشيطان
ويجيره منه ولذلك قال الله تعالى { ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ
حَمِيمٌ } {34} وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ } {35} وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ
نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } {36} فصلت 34-36 وفي الصحيحين عن النبي أنه قال
انى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم فأمر سبحانه بالاستعاذة
عند طلب العبد الخير لئلا يعوقه الشيطان عنه وعندما يعرض عليه من الشر ليدفعه عنه عند إرادة
العبد للحسنة وعندما يأمره الشيطان بالسئآت ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم لا يزال
الشيطان يأتى أحدكم فيقول من خلق كذا من خلق كذا حتى يقول من خلق الله فمن وجد ذلك فليستعذ
بالله ولينته فأمر بالاستعاذة عندما يطلب الشيطان أن يوقعه فى شر أو يمنعه من خير كما يفعل
العدو مع عدوه وكلما كان الإنسان أعظم رغبة فى العلم والعبادة واقدر على ذلك من غيره بحيث
تكون قوته على ذلك أقوى ورغبته وإرادته فى ذلك أتم كان ما يحصل له أن سلمه الله من الشيطان
أعظم وكان ما يفتتن به إن تمكن منه الشيطان أعظم ولهذا قال الشعبي كل أمة علمائها شرارها إلا
المسلمين فإن علماءهم خيارهم وأهل السنة فى الإسلام كأهل الإسلام فى الملل وذلك ان كل أمة
غير المسلمين فهم ضالون وانما يضلهم علماءهم فعلماءهم شرارهم والمسلمون على هدى وانما
يتبين الهدى بعلمائهم فعلماءهم خيارهم وكذلك أهل السنة أئمتهم خيار الأمة وأئمة أهل البدع أضر
على الأمة من أهل الذنوب ولهذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتل الخوارج ونهى عن قتال الولاة
الظلمة وأولئك لهم نعمة فى العلم والعبادة فصار يعرض لهم من الوسوس التى تضلهم وهم يظنونها
هدى فيطيعونها ما لا يعرض لغيرهم ومن سلم من ذلك منهم كان من أئمة المتقين مصابيح الهدى
وينابيع العلم كما قال ابن مسعود لأصحابه كونوا ينابيع العلم مصابيح الحكمة سرج الليل جدد القلوب
احلاس البيوت خلقان الثياب تعرفون فى أهل السماء وتخفون على أهل الأرض¹

الحاسد ظالم معتد والمحسود مظلوم مأمور بالصبر والتقوى

فالحاسد المبغض للنعمة على من أنعم الله عليه بها ظالم معتد والكاره لتفضيله المحب لمماثلته منهي
عن ذلك إلا فيما يقربه إلى الله فإذا أحب أن يعطى مثل ما أعطى مما يقربه إلى الله فهذا لا بأس به
وإعراض قلبه عن هذا بحيث لا ينظر إلى حال الغير أفضل ثم هذا الحسد إن عمل بموجبه صاحبه

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 281-285

كان ظالماً معتدياً مستحقاً للعقوبة إلا أن يتوب وكان المحسود مظلوماً مأموراً بالصبر والتقوى فيصبر على أذى الحاسد ويعفو ويصفح عنه كما قال تعالى {وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } البقرة 109 وقد ابتلى يوسف بحسد إخوة له حيث قالوا {إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ } يوسف 8 فحسدوهما على تفضيل الأب لهما ولهذا قال يعقوب ليوسف {قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ } يوسف 5 ثم إنهم ظلموه بتكلمهم في قتله وإلقاءه في الجب وبيعه رقيقاً لمن ذهب به إلى بلاد الكفر فصار مملوكاً لقوم كفار ثم إن يوسف ابتلى بعد أن ظلم بمن يدعوه إلى الفاحشة ويرأوده عليها ويستعين عليه بمن يعينه على ذلك فاستعصم واختار السجن على الفاحشة وأثر عذاب الدنيا على سخط الله فكان مظلوماً من جهة من أحبه لهواه وغرضه مفسد فهذه المحبة أحبته لهوى محبوبها شفاؤها وشقاؤها إن وافقها وأولئك المبغضون ابغضوه بغضة أوجبت أن يصير ملقى في الجب ثم أسيراً مملوكاً بغير اختياره فأولئك أخرجوه من انطلاق الحرية إلى رق العبودية الباطلة بغير اختياره وهذه أُلجأته إلى أن يختار أن يكون محبوساً مسجوناً باختياره فكانت هذه أعظم في محنته وكان صبره هنا اختيارياً اقترب به التقوى بخلاف صبره على ظلمهم فإن ذلك كان من باب المصائب التي من لم يصبر عليها صبر الكرام سلا سلوا البهائم والصبر الثاني أفضل الصبرين ولهذا قال يوسف {قَالُوا أَأَتَاكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } يوسف 90 وهكذا إذا أودى المؤمن على إيمانه وطلب منه الكفر أو الفسوق أو العصيان وإن لم يفعل أودى وعوقب فاختر الأذى والعقوبة على فراق دينه إما الحبس وإما الخروج من بلده كما جرى للمهاجرين حين اختاروا فراق الأوطان على فراق الدين وكانوا يعذبون يؤذون وقد أودى النبي صلى الله عليه وسلم بأنواع من الأذى فكان يصبر عليها صبراً اختيارياً فإنه إنما يؤذي لئلا يفعل ما يفعله باختياره وكان هذا أعظم من صبر يوسف لأن يوسف إنما طلب منه الفاحشة وإنما عوقب إذا لم يفعل بالحبس والنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه طلب منهم الكفر وإذا لم يفعلوا طلبت عقوبتهم بالقتل فما دونه وأهون ما عوقب به الحبس فإن المشركين حبسوه وبني هاشم بالشعب مدة ثم لما مات أبو طالب اشتدوا عليه فلما بايعت الأنصار وعرفوا بذلك صاروا يقصدون منعه من الخروج ويحبسونه هو وأصحابه عن ذلك ولم يكن أحد يهاجر إلا سرا إلا عمر بن الخطاب ونحوه فكانوا قد الجأهم إلى الخروج من ديارهم ومع هذا منعوا من منعه منهم عن ذلك وحبسوه فكان ما حصل للمؤمنين من الأذى والمصائب هو باختيارهم طاعة الله ورسوله لم يكن من المصائب السماوية التي تجري بدون اختيار العبد من جنس حبس يوسف لا من جنس التفريق بينه وبين أبيه وهذا أشرف النوعين وأهلها اعظم بدرجة وإن كان صاحب المصائب يثاب على صبره ورضاه وتكفر عنه الذنوب بمصائبه فإن هذا أصيب وأودى باختياره طاعة الله يثاب على نفس المصائب ويكتب له بها عمل صالح قال تعالى { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } التوبة 120 بخلاف المصائب التي تجري بلا اختيار العبد كالمرض وموت العزيز عليه وأخذ اللصوص ماله فإن تلك إنما يثاب على الصبر عليها لا على نفس ما يحدث من المصيبة وما يتولد عنها والذين يؤذون على الإيمان وطاعة الله ورسوله ويحدث لهم بسبب ذلك حرج أو مرض أو حبس أو فراق وطن وذهاب مال وأهل أو ضرب أو شتم أو نقص رياسة ومال وهم في ذلك على طريقة الأنبياء وأتباعهم كالمهاجرين الأولين فهؤلاء يثابون على ما يؤذون به

ويكتب لهم به عمل صالح كما يثاب المجاهد على ما يصيبه من الجوع والعطش والتعب وعلى غيظة الكفار¹

وليس للمحسود أسلم من إخفاء نعمته عن الحاسد وقد قال يعقوب ليوسف عليهما السلام **{ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا }** يوسف⁵ الآية²

تأويل الأحاديث

قال تعالى **{ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُنَبِّئُكَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَنْتَمَهَا عَلَىٰ آبَائِكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ }** يوسف⁶ فتأويل الأحاديث التي هي رؤيا المنام هي نفس مدلولها التي تقول اليه كما قال يوسف **{ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ }** يوسف¹⁰⁰ والعالم بتأويلها الذي يخبر به كما قال يوسف **{ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ }** يوسف³⁷ أى فى المنام **{ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَا }** يوسف³⁷ أى قبل أن يأتكما التأويل³

وقال يوسف **{ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا }** يوسف¹⁰⁰ وقال يعقوب له **{ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ }** يوسف⁶ فتأويل الكلام الطلبي الأمر والنهي هو نفس فعل المأمور به وترك المنهي عنه كما قال سفيان بن عيينة السنة تأويل الأمر والنهي⁴

الاعخبار بالغيب من دلائل النبوة

والآيات والبراهين الدالة على نبوة محمد كثيرة متنوعة وهي أكثر وأعظم من آيات غيره من الأنبياء ويسميتها من يسميها من النظار معجزات وتسمى دلائل النبوة وأعلام النبوة وهذه الألفاظ إذا سميت بها آيات الأنبياء كانت أدل على المقصود من البرهان وأما لفظ الآيات فكثير في القرآن كقوله تعالى **{ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلْمُتَلَبِّينَ }** يوسف⁷ إلى أن قال في آخرها **{ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ }** يوسف¹⁰² إلى قوله **{ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ }** يوسف¹⁰⁵ لفظ المعجزات ولهذا لم يكن لفظ المعجزات موجودا في الكتاب والسنة وإنما فيه لفظ الآية والبينة⁵

¹أمراض القلوب ج: 1 ص: 19-21

²مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 23

³مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 300

⁴درء التعارض ج: 1 ص: 206

⁵الجواب الصحيح ج: 5 ص: 417-418

والقرآن نفسه قد بين من آيات نبوته وبراهين رسالته أنواعا متعددة مع اشتمال كل نوع على عدد من الآيات والبراهين مثال ذلك إخباره لقومه بالغيب الماضي الذي لا يمكن بشرا أن يعلمه إلا أن يكون نبيا أو يكون ممن تلقاه عن نبي وقومه يعلمون أنه لم يتعلم ذلك من بشر ولا من أهل الكتاب ولا غيرهم وهذا نوعان منه ما كان يسأله عنه المشركون وأهل الكتاب لينظر هل هو نبي أم لا وكان قومه يرسلون إلى أهل الكتاب البعيدين عنهم مثل من كان بالمدينة وغيرها من أهل الكتاب يطلبون منهم ما يسألونه عنه فيرسلون إليهم ليسألوه عن ذلك ويمتنحون بذلك هل هو نبي أم لا ومنه ما كان الله يخبره به ابتداء ويجعله علما وآية لنبوته وبرهانا لرسالته مع ما في ذكر هذه القصص من الاعتبار لأمر آخرى فكان كل من هذين النوعين دليلا وعبرة على نبوته من طريقين فكان دليلا وعبرة على نبوته من جهة إخبار بالغيب الذي لا يعلمه إلا نبي وكانت عبرة بما فيها من أحوال المؤمنين والكافرين التي توجب اتباع سبيل المؤمنين الذين اتبعوا مثله وتجنب سبيل الكافرين الذين خالفوا مثله وحكم الشيء حكم نظيره فإذا كان من كان مثله ومثل من اتبعه سعيدا وحال من خالف مثله ومثل من اتبعه شقيا كان في هذا دلالة وعبرة توجب اتباعه وتنتهي عن مخالفته وهذا أيضا دليلا على نبوة من قبله من الأنبياء من وجهين من جهة أنه أخبر بمثل ما أخبروا به من غير مواطأة بينهم وبينه ولا تشاعر لم يأخذوا عنه ولم يأخذ عنهم وكل منهما أخبر عن الله بأخبار مفصلة يمتنع الاتفاق عليها عادة إلا بتواطء فإذا لم يكن تواطؤ وتشاعر وامتنع اتفاق ذلك من غير مواطأة علم أن كلا من المخبرين صادق قال تعالى

{يُوسُفُ 7} وقص قصته في السورة إلى أن قال { ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ } {102} وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ } {103} وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ } {104} وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ } {105} وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ } {106} أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ } {107} قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } {108} وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَادَّارُوا الْأَرْضَ خَبِيرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ } {109} حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ } {110} لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } {111} سورة يوسف الآيات 102-111¹

" تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول الا ما يرضى الرب "

¹الجواب الصحيح ج: 5 ص: 320

قال تعالى { قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ } {11} أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَع وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } {12} قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّنْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ } {13} يوسف 11-13 واما الحزن فلم يأمر الله به ولا رسوله بل قد نهى عنه في مواضع وان تعلق بامر الدين كقوله تعالى { وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } آل عمران 139 وقوله { وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ } النحل 127 وقوله { إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا } التوبة 40 وقوله { وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ } يونس 65 وقوله { لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ } الحديد 23 وامثال ذلك كثير وذلك لانه لا يجلب منفعة ولا يدفع مضرة فلا فائدة فيه ومالا فائدة فيه لا يأمر الله به نعم لا يَأْتُم صاحبه اذا لم يفتقرن بحزنه محرم كما يحزن على المصائب كما قال النبي ان الله لا يواخذ على دمع العين ولا على حزن القلب ولكن يواخذ على هذا او يرحم و اشار بيده الي لسانه وقال تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول الا ما يرضي الرب ومنه قوله تعالى { وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ } يوسف 84 وقد تبين بالحزن ما يثاب صاحبه عليه ويحمد عليه فيكون محمودا من تلك الجهة لا من جهة الحزن كالحزين على مصيبة في دينه وعلى مصائب المسلمين عموما فهذا يثاب على ما في قلبه من حب الخير وبغض الشر وتوابع ذلك ولكن الحزن على ذلك اذا افضى الى ترك أمور من الصبر والجهاد وجلب منفعة ودفع مضرة نهى عنه والا كان حسب صاحبه رفع الاثم عنه من جهة الحزن واما ان افضى الى ضعف القلب واشتغاله به عن فعل ما امر الله ورسوله به كان مذموما عليه من تلك الجهة وان كان محمودا من جهة اخرى واما المحبة لله والتوكل عليه والاخلاص له ونحو ذلك فهذه كلها خير محض وهي حسنة محبوبة في حق كل احد من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ومن قال ان هذه المقامات تكون للعامّة دون الخاصة فقد غلط في ذلك ان اراد خروج الخاصة عنها فان هذه لا يخرج عنها مؤمن قط وانما يخرج عنها كافر او منافق وقد تكلم بعضهم في ذلك بكلام بينا غلظه فيه وانه تقصير في تحقيق هذه المقامات بكلام مبسوط وليس هذا موضعه¹

الالهامات الصادقة العادلة هي من وحي الله

قال تعالى { فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ } يوسف 15 فإن ما يلقيه الله في قلوب المؤمنين من الالهامات الصادقة العادلة هي من وحي الله وكذلك ما يريهم إياه في المنام قال عبادة بن الصامت رويًا المؤمن كلام يكلم به الرب عبده في منامه وقال عمر اقتربوا من أفواه المطيعين واسمعوا منهم ما يقولون فإنهم يتجلى لهم أمور صادقه وقد قال تعالى { وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي } المائدة 111 { وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى } القصص 7²

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 17

²مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 98

الإيمان وان تضمن التصديق فليس هو مرادفا له

فالإيمان في القلب لا يكون إيمانا بمجرد تصديق ليس معه عمل القلب وموجبه من محبة الله ورسوله ونحو ذلك كما أنه لا يكون إيمانا بمجرد ظن وهوى بل لا بد في أصل الإيمان من قول القلب وعمل القلب وليس لفظ الإيمان مرادفا للفظ التصديق كما يظنه طائفة من الناس فإن التصديق يستعمل في كل خبر فيقال لمن أخبر بالأمر المشهورة مثل الواحد نصف الاثنين والسماء فوق الأرض مجيبا صدقت وصدقنا بذلك ولا يقال آمنا لك ولا آمنا بهذا حتى يكون المخبر به من الأمور الغائبة فيقال للمخبر آمنا له وللمخبر به آمنا به كما قال إخوة يوسف **{ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا { يوسف 17** أي بمقر لنا ومصديق لنا لأنهم أخبروه عن غائب ومنه قوله تعالى **{ أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْضُونَ { الشعراء 111** وقوله تعالى **{ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ { التوبة 61**¹

و الإيمان وان تضمن التصديق فليس هو مرادفا له فلا يقال لكل مصدق بشيء انه مؤمن به فلو قال انا اصدق بأن الواحد نصف الاثنين وان السماء فوقنا والأرض تحتنا ونحو ذلك مما يشاهده الناس ويعلمونه لم يقل لهذا انه مؤمن بذلك بل لا يستعمل الا فيمن اخبر بشيء من الأمور الغائبة كقول إخوة يوسف **{ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا { يوسف 17** فانهم أخبروه بما غاب عنه وهم يفرقون بين من آمن له وآمن به فالاول يقال للمخبر والثاني يقال للمخبر به كما قال إخوة يوسف **{ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا { يوسف 17** وقال تعالى **{ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّنْ قَوْمِهِ { يونس 83** وقال تعالى **{ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤَدُّونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أَدْنَىٰ قُلُوبِنَا خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ { التوبة 61** ففرق بين ايمانه بالله وايمانه للمؤمنين لان المراد يصدق المؤمنين اذا أخبروه واما ايمانه بالله فهو من باب الاقرار به ومنه قوله تعالى عن فرعون وملئه **{ أَنْتُمْ لِبَشَرِينَ مِثْلِنَا { المؤمنون 47** اي نقر لهما ونصدقهما ومنه قوله **{ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ { البقرة 75** ومنه قوله تعالى **{ فَاَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي { العنكبوت 26** ومن المعنى الآخر قوله تعالى **{ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ { البقرة 3** وقوله **{ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ { البقرة 285** وقوله **{ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ { البقرة 177** اي اقر بذلك ومثل هذا في القرآن كثير²

الإيمان يقتضى طمأنينة وسكونا

قال تعالى **{ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذَّنْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ { يوسف 17** وقال الحسن البصري ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ولكن بما وفر في القلب وصدقه العمل ومنهم من يقول بل الإيمان هو الإقرار وليس هو مرادفا للتصديق فإن التصديق يقال على كل خبر عن شهادة

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 529

²مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 269 و الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 361

أو غيب وأما الإيمان فهو أخص منه فإنه قد قيل لخبر إخوة يوسف وما أنت بمؤمن لنا وقيل يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين إذ الإيمان بالنبي عليه الصلاة والسلام تصديق به والإيمان له تصديق له في ذلك الخبر وهذا في المخبر ويقال لمن قال الواحد نصف الاثنين والسماء فوق الأرض قد صدقت ولا يقال أمنت له ويقال أصدق بهذا ولا يقال أو من به إذ لفظ الإيمان أفعال من إلامن فهو يقتضي طمأنينة وسكونا فيما من شأنه أن يستريب فيه القلب فيخفق ويضطرب وهذا إنما يكون في الأخبار بالمغيبات لا بالمشاهدات¹

كل مقدمات تخالف بيان الله ورسوله فإنها تكون ضلالا

وأهل البدع إنما دخل عليهم الداخل لانهم أعرضوا عن هذه الطريق وصاروا يبنون دين الاسلام على مقدمات يظنون صحتها اما في دلالة الالفاظ وإما في المعانى المعقولة ولا يتأملون بيان الله ورسوله وكل مقدمات تخالف بيان الله ورسوله فإنها تكون ضلالا ولهذا تكلم أحمد في رسالته المعروفة في الرد على من يتمسك بما يظهر له من القرآن من غير استدلال ببيان الرسول والصحابة والتابعين وكذلك ذكر في رسالته الى ابي عبدالرحمن الجرجاني في الرد على المرجئة وهذه طريقة سائر أئمة المسلمين لا يعدلون عن بيان الرسول إذا وجدوا الى ذلك سبيلا ومن عدل عن سبيلهم وقع في البدع التي مضمونها أنه يقول على الله ورسوله ما لا يعلم أو غير الحق وهذا مما حرمه الله ورسوله وقال تعالى في الشيطان { إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } البقرة 169 وقال تعالى { أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ } الأعراف 169 وهذا من تفسير القرآن بالرأى الذي جاء فيه الحديث من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار مثال ذلك أن المرجئة لما عدلوا عن معرفة كلام الله ورسوله أخذوا يتكلمون في مسمى الايمان و الاسلام وغيرهما بطرق ابتدعوها مثل أن يقولوا الايمان في اللغة هو التصديق والرسول انما خاطب الناس بلغة العرب لم يغيرها فيكون مراده بالايمان التصديق ثم قالوا والتصديق انما يكون بالقلب واللسان أو بالقلب فالأعمال ليست من الإيمان ثم عمدتهم في أن الإيمان هو التصديق قوله { وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا } يوسف 17 أى بمصدق لنا فيقال لهم اسم الإيمان قد تكرر ذكره في القرآن والحديث أكثر من ذكر سائر الألفاظ وهو أصل الدين وبه يخرج الناس من الظلمات الى النور ويفرق بين السعداء والاشقياء ومن يوالى ومن يعادى والدين كله تابع لهذا وكل مسلم محتاج الى معرفة ذلك أفيجوز أن يكون الرسول قد أهمل بيان هذا كله ووكله الى هاتين المقدمتين ومعلوم أن الشاهد الذي استشهدوا به على أن الايمان هو التصديق أنه من القرآن ونقل معنى الإيمان متواتر عن النبي أعظم من تواتر لفظ الكلمة فان الايمان يحتاج الى معرفة جميع الأمة فينقلونه بخلاف كلمة من سورة فأكثر المؤمنين لم يكونوا يحفظون هذه السورة فلا يجوز أن يجعل بيان أصل الدين مبنيا على مثل هذه المقدمات ولهذا كثر النزاع والاضطراب بين الذين عدلوا عن صراط الله المستقيم وسلكوا السبل وصاروا من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ومن الذين تفرقوا واختلّفوا من بعد ما جاءتهم البينات فهذا كلام عام مطلق ثم يقال هاتان المقدمتان كلاهما ممنوعة فمن الذى قال أن لفظ الايمان مرادف للفظ التصديق وهب أن المعنى يصح اذا استعمل في هذا الموضع فلم قلت أنه يوجب الترادف ولو قلت ما أنت بمسلم لنا ما أنت بمؤمن لنا صح المعنى لكن لم قلت ان هذا هو المراد بلفظ مؤمن واذا قال الله أقيموا الصلاة ولو

¹العقيدة الأصفهانية ج: 1 ص: 181

قال القائل أتوموا الصلاة ولازموا الصلاة التزموا الصلاة افعلوا الصلاة كان المعنى صحيحا لكن لا يدل هذا على معنى أقيموا فكون اللفظ يرادف اللفظ يراد دلالاته على ذلك ثم يقال ليس هو مرادفا له وذلك من وجوه أحدها أن يقال للمخبر اذا صدقته صدقه ولا يقال آمنه وآمن به بل يقال آمن له كما قال {فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ} العنكبوت 26 وقال {فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ} يونس 83 وقال فرعون {أَمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ} طه 71 وقالوا لنوح {أَنْتُمْ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَالُونَ} الشعراء 111 وقال تعالى {قُلْ أُنذِرَ خَيْرَ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ} التوبة 61 {فَقَالُوا أَنْتُمْ لِيَسْرَيْنَ مِثْلَنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ} المؤمنون 47 وقال {وَإِنْ لَّمْ تُوْمِنُوا لِي فَاَعْتِزْلُونِ} الدخان 21 فان قيل فقد يقال ما أنت بمصدق لنا قيل اللام تدخل على ما يتعدى بنفسه اذا ضعف عمله اما بتأخيره أو بكونه اسم فاعل أو مصدرا أو باجتماعهما فيقال فلان يعبد الله ويخافه ويتقيه ثم اذا ذكر باسم الفاعل قيل هو عابد لربه متق لربه خائف لربه وكذلك تقول فلان يرهب الله ثم تقول هو راهب لربه واذا ذكرت الفعل واخرته تقويه باللام كقوله {وَفِي نَسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةً لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْتَابُونَ} الأعراف 154 وقد قال {فَإِيَّايَ فَارْهَبُونَ} النحل 51 فعدها بنفسه وهناك ذكر اللام فان هنا قوله {فَإِيَّايَ} النحل 51 أتم من قوله فلي وقوله هنا لك {لِرَبِّهِمْ} الأعراف 154 أتم من قوله ربهم فان الضمير المنفصل المنصوب أكمل من ضمير الجر بالياء وهناك اسم ظاهر فتقويته باللام أولى وأتم من تجريده ومن هذا قوله {وَإِنَّهُمْ لَنَا لِعَائِدُونَ} الشعراء 55 وإنما يقال غظته لا يقال غظت له ومثله كثير فيقول القائل ما أنت بمصدق لنا ادخل فيه اللام لكونه اسم فاعل والا فانما يقال صدقته لا يقال صدقت له ولو ذكروا الفعل لقالوا ما صدقتنا وهذا بخلاف لفظ الايمان فإنه تعدى الى الضمير باللام دائما لا يقال آمنته قط وإنما يقال آمنت له كما يقال أقررت له فكان تفسيره بلفظ الإقرار أقرب من تفسيره بلفظ التصديق مع أن بينهما فرقا الثاني أنه ليس مرادفا للفظ التصديق في المعنى فان كل مخبر عن مشاهدة أو غيب يقال له في اللغة صدقت كما يقال كذبت فمن قال السماء فوقنا قيل له صدق كما يقال كذب وأما لفظ الايمان فلا يستعمل إلا في الخبر عن غائب لم يوجد في الكلام أن من أخبر عن مشاهدة كقوله طلعت الشمس وغربت أنه يقال آمنه كما يقال صدقناه ولهذا المحدثون والشهود ونحوهم يقال صدقناهم وما يقال آمننا لهم فان الايمان مشتق من الأمن فانما يستعمل في خبر يؤتمن عليه المخبر كالأمر الغائب الذي يؤتمن عليه المخبر ولهذا لم يوجد قط في القرآن وغيره لفظ آمن له الا في هذا النوع والاثان اذا اشتركا في معرفة الشيء يقال صدق أحدهما صاحبه ولا يقال آمن له لأنه لم يكن غائبا عنه ائتمنه عليه ولهذا قال {فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ} العنكبوت 26 {أَنْتُمْ لِيَسْرَيْنَ مِثْلَنَا} المؤمنون 47 {أَمَنْتُمْ لَهُ} طه 71 {يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ} التوبة 61 فيصدقهم فيما أخبروا به مما غاب عنه وهو مأمون عنده على ذلك فاللفظ متضمن مع التصديق ومعنى الإئتمان والأمانة كما يدل عليه الاستعمال والاشتقاق ولهذا قالوا **{وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا} يوسف 17** أى لا تقر بخبرنا ولا تثق به ولا تطمئن اليه ولو كنا صادقين لأنهم لم يكونوا عنده ممن يؤتمن على ذلك فلو صدقوا لم يأمن لهم الثالث أن لفظ الايمان في اللغة لم يقابل بالتكذيب كلفظ التصديق فانه من المعلوم في اللغة أن كل مخبر يقال له صدقت أو كذبت ويقال صدقناه أو كذبناه ولا يقال لكل مخبر آمننا له أو كذبناه ولا يقال أنت مؤمن له أو مكذب له بل المعروف في مقابلة الايمان لفظ الكفر يقال هو مؤمن أو كافر والكفر لا يختص بالتكذيب بل لو قال أنا أعلم أنك صادق لكن لا أتبعك بل أعاديك وأبغضك وأخالفك ولا أوافقك لكان كفره أعظم فلما كان الكفر المقابل للايمان ليس هو التكذيب فقط علم أن الايمان ليس هو التصديق فقط بل اذا كان الكفر يكون تكديبا ويكون مخالفة ومعاداة وامتناعا بلا تكذيب فلا بد أن يكون الايمان تصديقا مع موافقة وموالاتة وانقياد لا يكفى مجرد التصديق فيكون الاسلام جزء مسمى الايمان كما كان الامتناع من

الانقياد مع التصديق جزء مسمى الكفر فيجب أن يكون كل مؤمن مسلماً منقاداً للأمر وهذا هو العمل فان قيل فالرسول فسر الإيمان بما يؤمن به قيل فالرسول ذكر ما يؤمن به لم يذكر ما يؤمن له وهو نفسه يجب أن يؤمن به ويؤمن له فالإيمان به من حيث ثبوته غيب عنا أخبرنا به وليس كل غيب أمنا به علينا أن نطيعه وأما ما يجب من الإيمان له فهو الذي يوجب طاعته والرسول يجب الإيمان به وله فينبغي أن يعرف هذا وأيضاً فان طاعته طاعة الله وطاعة الله من تمام الإيمان به الرابع أن من الناس من يقول الإيمان أصله في اللغة من الأمن الذي هو ضد الخوف فأمن أى صار داخلاً في الأمن وأنشدوا وأما المقدمة الثانية فيقال إنه إذا فرض أنه مرادف للتصديق فقولهم أن التصديق لا يكون إلا بالقلب أو اللسان عنه جوابان أحدهما المنع بل الأفعال تسمى تصديقا كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال العينان تزنيان وزناهما النظر والأذن تزني وزناها السمع واليد تزني وزناها البطش والرجل تزني وزناها المشى والقلب يتمنى ذلك ويشتهى والفرج يصدق ذلك أو يكذبه وكذلك قال أهل اللغة وطوائف من السلف والخلف قال الجوهري والصديق مثال الفسيق الدائم التصديق ويكون الذي يصدق قوله بالعمل وقال الحسن البصرى ليس الإيمان بالتحلى ولا بالتمنى ولكنه ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال وهذا مشهور عن الحسن يروى عنه من غير وجه كما رواه عباس الدوري حدثنا حجاج حدثنا أبو عبيدة الناجي عن الحسن قال ليس الإيمان بالتحلى ولا بالتمنى ولكن ما وقر في القلب وصدقته الأعمال من قال حسنا وعمل غير صالح رد الله عليه قوله ومن قال حسنا وعمل صالحا رفعه العمل ذلك بأن الله يقول {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} فاطر 10 ورواه ابن بطة من الوجهين وقوله ليس الإيمان بالتمنى يعنى الكلام وقوله بالتحلى يعنى أن يصير حلية ظاهرة له فيظهره من غير حقيقة من قلبه ومعناه ليس هو ما يظهر من القول ولا من الحلية الظاهرة ولكن ما وقر في القلب وصدقته الاعمال فالعمل يصدق أن في القلب ايماناً واذا لم يكن عمل كذب ان في قلبه ايماناً لأن ما في القلب مستلزم للعمل الظاهر وانتفاء اللازم يدل على انتفاء الملزوم¹

طمع العبد في ربه ورجاؤه له يوجب عبوديته له

قال تعالى { وَجَاؤُوا آبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ } {16} قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الدَّبَابُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ } {17} وَجَاؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ } {18} يوسف 16-18

وقد دلت النصوص على الامر بمسألة الخالق والنهي عن مسألة المخلوق في غير موضع كقوله تعالى { فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ } {7} وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ } {8} الشرح 7-8 وقول النبي لابن عباس اذا سألت فاسأل الله واذا استعنت فاستعن بالله ومنه قول الخليل { فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ } العنكبوت 17 ولم يقل فابتغوا الرزق عند الله لأن تقديم الظرف يشعر بالاختصاص والحصر كانه

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 288-294

قال لا تبتغوا الرزق الا عند الله وقد قال تعالى { وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ } النساء 32 والانسان لا بد له من حصول ما يحتاج اليه من الرزق ونحوه ودفع ما يضره وكلا الامرين شرع له ان يكون دعاؤه لله فله ان يسأل الله واليه يشتكى كما قال يعقوب عليه السلام { إِنَّمَا أَشْكُو بَنِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ } يوسف 86 والله تعالى ذكر في القرآن الهجر الجميل و الصبح الجميل و الصبر الجميل وقد قيل ان الهجر الجميل هو هجر بلا اذى والصبح الجميل صبح بلا معاتبة والصبر الجميل صبر بغير شكوى الى المخلوق ولهذا قرىء على احمد بن حنبل في مرضه ان طاوسا كان يكره انين المريض ويقول انه شكوى فما ان احمد حتى مات واما الشكوى الى الخالق فلا تنافى الصبر الجميل فان يعقوب قال { فَصَبْرٌ جَمِيلٌ } يوسف 83 وقال { إِنَّمَا أَشْكُو بَنِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ } يوسف 86 وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقرأ في الفجر بسورة يونس و يوسف و النحل فمر بهذه الآية في قراءته فبكى حتى سمع نشيجه من آخر الصفوف ومن دعاء موسى اللهم لك الحمد واليك المشتكى وانت المستعان وبك المستغاث وعليك التكلان ولا حول ولا قوة الا بك وفي الدعاء الذي دعا به النبي لما فعل به اهل الطائف ما فعلوا اللهم اليك اشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس انت رب المستضعفين وانت ربي اللهم الى من تكلنى الى بعيد يتجهمنى ام الى عدو ملكته امري ان لم يكن بك غضب علي فلا ابالي غير ان عاقبتك اوسع لي اعوذ بنور وجهك الذي اشرقت به الظلمات وصلح عليه امر الدنيا والآخرة ان ينزل بي سخطك او يحل علي غضبك لك العتبي حتى ترضى فلا حول ولا قوة الا بك وفي بعض الروايات ولا حول ولا قوة الا بك وكلما طمع العبد في فضل الله ورحمته ورجائه لقضاء حاجته ودفع ضرورته قويت عبوديته له وحرريته مما سواه فكما ان طمعه في المخلوق يوجب عبوديته له فيأسه منه يوجب غنى قلبه عنه كما قيل استغن عن شئت تكن نظيره وافضل على من شئت تكن اميره واحتج الى من شئت تكن اسيره فكذلك طمع العبد في ربه ورجاؤه له يوجب عبوديته له واعراض قلبه عن الطلب من غير الله والرجاء له يوجب انصراف قلبه عن العبودية لله لا سيما من كان يرجو المخلوق ولا يرجو الخالق بحيث يكون قلبه معتمدا اما على رئاسته وجنوده واتباعه ومماليكه واما على اهله واصدقائه واما على امواله وذخائره واما على ساداته وكبرائه كماله وملكه وشيخه ومخدومه وغيرهم ممن هو قد مات او يموت قال تعالى { وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا } الفرقان 58¹

الشكوى إلى الله لا تنافى الصبر الجميل

قال تعالى { لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلَّذِينَ عَلَّمُوا } يوسف 7 { إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ } يوسف 8 { أَفْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ } يوسف 9 { قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْفُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ } يوسف 10 { قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ } يوسف 11 { أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } يوسف 12 { قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنَّ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّنْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ } يوسف 13 { قَالُوا لَئِن أَكَلَهُ الذَّنْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ } يوسف 14 { فَلَمَّا ذَهَبُوا

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 183-187 و الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 99-100

بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ {15} وَجَاءُوا آبَاءَهُمْ عِشَاءَ يَبْكُونَ {16} قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذَّنْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ {17} وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ {18} يوسف 16-18

في قوله تعالى { فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ } يوسف 18 فإن الله أمر نبيه بالهجر الجميل والصفح الجميل والصبر الجميل فالهجر الجميل هجر بلا أذى و الصفح الجميل صفح بلا عتاب و الصبر الجميل صبر بلا شكوى قال يعقوب عليه الصلاة والسلام {إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ} يوسف 86 مع قوله { فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ } يوسف 18 فالشكوى إلى الله لا تنافي الصبر الجميل ويروى عن موسى عليه السلام أنه كان يقول اللهم لك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان وبك المستغاث وعليك التكلان ومن دعاء النبي اللهم إليك اشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهوانى على الناس أنت رب المستضعفين وانت ربي اللهم إلى من تكلني إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمرى أن لم يكن بك غضب على فلا أبالي غير أن عافيتك هي أوسع لي أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بي سخطك أو يحل على غضبك لك العتبي حتى ترضى وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقرأ في صلاة الفجر إنما اشكو بئى وحزنى إلى الله ويبيكى حتى يسمع نشيجه من آخر الصفوف بخلاف الشكوى إلى المخلوق قرىء على الإمام أحمد فى مرض موته إن طاووسا كره انين المريض وقال أنه شكوى فما أن حتى مات وذلك ان المشتكى طالب بلسان الحال إما إزالة ما يضره أو حصول ما ينفعه والعبد مأمور أن يسأل ربه دون خلقه كما قال تعالى { فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ } {7} وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ } {8} الشرح 7-8 وقال صلى الله عليه وسلم لإبن عباس إذا سألت فاسأل الله وإذا إستعنت فإستعن بالله ولا بد للإنسان من شيئين طاعته بفعل المأمور وترك المحذور وصبره على ما يصيبه من القضاء المقدر فالأول هو التقوى والثانى هو الصبر قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا } آل عمران 118 إلى قوله { وَإِنْ تَصَبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ } آل عمران 120 وقال تعالى { بَلَىٰ إِنْ تَصَبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ } آل عمران 125 وقال تعالى { لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصَبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } آل عمران 186 وقد قال يوسف { أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } يوسف 90 ولهذا كان الشيخ عبد القادر الجيلاني ونحوه من المشائخ المستقيمين يوصون في عامة كلامهم بهذين الأصلين المسارعة إلى فعل المأمور والتقاعد عن فعل المحذور والصبر والرضا بالأمر المقدر وذلك أن هذا الموضع غلط فيه كثير من العامة بل ومن السالكين فمنهم من يشهد القدر فقط ويشهد الحقيقة الكونية دون الدينية فيرى أن الله خالق كل شيء وربّه ولا يفرق بين ما يحبه الله ويرضاه وبين ما يسخطه ويبغضه وإن قدره وقضاه ولا يميز بين توحيد الألوهية وبين توحيد الربوبية فيشهد الجمع الذي يشترك فيه جميع المخلوقات سعيدها وشقيها مشهد الجمع الذي يشترك فيه المؤمن والكافر والبر والفاجر والنبي الصادق والمنتبىء الكاذب وأهل الجنة وأهل النار وأولياء الله وأعداؤه والملائكة المقربون والمردة الشياطين فإن هؤلاء كلهم يشتركون في هذا الجمع وهذه الحقيقة الكونية وهو أن الله ربهم وخالقهم وملئكم لا رب لهم غيره ولا يشهد الفرق الذي فرق الله به بين أوليائه وأعدائه وبين المؤمنين والكافرين والأبرار والفجار وأهل

الجنة والنار وهو توحيد الألوهية وهو عبادته وحده لا شريك له وطاعته رسوله وفعل ما يحبه ويرضاه وهو ما أمر به ورسوله أمر بإيجاب أو أمر استحباب وترك ما نهى الله عنه ورسوله وموالاته وأوليائه ومعاداة أعدائه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجهاد الكفار والمنافقين بالقلب واليد واللسان فمن لم يشهد هذه الحقيقة الدينية الفارقة بين هؤلاء وهؤلاء ويكون مع أهل الحقيقة الدينية وإلا فهو من جنس المشركين وهو شر من اليهود والنصارى فإن المشركين يقرون بالحقيقة الكونية إذ هم يقرون بأن الله رب كل شيء كما قال تعالى {وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ} العنكبوت 61 وقال تعالى {قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} {84} سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} {85} قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} {86} سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ} {87} قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} {88} سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ} {89} المؤمنون 84-89 ولهذا قال سبحانه {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ} يوسف 106 قال بعض السلف تسألهم من خلق السموات والأرض فيقولون الله وهم مع هذا يعبدون غيره فمن أقر بالقضاء والقدر دون الأمر والنهي الشرعيين فهو أكفر من اليهود والنصارى فإن أولئك يقرون بالملائكة والرسول الذين جاؤوا بالأمر والنهي الشرعيين لكن آمنوا ببعض وكفروا ببعض كما قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا} {150} أولئك هم الكافرون حقا وأعدنا للكافرين عذابا مهينا} {151} النساء 150-151 وأما الذي يشهد الحقيقة الكونية وتوحيد الربوبية الشامل للخلق ويقر أن العباد كلهم تحت القضاء والقدر ويسلك هذه الحقيقة فلا يفرق بين المؤمنين والمتقين الذين أطاعوا أمر الله الذي بعث به رسله وبين من عصى الله ورسوله من الكفار والفجار فهؤلاء أكفر من اليهود والنصارى لكن من الناس من قد لمحوا الفرق في بعض الأمور دون بعض بحيث يفرق بين المؤمن والكافر ولا يفرق بين البر والفاجر أو يفرق بين بعض الأبرار وبين بعض الفجار ولا يفرق بين آخرين اتباعا لظنه وما يهواه فيكون ناقص الإيمان بحسب ما سوى بين الأبرار والفجار ويكون معه من الإيمان بدين الله تعالى الفارق بحسب ما فرق بين أوليائه وأعدائه ومن أقر بالأمر والنهي الدينيين دون القضاء والقدر كان من القدرية كالمعتزلة وغيرهم الذين هم مجوس هذه الأمة فهؤلاء يشبهون المجوس وأولئك يشبهون المشركين الذين هم شر من المجوس ومن أقر بهما وجعل الرب متناقضا فهو من أتباع إبليس الذي اعترض على الرب سبحانه وخاصمه كما نقل ذلك عنه فهذا التقسيم في القول والاعتقاد وكذلك هم في الأحوال والأفعال فالصواب منها حالة المؤمن الذي يتقي الله فيفعل المأمور ويترك المحذور ويصبر على ما يصيبه من المقذور فهو عند الأمر والنهي والدين والشريعة ويستعين بالله على ذلك كما قال تعالى {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} {الفاتحة} 5 وإذا أذنب استغفر وتاب لا يحتج بالقدر على ما يفعله من السيئات ولا يرى للمخلوق حجة على رب الكائنات بل يؤمن بالقدر ولا يحتج به كما في الحديث الصحيح الذي فيه سيد الاستغفار أن يقول العبد اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت فيقر بنعمة الله عليه في الحسنات ويعلم أنه هو هداه ويسره ليسرى ويقر بذنوبه من السيئات ويتوب منها كما قال بعضهم أعطتك بفضلك والمنة لك وعصيتك بعلمك والحجة لك فأسألك بوجوب حجتك علي وانقطاع حجتني إلا غفرت لي وفي الحديث الصحيح الإلهي يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه وهذا له تحقيق مبسوط في غير هذا الموضع وآخرون قد يشهدون الأمر فقط فتجدهم يجتهدون في الطاعة حسب

الاستطاعة لكن ليس عندهم من مشاهدة القدر ما يوجب لهم حقيقة الاستعانة والتوكل والصبر وآخرون يشهدون القدر فقط فيكون عندهم من الاستعانة والتوكل والصبر ما ليس عند أولئك لكنهم لا يلتزمون أمر الله ورسوله واتباع شريعته وملازمة ما جاء به الكتاب والسنة من الدين فهؤلاء يستعينون الله ولا يعبدونه والذين من قبلهم يريدون أن يعبدوه ولا يستعينوه والمؤمن يعبده ويستعينه والقسم الرابع شر الأقسام وهو من لا يعبد ولا يستعينه فلا هو مع الشريعة الأمرية ولا من القدر الكوني وانقسامهم إلى هذه الأقسام هو فيما يكون قبل وقوع المقدور من توكل واستعانة ونحو ذلك وما يكون بعده من صبر ورضا ونحو ذلك فهم في التقوى وهي طاعة الأمر الديني والصبر على ما يقدر عليه من القدر الكوني أربعة أقسام أحدها أهل التقوى والصبر وهم الذين أنعم الله عليهم من أهل السعادة في الدنيا والآخرة والثاني الذين لهم نوع من التقوى بلا صبر مثل الذين يمتثلون ما عليهم من الصلاة ونحوها ويتركون المحرمات لكن إذا أصيب أحدهم في بدنه بمرض ونحوه أو في ماله أو في عرض أو ابتلي بعدو يخيفه عظم جزعه وظهر هلعه والثالث قوم له نوع من الصبر بلا تقوى مثل الفجار الذين يصبرون على ما يصيبهم في مثل أهوائهم كاللصوص والقطاع الذين يصبرون على الآلام في مثل ما يطلبونه من الغضب وأخذ الحرام والكتاب وأهل الديوان الذين يصبرون على ذلك في طلب ما يحصل لهم من الأموال بالخيانة وغيرها وكذلك طلاب الرئاسة والعلو على غيرهم يصبرون من ذلك على أنواع من الأذى التي لا يصبر عليها أكثر الناس وكذلك أهل المحبة للصور المحرمة من أهل العشق وغيرهم يصبرون في مثل ما يهونه من المحرمات على أنواع من الأذى والآلام وهؤلاء هم الذين يريدون علوا في الأرض أو فسادا من طلاب الرئاسة والعلو على الخلق ومن طلاب الأموال بالبغي والعدوان والاستمتاع بالصور المحرمة نظرا أو مباشرة وغير ذلك يصبرون على أنواع من المكروهات ولكن ليس لهم تقوى فيما تركوه من المأمور وفعلوه من المحظور وكذلك قد يصبر الرجل على ما يصيبه من المصائب كالمرض والفقر وغير ذلك ولا يكون فيه تقوى إذا قدر وأما القسم الرابع فهو شر الأقسام لا يتقون إذا قدروا ولا يصبرون إذا ابتلوا بل هم كما قال الله تعالى {إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا} {19} إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا} {20} وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا} {21} المعارج 19- 21 فهؤلاء تجدهم من أظلم الناس وأجبرهم إذا قدروا ومن أذل الناس وأجزعهم إذا قهروا إن قهرتهم ذلوا لك وناقفوك وحابوك واسترحموك ودخلوا فيما يدفعون به عن أنفسهم من أنواع الكذب والذل وتعظيم المسؤول وإن قهروك كانوا من أظلم الناس وأقساهم قلبا وأقلهم رحمة وإحسانا وعفوا كما قد جربه المسلمون في كل من كان عن حقائق الإيمان أبعد مثل التتار الذين قاتلهم المسلمون ومن يشبههم في كثير من أمورهم وإن كان متظاهرا بلباس جند المسلمين وعلمائهم وزهادهم وتجارهم وصناعهم فالاعتبار بالحقائق فإن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم فمن كان قلبه وعمله من جنس قلوب التتار وأعمالهم كان شبيها لهم من هذا الوجه وكان ما معه من الإسلام أو ما يظهره منه بمنزلة ما معهم من الإسلام وما يظهره منه بل يوجد في غير التتار المقاتلين من المظهرين للإسلام من هو أعظم ردة وأولى بالأخلاق الجاهلية وأبعد عن الأخلاق الإسلامية من التتار وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول في خطبته خير الكلام كلام الله وخير الهدي هدي محمد وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة وإذا كان خير الكلام كلام الله وخير الهدي هدي محمد فكل من كان إلى ذلك أقرب وهو به أشبه كان إلى الكمال أقرب وهو به أحق ومن كان عن ذلك أبعد وشبهه به أضعف كان عن الكمال أبعد وبالباطل أحق والكمال هو من كان لله أطوع وعلى ما يصيبه أصبر فكلما كان أتبع لما يأمر الله به ورسوله وأعظم موافقة لله فيما يحبه ويرضاه وصبرا على ما قدره وقضاه كان أكمل وأفضل وكل من نقص عن هذين كان فيه من النقص بحسب ذلك

وقد ذكر الله تعالى الصبر والتقوى جميعاً في غير موضع من كتابه وبين أنه ينتصر العبد على عدوه من الكفار المحاربيين المعاندين والمنافقين وعلى من ظلمه من المسلمين ولصاحبه تكون العاقبة قال الله تعالى {بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ} آل عمران 125 وقال الله تعالى {لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} آل عمران 186 وقال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُوا مَا عَنْتُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ} {118} هَآأَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْعِظِ قُلْ مُؤْتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} {119} إِنْ تَمَسَّسَكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} {120} آل عمران 118-120 وقال إخوة يوسف له {أَأَنْتَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} يوسف 90 وقد قرن الصبر بالأعمال الصالحة عموماً وخصوصاً فقال تعالى {وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ} يونس 109 وفي اتباع ما أوحى إليه التقوى كلها تصديقا لخبر الله وطاعة لأمره وقال تعالى {وَاقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ} {114} وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} {115} هود 114 - 115 وقال تعالى {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ} غافر 55 وقال تعالى {فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ} طه 130 وقال تعالى {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ} البقرة 45 وقال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} البقرة 153 فهذه مواضع قرن فيه الصلاة والصبر وقرن بين الرحمة والصبر في مثله قوله تعالى {وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ} {البلد 17} وفي الرحمة والإحسان إلى الخلق بالزكاة وغيرها فإن القسمة أيضا رباعية إذ من الناس من يصبر ولا يرحم كأهل القوة والقسوة ومنهم من يرحم ولا يصبر كأهل الضعف واللين مثل كثير من النساء ومن يشبههن ومنهم من لا يصبر ولا يرحم كأهل القسوة والهلع والمحمود هو الذي يصبر ويرحم كما قال الفقهاء في المتولي ينبغي أن يكون قويا من غير عنف لينا من غير ضعف فبصبره يقوى وبلينه يرحم وبالصبر ينصر العبد فإن النصر مع الصبر وبالرحمة يرحمه الله تعالى كما قال النبي صلى الله عليه وسلم إنما يرحم الله من عباده الرحماء وقال من لا يرحم لا يرحم وقال لا تنزع الرحمة إلا من شقي وقال الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء والله أعلم انتهى¹

يجيء الوصف في القرآن مستعملا في الكذب

¹دقائق التفسير ج: 2 ص: 294-301 و مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 666-668 و الفتاوى الكبرى ج: 2 ص:

382 و مجموع الفتاوى ج: 24 ص: 284

قال تعالى { وَجَاؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ } {18} يوسف 18 فالواصف ان لم يكن قوله مطابقا كان كاذبا ولهذا انما يجيء الوصف في القرآن مستعملا في الكذب بأنه وصف يقوم بالواصف من غير أن يقوم بالموصوف شيء كقوله سبحانه { سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ } { الأنعام 139 } { وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لَتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ } { النحل 116 } { سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ } { الأنعام 100 } وقد جاء مستعملا في الصدق فيما أخرجاه في الصحيحين عن عائشة أن رجلا كان يكثر قراءة قل هو الله أحد فقال النبي سلوه لم يفعل ذلك فقال لأنها صفة الرحمن فأنا أحبها فقال النبي صلى الله عليه وسلم أخبروه ان الله يحبه¹

لطائف لغوية

1- قال تعالى { وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } { يوسف 6 } عليم منزه عن الجهل حكيم منزه عن السفه²

2- قال تعالى { وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } { يوسف 6 } آل فلان إذا أطلق في الكتاب والسنة دخل فيه فلان كما في قوله { إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ } { آل عمران 33 } وقوله { إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ } { القمر 34 } وقوله { ادْخُلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ } { غافر 46 } وقوله { سَلَامٌ عَلَى آلِ يَاسِينَ } { الصافات 130 } ومنه قوله صلى الله عليه وسلم اللهم صل على آل أبي أوفى وكذلك لفظ أهل البيت كقوله تعالى { رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ } { هود 73 } فإن إبراهيم داخل فيهم وكذلك قوله من سره ان يكتال بالمكيال الأوفى إذا صلى علينا أهل البيت فليقل الله صل على محمد النبي الحديث وسبب ذلك أن لفظ الآل أصله أول تحركت الواو وانفتح ما قبلها فقلبت ألفا فقل آل ومثله باب وناب وفي الأفعال قال وعاد ونحو ذلك ومن قال أصله أهل فقلبت الهاء الفاء فقد غلط فإنه قال مالا دليل عليه وإدعى القلب الشاذ بغير حجة مع مخالفته للأصل وأيضا فإن لفظ أهل يضيفونه إلى الجماد وإلى غير المعظم كما يقولون أهل البيت وأهل المدينة وأهل الفقير وأهل المسكين وإما الآل فإنما يضاف إلى معظم من شأنه أن يؤول غيره أو يسوسه فيكون مآله إليه ومنه الإيالة وهي السياسة فال

¹مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 319

²الجواب الصحيح ج: 4 ص: 407

الشخص هم من يؤوله ويؤول إليه ويرجع إليه ونفسه هي أول وأولى من يسوسه ويؤول إليه فلهذا كان لفظ آل فلان متناولاً له ولا يقال هو مختص به بل يتناوله ويتناول من يؤوله¹

¹مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 463

يوسف 19-34

{ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غَلَامٌ وَأَسْرُوهُ بَضَاعَةً
وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ } 19 { وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ
الزَّاهِدِينَ } 20 { وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ
نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى
أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } 21 { وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نُجْزِي
الْمُحْسِنِينَ } 22 { وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ
قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ } 23 { وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا
لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا
الْمُخْلِصِينَ } 24 { وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا
جِزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } 25 { قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي
وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قَبْلِ فَصِدْقٍ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ } 26 { وَإِنْ
كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذِبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ } 27 { فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ
إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ } 28 { يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكَ كُنْتَ
مِنَ الْخَاطِئِينَ } 29 { وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا
حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ } 30 { فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا
وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سَكِينًا وَقَالَتْ أُخْرَجَ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ
حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ } 31 { قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ
رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرَهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ } 32 {
قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ
مِّنَ الْجَاهِلِينَ } 33 { فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } 34

احتمال الهوان والأذى في طاعة الله على الكرامة والعز في معصية الله

قول يوسف لما قالت له امرأة العزيز { هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ
الظَّالِمُونَ } يوسف 23 المراد بربه في أصح القولين هنا سيده وهو زوجها الذي اشتراه من مصر
الذي قال لامرأته { أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا } يوسف 21 قال الله تعالى {
وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ } يوسف 21 فلما وصى به امرأته فقال لها { أَكْرِمِي مَثْوَاهُ } يوسف 21 قال يوسف
{ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ } يوسف 23 ولهذا قال { إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ } يوسف 23 والضمير في
انه معلوم بينهما وهو سيدها وأما قوله تعالى { لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ } يوسف 24 فهذا خبر
من الله تعالى أنه رأى برهان ربه وربه هو الله كما قال لصاحبي السجن { ذَلِكَ مَا عَلَّمَنِي رَبِّي
إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ } يوسف 37 وقوله ربي مثل
قوله لصاحب الرؤيا { اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ } يوسف 42 قال تعالى { فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ

{ يوسف 42 قيل أنسى يوسف ذكر ربه لما قال { اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ } يوسف 42 وقيل بل الشيطان أنسى الذي نجا منهما ذكر ربه وهذا هو الصواب فإنه مطابق لقوله { اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ } يوسف 42 قال تعالى { فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ } يوسف 42 والضمير يعود إلى القريب إذا لم يكن هناك دليل على خلاف ذلك ولأن يوسف لم ينس ذكر ربه بل كان ذاكرا لربه وقد دعاها قبل الرؤيا إلى الإيمان بربه وقال لهما { يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ } {39} مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } {40} يوسف 39-40 وقال لهما قبل ذلك { لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ } يوسف 37 أي في الرؤيا { إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا } يوسف 37 يعني التأويل { ذَلِكُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ } {37} وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ } {38} يوسف 37-38 فبهذا يذكر ربه عز وجل فإن هذا مما علمه ربه لأنه ترك ملة قوم مشركين لا يؤمنون بالله وإن كانوا مقرين بالصانع ولا يؤمنون بالآخرة واتبع ملة آباءه أئمة المؤمنين الذين جعلهم الله أئمة يدعون بأمره إبراهيم واسحق ويعقوب فذكر ربه ثم دعاها إلى الإيمان بربه ثم بعد هذا عبر الرؤيا فقال { يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَمَا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا } {41} يوسف 41 الآية ثم قضى تأويل الرؤيا { وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ } يوسف 42 فكيف يكون قد أنسى الشيطان يوسف ذكر ربه وإنما أنسى الشيطان الناجي ذكر ربه أي الذكر المضاف إلى ربه قالوا كان الأولى ان يتوكل على الله ولا يقول اذكرني عند ربك فلما نسي أن يتوكل على ربه جوزي بلبثه في السجن بضع سنين فيقال ليس في قوله { اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ } يوسف 42 ما يناقض التوكل بل قد قال يوسف { إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ } يوسف 40 كما أن قول أبيه { لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ } يوسف 67 لم يناقض توكله بل قال { وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ } يوسف 67 و أيضا فيوسف قد شهد الله له أنه من عباده المخلصين والمخلص لا يكون مخلصا مع توكله على غير الله فإن ذلك شرك ويوسف لم يكن مشركا لا في عبادته ولا توكله بل قد توكل على ربه في فعل نفسه بقوله { وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ } يوسف 33 فكيف لا يتوكل عليه في أفعال عباده وقوله { اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ } يوسف 42 مثل قوله لربه { اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ } يوسف 55 فلما سأل الولاية للمصلحة الدينية لم يكن هذا مناقضا للتوكل ولا هو من سؤال الامارة المنهي عنه فكيف يكون قوله للفتى { اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ } يوسف 42 مناقضا للتوكل وليس فيه إلا مجرد إخبار الملك به ليعلم حاله ليتبين الحق ويوسف كان من اثبت الناس ولهذا بعد أن طلب { وَقَالَ الْمَلِكُ انثُنِي بِهِ } يوسف 50 قال { ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النَّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ } يوسف 50 فيوسف يذكر ربه في هذه الحال كما ذكره في تلك ويقول { ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ } يوسف 50 فلم يكن في قوله له { اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ } يوسف 42 ترك الواجب ولا فعل لمحرم حتى يعاقبه الله على ذلك بلبثه في السجن بضع سنين وكان القوم قد عزموا على حبسه إلى حين قبل هذا ظلما له مع علمهم ببراءته من الذنب قال الله تعالى { ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَجْنُهُنَّ حَتَّىٰ حِينٍ } يوسف 35 ولبثه في السجن كان كرامة من الله في حقه ليعلم بذلك صبره وتقواه فإنه بالصبر والتقوى نال ما نال ولهذا قال { أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهُ لَا يَضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } يوسف 90 ولو لم يصبر ويتق بل أطاعهم فيما طلبوا منه

جزعا من السجن لم يحصل له هذا الصبر والتقوى وفاته الأفضل باتفاق الناس لكن تنازع العلماء هل يمكن الإكراه على الفاحشة على قولين قيل لا يمكن كقوله أحمد بن حنبل وأبي حنيفة وغيرها قالوا لأن الإكراه يمنع الإنتشار والثاني يمكن وهو قول مالك والشافعي وابن عقيل وغيره من أصحاب أحمد لأن الإكراه لا ينافي الانتشار فإن الإكراه ينافي كون الفعل إختيارا بل المكره يختار دفع أعظم الشرين بالتزام ادناهما وأيضا فالانتشار بلا فعل منه بل قد يقيد ويضع فتباشره المرأة فتنتشر شهوته فتستدخل ذكره فعلى قول الأولين لم يكن يحل له ما طلبت منه بحال وعلى القول الثاني فقد يقال الحبس ليس باكراه يبيح الزنا بخلاف ما لو غلب على ظنه أنهم يقتلونه أو يتلفون بعض أعضائه فالنزاع إنما هو في هذا هم لم يبلغوا به إلى هذا الحد وإن قيل كان يجوز له ذلك لأجل الإكراه لكن يفوته الأفضل وأيضا فالإكراه إنما يحصل أول مرة ثم يباشر وتبقى له شهوة واردة في الفاحشة ومن قال الزنا لا يتصور فيه الإكراه يقول فرق بين ما لا فعل له كالمقيد وبين من له فعل كما أن المرأة إذا أضجعت وقيدت حتى فعل بها الفاحشة لم تأثم بالاتفاق وإن أكرهت حتى زنت ففيه قولان هما روايتان عن أحمد لكن الجمهور يقولون لا تأثم وقد دل على ذلك قوله تعالى { وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ } النور 33 وهؤلاء فعل المرأة لا يحتاج إلى إنتشار فإنما هو كالإكراه على شرب الخمر بخلاف فعل الرجل وبسط هذا له موضع آخر و المقصود أن يوسف لم يفعل ذنبا ذكره الله عنه وهو سبحانه لا يذكر عن أحد من الأنبياء ذنبا إلا ذكر استغفاره منه ولم يذكر عن يوسف إستغفارا من هذه الكلمة كما لم يذكر عنه استغفارا من مقدمات الفاحشة فعلم أنه لم يفعل ذنبا في هذا ولا هذا بل هم هما تركه الله فأتىب عليه حسنة كما قد بسط هذا في موضعه وأما ما يكفره الابتلاء من السيئات فذلك جوزي به صاحبه بالمصائب المكفرة كما في قوله ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا هم ولا حزن ولا غم ولا أذى إلا كفر الله به خطاياهم ولما أنزل الله تعالى هذه الآية { مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ } النساء 123 قال أبو بكر يا رسول الله جاءت قاصمة الظهر وأينا لم يعمل سوءا فقال ألسنت تحزن ألسنت تنصب ألسنت تصيبك اللأوى فذلك مما تجزون به فتبين أن قوله { فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ } يوسف 42 أي نسي الفتى ذكر ربه أن يذكر هذا لربه ونسي ذكر يوسف ربه والمصدر يضاف إلى الفاعل والمفعول ويوسف قد ذكر ربه ونسي الفتى ذكر يوسف ربه وأنساه الشيطان أن يذكر ربه هذا الذكر الخاص فإنه وإن كان يسقي ربه خمرا فقد لا يخطر هذا الذكر بقلبه وأنساه الشيطان تذكير ربه وإذا كار ربه لما قال { ادْكُرْنِي } يوسف 42 أمره باذكار ربه فأنساه الشيطان إذكار ربه فاذاكار ربه أن يجعله ذاكرا فأنساه الشيطان أن يجعل ربه ذاكرا ليوسف والذكر هو مصدر وهو إسم فقد يضاف من جهة كونه إسما فيعم هذا كله أي أنساه الذكر المتعلق بربه والمضاف إليه ومما يبين أن الذي نسي ربه هو الفتى لا يوسف قوله بعد ذلك { وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ } يوسف 45 وقوله { وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ } يوسف 45 دليل على أنه كان قد نسي فادكر فإن قيل لا ريب أن يوسف سمي السيد ربا في قوله { ادْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ } يوسف 42 و { ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ } يوسف 50 ونحو ذلك وهذا كان جائزا في شرعه كما جاز في شرعه أن يسجد له أبواه وإخواته وكما جاز في شرعه أن يؤخذ السارق عبدا وإن كان هذا منسوخا في شرعه محمد وقوله { إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ } يوسف 23 إن أراد به السيد فلا جناح عليه لكن معلوم أن ترك الفاحشة خوفا لله واجب ولو رضي سيدها ويوسف عليه السلام تركها خوفا من الله { وَلَقَدْ هَمَمْتُ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّي } يوسف 24 قال تعالى { كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ } يوسف 24 وقال يوسف أيضا { قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ } 33 { فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ } يوسف 24

الْعَلِيمُ {34} يوسف 33-34 فدل على أنه معه من خوف الله ما يزرعه عن الفاحشة ولو رضي بها الناس وقد دعا ربه عز وجل أن يصرف عنه كيدهن وقوله **{ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ** **{ يوسف 33** بصيغة جمع التذكير وقوله **{ كَيْدَهُنَّ { يوسف 33** بصيغة جمع التأنيث ولم يقل مما يدعيني إليه دليل على الفرق بين هذا وهذا وأنه كان من الذكور من يدعوه مع النساء إلى الفاحشة بالمرأة وليس هناك إلا زوجها وذلك أن زوجها كان قليل الغيرة أو عديمها وكان يحب امرأته ويطيعها ولهذا لما أطلع على مراودتها قال **{ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَن هَذَا وَاسْتَعْفِرِي لِدُنْيِكَ إِنَّكَ كُنْتِ مِّنَ الْخَاطِئِينَ { يوسف 29** فلم يعاقبها ولم يفرق بينها وبين يوسف حتى لا تتمكن من مراودته وأمر يوسف أن لا يذكر ما جرى لأحد محبة منه لإمرأته ولو كان فيه غيرة لعاقب المرأة ومع هذا فشاعت القصة واطلع عليها الناس من غير جهة يوسف حتى تحدثت بها النسوة في المدينة وذكروا أنها تراود فتاها عن نفسه ومع هذا **{ أَرْسَلْتُ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدْتُ لَهُنَّ مَتَكًا وَأَنْتِ كُلٌّ وَاحِدَةٌ مِّنْهُنَّ سَكِينًا { يوسف 31** وأمرت يوسف أن يخرج عليهن ليقيم عندها على مراودته وهي تقول لهن **{ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيُصْجَبَنَّ وَيَكُونَا مِّنَ الصَّاغِرِينَ { يوسف 32** وهذا يدل على أنها لم تنزل متمكنة من مراودته والخلوة به مع علم الزوج بما جرى وهذا من أعظم الدياثة ثم أنه لما حبس فأما حبس بامرها والمرأة لا تتمكن من حبسه إلا بأمر الزوج فالزوج هو الذي حبسه وقد روي أنها قالت هذا القبطي هتك عرضي فحبسه وحبسه لأجل المرأة معاونة لها على مطلبها لدياته وقلة غيرته فدخل هو في من دعا يوسف إلى الفاحشة فعلم أن يوسف لم يترك الفاحشة لأجله ولا لخوفه منه بل قد علم يقينا أنه لم يكن يخاف منه وأن يوسف لو أعطاهما ما طلبت لم يكن الزوج يدري ولو درى فلعله لم يكن ينكر فإنه قد درى بالمراودة والخلوة التي هي مقتضية لذلك في الغالب فلم ينكر ولو قدر أنه هم بعقوبة يوسف فكانت هي الحاكمة على الزوج القاهرة له وقد قال ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحدانك ولما راجعته في إمامة الصديق قال إنكن لأنتن صواحب يوسف ولما أنشده الأعمى وهن شر غالب لمن غلب استعاد ذلك منه وقال وهن شر غالب لمن غلب فكيف لا تغلب مثل هذا الزوج وتمنعه من عقوبة يوسف وقد عهد الناس خلقا من الناس تغلبهم نساءهم من نساء النتر وغيرهم يكون لامرأته غرض فاسد في فتاه أو فتاها وتفعل معه ما تريد وإن أراد الزوج أن يكشف أو يعاقب منعه ودفعته بل وأهانته وفتحت عليه أبوابا من الشر بنفسها وأهلها وحشمتها والمطالبة بصداقها وغير ذلك حتى يتمنى الرجل الخلاص منها رأسا برأس مع كون الرجل فيه غيرة فكيف مع ضعف الغيرة فهذا كله يبين أن الداعي ليوسف إلى ترك الفاحشة كان خوف الله لا خوفا من السيد فلهذا قال **{ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ { يوسف 23** قيل هذا مما يبين محاسن يوسف ورعايته لحق الله وحق المخلوقين ودفعه الشر بالتي هي أحسن فإن الزنا بامرأة الغير فيه حقان مانعان كل منهما مستقل بالتحريم فالفاحشة حرام لحق الله ولو رضي الزوج وظلم الزوج في إمراته حرام لحقه بحيث لو سقط حق الله بالتوبة منه فحق هذا في إمرأته لا يسقط كما لو ظلمه وأخذ ماله وتاب من حق الله لم يسقط حق المظلوم بذلك ولهذا جاز للرجل إذا زنت امرأته ان يقذفها ويلاعنها ويسعى في عقوبتها بالرجم بخلاف الأجنبي فإنه لا يجوز له قذفها ولا يلاعن بل يحد إذا لم يأت بربعة شهداء فافساد المرأة على زوجها من أعظم الظلم لزوجها وهو عنده أعظم من أخذ ماله ولهذا يجوز له قتله دفعا عنها باتفاق العلماء إذا لم يندفع إلا بالقتل بالاتفاق ويجوز في أظهر القولين قتله وإن اندفع بدونه كما في قصة عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما أتاه رجل بيده سيف فيه دم وذكر أنه وجد رجلا تفخذ إمراته فضربه بالسيف فأقره عمر على ذلك وشكره وقبل قوله أنه قتله لذلك إذ ظهرت دلائل ذلك وهذا كما لو أطلع رجل في بيته فإنه يجوز له أن يفتق عينه ابتداء وليس عليه

أن ينذره هذا أصح القولين كما ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لو اطلع رجل في بيتك ففقا عينه ما كان عليك شيء وكذلك قال في الذي عض يد غيره فنزع يده فأنقلعت أسنان العاض وهذا مذهب فقهاء الحديث وأكثر السلف وفي المسألتين نزاع ليس هذا موضعه إذ المقصود أن الزاني بامرأة غيره ظالم للزوج وللزوج حق عنده ولهذا ذكر النبي أن من زنى بامرأة المجاهد فإنه يمكن يوم القيامة من حسناته يأخذ منها ما شاء وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك قلت ثم أي قال أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك قلت ثم أي قال أن تزاني بخيلة جارك فذكر الزنا بخيلة الجار فعلم أن للزوج حقا في ذلك وكان ظلم الجار أعظم للحاجة إلى المجاورة وإن قيل هذا قد لا يمكن زوج المرأة أن يحترز منه والجار عليه حق زائد على حق الأجنبي فكيف إذا ظلم في أهله والجيران يأمن بعضهم بعضا ففي هذا من الظلم أكثر مما في غيره وجاره يحب عليه أن يحفظ امرأته من غيره فكيف يفسدها هو فلما كان الزنا بالمرأة المزوجة له علتان كل منهما تستقل بالتحريم مثل لحم الخنزير الميت علل يوسف ذلك بحق الزوج وإن كان كل من الأمرين مانعا له وكان في تعليقه بحق الزوج فوائد منها أن هذا مانع تعرفه المرأة وتعذره به بخلاف حق الله تعالى فإنها لا تعرف عقوبة الله في ذلك و منها أن المرأة قد ترتدع بذلك فترعى حق زوجها إما خوفا وإما رعاية لحقه فإنه إذا كان المملوك يمتنع عن هذا رعاية لحق سيده فالمرأة أولى بذلك لأنها خائنة في نفس المقصود منها بخلاف المملوك فإن المطلوب منه الخدمة وفاحشته بمنزلة سرقة المرأة من ماله و منها أن هذا مانع مؤسس لها فلا تطمع فيه لا بنكاح ولا بسفاح بخلاف الخلية من الزوج فإنها تطمع فيه بنكاح حلال و منها أنه لو علل بالزنا فقد تسعى هي في فراق الزوج والتزوج به فإن هذا إنما يحرم لحق الزوج خاصة ولهذا إذا طلقت امرأته باختياره جاز لغيره أن يتزوجها ولو طلقها ليتزوج بها كما قال سعد بن الربيع لعبد الرحمن بن عوف إن لي امرأتين فاختر أيتها شئت حتى أطلقها وتتزوجها لكنه بدون رضاه لا يحل كما في المسند عن النبي أنه قال ليس منا من خبب امرأة على زوجها ولا عبدا على موليه وقد حرم النبي أن يخطب الرجل على خطبة أخيه ويستام على سوم أخيه فإذا كان بعد الخطبة وقبل العقد لا يحل له أن يطلب التزوج بامرأته فكيف بعد العقد والدخول والصحبة فلو علل بأن هذا زنا محرم ربما طمعت في أن تفارق الزوج وتتوجه فإن كيدهن عظيم وقد جرى مثل هذا فلما علل بحق سيده وقال { إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ } يوسف 23 يئست من ذلك وعلمت أنه يراعي حق الزوج فلا يزاحمه في إمراته البتة ثم لو قدر مع هذا أن الزوج رضي بالفاحشة وأباح إمراته لم يكن هذا مما يبيحها لحق الله ولحقه أيضا فإنه ليس كل حق للإنسان له أن يسقطه ولا يسقط باسقاطه وإنما ذاك فيما يباح له بذله وهو مالا ضرر عليه في بذله مثل ما يعطيه من فضل مال ونفع وأما ما ليس له بذله فلا يباح باباحته كما لو قال له علمني السحر والكفر والكهانة وأنت في حل من إضلاي أو قال له بعني رقيقا وخذ ثمني وأنت في حل من ذلك وكذلك إذا قال افعل بي أو بابني أو بامرأتي أو بامائي الفاحشة لم يكن هذا مما يسقط حقه فيه باباحته فإنه ليس له بذل ذلك ومعلوم أن الله يعاقبها على الفاحشة وإن تراضيا بها لكن المقصود أن في ذلك أيضا ظلما لهذا الشخص لا يرتفع باباحته كظلمه إذا جعله كافرا أو رقيقا فإن كونه يفعل به الفاحشة أو بأهله فيه ضرر عليه لا يملك إباحتها كالضرر عليه في كونه كافرا وهو كما لو قال له أزل عقلي وأنت في حل من ذلك فإن الإنسان لا يملك بذل ذلك بل هو ممنوع من ذلك كما يمنع السفیه من التصرف في ماله أو اسقاط حقوقه وكذلك المجنون والصغير فإن هؤلاء محجور عليهم لحقهم ولهذا لو أذن له الصبي أو السفیه في أخذ ماله لم يكن له ذلك ومن أذن لغيره في تكفيره أو تجنيته أو تخنيته والافحاش به وبأهله فهو من أسفه السفهاء وهذا مثل الربا فإنه وإن رضي به المرابي وهو بالغ رشيد

لم يبيح ذلك لما فيه من ظلمه ولهذا له أن يطالبه بما قبض منه من الزيادة ولا يعطيه إلا رأس ماله وإن كان قد بذله باختيار ولو كان التحريم لمجرد حق الله تعالى لسقط برضاه ولو كان حقه إذا أسقطه سقط لما كان له الرجوع في الزيادة والانسان يحرم عليه قتل نفسه أعظم مما يحرم عليه قتل غيره فلو قال لغيره اقتلني لم يملك منه أعظم مما يملك هو من نفسه ولهذا يوم القيامة يتظلم من الأكبر وهم لم يكرهوهم على الكفر بل باختيارهم كفروا قال تعالى {يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ} {66} وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا} {67} رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا} {68} {الاحزاب 66-68} وقال {حَتَّى إِذَا آدَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأَوْلَادِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ} {الأعراف 38} وقال تعالى {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أُضَلُّونَا مِنَ الْجِنَّةِ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُم تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونُوا مِنَ الْأَسْفَلِينَ} {فصلت 29} وكذلك الناس يلعنون الشيطان وإن كان لم يكرههم على الذنوب بل هم باختيارهم أذنبوا فإن قيل هؤلاء يقولون لشياطين الأنس والجن نحن لم نكن نعلم أن في هذا علينا ضررا ولكن أنتم زينتم لنا هذا وحسنتموه حتى فعلناه ونحن كنا جاهلين بالأمر قيل كما نعلم أن الجاهل بما عليه في الفعل من الضرر لا عبرة برضاه وإذنه وإنما يصح الرضاء والإذن ممن يعلم ما يأذن فيه ويرضى به وما كان على الإنسان فيه ضرر راجح لا يرضى به إلا لعدم علمه وإلا فالنفس تمتنع بذاتها من الضرر الراجح ولهذا كان من إشتري المعيب والمدلس والمجهول السعر ولم يعلم بحاله غير راض به بل له الفسخ بعد ذلك كذلك الكفر والجنون والفاحشة بالأهل لا يرضى بها إلا من لم يعلم بما فيها من الضرر عليه فإذا أذن فيها لم يسقط حقه بل يكون مظلوما ولو قال أنا أعلم ما فيها من العقاب وأرضى به كان كذبا بل هو من أجهل الناس بما يقوله ولهذا لو تكلم بكلام لا يفهم معناه وقال نويت موجهه عند الله لم يصح ذلك في أظهر القولين مثل أن يقول بهشم ولا يعرف معناها أو يقول أنت طالق إن دخلت الدار وينوي موجبها من العربية وهو لا يعرف ذلك فإن النية والقصد والرضا مشروطا بالعلم فما لم يعلمه لا يرضى به إلا إذا كان راضيا به مع العلم ومن كان يرضى بأن يكفر ويجن وتفعل الفاحشة به وبأهله فهو لا يعلم ما عليه في ذلك من الضرر بل هو سفيه فلا عبرة برضاه وإذنه بل له حق عند من ظلمه وفعل به ذلك غير ما لله من الحق وإن كان حق هذا دون حق المنكر المانع ولهذا قال يوسف عليه السلام { **إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ** } {يوسف 23} يقول متى أفسدت إمرأته كنت ظالما بكل حال وليس هذا جزاء إحسانه إلي والناس إذا تعاونوا على الإثم والعدوان أبغض بعضهم بعضا وإن كانوا فعلوه بتراضيهم قال طاووس ما رجلان على غير ذات الله الا تفرقا عن تقال وقال الخليل عليه السلام { **إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ** } {العنكبوت 25} وهؤلاء لا يكفر بعضهم ببعض ويلعن بعضهم بعضا لمجرد كونه عصى الله بل لما حصل له بمشاركته ومعاونته من الضرر وقال تعالى عن أهل الجنة التي أصبحت كالصريم { **فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَامَمُونَ** } {القلم 30} أي يلوم بعضهم بعضا وقال { **الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ** } {الزخرف 67} فالمخالاة إذا كانت على غير مصلحة الإثنين كانت عاقبتها عداوة وإنما تكون على مصلحتها إذا كانت في ذات الله فكل منهما وإن بذل للآخر إعانة على ما يطلبه واستعان به بإذنه فيما يطلبه فهذا التراضي لا إعتبار به بل يعود تباغضا وتعاديا وتلاعنا وكل منهما يقول للآخر لولا أنت ما فعلت أنا وحدي هذا فهلاكي كان مني ومنك والرب لا يمنعها من التباغض والتعادي والترعن فلو كان أحدهما ظالما للآخر فيه لنهى عن ذلك ويقول كل منهما للآخر أنت لأجل غرضك أوقعتني في هذا كالزانيين كل منهما يقول للآخر لأجل غرضك فعلت معي هذا ولو إمتنعت لم أفعل

أنا هذا لكن كل منهما له على الآخر مثل ما للآخر عليه فتعادلا ولهذا إذا كان الطلب والمرادة من أحدهما أكثر كان الآخر بتظلمه ويلعنه أكثر وإن تساويا فى الطلب تقاوما فإذا رضي الزوج بالديانة فإنما هو لا رضاء الرجل أو المرأة لغرض له آخر مثل أن يكون محبالها ولا تقيم معه إلا على هذا الوجه فهو يقول للزاني بها أنت لغرضك أفسدت علي إمرأتي وأنا إنما رضيت لأجل غرضها فأنت لما أفسدت علي إمرأتي وظلمتني فعلت معي ما فعلت ومن ومن ذلك أنه لو قال إني أخاف الله أن يعاقبنى ونحو ذلك لقاتلت أنت إنما تترك غرضي لغرضك في النجاة وأنا سيدتك فينبغي أن تقدم غرضي على غرضك فلما قال **{ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنُ مَثْوَايَ } يوسف 23** علل بحق سيده الذي يجب عليه وعليها رعاية حقه وفى قول يوسف **{ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ } يوسف 33** عبرتان أحدهما إختيار السجن والبلاء على الذنوب والمعاصي والطلب سؤال الله ودعائه أن يثبت القلب على دينه ويصرفه إلى طاعته وإلا فإذا لم يثبت القلب وإلا صبا إلى الأمرين بالذنوب وصار من الجاهلين ففي هذا توكل على الله وإستعانة به أن يثبت القلب على الإيمان والطاعة وفيه صبر على المحنة والبلاء والأذى الحاصل إذا ثبت على الإيمان والطاعة وهذا كقوله موسى عليه السلام لقومه **{ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } الأعراف 128** لما قال فرعون **{ سَنُقَاتِلْ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ } 127** **{ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } 128** { الأعراف 127-128 وكذلك قوله **{ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } 41** **{ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } النحل 41-42** ومنه قول يوسف عليه السلام **{ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } يوسف 90** وهو نظير قوله **{ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ } آل عمران 125** وقوله **{ وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } آل عمران 186** فلا بد من التقوى بفعل المأمور والصبر على المقدور كما فعل يوسف عليه السلام إتقى الله بالعفة عن الفاحشة وصبر على أذاهم له بالمرادة والحبس واستعان الله ودعاه حتى يثبتته على العفة فتوكل عليه أن يصرف عنه كيدهن وصبر على الحبس وهذا كما قال تعالى **{ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ } العنكبوت 10** وكما قال تعالى **{ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ } 11** **{ يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نِفَعُ لَهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ } 12** **{ يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِّن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلِبِئْسَ الْعَشِيرُ } الحج 11-13** فإنه لا بد من أذى لكل من كان فى الدنيا فإن لم يصبر على الأذى فى طاعة الله بل إختار المعصية كان ما يحصل له من الشر أعظم مما فر منه بكثير ومنهم من يقول **{ ائذنى لى ولا تفتنى إلا فى الفتنه سقطوا } التوبة 49** ومن احتمل الهوان والأذى فى طاعة الله على الكرامة والعز فى معصية الله كما فعل يوسف عليه السلام وغيره من الأنبياء والصالحين كانت العاقبة له فى الدنيا والآخرة وكان ما حصل له من الأذى قد انقلب نعيما وسرورا كما أن ما يحصل لأرباب الذنوب من التمتع بالذنوب ينقلب حزنا وثبورا فيوسف خاف الله من الذنوب ولم يخف من أذى الخلق وحبسهم إذ أطاع الله بل أثر الحبس والأذى مع الطاعة على الكرامة والعز وقضاء الشهوات ونيل الرياسة والمال مع المعصية فإنه لو وافق إمرأة العزيز نال الشهوة وأكرمه المرأة بالمال والرياسة وزوجها فى طاعتها فإختيار يوسف الذل والحبس وترك الشهوة والخروج عن المال والرياسة مع الطاعة على العز والرياسة والمال وقضاء الشهوة مع المعصية بل قدم الخوف من الخالق على الخوف من المخلوق وإن أذاه بالحبس والكذب فإنها

كذبت عليه فزعمت أنه راودها ثم حبسته بعد ذلك وقد قيل إنها قالت لزوجها إنه هناك عرضي لم يمكنها أن تقول له راودني فإن زوجها قد عرف القصة بل كذبت عليه كذبة تروج على زوجها وهو أنه قد هتك عرضها باشاعة فعلها وكانت كاذبة على يوسف لم يذكر عنها شيئاً بل كذبت أولاً وأخراً كذبت عليه بأنه طلب الفاحشة وكذبت عليه بأنه أشاعها وهي التي طالبت وأشاعت فإنها قالت للنسوة **{ فَذَلِكِنَّ الَّذِي لَمُنْتَنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ } يوسف 32** فهذا غاية الاشاعة لفاحشتها لم تستر نفسها والنساء أعظم الناس إخباراً بمثل ذلك وهن قبل أن يسمعن قولها قد قلن في المدينة **{ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ } يوسف 30** فكيف إذا اعترفت بذلك وطلبت رفع الملام عنها وقد قيل انهن أعنها في المرادة وعدلته على الإمتناع ويدل على ذلك قوله **{ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ } يوسف 33** وقوله **{ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ } يوسف 50** فدل على أن هناك كيذا منهن وقد قال لهن الملك **{ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاودْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتْ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ } يوسف 51** فهن لم يروادنه لأنفسهن إذ كان ذلك غير ممكن وهو عند المرأة في بيتها وتحت حجرها لكن قد يكن أعلن المرأة على مطلوبها وإذا كان هذا في فعل الفاحشة فغيرها من الذنوب أعظم مثل الظلم العظيم للحق كقتل النفس المعصومة ومثل الاشرار بالله ومثل القول على الله بلا علم قال تعالى **{ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } الأعراف 33** فهذه أجناس المحرمات التي لا تباح بحال ولا في شريعة وما سواها وإن حرم في حال فقد يباح في حال وإختيار النبي صلى الله عليه وسلم له ولأهله الإحتباس في شعب بنى هاشم بضع سنين لا يبايعون ولا يشارون وصبيانهم يتضاغون من الجوع قد هجرهم وقلاهم قومهم وغير قومهم هذا أكمل من حال يوسف عليه السلام فإن هؤلاء كانوا يدعون الرسول إلى الشرك وأن يقول على الله غير الحق يقول ما أرسلني ولا نهى عن الشرك وقد قال تعالى **{ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِينا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً } 73** **{ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً } 74** **{ إِذَا لَادُّقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً } 75** **{ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لَيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلاً } 76** **{ سَنَّةً مِّنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً } 77** **{ الاسراء 73-77** وكان كذب هؤلاء على النبي صلى الله عليه وسلم أعظم من الكذب على يوسف فإنهم قالوا أنه ساحر وأنه كاهن وأنه مجنون وأنه مفتر وكل واحدة من هؤلاء أعظم من الزنا والقذف لا سيما الزنا المستور الذي لا يدري به أحد فإن يوسف كذب عليه في أنه زنى وأنه قذفها وأشاع عنها الفاحشة فكان الكذب على النبي صلى الله عليه وسلم أعظم من الكذب على يوسف وكذلك الكذب على أولى العزم مثل نوح وموسى حيث يقال عن الواحد منهم أنه مجنون وأنه كذاب يكذب على الله وما لقي النبي وأصحابه من أذى المشركين أعظم من مجرد الحبس فإن يوسف حبس وسكت عنه والنبي وأصحابه كانوا يؤذون بالأقوال والأفعال مع منعهم من تصرفاتهم المعتادة وهذا معنى الحبس فإنه ليس المقصود بالحبس سكناه في السجن بل المراد منعه من التصرف المعتاد والنبي صلى الله عليه وسلم لم يكن له حبس ولا لأبي بكر بل أول من إتخذ السجن عمر وكان النبي يسلم الغريم إلى غريمه ويقول ما فعل أسيرك فيجعله أسيراً معه حتى يقضيه حقه وهذا هو المطلوب من الحبس والصحابه رضي الله عنهم منعه من التصرف بمكة أذى لهم حتى خرج كثير منهم إلى أرض الحبشة فاختاروا السكنى بين أولئك النصارى عند ملك عادل على السكنى بين قومهم والباقون أخرجوا من ديارهم وأموالهم أيضاً مع ما آذوهم به حتى قتلوا بعضهم وكانوا يضربون بعضهم ويمنعون بعضهم ما يحتاج إليه

ويضعون الصخرة على بطن أحدهم في رمضاء مكة إلى غير ذلك من أنواع الأذى وكذلك المؤمن من أمة محمد يختار الأذى في طاعة الله على الأكرام مع معصيته كأحمد بن حنبل إختار القيد والحبس والضرب على موافقة السلطان وجنده على أن يقول على الله غير الحق في كلامه وعلى أن يقول ما لا يعلم أيضا فإنهم كانوا يأتون بكلام يعرف أنه مخالف للكتاب والسنة فهو باطل وبكلام مجمل يحتاج إلى تفسير فيقول لهم الإمام أحمد ما أدري ما هذا فلم يوافقهم على أن يقول على الله غير الحق ولا على أن يقول على الله ما لا يعلم¹

الحسنة الثانية قد تكون من ثواب الأولى

قال تعالى { **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ** } يوسف 22 والمعصية الثانية قد تكون عقوبة الأولى فتكون من سيئات الجزاء مع أنها من سيئات العمل قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق على صحته عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر والبر يهدي إلى الجنة ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا وقد ذكر في غير موضع من القرآن ما يبين أن الحسنة الثانية قد تكون من ثواب الأولى وكذلك السيئة الثانية قد تكون من عقوبة الأولى²

"إن النظر سهم من سهام إبليس مسموم"

وروى أبو القاسم البغوي عن أبي أمامة قال سمعت رسول الله يقول أكفلوا لي ستا أكفل لكم الجنة إذا حدث أحدكم فلا يكذب وإذا أوثمن فلا يخن وإذا وعد فلا يخلف غصوا أبصاركم وكفوا أيديكم وإحفظوا فروجكم فالنظر داعية إلى فساد القلب قال بعض السلف النظر سهم سم إلى القلب فلهذا أمر الله بحفظ الفروج كما أمر بغض الأبصار التي هي بواعث إلى ذلك وفي الطبراني من طريق عبيد الله بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة مرفوعا لتغصن أبصاركم ولتحفظن فروجكم ولتقيمن وجوهكم أو لتكسفن وجوهكم وقال الطبراني حدثنا أحمد بن زهير التستري قال قرأنا على حمد بن حفص بن عمر الضرير المقرئ حدثنا يحيى بن أبي كثير حدثنا هزيم بن سفيان عن عبد الرحمن بن إسحاق عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن ابن مسعود قال قال رسول الله إن النظر سهم من سهام إبليس مسموم فمن تركه مخافة الله أبدله إيمانا يجد حلاوته في قلبه وفي حديث أبي هريرة الصحيح عن النبي زنا العين النظر وذكر الحديث رواه البخاري تعليقا ومسلم مسندا وقد كانوا ينهاون أن يحد الرجل بصره إلى المردان وكانوا يتهمون من فعل ذلك في دينه وقد ذهب كثير من

¹مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 111-137

²مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 243

العلماء إلى أنه لا يجوز للمرأة أن تنظر إلى الأجنبي من الرجال بشهوة ولا بغير شهوة أصلاً قال شيخ الإسلام وأما النور والعلم والحكمة فقد دل عليه قوله تعالى في قصة يوسف **{وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ}** يوسف 22 فهي لكل محسن وفي هذه السورة ذكر آية النور بعد غض البصر وحفظ الفرج وأمره بالتوبة مما لا بد منه أن يدرك ابن آدم من ذلك وقال أبو عبدالرحمن السلمى سمعت أبا الحسين الوراق يقول من غض بصره عن محرم أورثه الله بذلك حكمة على لسانه يهتدى بها ويهدى بها إلى طريق مرضاته وهذا لان الجزاء من جنس العمل فإذا كان النظر إلى محبوب فتركه الله عوضه الله ما هو أحب إليه منه وإذا كان النظر بنور العين مكروها أو إلى مكروه فتركه الله أعطاه الله نورا في قلبه وبصرا يبصر به الحق قال شاه الكرمانى من غض بصره عن المحارم وعمر باطنه بدوام المراقبة وظاهره بإتبع السنة وعود نفسه أكل الحلال وكف نفسه عن الشهوات لم تخطيء له فإساسة وإذا صلح علم الرجل فعرف الحق وعمله وإتبع الحق صار زكيا تقيا مستوجبا للجنة¹

الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك

وأما الإحسان فقله أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك قد قيل أن الإحسان هو الإخلاص والتحقيق أن الإحسان يتناول الإخلاص وغيره والإحسان يجمع كمال الإخلاص لله ويجمع الإتيان بالفعل الحسن الذي يحبه الله قال تعالى **{بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}** البقرة 112 وقال تعالى **{وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا}** النساء 125 فذكر إحسان الدين أولا ثم ذكر الإحسان ثانيا²

قال تعالى **{وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ}** يوسف 22 والإحسان ضد الإساءة وهو فعل الحسن سواء كان لازما لصاحبه أو متعديا إلى الغير³

الإعتبار الذى يوجب إنتهار النفوس عن معصية الله والتمسك بالتقوى

أن الله قص علينا فى القرآن قصص الأنبياء والمؤمنين والمتقين وقصص الفجار والكفار لنعبر بالأمر فنحب الأولين وسبيلهم ونقتدى بهم ونبغض الآخرين وسبيلهم ونجتنب فعالهم و ما ذكره تعالى فى قصة يوسف **{وَرَأَوْتَهُ لَبِيًّا هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ}** يوسف 23 إلى قوله **{فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}** يوسف 34 وما ذكره بعد ذلك فمن كلام يوسف من قوله **{مَا**

¹مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 396

²مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 622

بَالَ النَّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ {يوسف 50 وهذا من باب الإعتبار الذي يوجب إنتهار النفوس عن معصية الله والتمسك بالتقوى وكذلك ما بينه في آخر السورة بقوله {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ} يوسف 111¹

العشق مرض نفساني

و مرض الشهوة والعشق فهو حب النفس لما يضرها وقد يقترن به بغضها لما ينفعها والعشق مرض نفساني واذا قوى اثر في البدن فصار مرضا في الجسم إما من امراض الدماغ كالماليخوليا ولهذا قيل فيه هو مرض وسواسي شبيه بالماليخوليا واما من امراض البدن كالضعف والنحول ونحو ذلك والمقصود هنا مرض القلب فانه اصل محبة النفس لما يضرها كالمريض البدن الذي يشتهي ما يضره وإذا لم يطعم ذلك تألم وأن اطعم ذلك قوى به المرض وزاد كذلك العاشق يضره اتصاله بالمعشوق مشاهدة وملامسة وسماعا بل ويضره التفكير فيه والتخيل له وهو يشتهي ذلك فإن منع من مشتتهاء تألم وتعذب وان اعطى مشتتهاء قوى مرضه وكان سببا لزيادة الالم وفي الحديث ان الله يحمي عبده المؤمن الدينا كما يحمي احدكم مريضه الطعام والشراب وفي مناجاة موسى المأثورة عن وهب التي رواها الامام احمد في كتاب الزهد يقول الله تعالى أنى لأذود أوليائي عن نعيم الدنيا ورخائها كما يذود الراعي الشفيق ابله عن مراتع الهلكة وأنى لأجنبهم سكونها وعيشها كما يجنب الراعي الشفيق ابله عن مبارك الغرة وما ذلك لهوانهم على ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتى سالما مؤحزا لم تكلمه الدينا ولم يطفئه الهوى وانما شفاء المريض بزوال مرضه بل بزوال ذلك الحب المذموم من قلبه والناس فى العشق على قولين قيل انه من باب الارادات وهذا هو المشهور وقيل من باب التصورات وانه فساد فى التخيل حيث يتصور المعشوق على ما هو به قال هؤلاء ولهذا لا يوصف الله بالعشق ولا انه يعشق لأنه منزه عن ذلك ولا يحمد من يتخيل فيه خيالا فاسدا واما الاولون فمنهم من قال يوصف بالعشق فانه المحبة التامة والله يحب ويحب وروى فى اثر عن عبد الواحد ابن زيد انه قال لا يزال عبدى يتقرب إلى يعشقتى وأعشقه وهذا قول بعض الصوفية والجمهور لا يطلقون هذا اللفظ فى حق الله لان العشق هو المحبة المفرطة الزائدة على الحد الذى ينبغى والله تعالى محبته لانهاية لها فليست تنتهى الى حد لا تنبغى مجاوزته قال هؤلاء والعشق مذموم مطلقا لا يمدح لا فى محبة الخالق ولا المخلوق لأنه المحبة المفرطة الزائدة على الحد المحمود و ايضا فان لفظ العشق إنما يستعمل فى العرف محبة الانسان لا امرأة أو صبي لا يستعمل فى محبة كمحبة الأهل والمال والوطن والجاه ومحبة الأنبياء والصالحين وهو مقرون كثيرا بالفعل المحرم إما بمحبة امرأة أجنبية أو صبي يقترن به النظر المحرم واللمس المحرم وغير ذلك من الافعال المحرمة وأما محبة الرجل لامرأته أو سريته محبة تخرجه عن العدل بحيث يفعل لأجلها ما لا يحل ويترك ما يجب كما هو الواقع كثيرا حتى يظلم انه من امرأته العتيقة لمحبهته الجديدة وحتى يفعل من مطالها المذمومة ما يضره فى دنيه ودنياه مثل ان يخصصها بميراث لا

¹مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 338

تستحقه او يعطى اهلها من الولاية والمال ما يتعدى به حدود الله او يسرف فى الانفاق عليها أو يملكها من امور محرمة تضره فى دنيه ودنياه وهذا فى عشق من يباح له وطؤها فكيف عشق الأجنبية والذكر من العالمين ففيه من الفساد مالا يحصيه الارب العباد وهو من الامراض التى تفسد دين صاحبها وعرضه ثم قد تفسد عقله ثم جسمه قال تعالى { فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ } الأحزاب 32 ومن فى قلبه مرض الشهوة واردة الصورة متى خضع المطلوب طمع المريض والطمع الذى يقوى الارادة والطلب طمع بخلاف ما اذا كان آيسا من المطلوب فان اليأس يزيل الطمع فتضعف الارادة فيضعف الحب فان الانسان لا يريد ان يطلب ما هو آيس منه فلا يكون مع الارادة عمل اصلا بل يكون حديث نفس الا ان يقترن بذلك كلام او نظر ونحو ذلك فيأثم بذلك فأما إذا ابتلى بالعشق وعف وصبر فانه يثاب على تقواه لله وقد روى فى الحديث أن من عشق فحف وكتم وصبر ثم مات كان شهيدا وهو معروف من رواية يحيى القات عن مجاهد عن ابن عباس مرفوعا وفيه نظر ولا يحتج بهذا لكن من المعلوم بأدلة الشرع انه إذا عف المحرمات نظرا وقولا وعملا وكتم ذلك فلم يتكلم به حتى لا يكون فى ذلك كلام محرم اما شكوى الى المخلوق واما اظهار فاحشة واما نوع طلب للمعشوق وصبر على طاعة الله وعن معصيته وعلى ما فى قلبه من الم العشق كما يصبر المصاب عن الم المصيبة فان هذا يكون ممن اتقى الله وصبر { إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } يوسف 90 وهكذا مرض الحسد وغيره من امراض النفوس واذا كانت النفس تطلب ما يبغضه الله فيها خشية من الله كان ممن دخل فى قوله { وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ } {40} فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ } {41} النازعات 40-41 فالنفس إذا احبت شيئا سعت فى حصوله با يمكن حتى تسعى فى امور كثيرة تكون كلها مقامات لتلك الغاية فمن احب محبة مذمومة او ابغض بغضا مذموما وفعل ذلك كان آثما مثل ان يبغض شخصا لحسده له فيؤذى من له به تعلق اما بمنع حقوقهم او بعد وان عليهم او لمحبة له لهواه معه فيفعل لأجله ما هو محرم أو ما هو مأمور به الله فيفعله لأجله هو لا لله وهذه امراض كثيرة فالنفوس والانسان قد يبغض شيئا فيبغض لأجله امورا كثيرة بمجرد الوهم والخيال وكذلك يحب شيئا فيجب امورا كثيرة لأجله الوهم والخيال كما قال شاعرهم احب لحبها السوادن حتى احب لحبها سود الكلاب فقد احب سواد فاحب جنس السواد حتى فى الكلاب وهذا كله مرض فى القلب فى تصور و ارادته فنسأل الله تعالى ان يعافى قلوبنا من كل داء ونعوذ بالله من منكرات الأخلاق والأهواء والادواء والقلب لأجل حب الله تعالى هذه الفطرة التى فطر الله عليها عباده كما قال النبى صلى الله عليه وسلم كل مولود يولد على الفطرة فابواه يهودانه او ينصرانه او يمجسانه كما تنتج البهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ثم يقول ابو هريرة رضيا لله عنه اقرأوا ان شئتم { فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ } الروم 30 اخرج البخارى ومسلم فانه سبحانه فطر عباده على محبته وعبادته وحده فاذا تركت الفطرة بلا فساد كان القلب عارفا بالله محبا له عابدا له وحده لكن تفسد فطرته من مرضه كابويه يهودانه او ينصرانه او يمجسانه وهذه كلها تغير فطرته التى فطره عليها وان كانت بقضاء الله وقدره كما يغير البدن بالجدع ثم قد يعود الى الفطرة اذا يسر الله تعالى لها من يسعى فى اعادتها الى الفطرة والرسول صلى الله عليه وسلم بعثوا لتقرير الفطرة وتكميلها لا لتغيير الفطرة وتحويلها واذا كان القلب محبا لله وحده مخلصا له الدين لم يبتل بحب غيره اصلا فضلا أن يبتلى بالعشق وحيث ابتلى بالعشق فلنقص محبته لله وحده ولهذا لما كان يوسف محبا لله مخلصا له الدين لم يبتل بذلك بل قال تعالى { كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ } يوسف 24 واما امرأة العزيز فكانت مشركة هى وقومها فلماذا ابتليت بالعشق وما يبتلى بالعشق احد الا لنقص توحيده وايمانه والا فالقلب المنيب الى الله الخائف منه فيه صار فان يصرفه عن العشق

احدهما انابته الى الله ومحبته له فان ذلك أذ واطيب من كل شيء فلا تبقى مع محبة اله محبة مخلوق تزاحمه فضلا أن يبتلى بالعشق وحيث ابتلى بالعشق فلنقص محبته لله وحده و الثاني خوفه من الله فإن الخوف المضاد للعشق يصرفه وكل من احب شيئا بعشق او غير عشق فإنه يصرفه عن محبته بمحبته ما هو احب اليه منه اذا كان يزاحمه وينصرف عن محبته بخوف حصول ضرر يكون ابغض اليه من ترك ذلك الحب فاذا كان الله احب الى العبد من كل شيء واخوف عنده من كل شيء لم يحصل معه عشق ولا مزاحمة الا عند غفلة او عند ضعيف هذا الحب والخوف بترك بعض الواجبات وفعل بعض المحرمات فان الايمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية فكلما فعل العبد الطاعة محبة لله وخوفاً منه وترك المعصية حبا له وخوفاً منه قوى حبه له وخوفه منه فيزيل ما فى القلب من محبة غيره ومخافة غيره وهكذا امراض الأبدان فان الصحة تحفظ بالمثل والمرض يدفع بالضد فصحة القلب بالايمان تحفظ بالمثل وهو ما يورث القلب ايمانا من العلم النافع والعمل الصالح فتلك اغذية له كما فى حديث ابن مسعود مرفوعا وموقوفا ان كل آدب يحب أن تؤتى مأدبته وان مأدبة الله هى القرآن والآدب المضيف فهو ضيافة الله لعباده مثل آخر الليل واوقات الأذان والاقامة وفى سجوده وفى ادبار الصلوات ويضم الى ذلك الاستغفار فإنه من استغفر الله ثم تاب اليه متعه متاعا حسنا الى اجل مسمى وليتخذ وردا من الاذكار فى النهار ووقت النوم وليصبر على ما يعرض له من الموانع والصوارف فانه لا يلبث ان يؤيده الله بروح منه ويكتب الايمان فى قلبه وليحرص على اكمال الفرائض من الصلوات الخمس باطنة وظاهرة فانها عمود الدين وليكن هجيرا لا حول ولا قوة الا بالله فانها بها تحمل الاثقال وتكابد الالهوال وينال رفيع الاحوال ولا يسأم من الدعاء والطلب فان العبد يستجاب له ما لم يعجل فيقول قد دعوت ودعوت فلم يستجب لى وليعلم ان النصر مع الصبر وان الفرج مع الكرب وان مع العسر يسرا ولم ينل احد شيئا من ختم الخير فمن دونه الا بالصبر والحمد لله رب العالمين وله الحمد والمنة على الاسلام والسنة حمدا يكافئ نعمه الظاهرة والباطنة وكما ينبغى لكرم وجهه وعز جلاله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله واصحابه وازواجه امهات المؤمنين والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين وسلم تسليما كثيرا¹

الإصرار على العشق ولوآزمه قد يكون أعظم من الزنا الواحد

فاذا كان الإنسان مشغوفا بمحبة بعض المخلوقات لغير الله الذي يرضيه وجوده ويسخطه عدمه كان فيه من التعبد بقدر ذلك ولهذا يجعلون العشق مراتب مثل العلاقة ثم الصبابة ثم الغرام ويجعلون آخره التتيم والتتيم التعبد وتيم الله هو عبد الله فيصير العاشق لبعض الصور عبدا لمعشوقه ذكر الله العشق فى القرآن عن المشركين والله سبحانه إنما ذكر هذا العشق فى القرآن عن المشركين فإن العزيز وامراته وأهل مصر كانوا مشركين كما قال لهم يوسف عليه الصلاة والسلام { إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ } {37} وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ } {38} يَا صَاحِبِي السَّجْنَ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ } {39} مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 130-135 و أمراض القلوب ج: 1 ص: 26

الْفَيْمِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ {40} يوسف 37-40 وقال تعالى {وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زُلْتُمْ فِي شَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ {34} الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبِيرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ {35} غافر 34-35 وقال تعالى {وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} يوسف 30
 وأما يوسف عليه السلام فإن الله ذكر أنه عصمه بإخلاصه الدين لله وقال تعالى {وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ

{يوسف 24} فأخبر سبحانه أنه صرف عنه السوء والفحشاء ومن السوء عشقها ومحبتها ومن الفحشاء الزنا وقد يزني بفرجه من لا يكون عاشقا وقد يعشق من لا يزني بفرجه والزنا بالفرج أعظم من الإلمام بصغيرة كمنظرة وقبله وأما الإصرار علي العشق ولوازمه من النظر ونحوه فقد يكون أعظم من الزنا الواحد بشيء كثير والمخلصون يصرف الله عنهم السوء والفحشاء ويوسف عليه السلام كان من المخلصين حيث كان يعبد الله لا يشرك به شيئا وحيث توكل علي الله واستعان به كما قال تعالى {وَالْأَتْصِرْفَ عَنِّي كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} {34} يوسف 33-34 وهذا تحقيق قوله تعالى {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} {98} إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} {99} إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ} {100} النحل 98-100 المتولون للشيطان هم الذين يحبون ما يحبه فأخبر سبحانه أن المتوكلين علي الله ليس للشيطان عليهم سلطان وإنما سلطانه علي المتولين له والمتولي من الولاية وأصله المحبة والموافقة كما أن العداوة أصلها البغض والمخالفة فالمتولون له هم الذين يحبونه ما يحبه الشيطان ويوافقهم مشركون به حيث أطاعوه وعبدوه بامتثال أمره كما قال تعالى

{أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ} {60} وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ} {61} يس 60-61 والشياطين شياطين الإنس والجن والعبادة فيها الرغبة والرغبة قال تعالى {قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ} {75} قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ} {76} قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ} {77} وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ} {78} قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ} {79} قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ} {80} إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ} {81} قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} {82} إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} {83} قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ} {84} لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَتَّبَعُكَ مِنْهُمُ أَجْمَعِينَ} {85} ص 75-85 فأقسم الشيطان {لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} {82} إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} {83} ص 82-83 وقد أخبر الله أنه ليس له سلطان علي هؤلاء فقال في الحجر {قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ} {34} وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ} {35} الحجر 34-35 إلى قوله {قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} {39} إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} {40} الحجر 39-40 قال تعالى {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ} وقوله {إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ} الحجر 42 استثناء منقطع في أقوي القولين إذ العباد هم العابدون لا المعبدون كما قال تعالى وقال تعالى {عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا} {الإنسان 6} وقال تعالى {الْأَخْلَاءَ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ} {67} يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ} {68} الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ} {69} الزخرف 67-69 وقال تعالى {وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ} {الجن 19} وقال تعالى {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا} {الإسراء 1} وقال تعالى {وَأَذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ

وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ {ص45} عباد الله المخلصون ليس للشيطان عليهم سلطان وإذا كان عباد الله المخلصون ليس له عليهم سلطان وأن سلطانه علي الذين يتولونه والذين هم به مشركون وقد أقسم أن يغويهم إلا عباد الله المخلصين وأخبر الله أن سلطانه ليس علي عباد الله بل علي من اتبعه من الغاوين والغي اتباع الأهواء والشهوات وأصل ذلك أن الحب لغير الله كحب الأنداد وذلك هو الشرك قال الله تعالى فيه {إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ} النحل100 فبين أن صاحب الإخلاص مادام صادقاً في إخلاصه فإنه يعتصم من هذا الغي وهذا الشرك وإن الغي هو يضعف الإخلاص ويقوي هواه الشرك فأصحاب العشاق يتولون الشيطان ويشركون به العشق الذي يحبه الشيطان فيهم من تولي الشيطان والإشراك به بقدر ذلك لما فاتهم من إخلاص المحبة لله والإشراك بينه وبين غيره في المحبة حتى يكون فيه نصيب من اتخاذ الأنداد وحتى يصيروا عبيداً لذلك المعشوق فيفتنون فيه ويصرحون بأننا عبيد له فيوجد في هذا الحب والهوي واقتراف ما يبغضه الله وما حرمة من الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن يشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن يقولوا علي الله ما لا يعلمون فيوجد فيه من الشرك الأكبر والأصغر ومن قتل النفوس بغير حق ومن الزنا ومن الكذب ومن أكل المال بالباطل إلي غير ذلك ما ينتظم هذه الأصناف التي يكرمها الله تعالى لأن أصله أن يكون حبه كحب الله وهو من ترك إخلاص المحبة ومن الإشراك بينه وبين غيره أو من جعل المحبة لغير الله فإذا عمل موجب ذلك كان ذلك هو اتباع الهوي بغير هدي من الله وفي الأثر ما تحت أديم السماء إله يعبد أعظم عند الله من هوي متبع قال تعالى { أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا } {43} أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا } {44} الفرقان43-44 ولهذا لا يبنتلي بهذا العشق إلا من فيه نوع شرك في الدين وضعف إخلاص لله وسبب هذا ما ذكره بعضهم فقال إنه ليس شيء من المحبوبات يستوعب محبة القلب إلا محبة الله أو محبة بشر مثلك أما محبة الله فهي التي خلق لها العباد وهي سعادتهم وقد تكلمنا عليها في غير هذا الموضوع وأما البشر المتماثل من ذكر أو أنثي فإن فيه من المشاكلة والمناسبة ما يوجب أن يكون لكل شيء من الحب نصيب من المحبوب يستوعبه حبه ولهذا لا يعرف لشيء من المحبوبات التي تحب لغير الله من الاستيعاب ما يعرف لذلك حتى يزيل العقل ويفقد الإدراك ويوجب انقطاع الإرادة لغير ذلك المحبوب ويوجب مرض الموت وإنما يعرض هذا كله لأضعف ما في القلب من حب الله وإخلاص الدين له عبادة واستعانة فيكون فيه من الشرك ما يسلط الشيطان عليه حتى يغويه هذا بهذا الغي الذي فيه من تولي الشيطان والإشراك به ما يتسلط به الشيطان ولهذا قد يطيع هذا المحب لغير الله محبوبه أكثر مما يطيع الله حتى يطلب القتل في سبيله كما يختار المؤمن القتل في سبيل الله وإذا كان محبوبه مطيعه من وجه وعبداً له فهو أولي بأن يكون هو مطيعه وعبداً له من وجه آخر وإذا كان النبي قال شارب الخمر كعابد وثن ومر علي رضي الله عنه بقوم يلعبون بالشطرنج فقال ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون وأظنه قلب الرقعة وذلك أن الله جمع بين الخمر والميسر وبين الأنصاب والأزلام في قوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } {90} إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ } {91} المائدة90-91 مع أن الخمر إذا سكر بها الشارب كان سكره يوماً أو قريباً من يوم أو بعض يوم وأما سكر الشهوة والمحبة الفاسدة من العشق ونحوه فسكره قوي دائم قال تعالى في قوم لوط { لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ } الحجر72 فكيف إذا خرج عن حد السكر إلي حد الجنون بل كان الجنون المطبق لا الحمق كما أنشد محمد بن جعفر في كتاب اعتلال القلوب قال أنشدني الصيدلاني قالت جننت علي رأسي فقلت لها العشق أعظم مما

بالمجانين العشق ليس يفيق الدهر صاحبه وإنما يصرع المجنون في الحين وقال الآخر
سكران سكر هوي وسكر مدامة ومتي إفاقة من به سكران فصاحبه أحق بأن يشبه بعابد
الوثن والعاكفين علي التماثيل يعملونها علي صورة آدمي وقد قال سبحانه وتعالى **{وَقَالَ نِسْوَةٌ**
فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا } يوسف 30 أي شغفها حبه أي وصل
حبه إلي شغاف القلب وهي جلدة في داخله فهذا يكون قد اتخذ ندا يحبه كحب الله يوقع الشيطان
العداوة والبغضاء بين المؤمنين بالعشق وإذا كان الشيطان يريد أن يوقع بين المؤمنين العداوة
والبغضاء في الخمر والميسر ويصدهم عن ذكر الله وعن الصلاة فالعداوة والبغضاء التي يريد أن
يوقعها بالعشق وصدته عن ذكر الله وعن الصلاة بذلك أضعاف غيره كما قد تكلمنا عليه في غير هذا
الموضع وبيننا أن جميع المعاصي يجتمع فيها هذان الوصفان وأن ذكر ذلك في الخمر والميسر اللذين
هما من أواخر المحرمات ينبه علي ما في غيرهما من ذلك مما حرم قبلهما كقتل النفوس بغير حق
والفواحش ونحو ذلك ومما يبين هذا أن الفواحش التي أصلها المحبة لغير الله سواء كان المطلوب
المشاهدة أو المباشرة أو الإنزال أو غير ذلك هي في المشركين أكثر منها في المخلصين ويوجد فيهم
ما لا يوجد في المخلصين الله قال الله تعالى **{يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ**
الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ أَنَّهُمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِمَّنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا
الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ } 27 **{وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ**
إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } 28 **{قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ**
عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ } 29 **{فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ**
الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ } 30 **{الأعراف 27-30**
فأخبر سبحانه أنه جعل الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون وهو قوله تعالى { أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ
أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا } الكهف 50 **{وَقَالَ تَعَالَى {إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ**
يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ } النحل 100 **{وَإِذَا كَانَ سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ تَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ**
مُشْرِكُونَ وَهُمْ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَقَالَ تَعَالَى {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ
الْغَاوِينَ } الحجر 42 **{فَيَكُونُ هَؤُلَاءِ هُمُ الْغَاوِينَ وَهُمْ الَّذِينَ قَالَ الشَّيْطَانُ {لَا غُورِيَّتُهُمْ أَجْمَعِينَ }** 82
{إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ } 83 **{ص 82-83}** ولهذا أخبر سبحانه عن أوليائه أنهم **{وَإِذَا فَعَلُوا**
فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا
تَعْلَمُونَ } الأعراف 28 فأخبر عن أولياء الشيطان وهم الذين يتولونه والذين هم به مشركون أنهم إذا
فعلوا فاحشة احتجوا بالتقليد لأسلافهم وزعموا مع ذلك أن الله أمرهم بها فيتبعون الظن في قولهم إن
الله أمرهم بها وما تهوي الأنفس في تقليد أسلافهم وأتباعهم وهذا الوصف فيه بسط كثير لكثير من
المنتسبين إلي القبلة من الصوفية والعباد والأمراء والأجناد والمتكلمة والمتفلسفة والعامه وغيرهم
يستحلون من الفواحش ما حرمه الله ورسوله وأصله العشق الذي يبغضه الله وكثير منهم يجعل
ذلك ديناً ويرى أنه يتقرب بذلك إلي الله إما لزعمه أنه يزكي النفس ويهديها وإما لزعمه أنه يجمع
بذلك قلبه علي آدمي ثم ينتقل إلي عبادة الله وحده وإما لزعمه أن الصور الجميلة مظاهر الحق
ومشاهده وربما اعتقد حلول الرب فيها واتحاده بها ومنهم من يخص ذلك بها ومنهم من يقول بإطلاق
وهؤلاء إذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها وكل هؤلاء فيهم من الإشرار
بقدر ذلك ولهذا يظهر الافتتان بالصور وعشقها فيمن فيهم شرك كالنصارى والرهبان والمتشبهين
بهم من هذه الأمة من كثير من المتفلسفة والمتصوفة الذين يفتنون بالأحداث وغيرهم فتجد فيهم قسطاً
عظيماً من اتخاذ الأنداد من دون الله يحبونهم كحب الله إما تديناً وإما شهوة وإما جمعاً بين الأمرين
ولهذا تجد بين أغنيائهم وفقرائهم وبين ملوكهم وأمرائهم تحالفاً علي اتخاذ أنداد من دون الله من هذين

الوجهين ولهذا تجدهم كثيرا ما يجتمعون علي سماع الشعر والأصوات التي تهيج الحب المشترك الذي يجتمع فيه محب الرحمن ومحب الأوثان ومحب الصلبان ومحب الأخوان ومحب الأوطان ومحب المردان ومحب النسوان وهذا السماع هو سماع المشركين كما قال تعالى {وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً} الأنفال 35 وسبب ما ذكرنا أن الله خلق عباده لعبادته التي تجمع محبته وتعظيمه فإذا كان في القلب ما يجد حلاوته من الإيمان والتوحيد له احتاج إلي أن يستبدل بذلك ما يهواه فيتخذ إلهه هواه فيتخذ الشيطان وذريته أولياء من دون الله وهم لهم عدو بئس للظالمين بدلا ولهذا كان هذا ونحوه من تبديل الدين وتغيير فطرة الله التي فطر الناس عليها قال تعالى {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَبِيْمُ} الروم 30 وقال تعالى { وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً } 116 { إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتَاناً وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَاناً مَرِيداً } 117 { لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً } 118 { وَلَا ضَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَالْأَمْنِيَّتُهُمْ وَلَا مَرَّتُهُمْ فَلْيَبْتَئِكُنَّ آدَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرَّتُهُمْ فَلَْيَغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ } 119 { النساء 116-119 قال تعالى { لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ } الروم 30 ونفس ما خلقه الله لا تبديل له لا يمكن أن توجد المخلوقات علي غير ما يخلقه الله عليها ولا أن تخلق علي غير الفطرة التي خلقها الله عليها لكن بعض الخلق قد يغير بعضها كما قال النبي كل مولود يولد علي الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء¹

الهم همان هم خطرات وهم إصرار

والهام بالسيئة التي لم يعملها مع قدرته عليها لم توجد منه إرادة جازمة وفاعل السيئة التي تمضي لا يجزى بها إلا سيئة واحدة كما شهد به النص وبهذا يظهر قول الأئمة حيث قال الإمام أحمد الهم همان هم خطرات وهم إصرار فهم الخطرات يكون من القادر فإنه لو كان همه إصرارا جازما وهو قادر لوقع الفعل ومن هذا الباب هم يوسف حيث قال تعالى {وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ} يوسف 24 الآية وأما هم المرأة التي راودته فقد قيل أنه كان هم إصرار لأنها فعلت مقدورها وكذلك ما ذكره عن المنافقين في قوله تعالى {وَهُمْ أَوْ بِمَا لَمْ يَنَالُوا} التوبة 74 فهذا الهم المذكور عنهم هم مذموم كما ذمهم الله عليه ومثله يذم وإن لم يكن جازما كما سنبينه في آخر الجواب من الفرق بين ما ينافي الإيمان وبين ما لا ينافيه وكذلك الحريص على السيئات الجازم بإرادة فعلها إذا لم يمنعه إلا مجرد العجز فهذا يعاقب علي ذلك عقوبة الفاعل لحديث أبي كبشة ولما في الحديث الصحيح إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار قيل هذا القاتل فما بال المقتول قال إنه كان حريصا علي قتل صاحبه وفي لفظ أنه أراد قتل صاحبه فهذه الإرادة هي الحرص وهي الإرادة الجازمة وقد وجد معها المقدور وهو القتال لكن عجز عن القتل وليس هذا من الهم الذي لا يكتب ولا يقال أنه إستحق ذلك بمجرد قوله لو أن لي ما لفلان لعملت مثل ما عمل فإن تمنى الكبائر ليس عقوبته كعقوبة فاعلها بمجرد التكلم بل لا بد من أمر آخر وهو لم يذكر انه يعاقب علي كلامه وإنما ذكر أنهما في الوزر سواء وعلي هذا فقوله إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تكلم به او تعمل لا ينافي العقوبة علي الإرادة الجازمة التي لا بد أن

¹قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 76-83

يقترن بها الفعل فإن الإرادة الجازمة هي التي يقترن بها المقذور من الفعل وإلا فمتى لم يقترن بها المقذور من الفعل لم تكن جازمة فالمريد الزنا و السرقة و شرب الخمر العازم على ذلك متى كانت إرادته جازمة عازمة فلا بد أن يقترن بها من الفعل ما يقدر عليه ولو أنه يقربه إلى جهة المعصية مثل تقرب السارق إلى مكان المال المسروق ومثل نظر الزاني وإستماعه إلى المزني به وتكلمه معه ومثل طلب الخمر والتماسها ونحو ذلك فلا بد مع الإرادة الجازمة من شيء من مقدمات الفعل المقذور بل مقدمات الفعل توجد بدون الإرادة الجازمة عليه كما قال النبي في الحديث المتفق عليه العينان تزنيان وزناهما النظر واللسان يزني وزناه النطق واليد تزني وزناها البطش والرجل تزني وزناها المشي والقلب يتمنى ويشتهي والفرج يصدق ذلك أو يكذبه وكذلك حديث أبي بكر المتفق عليه إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار قيل يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول قال أنه أراد قتل صاحبه وفي رواية في الصحيحين أنه كان حريصا على قتل صاحبه فإنه أراد ذلك إرادة جازمة فعل معها مقذوره منعه منها من قتل صاحبه العجز وليست مجرد هم ولا مجرد عزم على فعل مستقبل فاستحق حينئذ النار كما قدمنا من ان الإرادة الجازمة التي أتى معها بالممكن يجرى صاحبها مجرى الفاعل التام و الإرادة التامة قد ذكرنا انه لا بد أن يأتي معها بالمقذور أو بعضه وحيث ترك الفعل المقذور فليست جازمة بل قد تكون جازمة فيما فعل دون ما ترك مع القدرة مثل الذي يأتي بمقدمات الزنا من اللمس والنظر والقبلة ويمتنع عن الفاحشة الكبرى ولهذا قال في حديث أبي هريرة الصحيح العين تزني والأذن تزني واللسان يزني إلى أن قال والقلب يتمنى ويشتهي أى يتمنى الوطء ويشتهي ولم يقل يريد ومجرد الشهوة والتمنى ليس إرادة جازمة ولا يستلزم وجود الفعل فلا يعاقب على ذلك وإنما يعاقب إذا أراد إرادة جازمة مع القدرة والإرادة الجازمة التي يصدقها الفرغ ومن هذا الحديث الذي في الصحيحين عن ابن مسعود أن رجلا اصاب من امرأة قبلة فأتى رسول الله فذكر ذلك له فأنزل الله تعالى {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ} هوذ114 الآية فقال الرجل إلى هذه فقال لمن عمل بها من أمتي فمثل هذا الرجل وأمثاله لا بد في الغالب أن يهجم بما هو أكبر من ذلك كما قال والقلب يتمنى ويشتهي والفرج يصدق ذلك أو يكذبه لكن إرادته القلبية للقبلة كانت إرادة جازمة فإقترن بها فعل القبلة القدرية وأما إرادته للجماع فقد تكون غير جازمة وقد تكون جازمة لكن لم يكن قادرا والأشبه في الذي نزلت فيه الآية انه كان متمكنا لكنه لم يفعل فتفرق احمد وغيره بين هم الخطرات وهم الإصرار هو الذي عليه الجواب فمن لم يمنعه من الفعل إلا العجز فلا بد أن يفعل ما يقدر عليه من مقدماته وإن فعله وهو عازم على العود متى قدر فهو مصر ولهذا قال ابن المبارك المصر الذي يشرب الخمر اليوم ثم لا يشربها إلى شهر وفي رواية إلى ثلاثين سنة ومن نيته أنه إذا قدر على شربها شربها وقد يكون مصرا إذا عزم على الفعل في وقت دون وقت كمن يعزم على ترك المعاصي في شهر رمضان دون غيره فليس هذا بتائب مطلقا ولكنه تارك للفعل في شهر رمضان ويثاب إذا كان ذلك التارك لله وتعظيم شعائر الله واجتناب محارمه في ذلك الوقت ولكنه ليس من التائبين الذين يغفر لهم بالتوبة مغفرة مطلقة ولا هو مصر مطلقا وأما الذي وصفه ابن المبارك فهو مصر إذا كان من نيته العود إلى شربها قلت والذي قد ترك المعاصي في شهر رمضان من نيته العود إليها في غير شهر رمضان مصر أيضا لكن نيته أن يشربها إذا قدر عليها غير النية مع وجود القدرة فإذا قدر قد تبقى نيته وقد لا تبقى ولكن متى كان مريدا إرادة جازمة لا يمنعه إلا العجز فهو معاقب على ذلك كما تقدم وتقدم ان مثل هذا لا بد ان يقترن بإرادته ما يتمكن من الفعل معه وبهذا يظهر ما يذكر عن الحارث المحاسبى أنه حكى الإجماع على ان النأوى للفعل ليس بمنزلة

الفاعل له فهذا الإجماع صحيح مع القدرة فإن النأوى للفعل القادر عليه ليس بمنزلة الفاعل وأما النأوى الجازم الآتى بما يمكن فإنه بمنزلة الفاعل التام كما تقدم¹

الفرق بين الهم والارادة

أنه من المعلوم أن معرفة الشيء المحبوب تقتضي حبه ومعرفة المعظم تقتضي تعظيمه ومعرفة المخوف تقتضي خوفه فنفس العلم والتصديق بالله وما له من الأسماء الحسنى والصفات العلى يوجب محبة القلب له وتعظيمه وخشيته وذلك يوجب إرادة طاعته وكرهية معصيته والإرادة الجازمة مع القدرة تستلزم وجود المراد ووجود المقدور عليه منه فالعبد إذا كان مريداً للصلاة إرادة جازمة مع قدرته عليها صلى فإذا لم يصل مع القدرة دل ذلك على ضعف الإرادة وبهذا يزول الإشتباه فى هذا المقام فإن الناس تنازعوا فى الإرادة بلا عمل هل يحصل بها عقاب وكثر النزاع فى ذلك فمن قال لا يعاقب إحتج بقول النبى الذى فى الصحيحين إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به وبما فى الصحيحين من حديث أبى هريرة وإبن عباس رضى الله عنه أن النبى قال إذا هم العبد بسيئة لم تكتب عليه فإن عملها كتبت عليه سيئة واحدة وإذا هم بحسنة كتبت له حسنة كاملة فإن عملها كتبت له عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف وفى رواية فإن تركها فأكتبوها له حسنة فإنما تركها من جرأى ومن قال يعاقب إحتج بما فى الصحيح عن النبى أنه قال إذا إلتقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار قيل يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول قال انه أراد قتل صاحبه وبالحدِيث الذى رواه الترمذى وصححه عن أبى كبشة الأنمارى عن النبى فى الرجلين الذين أوتى أحدهما علماً ومالاً فهو ينفقه فى طاعة الله ورجل أوتى علماً ولم يؤت مالاً فقال لو أن لي مثل ما لفلان لعملت فيه مثل ما يعمل فلان قال فهما فى الأجر سواء ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤته علماً فهو ينفقه فى معصية الله ورجل لم يؤته الله علماً ولا مالاً فقال لو أن لي مثل ما لفلان لعملت فيه مثل ما يعمل فلان قال فهما فى الوزر سواء

و الفصل فى ذلك أن يقال فرق بين الهم والارادة فالهم قد لا يقترن به شيء من الأعمال الظاهرة فهذا لا عقوبة فيه بحال بل إن تركه لله كما ترك يوسف همه أثيب على ذلك كما أثيب يوسف ولهذا قال أحمد الهم همان هم خطرات وهم إصرار ولهذا كان الذى دل عليه القرآن أن يوسف لم يكن له فى هذه القضية ذنب أصلاً بل صرف الله عنه السوء والفحشاء أنه من عباده المخلصين مع ما حصل من المرادة والكذب والإستعانة عليه بالنسوة وحبسه وغير ذلك من الأسباب التى لا يكاد بشر يصبر معها عن الفاحشة ولكن يوسف اتقى الله وصبر فأثابه الله برحمته فى الدنيا {وَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} يوسف 57 وأما الإرادة الجازمة فلا بد أن يقترن بها مع القدرة فعل المقدور ولو بنظرة أو حركة رأس أو لفظة أو خطوة أو تحريك بدن وبهذا يظهر معنى قوله إذا إلتقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار فإن المقتول أراد قتل صاحبه فعلم ما يقدر عليه من القتال وعجز عن حصول المراد وكذلك الذى قال لو أن لي مثل ما لفلان لعملت فيه مثل ما يعمل فلان فإنه أراد فعل ما يقدر عليه وهو الكلام ولم يقدر على ذلك

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 740-747 والزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 169

ولهذا كان من دعا إلى ضلالة كان عليه مثل أوزار من إتبعه من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً لأنه أراد ضلالهم ففعل ما يقدر عليه من دعائهم إذ لا يقدر إلا على ذلك¹

يوسف الصديق لم يذكر الله عنه ذنباً

وأما العصمة في غير ما يتعلق بتبليغ الرسالة فللناس فيه نزاع هل هو ثابت بالعقل أو بالسمع ومنتازعون في العصمة من الكبائر والصغائر أو من بعضها أم هل العصمة إنما هي في الإقرار عليها لا في فعلها أم لا يجب القول بالعصمة إلا في التبليغ فقط وهل تجب العصمة من الكفر والذنوب قبل المبعث أم لا والكلام على هذا مبسوط في غير هذا الموضع والقول الذي عليه جمهور الناس وهو الموافق للآثار المنقولة عن السلف إثبات العصمة من الإقرار على الذنوب مطلقاً والرد على من يقول أنه يجوز إقرارهم عليها وحجج القائلين بالعصمة إذا حررت إنما تدل على هذا القول وحجج النفاة لا تدل على وقوع ذنب أقر عليه الأنبياء فإن القائلين بالعصمة احتجوا بأن التأسى بهم مشروع وذلك لا يجوز إلا مع تجويز كون الأفعال ذنوباً ومعلوم أن التأسى بهم إنما هو مشروع فيما أقروا عليه دون ما نهوا عنه ورجعوا عنه كما أن الأمر والنهي إنما تجب طاعتهم فيما لم ينسخ منه فأما ما نسخ من الأمر والنهي فلا يجوز جعله مأموراً به ولا منهيًا عنه فضلاً عن وجوب اتباعه والطاعة فيه وكذلك ما احتجوا به من أن الذنوب تنافي الكمال أو أنها ممن عظمت عليه النعمة أقبح أو أنها توجب التنفير أو نحو ذلك من الحجج العقلية فهذا إنما يكون مع البقاء على ذلك وعدم الرجوع وإلا فالتوبة النصوح التي يقبلها الله يرفع بها صاحبها إلى أعظم مما كان عليه كما قال بعض السلف كان داود عليه السلام بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة وقال آخر لو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه لما ابتلى بالذنب أكرم الخلق عليه وقد ثبت في الصحاح حديث التوبة أفرح بتوبة عبده من رجل نزل منزلاً الخ وقد قال تعالى { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ } البقرة 222 وقال تعالى { إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ } الفرقان 70 وقد ثبت في الصحيح حديث الذي يعرض الله صغار ذنوبه ويخبأ عنه كبارها وهو مشفق من كبارها أن تظهر فيقول الله له إني قد غفرتها لك وأبدلتك مكان كل سيئة حسنة فيقول أي رب إن لي سيئات لم أرها إذا رأى تبديل السيئات بالحسنات طلب رؤية الذنوب الكبار التي كان مشفقاً منها أن تظهر ومعلوم أن حاله هذه مع هذا التبديل أعظم من حاله لو لم تقع السيئات ولا التبديل وقال طائفة من السلف منهم سعيد بن جبير إن العبد ليعمل الحسنه فيدخل بها النار وإن العبد ليعمل السيئة فيدخل بها الجنة يعمل الحسنه فيعجب بها ويفتخر بها حتى تدخله النار ويعمل السيئة فلا يزال خوفه منها وتوبته منها حتى تدخله الجنة وقد قال تعالى { وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا } {72} لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا {73} الأحزاب 72-73 فغاية كل إنسان أن يكون من المؤمنين والمؤمنات الذين تاب الله عليهم وفي الكتاب والسنة الصحيحة والكتب التي أنزلت قبل القرآن مما يوافق هذا القول ما يتعذر إحصاؤه والرادون لذلك تأولوا ذلك بمثل تأويلات الجهمية والقدرية والدهرية لنصوص الأسماء والصفات ونصوص القدر ونصوص المعاد وهي من جنس تأويلات القرامطة الباطنية التي يعلم بالاضطرار أنها باطلة وأنها من باب تحريف الكلم عن مواضعه وهؤلاء يقصد أحدهم تعظيم الأنبياء

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 526-527

فيقع في تكذيبهم ويريد الإيمان بهم فيقع في الكفر بهم ثم أن العصمة المعلومة بدليل الشرع والعقل والإجماع وهي العصمة في التبليغ لم ينتفعوا بها إذ كانوا لا يقررون بموجب ما بلغته الأنبياء وإنما يقررون بلفظ حرفوا معناه أو كانوا فيه كالأمة الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني والعصمة التي كانوا ادعوا لو كانت ثابتة لم ينتفعوا بها ولا حاجة بهم إليها عندهم فإنها متعلقة بغيرهم لا بما أمروا بالإيمان به فيتكلم أحدهم فيها على الأنبياء بغير سلطان من الله ويدع ما يجب عليه من تصديق الأنبياء وطاعتهم وهو الذي تحصل به السعادة وبضده تحصل الشقاوة قال تعالى { فَأَيْنَمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ } النور 54 الآية و الله تعالى لم يذكر في القرآن شيئا من ذلك عن نبي من الأنبياء إلا مقرونا بالتوبة والاستغفار كقول آدم وزوجته { رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } الأعراف 23 وقول نوح { رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ } هود 47 وقول الخليل عليه السلام { رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ } إبراهيم 41 وقوله { وَالَّذِي أُطْمِعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ } الشعراء 82 وقول موسى { أَنْتَ وَلِيِّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ } {155} وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ {156} الأعراف 155-156 وقوله { قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي } القصص 16 وقوله { فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ } الأعراف 143 وقوله تعالى عن داود { فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ } {24} فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ {25} ص 24 وقوله تعالى عن سليمان { رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ } ص 35 وأما يوسف الصديق فلم يذكر الله عنه ذنبا فهذا لم يذكر الله عنه ما يناسب الذنب من الاستغفار بل قال { كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ } يوسف 24 فأخبر أنه صرف عنه السوء والفحشاء وهذا يدل على أنه لم يصدر منه سوء ولا فحشاء وأما قوله { وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ } يوسف 24 فالهم اسم جنس تحته نوعان كما قال الإمام أحمد الهم همان هم خطرات وهم إصرار وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أن العبد إذا هم بسيئة لم تكتب عليه وإذا تركها كتبت له حسنة وإن عملها كتب له سيئة واحدة وإن تركها من غير أن يتركها لم تكتب له حسنة ولا تكتب عليه سيئة ويوسف صلى الله عليه وسلم هم هما تركه الله ولذلك صرف الله عنه السوء والفحشاء لإخلاصه وذلك إنما يكون إذا قام المقتضى للذنب وهو الهم وعارضه الإخلاص الموجب لإنصاف القلب عن الذنب لله فيوسف عليه السلام لم يصدر منه إلا حسنة يثاب عليها وقال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ } الأعراف 201 وأما ما ينقل من أنه حل سراويله وجلس مجلس الرجل من المرأة وأنه رأى صورة يعقوب عاضا على يده وأمثاله ذلك فكله مما لم يخبر الله به ولا رسوله وما لم يكن كذلك فإنما هو مأخوذ عن اليهود الذين هم من أعظم الناس كذبا على الأنبياء وقدحا فيهم وكل من نقله من المسلمين فعنهم نقله لم ينقل من ذلك أحد عن نبينا صلى الله عليه وسلم حرفا واحدا وقوله { وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي } يوسف 53 فمن كلام امرأة العزيز كما يدل القرآن على ذلك دلالة بينة لا يرتاب فيها من تدبر القرآن حيث قال تعالى { وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْنِسُ بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ } {50} قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَاوَدْتَنِّي يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ فَلَنْ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتْ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ } {51} ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ } {52} وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ } {53} يوسف 50-53 فهذا كله كلام امرأة العزيز ويوسف إذ ذاك في السجن لم يحضر بعد إلى الملك ولا سمع كلامه ولا

راه ولكن لما ظهرت براءته في غيبته كما قالت امرأة العزيز { ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ } يوسف 52 أي لم أخنه في حال مغيبه عني وإن كنت في حال شهوده راودته فحينئذ { وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْنِسُ بِيهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ } يوسف 54 وقد قال كثير من المفسرين إن هذا من كلام يوسف ومنهم من لم يذكر إلا هذا القول وهو قول في غاية الفساد ولا دليل عليه بل الأدلة تدل على نقيضه وقد بسط الكلام على هذه الأمور في غير هذا الموضوع¹

وهو سبحانه وله الحمد لم يذكر عن نبي من الأنبياء ذنباً إلا ذكر معه توبته لينزهه عن النقص والعيب ويبين أنه ارتفعت منزلته وعظمت درجته وعظمت حسناته وقربه إليه بما أنعم الله عليه من التوبة والإستغفار والأعمال الصالحة التي فعلها بعد ذلك وليكون ذلك أسوة لمن يتبع الأنبياء ويقتدي بهم إلى يوم القيامة ولهذا لما لم يذكر عن يوسف توبة في قصة امرأة العزيز دل على أن يوسف لم يذنب أصلاً في تلك القصة كما يذكر من يذكر أشياء نزهه الله منها بقول تعالى { كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ } يوسف 24 وقد قال تعالى { وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ } يوسف 24 والهم كما قال الإمام أحمد رضي الله عنه همان هم خطرات وهم إصرار وقد ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إن الله تعالى يقول إذا هم عبدي بحسنة فاكتبوها له حسنة كاملة فإن عملها فاكتبوها عشرًا إلى سبعمائة ضعف وإذا هم بسيئة فلا تكتبوها عليه فإن تركها فاكتبوها له حسنة فإنما تركها من جرائي فيوسف عليه الصلاة والسلام لما هم ترك همه لله فكتب الله به حسنة كاملة ولم يكتب عليه سيئة قط بخلاف امرأة العزيز فإنها همت وقالت وفعلت فراودته بفعلها وكذبت عليه عند سيدها واستعانت بالنسوة وحبسته لما اعتصم وامتنع عن الموافقة على الذنب ولهذا قالت { وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَجِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ } يوسف 53 وهذا من قولها كما دل عليه القرآن ليس من كلام يوسف عليه السلام بل لما قالت هذا كان يوسف غائباً في السجن لم يحضر عند الملك بل لما برأته هي والنسوة استدعاه الملك بعد هذا وقال { وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْنِسُ بِيهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ } يوسف 54²

قوة يوسف ومحبه الله كانت أقوى من جمال امرأة العزيز

فلا تزول الفتنة عن القلب إلا إذا كان دين العبد كله لله عز وجل فيكون حبه لله ولما يحبه الله وبغضه الله ولما يبغضه الله وكذلك موالاته ومعاداته وإلا فمحبة المخلوق تجذبه وحب الخلق له سبب يجذبهم به إليه ثم قد يكون هذا أقوى وقد يكون هذا أقوى فإذا كان هو غالباً لهواه لم يجذبه مغلوب مع هواه ولا محبوباته إليها لكونه غالباً لهواه ناهياً لنفسه عن الهوى لما في قلبه من خشية الله ومحبه التي تمنعه عن إنجذابه إلى المحبوبات وأما حب الناس له فإنه يوجب أن يجذبوه هم بقولهم إليهم فإن لم يكن فيه قوة يدفعهم بها عن نفسه من محبة الله وخشيته وإلا جذبوه وأخذوه إليهم كحب امرأة

¹الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 337-339 و دقائق التفسير ج: 2 ص: 272-273 و مجموع الفتاوى ج: 10

ص: 293-399

²منهاج السنة النبوية ج: 2 ص: 411

العزیز لیوسف فإن قوة یوسف ومحبته لله وإخلاصه وخشيته كانت أقوى من جمال امرأة العزیز وحسنها وحبها لها هذا إذا أحب أحدهم صورته مع أن هنا الداعی قوى منه ومنهم فهنا المعصوم من عصمه الله وإلا فالغالب على الناس فى المحبة من الطرفين أنه يقع بعض الشر بينهم ولهذا قال رسول الله لا یخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان¹

توحيد الله وإخلاص الدين له هو قلب الإيمان

قال تعالى { **كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ** } يوسف 24 وتوحيد الله وإخلاص الدين له فى عبادته وإستعانته فى القرآن كثير جدا بل هو قلب الإيمان وأول الإسلام وآخره كما قال النبى صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وقال إني لأعلم كلمة لا يقولها عند الموت أحد إلا وجد روحه لها روحا وقال من كان آخر كلامه لا إله إلا الله وجبت له الجنة وهو قلب الدين والإيمان وسائر الأعمال كالجوارح له وقول النبى إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرى ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه فبين بهذا أن النية عمل القلب وهى أصل العمل وإخلاص الدين لله وعبادة الله وحده ومتابعة الرسول فيما جاء به هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ولهذا أنكرنا على الشيخ يحيى الصرصرى ما يقوله فى قصائده فى مدح الرسول من الإستغاثة به مثل قوله بك أستغيث وأستعين وأستنجد ونحو ذلك وكذلك ما يفعله كثير من الناس من استجداد الصالحين والمتشبهين بهم والإستعانة بهم أحياء وأمواتا فإني أنكرت ذلك فى مجالس عامة وخاصة وبيّنت للناس التوحيد ونفع الله بذلك ما شاء الله من الخاصة والعامة وهو دين الإسلام العام الذى بعث الله به جميع الرسل كما قال تعالى { **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ** } النحل 36 وقال { **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ** } الأنبياء 25 وقال النبى لمعاذ بن جبل يا معاذ أتدرى ما حق الله على عباده قلت الله ورسوله أعلم قال حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك أن لا يعذبهم وقال لابن عباس إذا سألت فاسئل الله وإذا استعنت فاستعن بالله²

الكمال المطلق للإنسان

فالكمال المطلق للإنسان هو تكميل العبودية لله علما وقصدا وقال تعالى { **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** } الذاريات 56 وقال تعالى { **وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ** } الجن 19 وقال تعالى فيما حكاه عن إبليس قال { **فِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ** } {82} **إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ** } {83} ص 82-83 قال تعالى { **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ** } الإسراء 65 وقال تعالى { **كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ**

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 601-606 و الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 40

²مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 71

السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ {يوسف 24} وقال تعالى { إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } {99} إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ {100} النحل 99-100 و عبادته طاعة أمره وأمره لنا ما بلغه الرسول عنه فالكمال في كمال طاعة الله ورسوله باطنا وظاهرا¹

"أفعال البر يفعلها البر والفاجر ولن يصبر عن المعاصي إلا صديق"

كانت محنة يوسف بالنسوة وإمرأة العزيز وإختياره السجن على معصية الله - أعظم من إيمانه ودرجته عند الله و أجره من صبره على ظلم إخوته له ولهذا يعظم يوسف بهذا أعظم مما يعظم بذلك ولهذا قال تعالى فيه { **كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ** } {يوسف 24} وهذا كالصبر عن المعاصي مع الصبر على المصائب فالأول أعظم وهو صبر المتقين أولياء الله قال سهل بن عبدالله التستري أفعال البر يفعلها البر والفاجر ولن يصبر عن المعاصي إلا صديق ويوسف صلوات الله عليه كان صديقا نبيا و أما من يظلم بغير إختياره ويصبر فهذا كثير ومن لم يصبر صبر الكرام سلا سلو البهائم وكذلك إذا مكن المظلوم وقهر ظالمه فتاب الظالم وخضع له فغفوه عنه من المحاسن والفضائل لكن هذا يفعله خلق كثير من أهل الدين وعقلاء الدنيا فإن حلم الملوك والولاة أجمع لأمرهم وطاعة الناس لهم وتأليفهم لقلوب الناس وكان معاوية من أحلم الناس وكان المأمون حلما حتى كان يقول لو علم الناس محبتي في العفو تقربوا إلى بالذنوب ولهذا لما قدر على من نازعه في الملك و هو عمه إبراهيم بن المهدي عفا عنه وأما الصبر عن الشهوات والهوى الغالب لله لا رجاء لمخلوق ولا خوفا منه مع كثرة الدواعي إلى فعل الفاحشة وإختياره الحبس الطويل على ذلك كما قال يوسف { **رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ** } {يوسف 33} فهذا لا يوجد نظيره إلا في خيار عباد الله الصالحين وأوليائه المتقين كما قال تعالى { **كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ** } {يوسف 24} فهذا من عباد الله المخلصين الذين قال الله تعالى فيهم { **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ** } {الحجر 42} ولهذا لم يصدر من يوسف الصديق ذنب أصلا بل الهم الذي هم به لما تركه الله كتب له به حسنة ولهذا لم يذكر عنه سبحانه توبة وإستغفارا كما ذكر توبة الأنبياء كآدم و داود ونوح وغيرهم وإن لم يذكر عن أولئك الأنبياء فاحشة والله الحمد وإنما كانت توباتهم من أمور أخر هي حسنات بالنسبة إلى غيرهم ولهذا لا يعرف ليوسف نظير فيما إبتلى به من دواعي الفاحشة وتقواه و صبره في ذلك وإنمات يعرف لغيره ما هو دون ذلك كما في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال سبعة يظلهم الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله إمام عادل و شاب نشأ في عبادة الله و رجل معلق قلبه بالمسجد إذا خرج حتى يعود إليه و رجلان تحابا في الله إجتمعا على ذلك وتفرقا عليه و رجل دعتة امرأة ذات منصب و جمال فقال إني أخاف الله ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه و رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لاتعلم شماله ما تنفق يمينه وإذا كان الصبر على الأذى لئلا يفعل الفاحشة أعظم من صبره على ظلم إخوته فكيف بصبر الرسل على أذى المكذبين لئلا يتركوا مأمروا به من دعوتهم إلى عبادة الله وحده وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر فهذا

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 546

الصبر هو من جنس الجهاد في سبيل الله إذ كان الجهاد مقصودا به أن تكون كلمة الله هي العليا وأن الدين كله لله فالجهاد والصبر فيه أفضل الأعمال كما قال النبي صلى الله عليه وسلم رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله وهو حديث صحيح رواه الإمام أحمد والترمذي وصححه وهو من حديث معاذ بن جبل الطويل وهو أحب الأعمال إلى الله فالصبر على تلك المعصية صبر المهاجر الذي هجر ما نهى عنه وصبر المجاهد الذي جاهد نفسه في الله وجاهد عدو الله الظاهر والباطن والمهاجر الصابر على ترك الذنب إنما جاهد نفسه وشيطانه ثم يجاهد عدو الله الظاهر لتكون كلمة الله هي العليا ويكون الدين كله لله وصبر المظلوم صبر المصاب لكن المصاب بمصيبة سماوية تصبر نفسه ما لا تصبر نفس من ظلمه الناس فإن ذلك يستشعر أن الله هو الذي فعل به هذا فتتأس نفسه من الدفع والمعاقبة وأخذ الثأر بخلاف المظلوم الذي ظلمه الناس فإن نفسه تستشعر أن ظالمه يمكنه دفعه وعقوبته وأخذ ثأره منه فالصبر على هذه المصيبة أفضل وأعظم كصبر يوسف صلوات الله عليه وسلامه وهذا يكون لأن صاحبه يعلم أن الله قدر ذلك فيصبر على ذلك كالمصائب السماوية ويكون أيضا لينال ثواب الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين وليسلم قلبه من الغل للناس وكلا النوعين يشترك في أن صاحبه يستشعر أن ذلك بذنوبه وهو مما يكفر الله به سيئاته ويستغفر ويتوب وأيضا فيرى أن ذلك الصبر واجب عليه وأن الجزع مما يعاقب عليه وإن ارتقى إلى الرضا رأي أن الرضا جنة الدنيا ومستراح العابدين وباب الله الأعظم وإن رأي ذلك نعمة لما فيه من صلاح قلبه ودينه وقربه إلى الله وتكفير سيئاته وصونه عن ذنوب تدعوه إليها شياطين الإنس والجن شكر الله على هذه النعم فالمصائب السماوية ولأدمية تشترك في هذه الأمور ومعرفة الناس بهذه الأمور وعلمهم بها هو من فضل الله يمن به على من يشاء من عباده ولهذا كانت أحوال الناس في المصائب وغيرها متباينة تباينا عظيما ثم إذا شهد العبد القدر وأن هذا أمر قدره الله وقضاه وهو الخالق له فهو مع الصبر يسلم للرب القادر المالك الذي يفعل ما يشاء وهذا حال الصابر وقد يسلم تسليمه للرب المحسن المدبر له بحسن إختياره الذي لا يقضي للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له كما رواه مسلم في صحيحه عن صهيب عن النبي صلى الله عليه وسلم وهذا تسليم راض لعلمه بحسن إختيار الله له وهذا يورث الشكر وقد يسلم تسليمه للرب المحسن إليه المتفضل عليه بنعم عظيمة وإن لم ير هذا نعمة فيكون تسليمه تسليم راض غير شاكر وقد يسلم تسليمه لله الذي لا إله إلا هو المستحق لأن يعبد لذاته وهو محمود على كل ما يفعله فإنه عليم حكيم رحيم لا يفعل شيئا إلا لحكمة وهو مستحق لمحبتة وعبادته وحمده على كل ما خلقه فهذا تسليم عبد عابد حامد وهذا من الحمادين الذين هم أول من يدعى إلى الجنة ومن بينهم صاحب لواء الحمد وأدم فمن دونه تحت لوائه وهذا يكون القضاء خيرا له ونعمة من الله عليه لكن يكون حمده لله ورضاه بقضائه من حيث عرف الله وأحبه وعبده لإستحقاقه الألوهية وحده لا شريك له فيكون صبره ورضاه وحمده من عبادته الصادرة عن هذه المعرفة والشهادة وهذا يشهد بقلبه أنه لا إله إلا الله والإله عنده هو المستحق للعبادة بلاف من لم يشهد إلا مجرد ربوبيته ومشيتته وقدرته أو مجرد إحسانه ونعمته فإنهما مشهدان ناقصان قاصران وإنما يقتصر عليهما من نقص علمه بالله وبدينه الذي بعث به رسله وأنزل به كتبه كأهل البدع من الجهمية والقدرية الجبرية والقدرية المعتزلة فإن الأول مشهد أولئك والثاني مشهد هؤلاء وشهود ربوبيته وقدرته ومشيتته مع شهود رحمته وإحسانه وفضله مع شهود إلهيته ومحبتة ورضاه وحمده والثناء عليه ومجده هو مشهد أهل العلم والإيمان من أهل السنة والجماعة التابعين بإحسان للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار وهذه الأمور ليسطها موضع آخر والمقصود هنا أن هذا يكون للمؤمن في عموم المصائب وما يكون بأفعال المؤمنين فله فيه كظم الغيظ والعفو

عن الناس ويوسف الصديق صلوات الله عليه كان له هذا وأعلى من ذلك الصبر عن الفاحشة مع قوة الداعي إليها فهذا الصبر أعظم من ذلك الصبر بل وأعظم من الصبر على الطاعة ولهذا قال سبحانه في وصف المتقين الذين أعد لهم الجنة {وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} {133} الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} {134} وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاَسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ} {135} أُولَٰئِكَ جَزَاءُ هُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} {136} ال عمران

133-136 فوصفهم بالكرم و الحلم و بالإنفاق و كظم الغيظ و العفو عن الناس ثم لما جاءت الشهوات المحرمات و صفهم بالتوبة منها فقال {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاَسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ} {آل عمران 135} فوصفهم بالتوبة منها وترك الإصرار عليها لا بترك

ذلك بالكلية فإن النبي قال في الحديث الصحيح كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة فالعينان تزنيان وزناهما النظر والأذن تزني وزناها السمع واللسان يزني وزناه المنطق واليد تزني وزناها البطش والرجل تزني وزناها المشي والقلب يتمنى ويشتهي والفرج يصدق ذلك ويكذبه وفي الحديث كل بنى آدم خطاء وخير الخطائين التوابون فلا بد للإنسان من مقدمات الكبيرة وكثير منهم يقع فى الكبيرة فيؤمر بالتوبة و يؤمرون أن لا يصبروا على صغيرة فإنه لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع إستغفار ويوسف صلى الله عليه و سلم صبر على الذنب مطلقا ولم

يوجد منه إلا هم تركه لله كتب له به حسنة وقد ذكر طائفة من المفسرين أنه وجد منه بعض المقدمات مثل حل السراويل والجلوس مجلس الخاتن ونحو ذلك لكن ليس هذا منقولا نقلا يصدق به فإن هذا لم ينقل عن النبي ومثل هذه الإسرائيليات إذا لم تنقل عن النبي صلى الله عليه و سلم لم يعرف صدقها ولهذا لا يجوز تصديقها ولا تكذيبها إلا بدليل والله تعالى يقول في القرآن **{كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِن عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} يوسف 24** فدل القرآن على أنه صرف عنه السوء

ولو كان قد فعل صغيرة لتاب منها والقرآن ليس فيه ذكر توبته و من وقع منه بعض أنواع السوء والفحشاء لم يكن ذلك قد صرف عنه بل يكون قد وقع وتاب الله عليه منه والقرآن يدل على خلاف هذا وقد شهدت النسوة له أنهن ما علمن عليه من سوء ولو كان قد بدت منه هذه المقدمات لكانت المرأة قد رأت ذلك وهي من النسوة اللاتي شهدن وقلن ما علمنا عليه من سوء وقالت مع ذلك { وَلَقَدْ رَاودَتْهُ عَن نَّفْسِهِ فَاَسْتَعْصَمَ } يوسف 32 وقالت { أَنَا رَاودَتْهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ } يوسف 51 وقوله سوء نكرة في سياق النفي فدل ذلك على أن المرأة لم تر منه سوءا فإن الهم فى القلب لم تطلع عليه ولو أطلعت عليه فإنه إذا تركه الله كان حسنة ولو تركه مطلقا لم يكن حسنة ولا سيئة فإنه لا إثم فيه إلا مع القول أو العمل¹

بين الله أن عباده هم الذين ينجون من السيئات

فكمال المخلوق فى تحقيق عبوديته لله وكلما ازداد العبد تحقيقا للعبودية ازداد كماله وعلت درجته ومن توهم ان المخلوق يخرج من العبودية بوجه من الوجوه او ان الخروج عنها اكمل فهو من اجهل

¹مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 24-31

الخلق واضلهم وقال تعالى {وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ} {19} {يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ} {20} {الأنبياء 19-20} وقال تعالى {لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا} النساء 172 الى قوله { وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا } النساء 173 وهذا ونحوه مما فيه وصف اكابر المخلوقات بالعبادة وذم من خرج عن ذلك متعدد في القرآن وقد اخبر انه ارسل جميع الرسل بذلك فقال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} النحل 36 وقال {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} الذاريات 56 وكل رسول من الرسل افتتح دعوته بالدعاء الى عبادة الله كقول نوح ومن بعده عليهم السلام { اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ } الأعراف 59 وفي المسند عن ابن عمر عن النبي انه قال بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له وجعل رزقي تحت ظل رمحي وجعل الذلة والصغار على من خالف امرى وقد بين الله أن عباده هم الذين ينجون من السيئات قال الشيطان { رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ } {39} {إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} {40} الحجر 39-40 قال تعالى { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْعَاوِينَ } الحجر 42 و { قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ } {82} {إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} {83} ص 82-83 وقال في حق يوسف { كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ } يوسف 24 وقال { سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ } {159} {إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ} {160} الصافات 159-160 وقال { إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } {99} {إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ} {100} النحل 99-100¹

قال تعالى { أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا } {43} { أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا } {44} الفرقان 43-44 فمن جعل ما يألوه هو ما يهواه فقد اتخذ الهه هواه اى جعل معبوده هو ما يهواه وهذا حال المشركين الذين يعبد احدهم ما يستحسنه فهم يتخذون اندادا من دون الله يحبونهم كحب الله ولهذا قال الخليل { لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ } الأنعام 76 فإن قومه لم يكونوا منكرين للصانع ولكن كان احدهم يعبد ما يستحسنه ويظنه نافعا كالشمس والقمر والكواكب والخليل بين ان الآفل يغيب عن عابده وتحجبه عنه الحواجب فلا يرى عابده ولا يسمع كلامه ولا يعلم حاله ولا ينفعه ولا يضره بسبب ولا غيره فأى وجه لعبادة من يأفل وكلما حقق العبد الاخلاص فى قول لا اله الا الله خرج من قلبه تأله ما يهواه وتصرف عنه المعاصى والذنوب كما قال تعالى { كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ } يوسف 24 فعلى صرف السوء والفحشاء عنه بأنه من عباد الله المخلصين وهؤلاء هم الذين قال فيهم { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ } الحجر 42 وقال الشيطان { قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ } {82} {إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} {83} ص 82-83 وقد ثبت فى الصحيح عن النبي انه قال من قال لا اله الا الله مخلصا من قلبه حرمة الله على النار فإن الاخلاص ينفى اسباب دخول النار فمن دخل النار من القائلين لا اله الا الله لم يحقق اخلاصها المحرم له على النار بل كان فى قلبه نوع من الشرك

¹ الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 378 و مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 176-179

الذى اوقعه فيما ادخله النار والشرك فى هذه الأمة اخفى من دبيب النمل ولهذا كان العبد مأمورا فى كل صلاة ان يقول {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} الفاتحة 5 والشيطان يأمر بالشرك والنفس تطيعه فى ذلك فلا تزال النفس تلتفت الى غير الله اما خوفا منه واما رجاء له فلا يزال العبد مفتقرا الى تخليص توحيدة من شوائب الشرك وفى الحديث الذى رواه ابن ابي عاصم وغيره عن النبى انه قال يقول الشيطان اهلكت الناس بالذنوب واهلكونى بلا اله الا الله والاستغفار فلما رأيت ذلك بثنت فيهم الأهواء فهم يذنبون ولا يستغفرون لأنهم يحسبون انهم يحسنون صنعا¹

الحرية حرية القلب والعبودية عبودية القلب

وكلما طمع العبد فى فضل الله ورحمته ورجائه لقضاء حاجته ودفع ضرورته قويت عبوديته له وحرية مما سواه فكما ان طمعه فى المخلوق يوجب عبوديته له فيأسه منه يوجب غنى قلبه عنه كما قيل استغن عن شئت تكن نظيره وفضل على من شئت تكن اميره واحتج الى من شئت تكن اسيره فكذلك طمع العبد فى ربه ورجاؤه له يوجب عبوديته له واعراض قلبه عن الطلب من غير الله والرجاء له يوجب انصراف قلبه عن العبودية لله لا سيما من كان يرجو المخلوق ولا يرجو الخالق بحيث يكون قلبه معتمدا اما على رئاسته وجنوده واتباعه ومماليكه واما على اهله واصدقائه واما على امواله وذخائره واما على ساداته وكبرائه كماله وملكه وشيخه ومخدومه وغيرهم ممن هو قد مات او يموت قال تعالى {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا} الفرقان 58 وكل من علق قلبه بالمخلوقات ان ينصروه او يرزقوه او ان يهدوه خضع قلبه لهم وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك وان كان فى الظاهر اميرا لهم مدبرا لهم متصرفا بهم فالعقل ينظر الى الحقائق لا الى الظواهر فالرجل اذا تعلق قلبه بامرأة ولو كانت مباحة له يبقى قلب اسيرا لها تحكم فيه وتتصرف بما تريد وهو فى الظاهر سيدها لانه زوجها وفي الحقيقة هو اسيرها ومملوكها لا سيما اذا درت بفرقه اليها وعشقه لها وانه لا يعتاض عنها بغيرها انها حينئذ تحكم فيه بحكم السيد القاهر الظالم فى عبده المقهور الذى لا يستطيع الخلاص منه بل اعظم من اسر القلب اعظم من اسر البدن واستعباد القلب اعظم من استعباد البدن فان من استعبد بدنه واسترق لا يبالي اذا كان قلبه متريحا من ذلك مطمئنا بل يمكنه الاحتيال فى الخلاص واما اذا كان القلب الذى هو الملك رقيقا مستعبدا متيما لغير الله هذا هو الذل والاسر المحض والعبودية لما استعبد القلب وعبودية القلب واسره هي التى يترتب عليها الثواب والعقاب ان المسلم لو اسره كافر او استرقه فاجر بغير حق لم يضره ذلك اذا كان قائما بما يقدر على من الواجبات ومن استعبد بحق اذا ادى حق الله وحق مواليه له اجران ولو اكره على التكلم بالكفر فتكلم به وقلبه مطمئن بالايمان لم يضره ذلك واما من استعبد قلبه صار عبدا لغير الله فهذا يضره ذلك ولو كان فى الظاهر ملك الناس فالحرية حرية القلب والعبودية عبودية القلب كما ان الغنى غنى النفس قال النبى ليس الغنى عن كثرة العرض وانما الغنى غنى النفس وهذا لعمرى اذا كان قد استعبد قلبه صورة مباحة فاما من استعبد

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 261-263

قلبه صورة محرمة امرأة اوصى بهذا هو العذاب الذي لا يدان فيه وهؤلاء من اعظم الناس عذابا واكلهم ثوابا فإن العاشق لصورة اذا بقى قلبه متعلقا بها مستعبدا لها اجتمع له من انواع الشر والفساد ما لا يحصيه الا رب العباد ولو سلم من فعل الفاحشة الكبرى فدوام تعلق القلب بها بلا فعل الفاحشة اشد ضررا عليه ممن يفعل ذنبا ثم يتوب منه ويزول اثره من قلبه وهؤلاء يشبهون بالسكارى والمجانين كما قيل سكران سكر هوى وسكر مدامة ومتى افاقة من به سكران وقيل قالوا جننت بمن تهوى فقلت لهم العشق اعظم مما بالمجانين العشق لا يستفيق الدهر صاحبه وانما يصرع المجنون فى الحين ومن اعظم اسباب هذا البلاء اعراض القلب عن الله فان القلب اذا ذاق طعم عبادة الله والاخلاص له لم يكن عنده شىء قط احلى من ذلك ولا أذ ولا اطيب والانسان لا يترك محبوبا الا بمحسوب آخر يكون أحب اليه منه او خوفا من مكروه فالحب الفاسد انما ينصرف القلب عنه بالحب الصالح او بالخوف من الضرر قال تعالى فى حق يوسف **{ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ } يوسف 24** فالله يصرف عن عبده ما يسوءه من الميل الى الصورة والتعلق بها ويصرف عنه الفحشاء باخلاصه لله ولهذا يكون قبل ان يذوق حلاوة العبودية لله والاخلاص له تغلبه نفسه على اتباع هواها فاذا ذاق طعم الاخلاص وقوى فى قلبه انقهر له هواء بلا علاج قال تعالى **{ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ }** العنكبوت 45 فان الصلاة فيها دفع للمكروه وهو الفحشاء والمنكر وفيها تحصيل المحبوب وهو ذكر الله وحصول هذا المحبوب اكبر من مندفع المكروه فان ذكر الله عبادة لله وعبادة القلب لله مقصودة لذاتها واما اندفاع الشر عنه فهو مقصود لغيره على سبيل التبع والقلب خلق يحب الحق ويريده ويطلبه فلما عرضت له ارادة الشر طلب دفع ذلك فانه يفسد القلب كما يفسد الزرع بما ينبت فيه من الدغل ولهذا قال تعالى **{ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا } 9** **{ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا } 10** الشمس 9-10 وقال تعالى **{ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى } 14** **{ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى } 15** الاعلى 14-15 وقال **{ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ }** النور 30 وقال تعالى **{ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا }** النور 21 فجعل سبحانه غض البصر وحفظ الفرج هو ازكى للنفس وبين ان ترك الفواحش من زكاة النفوس وزكاة النفوس تتضمن زوال جميع الشرور من الفواحش والظلم والشرك والكذب وغير ذلك وكذلك طالب الرئاسة والعلو فى الارض قلبه رقيق لمن يعينه عليها ولو كان فى الظاهر مقدمهم والمطاع فيهم فهو فى الحقيقة يروجهم ويخافهم فيبذل لهم الأموال والولايات ويعفو عنهم ليطيعوه ويعينوه فهو فى الظاهر رئيس مطاع وفى الحقيقة عبد مطيع لهم والتحقيق ان كلاهما فيه عبودية للأخر وكلاهما تارك لحقيقة عبادة الله واذا كان تعاونهما على العلو فى الأرض بغير الحق كانا بمنزلة المتعاونين على الفاحشة او قطع الطريق فكل واحد من الشخصين لهواه الذي استعبده واستترقه يستعبده الأخر وهكذا ايضا طالب المال فان ذلك يستعبده ويستترقه وهذه الأمور نوعان منها ما يحتاج العبد اليه كما يحتاج اليه من طعامه وشرابه ومسكنه ومنكحه ونحو ذلك هذا يطلبه من الله ويرغب اليه فيه يكون المال عنده يستعمله فى حاجته بمنزلة حماره الذي يركبه وبساطة الذي يجلس عليه بل بمنزلة الكنيف الذي يقضى فيه حاجته من غير ان يستعبده فيكون هلوعا **{ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا } 20** **{ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا } 21** المعارج 20-21 و منها ما لا يحتاج العبد اليه فهذه لا ينبغى له ان يعلق قلبه بها فاذا تعلق قلبه بها صار مستعبدا لها وربما صار معتمدا على غير الله فلا يبقى معه حقيقة العبادة لله ولا حقيقة التوكل عليه بل فيه شعبة من العبادة لغير الله وشعبة من التوكل على غير الله وهذا من احق الناس بقوله صلى الله عليه وسلم **تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار تعس عبد القطيفة تعس عبد الخميصة** وهذا هو عبد هذه الأمور فلو طلبها من الله فإن الله اذا اعطاه اياها رضى واذا منعه اياها سخط وانما عبد الله

من يرضيه ما يرضى الله ويسخطه ما يسخط الله ويحب ما أحبه الله ورسوله ويبغض ما ابغضه الله ورسوله ويوالي أولياء الله ويعادى أعداء الله تعالى وهذا هو الذى استكمل الايمان كما فى الحديث من أحب الله وابغض الله واعطى الله ومنع الله فقد استكمل الايمان وقال اوثق عرى الايمان الحب فى الله والبغض فى الله وفى الصحيح عنه ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لا يحبه الا الله ومن كان يكره ان يرجع فى الكفر بعد اذ انقذه الله منه كما يكره ان يلقى فى النار فهذا وافق ربه فيما يحبه وما يكرهه فكان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأحب المخلوق لله لا لغرض آخر فكان هذا فكان من تمام حبه لله فان محبة محبوب من تمام محبة المحبوب فاذا أحب أنبياء الله وأولياء الله لأجل قيامهم بمحوبات الحق لا لشيء آخر فقد أحبهم الله لا لغيره وقد قال تعالى { فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ } المائدة 54 ولهذا قال تعالى { قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ } آل عمران 31 فان الرسول يأمر بما يحب الله وينهى عما يبغضه الله ويفعل ما يحبه الله ويخبر بما يحب الله التصديق به فمن كان محبا لله لزم ان يتبع الرسول فيصدقه فيما أخبر ويطيعه فيما أمر ويتأسى به فيما فعل ومن فعل هذا فقد فعل ما يحبه الله فيحبه الله¹

الله يصرف عن عبده الفحشاء بإخلاقه لله

وانما دين الحق هو تحقيق العبودية لله بكل وجه وهو تحقيق محبة الله بكل درجة وبقدر تكميل العبودية تكمل محبة العبد لربه وتكمل محبة الرب لعبده وبقدر نقص هذا يكون نقص هذا وكلما كان فى القلب حب لغير الله كانت فيه عبودية لغير الله بحسب ذلك وكلما كان فيه عبودية لغير الله كان فيه حب لغير الله بحسب ذلك وكل محبة لا تكون لله فهى باطلة وكل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل فالدينا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله ولا يكون لله الا ما أحبه الله ورسوله وهو المشروع فكل عمل أريد به غير الله لم يكن لله وكل عمل لا يوافق شرع الله لم يكن لله بل لا يكون لله الا ما جمع الوصفين ان يكون لله وان يكون موافقا لمحبة الله ورسوله وهو الواجب والمستحب كما قال { فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا } الكهف 110 فلا بد من العمل الصالح وهو الواجب والمستحب ولا بد ان يكون خالصا لوجه الله تعالى كما قال تعالى { بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } البقرة 112 وقال النبى صلى الله عليه وسلم من عمل عملا ليس عليه امرنا فهو رد وقال النبى انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها او امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه وهذا الأصل هو اصل الدين وبحسب تحقيقه يكون تحقيق الدين وبه ارسل الله الرسل وانزل الكتب واليه دعا الرسول وعليه جاهد وبه امر وفيه رغب وهو قطب الدين الذى تدور عليه رحاه والشرك غالب على النفوس وهو كما جاء فى الحديث وهو فى هذه الأمة احفى من دبيب النمل وفى حديث آخر

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 188-191 و الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 383

قال ابو بكر يارسول الله كيف ننجو منه وهو اخفى من دبيب النمل فقال النبي لأبى بكر الا اعلمك كلمة اذا قلتها نجوت من دقة وجلة قل اللهم انى اعوذ بك ان اشرك بك وانا اعلم واستغفرك لما لا اعلم وكان عمر يقول فى دعائه اللهم اجعل عملى كله صالحا واجعله لوجهك ولا تجعل لأحد فيه شيئا وكثيرا ما يخالط النفوس من الشهوات الخفية ما يفسد عليها تحقيق محبتها وعبوديتها له وإخلاص دينها كما قال شداد بن اوس يابقايا العرب ان اخوف ما اخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية قيل لأبى داود السجستاني وما الشهوة الخفية قال حب الرئاسة وعن كعب بن مالك عن النبي انه قال ما ذئبان جائعان ارسلا زربية غنم بافسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه قال الترمذى حديث حسن صحيح فبين ان الحرص على المال والشرف فى فساد الدين لا ينقص عن فساد الذئبين الجائعين لزربية الغنم وذلك بين فان الدين السليم لا يكون فيه هذا الحرص وذلك ان القلب اذا ذاق حلاوة عبوديته لله ومحبته له لم يكن شىء احب اليه من ذلك حتى يقدمه عليه وبذلك يصرف عن اهل الاخلاص لله السوء والفحشاء كما قال تعالى { كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ } يوسف 24 فإن المخلص لله ذاق من حلاوة عبوديته لله ما يمنعه من عبوديته لغيره ومن حلاوة محبته لله ما يمنعه عن محبة غيره اذ ليس عند القلب لا احلى ولا الذ ولا اطيب ولا ألين ولا انعم من حلاوة الايمان المتضمن عبوديته لله ومحبته له واخلاصه الدين له وذلك يقتضى انجذاب القلب الى الله فيصير القلب منيبا الى الله خائفا منه راغبا راهبا كما قال تعالى { وَوَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ } يوسف 24 اذ المحب يخاف من زوال مطلوبة وحصول مرغوبة فلا يكون عبد الله ومحبة الا بين خوف ورجاء قال تعالى { أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا } الإسراء 57 واذا كان العبد مخلص له اجتنابه ربه فيحي قلبه واجتذبه اليه فينصرف عنه ما يضاد ذلك من السوء والفحشاء ويخاف من حصول ضد ذلك بخلاف القلب الذى لم يخلص لله فانه فى طلب وارادة وحب مطلق فيهوى ما يسنح له ويتشبث بما يهواه كالغصن اى نسيم مر بعطفه اماله فتارة تجتذبه الصور المحرمة وغير المحرمة فيبقى اسيرا عبدا لمن لو اتخذه هو عبدا له لكان ذلك عيبا ونقصا وذما وتارة يجتذبه الشرف والرئاسة فترضيه الكلمة وتغضبه الكلمة ويستعبده من يثنى عليه ولو بالباطل ويعادى من يذمه ولو بالحق وتارة يستعبده الدرهم والدينار وامثال ذلك من الأمور التى تستعبد القلوب والقلوب تهواها فيتخذ الهه هواه ويتبع هواه بغير هدى من الله ومن لم يكن خاصا لله عبدا له قد صار قلبه معبدا لربه وحده لا شريك له بحيث يكون الله احب اليه من كل ما سواه ويكون ذليلا له خاضعا والا استعبدته الكائنات واستولت على قلبه الشياطين وكان من الغاوين اخوان الشياطين وصار فيه من السوء والفحشاء ما لا يعلمه الا الله وهذا امر ضرورى ولا حيلة فيه فالقلب ان لم يكن حنيفا مقبلا على الله معرضا عما سواه والا كان مشركا قال تعالى { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } الروم 30 الى قوله { كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } الروم 32¹

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 218-221 و الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 402

الإيمان ليس مجرد التصديق بل لابد من أعمال قلبية تستلزم أعمالاً ظاهرة كما تقدم فحب الله ورسوله من الإيمان وحب ما أمر الله به وبغض ما نهى عنه هذا من أخص الأمور بالإيمان ولهذا ذكر النبي في عدة أحاديث أن من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن فهذا يحب الحسنة ويفرح بها ويبغض السيئة ويسوءه فعلها وإن فعلها بشهوة غالبية وهذا الحب والبغض من خصائص الإيمان ومعلوم أن الزاني حين يزني إنما يزني لحب نفسه لذلك الفعل فلو قام بقلبه خشية الله التي تقهر الشهوة أو حب الله الذي يغلبها لم يزن ولهذا قال تعالى عن يوسف عليه السلام { **كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ** } يوسف 24 فمن كان مخلصاً لله حق الإخلاص لم يزن وإنما يزني لخلوه عن ذلك وهذا هو الإيمان الذي ينزع منه لم ينزع منه نفس التصديق ولهذا قيل هو مسلم وليس بمؤمن فإن المسلم المستحق للثواب لا بد أن يكون مصدقاً والا كان منافقاً لكن ليس كل من صدق قام بقلبه من الأحوال الإيمانية الواجبة مثل كمال محبة الله ورسوله ومثل خشية الله والإخلاص له في الأعمال والتوكل عليه¹

من رحمة الله بعبده المخلص ان يصرف عنه ما يغار عليه منه

قال النبي صلى الله عليه وسلم غيرة الله ان يأتي المؤمن ما حرم عليه واعظم الذنوب ان تجعل لله ندا وهو خلقك وتجعل معه الها اخر والشرك منه جليل ومنه دقيق فالمقتصدون قاموا بواجب التوحيد والسابقون المقربون قاموا بمستحبه مع واجبه ولا شيء احب الى الله من التوحيد ولا شيء ابغض اليه من الشرك ولهذا كان الشرك غير مغفور بل هو اعظم الظلم وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم مثل المؤمن مثل الخامة من الزرع تفيئها الرياح تارة تميلها وتعديلها اخرى ومثل المنافق كمثل شجرة الارز لا تزال ثابتة على اصلها حتى يكون انجعافها مرة واحدة فالله تعالى يبئلى عبده المؤمن ليطهره من الذنوب والمعائب ومن رحمته بعبده المخلص ان يصرف عنه ما يغار عليه منه كما قال تعالى **كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ** يوسف 24 فاذا صرف عنه ما يغار عليه منه كان ذلك من رحمته به واصطفائه اياه وان كان في ذلك مشقة عليه فهو تارة يمنعه مما يكرهه له وتارة ليطهره منه بالابتلاء فاذا كان يغار من ذلك فاذا فعل العبد ما يغار عليه فقد يعاقبه على ذلك بقدر ذنبه²

وسيد المحبين المحبوبين خاتم الرسل وقد قال إني أعلمكم بالله واشدكم خشية له وهو سبحانه لا يحب إلا الحسنات ولا يحب السيئات وهو يحب المتقين والمحسنين والصابرين والتوابين والمتطهرين ولا يحب كل مختال فخور ولا يحب الفساد ولا يرضى لعباده الكفر فإذا أحب عبداً وأذنب كان من التوابين المتطهرين وبعض الناس يقول الشاب التائب حبيب الله والشيخ التائب عتيقه وليس كذلك بل كل من تاب فهو حبيب الله سواء كان شيخاً أو شاباً وقد روى أهل ذكرى أهل مجالستي وأهل شكري أهل زيادتي وأهل طاعتي أهل كرامتي وأهل معصيتي لا أؤيسهم من رحمتي إن تابوا فأنا حبيبهم وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعائب وهذا

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 306

²الاستقامة ج: 2 ص: 59

فعله مع عباده إذا أذنبوا إما أن يتوب عليهم وإما أن يبتليهم بما يطهرهم إذا لم يجعل السيئات تخصص درجاتهم وإن لم يكن هذا ولا هذا انخفضت درجاتهم بحسب سيئاتهم عن درجات من ساواهم في الحسنات وسلم من تلك السيئات¹

الإنسان لا يفعل الحرام إلا لضعف إيمانه ومحبته

الإنسان لا يفعل الحرام إلا لضعف إيمانه ومحبته وإذا فعل مكروهات الحق فلضعف بغضها في قلبه أو لقوة محبتها التي تغلب بغضها فالإنسان لا يأتي شيئاً من المحرمات كالفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق والشرك بالله ما لم ينزل به سلطاناً والقول علي الله بغير علم إلا لضعف الإيمان في أصله أو كماله أو ضعف العلم والتصديق وإما ضعف المحبة والبغض لكن إذا كان أصل الإيمان صحيحاً وهو التصديق فإن هذه المحرمات يفعلها المؤمن مع كراهته وبغضه لها فهو إذا فعلها لغلبة الشهوة عليه فلا بد أن يكون مع فعلها فيه بغض لها وفيه خوف من عقاب الله عليها وفيه رجاء لأن يخلص من عقابها إما بتوبة وإما حسنات وإما عفو وإما دون ذلك وإلا فإذا لم يبغضها ولم يخف الله فيها ولم يرج رحمة فهذا لا يكون مؤمناً بحال بل هو كافر أو منافق فكل سيئة يفعلها المؤمن لا بد أن تقترن بها حسنات له لكن قوة شهوته للسيئة وما زين له فيها حتى ظن أنها مصلحة له أوجب وقوعها وهو اتباع الظن وما تهوي الأنفس وهذا القدر عارض بعض إيمانه فترجح عليه حتى ما هو ضد لبعض الإيمان فلم يبق مؤمناً بالإيمان الواجب كما قال النبي لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن وهو فيما يفعله متبع للشيطان فيما زينه له حتى رآه حسناً وفيما أمره به فأطاعه وهذا من الشرك بالشيطان كما قال تعالى { أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا } {الكهف} 50 وقال تعالى { أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ } {60} وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ {61} يس 60-61 ولهذا لم يخلص من الشيطان إلا المخلصون لله كما قال تعالى عن إبليس { وَلَا غُورِيَّتَهُمْ أَجْمَعِينَ } {39} إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ {40} الحجر 39-40 وقال تعالى { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ } {الحجر} 42 وقال تعالى { إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } {99} إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ } {100} النحل 99-100 فإذا كان الشيطان ليس له سلطان إلا علي من أشرك به فكل من أطاع الشيطان في معصية الله فقد تسلط الشيطان عليه وصار فيه من الشرك بالشيطان بقدر ذلك والشيطان يوالي الإنسان بحسب عدم إيمانه كما قال تعالى { إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ } {الأعراف} 27 وقال تعالى { وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ } {36} وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهُتَدُونَ } {37} حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ } {38} الزخرف 36-38 وقال تعالى في قصة يوسف عليه السلام { كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ } {يوسف} 24 ويشهد لهذا ما ثبت في صحيح مسلم عن جابر عن النبي إن الشيطان ينتصب عرشه علي البحر ويبعث سراياه فجميع ما نهى الله عنه هو من شعب الكفر وفروعه كما أن كل

¹رسالة في تحقيق الشكر ج: 1 ص: 115

ما أمر الله به هو من الإيمان والإخلاص لدين الله ولهذا قال تعالى {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ} البقرة 193¹

يبتلى بالفاحشة أهل الاعراض عن الاخلاص لله

ثبت في الصحيح عن جرير قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نظرة الفجأة فقال صرف بصرك وفي السنن إنه قال لعلي عليه السلام يا علي لا تتبع النظرة النظرة فإنما لك الأولى وليست لك الثانية وفي الحديث الذي في المسند وغيره النظرة سهم مسموم من سهام إبليس وفيه من نظر إلى محاسن امرأة ثم غض بصره عنها أورث الله قلبه حلاوة عابدة يجدها إلى يوم القيامة أو كما قال ولهذا يقال إن غض البصر عن الصورة التي نهى عن النظر إليها كالمرأة والأمرد الحسن يورث ذلك ثلاث فوائد جليلة القدر إحداها حلاوة الإيمان ولذته التي هي أحلى وأطيب مما تركه الله فإن من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه والنفس تحب النظر إلى هذه الصور لا سيما نفوس أهل الرياضة والصفة فإنه يبقى فيها رقة تجتذب بسببها إلى الصور حتى تبقى تجذب أحدهم وتصرعه كما يصرعه السبع ولهذا قال بعض التابعين ما أنا على الشاب التائب من سبع يجلس إليه بأخوف عليه من حدث جميل يجلس إليه وقال بعضهم اتقوا النظر إلى أولاد الملوك فإن لهم فتنة كفتنة العذارى وما زال أئمة العلم والدين كشيوخ الهدى وشيوخ الطريق يوصون بترك صحبة الأحداث حتى يروى عن فتح الموصلي أنه قال صحبت ثلاثين من الأبدال كلهم يوصيني عند فراقه بترك صحبة الأحداث وقال بعضهم ما سقط عبد من عين الله إلا بصحبة هؤلاء الأنتان ثم النظر يؤكد المحبة فيكون علاقة لتعلق القلب بالمحبيب ثم صباية لانصباب القلب إليه ثم غراماً للزومه للقلب كالغريم الملازم لغريمه ثم عشقاً إلى أن يصير تتيماً والتميم المعبد وتيم الله عبدالله فيبقى القلب عبداً لمن لا يصلح أن يكون أخاً بل ولا خادماً وهذا إنما يبتلى به أهل الإعراض عن الإخلاص لله كما قال تعالى في حق يوسف {كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} يوسف 24 فامرأة العزيز كانت مشرقة فوقعت مع تزوجها فيما وقعت فيه من السوء ويوسف عليه السلام مع عزوبته ومرادنتها له واستعانتها عليه بالنسوة وعقوبتها له بالحبس على العفة عصمه الله بإخلاصه الله تحقيقاً لقوله {وَلَا تُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} {39} {إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ} {40} الحجر 39-40 قال تعالى {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْعَالَمِينَ} الحجر 42 والغى هو اتباع الهوى وهذا الباب من أعظم أبواب اتباع الهوى²

علاج من أصابه جرح مسموم

من أصابه جرح مسموم فعليه بما يخرج السم ويبرئ الجرح بالتريق والمرهم وذلك بأمر منها

¹قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 106-107

²الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 62-63 و مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 421 و مجموع الفتاوى ج: 21 ص: 253

أن يتزوج أو يتسرى فإن النبي قال إذا نظر أحدكم إلى محاسن امرأة فليأت أهله فإنما معها مثل ما معها وهذا مما ينقص الشهوة ويضعف العشق

الثاني أن يداوم على الصلوات الخمس والدعاء والتضرع وقت السحر وتكون صلاته بحضور قلب وخشوع وليكثر من الدعاء بقوله يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك يا مصرف القلوب صرف قلبي إلى طاعتك وطاعة رسولك فإنه متى أدمن الدعاء والتضرع لله صرف قلبه عن ذلك كما قال تعالى { كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ } يوسف 24

الثالث أن يبعد عن مسكن هذا الشخص والاجتماع بمن يجتمع به بحيث لا يسمع له خبر ولا يقع له على عين ولا أثر فإن البعد جفا ومتى قل الذكر ضعف الأثر في القلب فليفعل هذه الأمور وليطالع بما تجدد له من الأحوال والله أعلم¹

قال تعالى { وَآخِرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } {102} خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنْ صَلَاتُكَ سَكَنَ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } {103} أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } {104} التوبة 102-104 قال تعالى { خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا } التوبة 103 دليل على أن عمل الحسنات يطهر النفس ويزكيها من الذنوب السالفة فإنه بعد قوله { وَآخِرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ } التوبة 102 الآية فالتوبة والعمل الصالح يحصل بها التطهير والتزكية ولهذا قال في سياق قوله { قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَنْبَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنْ اللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ } {30} وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَعْضُضْنَ مِنْ أَنْبَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ } {31} النور 30-31 { وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا } النور 31 الآية فأمرهم جميعا بالتوبة في سياق ما ذكره لأنه لا يسلم أحد من هذا الجنس كما في الصحيح إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا الحديث وكذلك في الصحيح أن قوله { إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ } هود 114 نزلت بسبب رجل نال من امرأة كل شيء إلا الجماع ثم ندم فنزلت ويحتاج المسلم في ذلك إلى أن يخاف الله وينهى النفس عن الهوى ونفس الهوى والشهوة لا يعاقب عليه بل على إتباعه والعمل به فإذا كانت النفس تهوى وهو ينهاها كان نهيه عبادة لله وعملا صالحا وثبت عنه أنه قال المجاهد من جاهد نفسه في ذات الله فيؤمر بجهادها كما يؤمر بجهاد من يأمر بالمعاصي ويدعو إليها وهو إلى جهاد نفسه أحوج فإن هذا فرض عين وذلك فرض كفاية والصبر في هذا من أفضل الأعمال فإن هذا الجهاد حقيقة ذلك الجهاد فمن صبر عليه صبر على ذلك الجهاد كما قال والمهاجر من هجر السيئات ثم هذا لا يكون محمودا فيه إلا إذا غلب بخلاف الأول فإنه من يقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما ولهذا قال صلى الله عليه وسلم ليس الشديد بالصرعة إلخ وذلك لأن الله أمر الإنسان أن ينهى النفس عن الهوى وأن يخاف مقام ربه فحصل له من الإيمان ما يعينه على الجهاد فإذا غلب لكان لضعف إيمانه فيكون مفرطا بترك المأمور بخلاف العدو الكافر فإنه قد يكون بدنه أقوى فالذنوب إنما تقع إذا كانت النفس غير ممتثلة لما أمرت به ومع إمتثال المأمور لا تفعل المحذور

¹مجموع الفتاوى ج: 32 ص: 5 و الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 70

فإنهما ضدان قال تعالى { **كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ** } { **يوسف 24** الآية وقال { **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ** } الحجر 42 فعباد الله مخلصون لا يغويهم الشيطان و الغي خلاف الرشد وهو إتباع الهوى فمن مالت نفسه الى محرم فليات بعبادة الله كما أمر الله مخلصا له الدين فإن ذلك يصرف عنه السوء الفحشاء خشية ومحبة والعبادة له وحده وهذا يمنع من السيئات فإذا كان تائبا فإن كان ناقصا فوَقعت السيئات من صاحبه كان ماحيا لها بعد الوقوع فهو كالترياق الذي يدفع أثر السم ويرفعه بعد حصوله وكالغذاء من الطعام والشراب¹

سلطان الشيطان واغواءه انما هو لغير المخلصين

إن المحبة لله نوعان محبة له نفسه ومحبة لما منهم من الاحسان وكذلك الحمد له نوعان حمد الله على ما يستحقه بنفسه وحمد على إحسانه لعبده فالنوعان للرضا كالتنوعين للمحبة وأما الرضا به وبدينه وبرسوله فذلك من حظ المحبة ولهذا ذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً وفي الصحيحين ففي صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً وفي الصحيحين عن النبي انه قال ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الايمان أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لا يحبه الا الله ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره ان يلقى في النار وهذا مما يبين من الكلام على المحبة فنقول محبة الله بل محبة الله ورسوله من أعظم واجبات الايمان وأكبر اصوله وأجل قواعده بل هي اصل كل عمل من اعمال الايمان والدين وكما ان التصديق به اصل كل قول من أقوال الايمان والدين فان كل حركة في الوجود انما تصدر عن محبة إما عن محبة محمودة أو عن محبة مذمومة كما قد بسطنا ذلك في قاعدة المحبة من القواعد الكبار فجميع الاعمال الايمانية الدينية لاتصدر الا عن المحبة المحمودة وأصل المحبة المحمودة هي محبة الله سبحانه وتعالى إذ العمل الصادر عن محبة مذمومة عند الله لا يكون عملاً صالحاً بل جميع الاعمال الايمانية الدينية لا تصدر إلا عن محبة الله فإن الله تعالى لا يقبل من العمل الا ما اريد به وجهه كما ثبت في الصحيح عن النبي انه قال يقول الله تعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملاً فأشرك فيه غيرى فانا منه برئ وهو كله للذى أشرك وثبت في الصحيح في حديث الثلاثة الذين هم اول من تسعر بهم النار القارئ المرائى والمجاهد المرائى والمتصدق المرائى بل اخلاص الدين لله هو الدين الذى لا يقبل الله سواه وهو الذى بعث به الأولين والأخريين من الرسل وأنزل به جميع الكتب واتفق عليه أئمة اهل الايمان وهذا هو خلاصة الدعوة النبوية وهو قطب القرآن الذى تدور عليه رحاه وقال تعالى فيما قصه من قصة آدم وابليس انه قال { **فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ** } { **82** } **إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ** } { **83** } ص 82- 83 وقال تعالى { **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ** } الحجر 42 وقال { **إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** } { **99** } **إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ** } النحل 99-100 فبين ان سلطان الشيطان واغواءه انما هو لغير المخلصين ولهذا قال في قصة يوسف { **كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ**

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 637 و الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 69

وَالْفَحْشَاءُ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ {يوسف 24} واتباع الشيطان هم اصحاب النار كما قال تعالى {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ} ص85 وقد قال سبحانه {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} النساء 48 وهذه الآية في حق من لم يتب ولهذا خصص الشرك وقيد ما سواه بالمشيئة فأخبر انه لا يغفر الشرك لمن لم يتب منه ومادونه يغفره لمن يشاء واما قوله {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا} الزمر 53 فتلك في حق التائبين ولهذا عم واطلق وسياق الآية يبين ذلك مع سبب نزولها وقد اخبر سبحانه ان الأولين والآخرين انما امروا بذلك في غير موضع كالسورة التي قرأها النبي على ابي لما امره الله تعالى ان يقرأ عليه قراءة إبلاغ وإسماع بخصوصه فقال { وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ {4} وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ {5} البيئـة 4-5 الآية وهذا حقيقة قول لا اله الا الله وبذلك بعث جميع الرسل قال الله تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ {الأنبياء 25} وقال { وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ {الزخرف 45} وقال تعالى { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ {النحل 36} وجميع الرسل افتتحو دعوتهم بهذا الاصل كما قال نوح عليه السلام { اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ {الأعراف 59} وكذلك هود وصالح وشعيب عليهم السلام وغيرهم كل يقول { اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ }¹

فقد تبين أن إخلاص الدين لله يمنع من تسلط الشيطان ومن ولاية الشيطان التي توجب العذاب كما قال تعالى { وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصَّرَفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ {يوسف 24} فإذا أخلص العبد لربه الدين كان هذا مانعا له من فعل ضد ذلك ومن إيقاع الشيطان له في ضد ذلك وإذا لم يخلص لربه الدين ولم يفعل ما خلق له وفطر عليه عوقب على ذلك وكان من عقابه تسلط الشيطان عليه حتى يزين له فعل السيئات وكان إلهامه لفجوره عقوبة له على كونه لم يتق الله²

أنما يبتلى به من الذنوب وإن كان خلقا لله فهو عقوبة له على عدم فعل ما خلقة الله له و فطره عليه فإنه خلقه لعبادته وحده ودل عليه الفطرة فلما لم يفعل ما خلق له ما فطر عليه عوقب على ذلك بأن زين له الشيطان ما يفعله من الشرك و المعاصي قال تعالى { اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا } الإسراء 63 الى قوله { إِنَّ عِبَادِيَ لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا } الإسراء 65 و قال تعالى { إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } {99} إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ } {100} النحل 99-100 الآية و قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ } {201} وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْعَٰغِيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ } {202} الأعراف 201- 202 فتبين أن الإخلاص يمنع من تسلط الشيطان كما

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 50 و أمراض القلوب ج: 1 ص: 60 و التحفة العراقية ج: 1 ص: 60

²الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 93

قال تعالى { كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ } يوسف 24 فكان إلهامه لفجوره عقوبة له و عدم فعل الحسنات ليس أمرا موجودا حتى يقال إن الله خلقه و من تدبر القرآن تبين له أن عامة ما يذكر الله في خلق الكفر و المعاصي يجعله جزاء لذلك العمل كقوله تعالى { فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرُّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ } الأنعام 125 الآية و قال تعالى { فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاعَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ } الصف 5 وقال { وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى } {8} وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى } {9} فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى } {10} الليل 8-10 وهذا وأمثاله يذكر فيه أعمالا عاقبهم بها على فعل محذور و ترك مأمور و لا بد لهم من حركة و إرادة فلما لم يتحركوا بالحسنات حركوا بالسيئات عدلا من الله كما قيل نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل وهذا الوجه إذا حقق يقطع مادة كلام طائفتي القدرية المكذبة و المجبرة الذين يقولون خلقها لذلك و التعذيب لهم ظلم يقال لهم إنما أوقعهم فيها و طبع على قلوبهم عقوبة لهم فما ظلمهم و لكن ظلموا أنفسهم يقال ظلمته إذا نقصته حقه قال تعالى { كَلْنَا الْجَنَّتَيْنِ أَتَتْ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا } الكهف 33 وكثير منهم يسلمون أن الله خلق من الأعمال ما يكون جزاء على عمل متقدم و يقولون خلق طاعة المطيع لكن ما خلق شيئا من الذنوب ابتداء بل جزاء فيقولون أول ما يفعل العبد لم يحدثه الله و ما ذكرنا يوجب أن يكون الله خالق كل شيء لكن أولها عقوبة على عدم فعله لما خلق له و العدم لا يضاف الى الله فما أحدثه فأوله عقوبة على هذا العدم و سائرهما قد يكون عقوبة على ما و جد و قد يكون عقوبة على إستمراره على العدم فما دام لا يخلص لله لا يزال مشركا و الشيطان مسلط عليه ثم تخصيصه سبحانه لمن هداه بأن إستعمله ابتداء فيما خلق له تخصيص بفضله و هذا منه لا يوجب الظلم و لا يمنع العدل و لهذا يقول تعالى { وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ } البقرة 105 و كذلك الفضل هو أعلم به كما خص بعض الأبدان بقوى لا توجد في غيرها و بسبب عدم القوة قد تحصل له أمراض و جودية و غير ذلك من حكمته و تحقيق هذا يدفع شبهات هذا الباب و مما ذكر فيه العقوبة على عدم الإيمان قوله تعالى { وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَٰى مَرَّةٍ } الأنعام 110 هذا من تمام قوله { وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ } الأنعام 109 فذكر أن هذا التقلب يكون لمن لم يؤمنوا به أول مرة و هذا عدم الإيمان لكن يقال هذا بعد دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم لهم وقد كذبوا وتركوا الإيمان وهذه أمور و جودية لكن الموجب هو عدم الإيمان وما ذكر شرط في التعذيب كإرسال الرسول فإنه قد يشتغل عن الإيمان بما جنسه مباح لا يستحق به العقوبة إلا لأنه شغله عن الإيمان و من الناس من يقول ضد الإيمان هو تركه وهو أمر و جودى لا ضد له إلا ذلك¹

برهان الايمان

وأصل صلاح القلب هو حياته واستنارته قال تعالى { أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَتَّلَهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا } الأنعام 122 لذلك ذكر الله حياة القلوب ونورها وموتها وظلمتها في غير موضع كقوله { لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ } يس 70 وقوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ } الأنفال 24 ثم قال { وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ } الأنفال 24 وقال

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 224-222

تعالى { يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ } {يونس 31} ومن انواعه انه يخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن وفي الحديث الصحيح مثل البيت الذي يذكر الله فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه مثل الحي والميت وفي الصحيح ايضا اجعلوا من صلواتكم في بيوتكم ولا تتخذوها قبورا وقد قال تعالى { وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ } {الأنعام 39} وذكر سبحانه آية النور آية الظلمة فقال {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ } {النور 35} فهذا مثل نور الايمان في قلوب المؤمنين ثم قال {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ } {39} أو كظلمات في بحر لحي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور {40} {النور 39-40} فالأول مثل الاعتقادات الفاسدة والأعمال التابعة لها يحسبها صاحبها شيئا ينفعه فاذا جاءها لم يجدها شيئا ينفعه فوفاه الله حسابه على تلك الاعمال و الثاني مثل للجهل البسيط وعدم الايمان والعلم فان صاحبها في ظلمات بعضها فوق بعض لا يبصر شيئا فان البصر إنما هو بنور الايمان والعلم قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ } {الأعراف 201} وقال تعالى {وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ } {يوسف 24} وهو برهان الايمان الذي حصل في قلبه فصرف الله به ما كان هم به وكتب له حسنة مكاملة ولم يكتب عليه خطيئة اذا فعل خيرا ولم يفعل سيئة¹

النكاح رق فلينظر أحدكم عند من يرق كريمته

فان النكاح نوع رق كما دل عليه الكتاب و السنة قال زيد بن ثابت الزوج سيد في كتاب الله وقرأ قوله تعالى { **وَأَلْفِيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ** } {يوسف 25} وقد قال النبي اتقوا الله في النساء فإنهن عوان عندكم وكما قال عمر النكاح رق فلينظر أحدكم عند من يرق كريمته فجوز للمسلم أن يسترق هذه الكافرة ولم يجوز للكافر أن يسترق هذه المسلمة لأن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه كما جوز للمسلم أن يملك الكافر ولم يجوز للكافر أن يملك المسلم²

الخطأ الاثم

ولفظ الخطأ يستعمل في العمد وفي غير العمد قال تعالى {وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا } {الإسراء 31} والاكثرون يقرؤون خطأ على وزن رداً وعلموا وقرأ ابن عامر خط على وزن عملا كلفظ الخطأ في قوله {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقتُلَ

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 101 و أمراض القلوب ج: 1 ص: 8

²مجموع الفتاوى ج: 32 ص: 202 و مجموع الفتاوى ج: 29 ص: 184

مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَنًا { النساء 92 } وقرا ابن كثير خطأ على وزن هجاء وقرا ابن رزين خطأ على وزن شرابا وقرا الحسن وقتادة خطأ على وزن قتلا وقرا الزهري خطأ بلا همز على وزن عدى قال الاخفش خطى يخطأ بمعنى أذنب وليس معنى أخطأ لان اخطأ في ما لم يصنعه عمدا يقول فيما اتيته عمدا خطيت وفيما لم يتعمده أخطأت وكذلك قال أبو بكر ابن الانباري الخطأ الاثم يقال قد خطا يخطا اذا اثم وأخطأ يخطيء اذا فارق الصواب وكذلك قال ابن الانباري في قوله { قَالُوا تَأْتِيهِمْ لَقَدْ أَتَرَكْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ } يوسف 91 فان المفسرين كابن عباس وغيره قالوا لمذنبين آثمين في أمرك وهو كما قالوا فانهم قالوا { قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ } يوسف 97 وكذلك قال العزيز لامرأته { وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ } يوسف 29 قال ابن الانباري ولهذا اختير خاطئين على مخطئين وان كان اخطأ على ألسن الناس اكثر من خطا يخطى لان معنى خطا يخطى فهو خاطيء اثم ومعنى اخطأ يخطيء ترك الصواب ولم ياتم قال عبادك يخطئون وأنت رب تكفل المنايا والحتوم وقال الفراء الخطأ الاثم الخطا والخطا والخطا ممدود ثلاث اللغات قلت يقال في العمد خطأ كما يقال في غير العمد على قراءة ابن عامر فيقال لغير المتعمد أخطأت كما يقال له خطيت ولفظ الخطيئة من هذا ومنه قوله تعالى { مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا } نوح 25 وقول السحرة { إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَا أَنْ كُنَّا أَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ } الشعراء 51 ومنه قوله في الحديث الصحيح الالهي يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم وفي الصحيحين عن أبي موسى عن النبي أنه كان يقول في دعائه اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني اللهم اغفر لي هزلي وجدي وخطئي وعمدي وكل ذلك عندي وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي أنه قال أرأيت سكوتك بين التكبير والقراءة ماذا تقول قال أقول اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب اللهم نقني من خطاياي كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس اللهم اغسلني من خطاياي بالماء والثلج والبرد والذين قالوا كل مجتهد مصيب والمجتهد لا يكون على خطأ وكرهوا أن يقال للمجتهد إنه أخطأ هم وكثير من العامة يكره أن يقال عن إمام كبير إنه أخطأ وقوله أخطأ لأن هذا اللفظ يستعمل في الذنب كقراءة بن عامر إنه كان خطأ كبيرا ولأنه يقال في العامد أخطأ يخطيء كما قال يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم فصار لفظ الخطا والخطأ قد يتناول النوعين كما يخض غير العامل وأما لفظ الخطيئة فلا يستعمل إلا في الاثم والمشهور أن لفظ الخطأ يفارق العمد كما قال تعالى { وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَنًا وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَنًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ } النساء 92 الآية ثم قال بعد ذلك { وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ } النساء 93 وقد بين الفقهاء أن الخطأ ينقسم إلى خطأ في الفعل وإلى خطأ في القصد فالأول أن يقصد الرمي إلى ما يجوز رميه من صيد وهدف فيخطيء بها وهذا فيه الكفارة والدية والثاني أن يخطى في قصده لعدم العلم كما أخطأ هناك لضعف القوة وهو أن يرمى من يعنقه مباح الدم ويكون معصوم الدم كمن قتل رجلا في صفوف الكفار ثم تبين أنه كان مسلما والخطأ في العلم هو من هذا النوع ولهذا قيل في أحد القولين إنه لا دية فيه لأنه مأمور به بخلاف الأول وأيضا فقد قال تعالى { وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ } الأحزاب 5 ففرق بين النوعين وقال تعالى { رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا } البقرة 286 وقد ثبت في الصحيح ان الله تعالى قال قد فعلت فلفظ الخطا وأخطأ عند الاطلاق يتناول غير العامد واذا ذكر مع النسيان أو ذكر في مقابلة العامد كان نسا فيه وقد يراد به مع القرينة العمد أو العمد والخطأ جميعا كما في قراءة ابن عامر وفي الحديث الالهي إن كان لفظه كما يرويه عامة المحدثين تخطئون بالضم واما اسم الخاطيء فلم يجيء في القرآن الا للاثم بمعنى الخطيئة كقوله { وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ

إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ {يوسف 29} وقوله {قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ
 {يوسف 91} وقوله {قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ {يوسف 97} وقوله {لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا
 الْخَاطِئُونَ {الحاقة 37} ¹

الفواحش مما اتفق أهل الأرض على استقباحها

قال تعالى **{وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ {يوسف 29}** فأمره لها بالاستغفار لذنبها دليل أنه كانوا يرون ذلك ذنباً ويستغفرون منه وإن كانوا مع ذلك مشركين فقد كانت العرب مشركين وهم يحرمون الفواحش ويستغفرون الله منها حتى إن النبي لما بايع هند بنت عتبة بن ربيعة بيعة النساء على أن لا تشرك بالله شيئاً ولا تسرق ولا تزنى قالت أو تزني الحرة وكان الزنا معروفا عندهم في الأماء ولهذا غلب على لغتهم أن يجعلوا الحرية في مقابلة الرق وأصل اللفظ هو العفة ولكن العفة عادة من ليست أمة بل قد ذكر البخاري في صحيحه عن أبي رجاء العطاردي أنه رأى في الجاهلية قردا يزني بقردة فاجتمعت القرود عليه حتى رجمته وقد حدثني بعض الشيوخ الصادقين أنه رأى في جامع نوعاً من الطير قد باض فأخذ الناس بيضة وجاء ببيض جنس آخر من الطير فلما انفقس البيض خرجت الفراخ من غير جنس فجعل الذكر يطلب جنسه حتى اجتمع منهن عدد فما زالوا بالأنثى حتى قتلوها ومثل هذا معروف في عادة البهائم والفواحش مما اتفق أهل الأرض على استقباحها وكرهاتها وأولئك القوم كانوا يقرون بالصانع مع شركهم ولهذا قال لهم يوسف { يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرَبَابٌ مُتَّفِقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ {39} مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ {40} يوسف 39-40 ²

من كلام العرب وغيرهم انهم ينفون الشيء في صيغ الحصر

قال تعالى **{ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ {يوسف 31}** من كلام العرب وغيرهم انهم ينفون الشيء في صيغ الحصر او غيرها تارة لانتفاء ذاته وتارة لانتفاء فائدته ومقصوده ويحصرن الشيء في غيره تارة لانحصار جميع الجنس منه وتارة لانحصار المفيد او الكامل فيه ثم انهم تارة يعيدون النفي الى المسمى وتارة يعيدون النفي الى الاسم وإن كان ثابتاً في اللغة اذا كان المقصود الحقيقي بالاسم منتفياً عنه ثابتاً لغيره كقوله { يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ {المائدة 68} فنفي عنهم مسمى الشيء مع انه في الاصل شامل لكل موجود من حق وباطل لما كان مالا يفيد ولا منفعة فيه يؤول الى الباطل الذي هو العدم فيصير بمنزلة المعدوم بل

¹مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 23

²مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 146-152

ما كان المقصود منه اذا لم يحصل مقصوده كان اولى بان يكون معدوماً من المعدوم المستمر عدمه لانه قد يكون فيه ضرر فمن قال الكذب فلم يقل شيئاً ومن لم يعمل بما ينفعه فلم يعمل شيئاً ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم لما سئل عن الكهان قال ليسوا بشيء ففى الصحيحين عن عائشة قالت سئل رسول الله عن ناس من الكهان فقال ليسوا بشيء ويقول اهل الحديث عن بعض المحدثين ليس بشيء او عن بعض الاحاديث ليس بشيء إذا لم يكن ممن ينتفع به فى الرواية لظهور كذبه عمداً أو خطأ ويقال ايضاً لمن خرج عن موجب الانسانية فى الاخلاق ونحوها هذا ليس بأدمى ولا انسان ما فيه انسانية ولا مروءة هذا حمار او كلب كما يقال ذلك لمن اتصف بما هو فوقه من حدود الانسانية كما قلن ليوسف { مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ } يوسف 31 وكذلك قال النبي ليس المسكين بهذا الطواف الذى ترده اللقمة واللقمتان والتمررة والتمرتان انما المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه ولا يسأل الناس الحافا وقال ما تعدون المفلس فيكم قالوا الذى لا درهم له ولا دينار فقال ليس ذلك انما المفلس الذى يجيء يوم القيامة الحديث وقال ما تعدون الرقوب الحديث فهذا نفى لحقيقة الاسم من جهة المعنى الذى يجب اعتباره باعتبار ان الرقوب والمفلس انما قيد بهذا الاسم لما عدم المال والولد والنفوس تجزع من ذلك فبين النبي صلى الله عليه وسلم ان عدم ذلك حيث يضره عدمه هو احق بهذا الاسم ممن يعدمه حيث قد لا يضره ضرراً له اعتبار¹

باطنه أجمل من ظاهره

أن الجمال يغير القلب والعقل وقد يذهله ما رآه كما أن النسوة لما رأين يوسف { أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ } يوسف 31 وقد ثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم²

وقريب من هذا قول امرأة العزيز فى يوسف { فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْنَاهُ عَنِ نَفْسِهِ فَوَسْوَسَ } يوسف 32 فأخبرت بجمال ظاهره حين أشارت إليه بالخروج عليهن ثم ضمت إلى ذلك اخبارهم بأن باطنه أجمل من ظاهره بأنى راودته فأبى إلا العفة والحياء والاستعصام³

الرد على الذين يقولون ان الملائكة افضل من البشر

¹مجموع الفتاوى ج: 25 ص: 158

²الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 60

³دقائق التفسير ج: 3 ص: 22

وها نحن نذكر ما احتجوا به قوله تعالى { فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ } يوسف 31 فدل على أن الملك أفضل من البشر وهن إنما أردن ان يتبين لهن حال هي اعظم من حال البشر وقد اجابوا عنه بجوابين احدهما انهن لم يعتقدن ان الملائكة احسن من جميع النبيين وان لم يروهم لمخبر اخبرهم فسكن الى خبره فلما هالهن حسنه قلن { مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ } يوسف 31 لأن هذا الحسن ليس بصفة بشر وثانيهما انهن اعتقدن ان الملائكة خير من النبيين فكان هذا الاعتقاد خطأ منهن ولا يقال انه لما لم يقرن بالانكار دل على انه حق فإن قولهن { مَا هَذَا بَشَرًا } يوسف 31 خطأ وقولهن { إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ } يوسف 31 خطأ ايضا في غيبتهن عنه انه بشر واثباتهن انه ملك وان لم يقرن بالانكار دل على أنه حق وأن قولهن { مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ } يوسف 31 خطأ ان في نفيهن عنه البشرية واثباتهن له الملائكية وان لم يقرن بالانكار لغيبة عقولهن عند رؤيته فلم يلمن في تلك الحال على ذلك واقول ايضا ان النسوة لم يكن يقصدن انه نبي بل ولا انه من الصالحين اذ ذلك ولم يشهدن له فضلا على غيره من البشر في الصلاح والدين وانما شهدن بالفضل في الجمال والحسن وسباهن جماله فشبهنه بحال الملائكة وليس هذا من التفضيل في شيء من الذي نريد ثم نقول اذا كان التفضيل بالجمال حقا فقد ثبت ان اهل الجنة تدخل الزمرة الاولى ووجوههم كالشمس والذين يلونهم كالقمر الحديث فهذه حال السعداء عند المنتهى وان كان في الجمال والملك تفضيل فانما هو في هذه الحياة الدنيا لعلم علمه النساء واكثر الناس واما ما فضل الله عباده الصالحين وما اعده الله من الكرامة فأكثر الناس عنه بمعزل ليس لهم نظر اليه وكذلك ما آتاهم الله من العلم الذي غبطتهم الملائكة به من اول ما خلقهم وهو مما به يفضلون فهذا الجواب وما قبله¹

يوسف لم يكن مشركا لا في عبادته ولا توكله

فيوسف قد شهد الله له أنه من عباده المخلصين والمخلص لا يكون مخلصا مع توكله على غير الله فإن ذلك شرك ويوسف لم يكن مشركا لا في عبادته ولا توكله بل قد توكل على ربه في فعل نفسه بقوله { وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ } يوسف 33²

لطائف لغوية

1- قال تعالى { وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسْرُوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ } يوسف 19 عليهم منزله عن الجهل³

¹مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 386-388

²مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 105

³الجواب الصحيح ج: 4 ص: 407

2- قال تعالى { وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ } يوسف 22 والإحسان ضد الإساءة وهو فعل الحسن سواء كان لازماً لصاحبه أو متعدياً إلى الغير¹

3- قال تعالى { إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ } يوسف 23 انه ربي يراد به السيد²

4- قال تعالى { وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ } يوسف 24 فإن البرهان في القرآن و غيره يطلق على ما يفيد العلم و اليقين كقوله تعالى { وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } البقرة 111 و قال تعالى { أَمْ نَبِئُكَ بِمَا يَفْعَلُونَ وَإِنَّهُمْ لَخَالِفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ } النمل 64 فالصادق لا بد له من برهان على صدقه و الصدق المجزوم بأنه صدق هو المعلوم وقوله تعالى { وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ } يوسف 24 هو برهان الايمان الذي حصل في قلبه فصرف الله به ما كان هم به وكتب له حسنة كاملة ولم يكتب عليه خطيئة اذا فعل خيراً ولم يفعل سيئة³

5- والآيات والبراهين الدالة على نبوة محمد كثيرة متنوعة وهي أكثر وأعظم من آيات غيره من الأنبياء ويسميتها من يسميها من النظار معجزات وتسمى دلائل النبوة وأعلام النبوة وهذه الألفاظ إذا سميت بها آيات الأنبياء كانت أدل على المقصود من لفظ المعجزات ولهذا لم يكن لفظ المعجزات موجوداً في الكتاب والسنة وإنما فيه لفظ الآية والبينة والبرهان كما قال تعالى { وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ } يوسف 24⁴

6- قال تعالى { وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ } يوسف 24 ولفظ العبد في القرآن يتناول من عبد الله فأما عبد لا يعبد فلا يطلق عليه لفظ عبده ونحو هذا كثير وقد يطلق لفظ العبد على المخلوقات كلها⁵

7- قال تعالى { فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ

¹مجموع الفتاوى ج: 30 ص: 370

²الجواب الصحيح ج: 3 ص: 453

³منهاج السنة النبوية ج: 7 ص: 8

⁴الجواب الصحيح ج: 5 ص: 413

كريمٌ { يوسف 31 فإن أهل اللغة يسمون بالواحد والوحيد والأحد في النفي لما يشار إليه ويميز الحس منه شيئاً من شيء قال تعالى **{ وَأَنْتَ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سَيِّئًا } يوسف 31** فسمى المرأة واحدة¹

8- قال تعالى **{ يُوسُفُ أَعْرَضَ عَن هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ } يوسف 29** عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك لفظ الذنوب إذا أطلق دخل فيه ترك كل واجب وفعل كل محرم كما في قوله **{ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا } الزمر 53** ثم قد يقرن بغيره كما في قوله **{ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا } آل عمران 147**²

9- ان الحروف العاملة اصلها ان تكون للإختصاص فإذا إختصت بالإسم أو بالفعل ولم تكن كالجزم منه عملت فيه فإن وأخواتها إختصت بالإسم فعملت فيه وتسمى الحروف المشبهة للأفعال لأنها عملت نصبا ورفعا وكثرت حروفها وحروف الجر إختصت بالإسم فعملت فيه وحروف الشرط إختصت بالفعل فعملت فيه بخلاف أدوات الإستفهام فإنها تدخل على الجملتين ولم تعمل وكذلك ما المصدرية ولهذا القياس في ما النافية أن لا تعمل أيضا على لغة تميم ولكن تعمل على اللغة الحجازية التي نزل بها القرآن في مثل قوله تعالى **{ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ } المجادلة 2** و **{ مَا هَذَا بَشَرًا } يوسف 31** إستحسانا لمشابهتها³

10- قال تعالى **{ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيُسْجَنَنَّ } يوسف 32** وهذه اللام الأولى تسمى اللام الموطئة للقسم واللام الثانية تسمى لام جواب القسم والكلام إذا إجتمع فيه شرط وقسم وقدم القسم سد جواب القسم مسد جواب الشرط والقسم⁴

11- قال تعالى **{ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْتُهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ } يوسف 32** الصاغر الذليل قال اهل اللغة الصغار الذل والضميم يقال صغر الرجل بالكسر يصغر بالفتح صغرا وصغرا والصاغر الراضي بالضميم⁵

12- قال تعالى **{ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } يوسف 34** سميع منزه عن الصم عليم منزه عن الجهل⁶

¹الجواب الصحيح ج: 4 ص: 435

²مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 166

³مجموع الفتاوى ج: 18 ص: 325

⁴الجواب الصحيح ج: 2 ص: 122

⁵الصارم المسلول ج: 2 ص: 33

⁶الجواب الصحيح ج: 4 ص: 407

يوسف 35-49

{ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ لَيْسَجُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ {35} وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٌ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ {36} قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبِئْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ {37} وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ {38} يَا صَاحِبِي السَّجْنَ أَرِيَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ {39} مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ {40} يَا صَاحِبِي السَّجْنَ أَمَا أَحَدَكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ {41} وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السَّجَنِ بَضْعَ سِنِينَ {42} وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأَ الْأَفْتُونِ فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ {43} قَالُوا أَضْعَافٌ أُحْلَامٌ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ {44} وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ {45} يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ {46} قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ {47} ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَحْصِنُونَ {48} ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصُرُونَ {49}

الإحسان يتناول الإخلاص وغيره

قال تعالى { ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ لَيْسَجُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ {35} وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٌ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ {36} يوسف 35-36 } وأما الإحسان فقوله أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك قد قيل أن الإحسان هو الإخلاص والتحقيق أن الإحسان يتناول الإخلاص وغيره والإحسان يجمع كمال الإخلاص لله ويجمع الإتيان بالفعل الحسن الذي يحبه الله قال تعالى { بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

يَحْزَنُونَ { البقرة 112 وقال تعالى { وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا { النساء 125¹

والإحسان ضد الإساءة وهو فعل الحسن سواء كان لازما لصاحبه أو متعديا إلى الغير²

المراد بلفظ التأويل في لغة القرآن

وقد كتبت كلام أحمد بألفاظه كما ذكره الخلال في كتاب السنة و كما ذكره من نقل كلام أحمد بإسناده في الكتب المصنفة في ذلك في غير هذا الموضع و بين أن لفظ التأويل في الآية إنما أريد به التأويل في لغة القرآن كقوله تعالى { هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ { الأعراف 53 و عن ابن عباس في قوله { هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ { الأعراف 53 تصديق ما و عد في القرآن و عن قتادة تأويله ثوابه و عن مجاهد جزاءه و عن السدي عاقبته و عن ابن زيد حقيقته قال بعضهم تأويله ما يؤول إليه أمرهم من العذاب و ورود النار و قوله تعالى { بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ { يونس 39 قال بعضهم تصديق ما و عدوا به من الوعيد و التأويل ما يؤول إليه الأمر و عن الضحاك يعنى عاقبة ما و عد الله في القرآن أنه كائن من الوعيد و التأويل ما يؤول إليه الأمر و قال الثعلبي تفسيره و ليس بشيء و قال الزجاج لم يكن معهم علم تأويله و قال يوسف الصديق عليه السلام { يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ { يوسف 100 فجعل نفس سجود أبويه له تأويل رؤياه و قال قبل هذا { لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيكُمَا { يوسف 37 أي قبل أن يأتیکما التأويل و المعنى لا يأتیکما طعام ترزقانه في المنام لما { قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا { يوسف 36 إلا نبتكما بتأويله في اليقظة { قَبْلَ أَنْ يَأْتِيكُمَا { يوسف 37 الطعام هذا قول أكثر المفسرين و هو الصواب و قال بعضهم لا يأتیکما طعام ترزقانه تطعمانه و تأكلانه إلا نبتكما بتأويله بتفسيره و ألوانه أي طعام أكلتم و كم أكلتم و متى أكلتم فقالوا هذا فعل العرافين و الكهنة فقال ما أنا بکاهن و إنما ذلك العلم مما يعلمني ربي و هذا القول ليس بشيء فإنه قال { إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ { يوسف 37 و قد { قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبْنَأُ بِتَأْوِيلِهِ { يوسف 36 فطلبا منه تأويل ما رأياه و أخبرهما بتأويل ذلك و لم يكن تأويل الطعام في اليقظة و لا في القرآن أنه أخبرهما بما يرزقانه في اليقظة فكيف يقول قولاً عاماً { لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ { يوسف 37 و هذا الإخبار العام لا يقدر عليه إلا الله و الأنبياء يخبرون ببعض ذلك لا يخبرون بكل هذا و أيضا فصفا الطعام و قدره ليس تأويلا له و أيضا فالله إنما أخبر أنه علمه تأويل الرؤيا قال يعقوب عليه السلام { وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ { يوسف 6 و قال يوسف عليه السلام { رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 622

²مجموع الفتاوى ج: 30 ص: 370

وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ { يوسف 101 } وقال { هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ } يوسف 100 و لما رأى الملك الرؤيا قال له الذي أذكر بعد أمة { أَنَا أَنْبَيْتُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ } يوسف 45 و الملك قال { يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ } {43} قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ {44} يوسف 43-44 فهذا لفظ التأويل فى مواضع متعددة كلها بمعنى واحد و قال تعالى { فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا } النساء 59 قال مجاهد و قتادة جزاء و ثوابا و قال السدي و ابن زيد و ابن قتيبة و الزجاج عاقبة و عن ابن زيد أيضا تصديقا كقوله { هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ } يوسف 100 و كل هذه الأقوال صحيحة و المعنى واحد و هذا تفسير السلف أجمعين و منه قوله { سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا } الكهف 78 فلما ذكر له ما ذكر قال { ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا } الكهف 82 و هذا تأويل فعله ليس هو تأويل قوله و المراد به عاقبة هذه الأفعال بما يؤول إليه ما فعلته من مصلحة أهل السفينة و مصلحة أبوي الغلام و مصلحة أهل الجدار¹

وقال يوسف **لايأتيكما طعام ترزقانه إلا نباتكما بتأويله قبل أن يأتيكما سورة يوسف 37** فتأويل الكلام الطلبي الأمر والنهي هو نفس فعل المأمور به وترك المنهى عنه كما قال سفيان بن عيينة السنة تأويل الأمر والنهي²

الحكم لله وحده ورسله

فان الله سبحانه وتعالى هو الحكم الذى يحكم بين عباده والحكم له وحده وقد أنزل اللة الكتب وارسل الرسل ليحكم بينهم فمن اطاع الرسول كان من أوليائه المتقين وكانت له سعادة الدنيا والآخرة ومن عصى الرسول كان من اهل الشقاء والعذاب قال تعالى { كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } البقرة 213 وفى صحيح مسلم عن عائشة أن النبي كان إذا قام يصلى من الليل يقول اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون إهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم وقال تعالى { وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ } آل عمران 19 فبين سبحانه وتعالى أنه هداهم وبين لهم الحق لكن بعضهم يبغى على بعض مع معرفته بالحق فيتبع هواه ويخالف أمر الله وهو الذى يعرف الحق ويزيغ عنه كما قال تعالى { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبِعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الضَّالِّينَ } {175} وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمَلُ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } {176}

¹درء التعارض ج: 1 ص: 206

²مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 364-367

الاعراف 175-176 فقد بين سبحانه وتعالى أنه بعث الرسل وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وقال تعالى { وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } الشورى 10 وقال يوسف { يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ } {39} مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } {40} يوسف 39-40 فالحكم لله وحده ورسله يبلغون عنه فحكمهم حكمه وأمرهم أمره وطاعتهم طاعته فما حكم به الرسول وأمرهم به وشرعه من الدين وجب على جميع الخلائق إتباعه وطاعته فإن ذلك هو حكم الله على خلقه والرسول يبلغ عن الله قال تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا } {64} فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } {65} النساء 64-65 فعلى جميع الخلق أن يحكموا رسول الله خاتم النبيين وأفضل المرسلين وأكرم الخلق على الله ليس لأحد أن يخرج عن حكمه في شيء سواء كان من العلماء أو الملوك أو الشيوخ أو غيرهم ¹

ملك مصر وقومه كانوا يقرون بالصانع مع شركهم

والإشراك لا يكون إلا من مقر بالله وإلا فالجاحد له لم يشرك به قيل لم يذكر الله جحود الصانع إلا عن فرعون موسى وأما الذين كانوا في زمن يوسف فالقرآن يدل على أنهم كانوا مقرين بالله وهم مشركون به ولهذا كان خطاب يوسف للملك وللعزيز ولهم يتضمن الإقرار بوجود الصانع كقوله { أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ } يوسف 39 { ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النَّسُوءِ } يوسف 50 الى قوله { إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ } يوسف 50 { وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ } يوسف 52 الى قوله { وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لِأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ } يوسف 53 ²

وأولئك القوم كانوا يقرون بالصانع مع شركهم ولهذا قال لهم يوسف { يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ } {39} مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } {40} يوسف 39-40 ³

¹مجموع الفتاوى ج: 35 ص: 362-363

²مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 634

³مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 152

تولى يوسف الصديق على خزائن الأرض لملك مصر وكان هو وقومه كفارا

الولاية وان كانت جائزة او مستحبة او واجبة فقد يكون في حق الرجل المعين غيرها اوجب او احب فيقدم حينئذ خير الخيرين وجوبا تارة واستحابا اخرى ومن هذا الباب تولى يوسف الصديق على خزائن الأرض لملك مصر بل ومسالته أن يجعله على خزائن الارض وكان هو وقومه كفارا كما قال تعالى {وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زُلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلُوبُكُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ } غافر 34 وقال تعالى عنه { يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ } {39} مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } {40} يوسف 39-40 ومعلوم أنه مع كفرهم لا بد أن يكون لهم عادة وسنة في قبض الاموال وصرفها على حاشية الملك وأهل بيته وجنده ورعيته ولا تكون تلك جارية على سنة الأنبياء وعدلهم ولم يكون يوسف يمكنه أن يفعل كل ما يريد وهو ما يراه من دين الله فان القوم لم يستجيبوا له لكن فعل الممكن من العدل والاحسان ونال بالسلطان من اكرام المؤمنين من أهل بيته مالم يكن يمكن أن يناله بدون ذلك وهذا كله داخل في قوله {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ } التغابن 16 فاذا ازدحم واجبان لا يمكن جمعهما فقدم أوكدهما لم يكن الآخر في هذه الحال واجبا ولم يكن تاركة لأجل فعل الأوكد تارك واجب في الحقيقة وكذلك اذا اجتمع محرمان لا يمكن ترك أعظمهما الا بفعل أدناهما لم يكن فعل الأدنى في هذه الحال محرما في الحقيقة وان سمي ذلك ترك واجب وسمى هذا فعل محرّم باعتبار الاطلاق لم يضر ويقال في مثل هذا ترك الواجب لعذر وفعل المحرم للمصلحة الراجحة أو لضرورة أو لدفع ما هو أحرّم وهذا كما يقال لمن نام عن صلاة أو نسيها إنه صلاها في غير الوقت المطلق قضاء هذا وقد قال النبي من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها اذا ذكرها فان ذلك وقتها لا كفارة لها الا ذلك¹

معرفة حدود الاسماء واجبة

قال تعالى { يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ } {39} مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } {40} يوسف 39-40 أن الله سبحانه علم آدم الاسماء كلها وقد ميز كل مسمى باسم يدل على ما يفصله من الجنس المشترك ويخصه بدون ما سواه ويبين به ما يرسم معناه في النفس ومعرفة حدود الاسماء واجبة لأنه بها تقوم مصلحة بني آدم في النطق الذي جعله الله رحمة لهم لا سيما حدود ما أنزل الله في كتبه من الاسماء كالخمر والربا فهذه الحدود هي الفاصلة المميزة بين ما يدخل في المسمى ويتناوله ذلك الاسم وما دل عليه من الصفات ويبين ما ليس كذلك ولهذا ذم الله من سمي الاشياء بأسماء ما أنزل الله بها من سلطان فإنه اثبت للشيء صفة باطلة كالهية الاوثان فالاسماء النطقية سمعية واما نفس تصور المعاني ففطري يحصل بالحس الباطن والظاهر وبادراك الحس وشهوده ببصر الانسان بباطنه وبظاهره وبسمعه يعلم اسماءها

¹مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 61

وبفؤاده بعقل الصفات المشتركة والمختصة والسمع والابصار والافئدة¹ والله اخرجنا من بطون امهاتنا لا نعلم شيئا وجعل لنا

فلفظ الاله يقتضي أنه يستحق العبادة فإذا أخبر أنه هو المستحق للعبادة دون ما سواه كان ذلك أمرا بما يستحقه وليس المراد هنا بالاله من عبده عابد بلا استحقاق فإن هذه الآلهة كثيرة ولكن تسميتهم آلهة والخبر عنهم بذلك واتخاذهم معبودين أمر باطل كما قال تعالى {إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ} النجم 23 وقال {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ} الحج 62²

المشركون انما يعبدون أسماء تصوروها في خيالهم الفاسد

قال تعالى {وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} آل عمران 80 وقال يوسف الصديق {يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} {39} {مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ} {40} يوسف 39-40 وكل من عبد شيئا من دون الله فإنما يعبد أسماء ما أنزل الله بها من سلطان وأيضا فالذين يعبدون الملائكة أو الأنبياء لا يرونهم وإنما يعبدون تماثيل صوروها على مثال صورهم وهي من تراب وحجر وخشب فهم يعبدون الموات وفي الصحيح صحيح مسلم عن أبي الهياج الأسدي قال قال لي علي بن أبي طالب رضي الله عنه ألا أبعثك على ما بعثتني عليه رسول الله بعثتني أن لا أدع تمثالا إلا طمسته ولا قبرا مشرفا إلا سويته³

المطالبة بالدليل الشرعي

قال تعالى {إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ} النجم 23 والاسماء التي انكرها الله على المشركين بتسميتهم أو ثابتهم آلهة فاثبتوا لها صفة الالهية التي توجب استحقاقها أن تعبد وهذا المعنى لا يجوز إثباته الا بسلطان وهو الحجة وكون الشيء معبودا تارة يراد به أن الله أمر بعبادته فهذا لا يثبت إلا بكتاب منزل وتارة يراد به أنه متصف بالربوبية والخلق المقتضى لاستحقاق العبودية فهذا يعرف بالعقل ثبوته وانتفاؤه ولهذا قال تعالى {قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ إِنَّنِي بَكْتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٌ مِّنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} الأحقاف 4 وقال في سورة فاطر {قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ

¹مجموع الفتاوى ج: 9 ص: 59

²مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 175

³مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 362

دُونَ اللَّهِ أُرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ
 إِن يَعِدُّ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا {فاطر 40} فطالبتهم بحجة عقلية عيانة وبحجة
 سمعية شرعية فقال { أُرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ } فاطر 40 ثم قال
 { أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ } فاطر 40 كما قال هناك { أُرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ
 أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ } الأحقاف 4 ثم قال { ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ
 صَادِقِينَ } الأحقاف 4 فالكتاب المنزل والاثارة ما يؤثر عن الانبياء بالرواية والاسناد وقد يقيد في
 الكتاب فهذا فسر بالرواية وفسر بالخط وهذا مطالبة بالدليل الشرعي على أن الله شرع ان يعبد
 غيره فيجعل شفيعا او يتقرب بعبادته الى الله وبيان انه لا عبادة اصلا الا بامر من الله فهذا قال تعالى
 { وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ } المؤمنون 117 كما قال في
 موضع اخر { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ
 الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } 30 { مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ
 الْمُشْرِكِينَ } 31 { مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } 32 { وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ
 ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا آذَقَهُمْ مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ } 33 { لِيَكْفُرُوا بِمَا
 آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } 34 { أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ
 يُشْرِكُونَ } 35 { الروم 30-35 } والسلطان الذي يتكلم بذلك الكتاب المنزل كما قال { أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ
 مُّبِينٌ } 156 { فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } 157 { الصافات 156-157 } وقال { إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي
 آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ } غافر 56¹

وقد بين في غير موضع ان السلطان هو الحجة وهو الكتاب المنزل كما قال تعالى { مَا تَعْبُدُونَ مِنْ
 دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا
 إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } يوسف 40 وإذا كان كذلك ففي هذا بيان أنه لا
 يجوز لأحد أن يعارض كتاب الله بغير كتاب فمن عارض كتاب الله وجادل فيه بما يسميه معقولات
 وبراهين وأقيسة أو ما يسميه مكاشفات ومواجيد وأذواق من غير أن يأتي على ما يقوله بكتاب منزل
 فقد جادل في آيات الله بغير سلطان هذه حال الكفار الذين قال فيهم ما يجادل في آيات الله إلا الذين
 كفروا سورة غافر 4 فهذه حال من يجادل في آيات الله مطلقا ومن المعلوم أن الذي يجادل في
 جميع آيات الله لا يجادل بسلطان²

الرد على من قال ان الاسم هو المسمى وأن كل شيء يستحق الألوهية كاستحقاق الله لها

ذلك أنه علم بالاضطرار أن الرسل كانوا يجعلون ما عبده المشركون غير الله ويجعلون عبده عابدا
 لغير الله مشركا بالله عادلا به جاعلا له ندا فانهم دعوا الخلق إلى عبادة الله وحده لا شريك له وهذا هو

¹مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 425

²الاستقامة ج: 1 ص: 22

دين الله الذي أنزل به كتبه وأرسل به رسله وهو الاسلام العام الذي لا يقبل الله من الاولين والآخرين غيره ولا يغفر لمن تركه بعد بلاغ الرسالة كما قال {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} النساء 48 وهو الفارق بين أهل الجنة وأهل النار والسعداء والأشقياء كما قال النبي من كان آخر كلامه لا إله إلا الله وجبت له الجنة وقال من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله وجبت له الجنة وقال إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد عند الموت إلا وجد روحه لها روحا وهي رأس الدين وكما قال أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله فإذا قالوها عصموا منى دمائهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله وفضائل هذه الكلمة وحققها وموقعها من الدين فوق ما يصفه الواصفون ويعرفه العارفون وهي حقيقة الأمر كله كما قال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} الأنبياء 25 فأخبر سبحانه أنه يوحى الى كل رسول بنفى الالهية عما سواه وإثباتها له وحده وزعم هؤلاء الملاحدة المشركون (مثل ابن عربي) أن كل شيء يستحق الالهوية كاستحقاق الله لها وقال تعالى {وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ} الزخرف 45 وزعم هؤلاء الملاحدة أن كل شيء فانه إله معبود فأخبر سبحانه أنه لم يجعل من دون الرحمن آلهة وقال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ} النحل 36 فأمر الله سبحانه بعبادته واجتناب الطاغوت وعند هؤلاء أن الطواغيت جميعها فيها الله أو هي الله ومن عبدها فما عبد إلا الله وقال تعالى {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} {21} الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} {22} البقرة 21-22 فأمر سبحانه بعبادة الرب الخالق لهذه الآيات وعند هؤلاء الملاحدة الملاعين هو عين هذه الآيات ونهى سبحانه أن يجعل الناس له أندادا وعندهم هذا لا يتصور فإن الأنداد هي عينه فكيف يكون ندا لنفسه والذين عبدوا الأنداد فما عبدوا سواه ثم إن هؤلاء الملاحدة احتجوا بتسمية المشركين لما عبده إلهها كما قالوا {أَجْعَلِ الْأَلِهَةَ إلهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} ص 5 واعتقدوا أنهم لما سموهم آلهة كانت تسمية المشركين دليلا على أن الالهية ثابتة لهم وهذه الحجة قد ردها الله على المشركين في غير موضع كقوله سبحانه عن هود في مخاطبته للمشركين من قومه { أَتَجَادِلُونِي فِي أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ} الأعراف 71 الآية هذا رد لقولهم {أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا} الأعراف 70 فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تسميتهم اياها آلهة ومعبودين تسمية ابتدعوها هم وآباؤهم ما أنزل الله بها من حجة ولا سلطان والحكم ليس الا الله وحده وقد أمر هو سبحانه أن لا يعبد إلا اياه فكيف يحتج بقول مشركين لا حجة لهم وقد أبطل الله قولهم وأمر الخلق أن لا يعبدوا الا اياه دون هذه الاوثان التي سماها المشركون آلهة وعند الملاحدة عابدوا الأوثان ما عبدوا إلا الله ثم ان المشركين أنكروا على الرسول حيث جاءهم ليعبدوا الله وحده ويذروا ما كان يعبد آباؤهم فإذا كانوا هم ما زالوا يعبدون الله وحده كما تزعمه الملاحدة فلم يدعو الى ترك ما يعبد آباؤهم بل جاءهم ليعبد كل شيء كان يعبد آباؤهم هو وغيره من الأنبياء وكذلك قال سبحانه في سورة يوسف عنه {يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرَأَيْتَ أَزْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} {39} مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} {40} يوسف 39-40 وقال سبحانه {أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى} {19} وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى} {20} النجم 19-20 الى قوله {وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى} {23} النجم 23 وهذه الثلاثة المذكورة في هذه السورة هي الأوثان العظام الكبار التي كان

المشركون ينتابونها من أمصارهم فاللات كانت حذو قديد بالساحل لأهل المدينة والعزى كانت قريبة من عرفات لأهل مكة ومناة كانت بالطائف لثقيف وهذه الثلاث هي أمصار أرض الحجاز أخبر سبحانه أن الأسماء التي سماها المشركون أسماء ابتدعوها لا حقيقة لها فهم إنما يعبدون أسماء لا مسميات لها لأنه ليس في المسمى من الالهوية ولا العزة ولا التقدير شيء ولم ينزل الله سلطانا بهذه الاسماء ان يتبع المشركون الا ظنا لا يغنى من الحق شيئا في انها آلهة تنفع وتضر ويتبعوا أهواء أنفسهم وعند الملاحظة أنهم إذا عبدوا أهواءهم فقد عبدوا الله وقد قال سبحانه عن إمام الأئمة وخليل الرحمن وخير البرية بعد محمد أنه قال لأبيه { إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا {42} يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا {43} يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا {44} يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا {45} مريم 42- 45 فنهاه وأنكر عليه أن يعبد الأوثان التي لا تسمع ولا تبصر ولا تغنى عنه شيئا¹

فإن الله في غير موضع أخبر أن المشركين عبدوا غير الله بل يعبدون الشيطان كما قال تعالى { أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ {60} وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ {61} وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ {62} يس 60-62²

وأما قوله تعالى **{ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ {يوسف 40}** فليس المراد كما ذكره أنكم تعبدون الأوثان المسماة فان هذا هم معترفون به والرب تعالى نفى ما كانوا يعتقدونه وأثبت ضده ولكن المراد أنهم سموها آلهة واعتقدوا ثبوت الالهية فيها وليس فيها شيء من الالهية فاذا عبدوها معتقدين الهيئتها مسمين لها آلهة لم يكونوا قد عبدوا الا أسماء ابتدعوها هم ما أنزل الله بها من سلطان لأن الله لم يأمر بعبادة هذه ولا جعلها آلهة كما قال { وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ {الزخرف 45} فتكون عبادتهم لما تصوره في أنفسهم من معنى الالهية وعبروا عنه بألسنتهم وذلك أمر موجود في أذهانهم والسنتهم لا حقيقة له في الخارج فما عبدوا الا هذه الأسماء التي تصوروها في أذهانهم وعبروا عن معانيها بألسنتهم وهم لم يقصدوا عبادة الصنم الا لكونه الها عندهم والهيته هي في أنفسهم لا في الخارج فما عبدوا في الحقيقة الا ذلك الخيال الفاسد الذي عبر عنه ولهذا قال في الآية الأخرى { وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلُوبًا سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِيْظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ {الرعد 33} يقول سموهم بالاسماء التي يستحقونها هل هي خالقة رازقة محيية مميتة ام هي مخلوقة لا تملك ضرا ولا نفعا فاذا سموها فوصفوها بما تستحقه من الصفات تبين ضلالهم قال تعالى { أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ

¹مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 257-259

²مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 194

{الردع 33 وما لا يعلم أنه موجود فهو باطل لا حقيقة له ولو كان موجودا لعلمه موجودا } أم
بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ {الردع 33 أم بقول ظاهر باللسان لا حقيقة له في القلب بل هو كذب وبهتان¹

الدين الحق هو طاعة الله وعبادته

قال تعالى { يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَرَبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ } {39} مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ
إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ
الَّذِينَ الْفَيْمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ {40} يوسف 39-40

الدين هو التعاقد والتعاقد وإذا كان كذلك فالأمور التي يحتاجون إليها يحتاجون أن يوجبوها
علي أنفسهم والأمور التي تضرهم يحتاجون أن يحرموها علي نفوسهم وذلك دينهم وذلك لا يكون إلا
باتفاقهم علي ذلك وهو التعاقد والتعاقد ولهذا جاء في الحديث لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين
لمن لا عهد له فهذا هو من الدين المشترك بين جميع بني آدم من التزام واجبات ومحرمات وهو
الوفاء والعهد وهذا قد يكون باطلا فاسدا إذا كان فيه مضرة لهم راجحة علي منفعته وقد يكون دين
حق إذا كانت منفعة خاصة أو راجحة كما قال تعالى { قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ } {1} لَا أَعْبُدُ مَا
تَعْبُدُونَ } {2} وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ } {3} وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ } {4} وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ } {5} لَكُمْ
دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ } {6} الكافرون 1-6 وقال تعالى { مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ } يوسف 76

وقال تعالى { قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا
يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ } التوبة 29 الدين الحق هو طاعة الله وعبادته والدين
الحق هو طاعة الله وعبادته كما بينا أن الدين هو الطاعة المعتادة التي صارت خلقا وبذلك يكون
المطاع محبوبا مرادا إذ أصل ذلك المحبة والإرادة ولا يستحق أحد أن يعبد ويطاع علي الإطلاق
إلا الله وحده لا شريك له ورسله وأولو الأمر أطيعوا لأنهم يأمرون بطاعة الله كما قال النبي في
الحديث المتفق عليه من أطاعني فقد أطاع الله ومن أطاع أميري فقد أطاعني ومن عصاني فقد عصي
الله ومن عصي أميري فقد عصاني وأما العبادة فله وحده ليس فيها واسطة فلا يعبد العبد إلا الله
وحده كما قد بينا ذلك في مواضع وبيننا أن كل عمل لا يكون غايته إرادة الله وعبادته فهو عمل فاسد
غير صالح باطل غير حق أي لا ينفع صاحبه وقد قال سبحانه { وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ
لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ } البينة 5 وقال تعالى
{ وَقَاتِلُواهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ } البقرة 193 وقال تعالى { ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا
تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ } التوبة 36 وقال تعالى { قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ
إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } الأنعام 161 وقال تعالى { فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ
لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ } التوبة 122 وفي الصحيحين عن النبي انه قال
من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين وقال تعالى { وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ
إِنْ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } البقرة 217 وقال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ

¹مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 194-195

عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ { المائدة: 54 وهو الدين الحق الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له وطاعته وطاعة رسوله هو الإسلام العام الذي لا يقبل الله ديناً غيره كما قال تعالى { إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ } آل عمران: 19 وقال تعالى { وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ } آل عمران: 85 وقال تعالى { أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْتَغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ } آل عمران: 83 وقال تعالى { شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ } الشورى: 13 وقال تعالى { إِنَّ الدِّينَ فَرَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا أَلسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ } الأنعام: 159 كل دين سوي الإسلام باطل فإذا كان لا بد لكل آدمي من اجتماع ولا بد في كل اجتماع من طاعة ودين وكل دين وطاعة لا يكون لله فهو باطل فكل دين سوي الإسلام فهو باطل وأيضا فلا بد لكل حي من محبوب هو منتهى محبته وإرادته وإليه تكون حركة باطنه وظاهره وذلك هو إلهه ولا يصلح ذلك إلا لله وحده لا شريك له فكل ما سوي الإسلام فهو باطل والمتفرقون أيضا فيه الذين أخذ كل منهم ببعضه وترك بعضه وافترقت أهواؤهم قد بريء الله ورسوله منهم لا بد في كل دين من شيئين العقيدة والشريعة أو المعبود والعبادة ولا بد في كل دين وطاعة ومحبة من شيئين أحدهما الدين المحبوب المطاع وهو المقصود المراد والثاني نفس صورة العمل التي تطاع ويعبد بها وهو السبيل والطريق والشريعة والمنهاج والوسيلة كما قال الفضيل بن عياض في قوله تعالى { لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا } هود: 7 قال أخلصه وأصوبه قالوا يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه قال إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون علي السنة فهكذا كان الدين يجمع هذين الأمرين المعبود والعبادة والمعبود اله واحد والعبادة طاعته وطاعة رسوله فهذا هو دين الله الذي ارتضاه كما قال تعالى { وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا } المائدة: 3 وهو دين المؤمنين من الأولين والآخرين وهو الدين الذي لا يقبل الله من أحد غيره لأنه دين فاسد باطل كمن عبد من لا تصلح عبادته أو عبد بما لا يصلح أن يعبد به ¹

وأما غير رسل الله وأنبيائه فليس لهم أن يبدلوا دين الله ولا يبتدعوا في الدين مالم يأذن به الله والرسل إنما قالوا تبليغا عن الله فإنه سبحانه له الخلق والأمر فكما لا يخلق غيره لا يأمر غيره { **إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** } يوسف: 40 ²

كمال بنى آدم وسعادتهم ونجاتهم لا تحصل إلا بعبادة الله وحده

ومحبة الله وتوحيده هو الغاية التي فيها صلاح للنفس وهو عبادة الله وحده لا شريك له فلا صلاح للنفس ولا كمال لها إلا في ذلك وبدون ذلك تكون فاسدة لا صلاح لها ولهذا كان هذا هو دين الإسلام الذي اتفقت عليه الرسل قال الله تعالى { وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ

¹قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 36-40

²مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 614

مِنَ الْخَاسِرِينَ { آل عمران 85 وقد قال تعالى { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ { الذاريات 56 فالغاية الحميدة التي بها يحصل كمال بني آدم وسعادتهم ونجاتهم عبادة الله وحده وهي حقيقة قول القائل لا إله إلا الله ولهذا بعث الله جميع الرسل وأنزل جميع الكتب ولا تصلح النفس وتزكو وتكمل إلا بهذا لفظ العبادة يتضمن كمال الذل بكمال الحب فلا بد أن يكون العابد محبا للإله المعبود كمال الحب ولا بد أن يكون ذليلا له كمال الذل فمن أحب شيئا ولم يذل له لم يعبده ومن خضع له ولم يحبه لم يعبده وكمال الحب والذل لا يصلح إلا لله وحده فهو الإله المستحق للعبادة التي لا يستحقها إلا هو وذلك يتضمن كمال الحب والذل والإجلال والإكرام والتوكل والعبادة فالنفوس محتاجة إلى الله من حيث هو معبودها ومنتهى مرادها وبغيتها ومن حيث هو ربها وخالقها فمن آمن بالله رب كل شيء وخالقه ولم يعبد إلا الله وحده بحيث يكون الله أحب إليه من كل ما سواه وأخشى عنده من كل ما سواه وأعظم عنده من كل ما سواه وأرجى عنده من كل ما سواه بل من سوى بين الله وبين بعض المخلوقات في الحب بحيث يحبه مثل ما يحب الله ويخشاه مثل ما يخشى الله ويرجوه مثل ما يرجو الله ويدعوه مثل ما يدعوهُ فهو مشرك الشرك الذي لا يغفره الله ولو كان مع ذلك عفيفا في طعامه ونكاحه وكان حكيما شجاعا¹

قال النبي صلى الله عليه وسلم غيرة الله ان يأتي المؤمن ما حرم عليه واعظم الذنوب ان تجعل لله ندا وهو خلقك وتجعل معه الها اخر والشرك منه جليل ومنه دقيق فالمقتصدون قاموا بواجب التوحيد والسابقون المقربون قاموا بمستحبه مع واجبه ولا شيء احب الى الله من التوحيد ولا شيء ابغض اليه من الشرك ولهذا كان الشرك غير مغفور بل هو اعظم الظلم وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم مثل المؤمن مثل الخامة من الزرع تفيئها الرياح تارة تميلها وتعديلها اخرى ومثل المنافق كمثل شجرة الارز لا تزال ثابتة على اصلها حتى يكون انجعافها مرة واحدة²

فرق الله سبحانه بالقرآن وبالإيمان بين أمره الديني وخلق الكوني

إن الله سبحانه قد فرق بالقرآن وبالإيمان بين أمره الديني وخلق الكوني فإن الله سبحانه خالق كل شيء ورب كل شيء ومليكه سواء في ذلك الذوات وصفاتها وأفعالها وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن لا يخرج عن مشيئته شيء ولا يكون شيء الا بمشيئته وقد فرق الله في كتابه بين القسمين بين من قام بكلماته الكونيات وبين من اتبع كلماته الدينيات وذلك في أمره وإرادته وقضائه وحكمه وإذنه وبعثه وارساله فقال في الحكم الديني { أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ { المائدة 50 وقال في الحكم الكوني { فَلَنْ أُبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْتِيَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ { يوسف 80 وبهذا الجمع والتفريق تزول الشبهة في مسألة الأمر الشرعي هل هو مستلزم

¹الجواب الصحيح ج: 6 ص: 32

²الاستقامة ج: 2 ص: 60

للإرادة الكونية أم لا فان التحقيق أنه غير مستلزم للإرادة الكونية القدرية وإن كان مستلزماً للإرادة الدينية الشرعية وقد يجمع الحكمين مثل ما في قوله { **إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ** } يوسف 40¹

نسيان الخير يكون من الشيطان

قد قال صلى الله عليه وسلم إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به وهو نوعان خبر وإنشاء فالخبر إما عن ماضٍ وإما عن مستقبل فالماضي يذكره به والمستقبل يحدثه بأن يفعل هو أمورا أو أن أمورا ستكون بقدر الله أو فعل غيره فهذه الأمانى والمواعيد الكاذبة والإنشاء امر ونهي وإباحة والشيطان تارة يحدث وسواس الشر وتارة ينسى الخير وكان ذلك بما يشغله به من حديث النفس قال تعالى في النسيان { **وَإِذَا بُنِيتُكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** } الأنعام 68 وقال فتى موسى { **فَأَنبِئِ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيَهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ** } الكهف 63 وقال تعالى { **فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ** } يوسف 42²

قال تعالى { **يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَمَا أَحَدُكُمْ فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَا الْآخِرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ** } 41 { **وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ** } 42 { **يوسف 41-42** كان الصحابة إذا تكلموا في مسألة باجتهادهم قال أحدهم أقول فيها برأيي فإن يكن صواباً فمن الله وإن يكن خطأً فمني ومن الشيطان والله ورسوله بريئان منه كما قال أبو بكر رضي الله عنه في الكلاله وكما قال ابن مسعود في المفوضة إذا مات عنها زوجها وكلاهما أصاب فيما قاله برأيه لكن قال الحق فإن القول إذا كان صواباً فهو مما جاء به الرسول عن الله فهو من الله وإن كان خطأً فالله لم يبعث الرسول بخطأ فهو من نفسه ومن الشيطان لا من الله ورسوله والمقصود بالإضافة إليه الإضافة إليه من جهة الإهيتة من جهة الأمر والشرع والنهي وأنه يحبه ويرضاه ويثيب فاعله عليه وأما من جهة الخلق فكل الأشياء منه والناس لم يسألوا الصحابة عما من الله خلقاً وتقديراً فقد علموا أن كل ما وقع فمناه والعرب كانت في جاهليتها تقر بالقضاء والقدر قال ابن قتيبة وغيره ما زالت العرب في جاهليتها وإسلامها مقر بالقدر وقد قال عنتره يا عبل أين من المنية مهرب إن كان ربي في السماء قضاها وإنما كان سؤال الناس عما من الله من جهة أمره ودينه وشرعه الذي يرضاه ويحبه ويثيب أهله وقد علم الصحابة أن ما خالف الشرع والدين فإنه يكون من النفس والشيطان وإن كان بقضاء الله وقدره وإن كان يعفى عن صاحبه كما يعفى عن النسيان والخطأ ونسيان الخير يكون من الشيطان كما قال تعالى { **وَإِذَا بُنِيتُكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** } الأنعام 68 وقال فتى موسى صلى الله عليه وسلم { **وَإِذَا بُنِيتُكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** } الأنعام 68 وقال { **فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ** } يوسف 42 ولما نام النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في الوادي عن الصلاة قال هذا واد حضرنا فيه الشيطان وقال إن الشيطان أتى بلالا فجعل يهديه كما يهدي الصبي

¹مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 413

²مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 535

حتى نام فإنه كان وكل بلالا أن يكلاً لهم الصبح مع قوله ليس في النوم تفریط وقال إن الله قبض أرواحنا وقال له بلال أخذ بنفسى الذى أخذ بنفسك وقال من نام عن صلاة فليصلها إذا ذكرها لا كفرة لها إلا ذلك ومع قوله تعالى عن المؤمنين { رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا } البقرة 286 قال تعالى قد فعلت وكذلك الخطأ فى الإجتهد من النفس والشيطان وإن كان مغفوراً لصاحبه وكذلك الإحتلام فى المنام من الشيطان وفى الصحيحين عنه أنه قال الرؤيا ثلاثة رؤيا من الله ورؤيا من الشيطان ورؤيا مما يحدث به المرء نفسه فى اليقظة فيراه فى المنام فالنائم يرى فى منامه ما يكون من الشيطان وهو كما قال صلى الله عليه وسلم رفع القلم عن النائم حتى يستيقظ وعن المجنون حتى يفيق وعن الصبي حتى يحتلم وأعذرهم النائم ولهذا لم يكن لشيء من أقواله التى تسمع منه فى المنام حكم باتفاق العلماء فلو طلق أو أعتق أو تبرع أو غير ذلك فى منامه كان لغوا بخلاف الصبي المميز فإن أقواله قد تعتبر إما بإذن الولي وإما بغير إذنه فى مواضع بالنص وفى مواضع بالإجماع

1

سمى الله الأنبياء صديقين

قال تعالى { يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ } يوسف 46 وقد سمي الله الأنبياء صديقين فى مثل قوله { وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا } مريم 41 { وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيْسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا } مريم 56 وقوله عن يوسف { يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ } يوسف 46

2

{ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ } 43 { قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ } 44 { وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ } 45 { يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ } 46 { قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ } 47 { ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ } 48 { ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ } 49 { يُوسُفُ 43-49

لطائف لغوية

1- ولفظ الفتى فى اللغة هو الحدث، الشاب كما ذكر ذلك أهل اللغة ومنه قول تعالى { وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٌ } يوسف 36 وقوله { إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ } الكهف 13 { وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ } الكهف 60 وقد فتى يفتى فهو فتى أى بين الفتا والأفتا من الدواب خلاف المسان وقد يعبر بالفتى عن المملوك مطلقاً كما قال تعالى { مِّنْ فِتْيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ } النساء 25³

¹منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 183-186

²منهاج السنة النبوية ج: 7 ص: 227

³مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 83

2- لفظ التأويل في كتاب الله يراد به ما يؤول إليه الكلام وإن وافق ظاهره ومنه تأويل الرؤيا كقول يوسف الصديق { قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا دَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ } يوسف 37¹

3- فتأويل الأحاديث التي هي رؤيا المنام هي نفس مدلولها التي تؤول اليه كما قال يوسف { هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ } يوسف 100 والعالم بتأويلها الذي يخبر به كما قال يوسف { لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ } يوسف 37 أي في المنام { إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا } يوسف 37 أي قبل أن يأتياكما التأويل²

4- قال تعالى { وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ } يوسف 38 عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك لفظ اتباع ما أنزل الله يتناول جميع الطاعات كقوله { اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ } الأعراف 3 وقوله { فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى } طه 123 وقوله { وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ } الأنعام 153 وقد يقرب به غيره كقوله { وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } الأنعام 155 وقوله { اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ } الأنعام 106 وقوله { وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ } يونس 109³

5- معلوم بالاضطرار أن الملائكة ليست أربابا ولا تسمى في الشريعة أربابا فقول القائل ولأجلها قد تسمى أربابا يقال هذه التسمية هي من التسمية المذكورة في قوله تعالى { إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ } النجم 23 وكما قال يوسف الصديق { يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرَبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ } 39 { مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } يوسف 39-40 بل لا رب إلا الله ربنا ورب آبائنا الأولين وإذا قيل في البشر رب كذا فإنما يضاف إلي غير المكلف⁴

6- قال تعالى { مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } يوسف 40 والسلطان هو الوحي المنزل من عند الله كما ذكر ذلك في غير موضع كقوله { أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ

¹الجواب الصحيح ج: 4 ص: 73

²مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 300

³مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 168

⁴بغية المرئاد ج: 1 ص: 377

سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ { الروم 35 } وقوله { مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ
{ الأعراف 71 } وقال ابن عباس كل سلطان في القرآن فهو الحجة ذكره البخارى فى صحيحه ¹

7- قال تعالى { مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ
الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } يوسف 40 و
الدين يتضمن معنى الخضوع والذل يقال دنته فدان أى ذلته فذل ويقال يدين الله ويدين الله أى يعبد
الله ويطيعه ويخضع له فدين الله عبادته وطاعته والخضوع له ²

8- قال تعالى { وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا ادْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي
السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ } يوسف 42 { ادْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ } يراد به السيد { فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ }
يراد به السيد ³

9- اللام تدخل على ما يتعدى بنفسه اذا ضعف عمله اما بتأخيره أو بكونه اسم فاعل أو مصدرًا أو
باجتماعهما فيقال فلان يعبد الله ويخافه ويتقيه ثم اذا ذكر باسم الفاعل قيل هو عابد لربه متق لربه
خائف لربه وكذلك تقول فلان يرهب الله ثم تقول هو راهب لربه واذا ذكرت الفعل واخرته تقويه
باللام كقوله { وَفِي نُسُخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ } الأعراف 154 وقد قال { فَايَّايَ
فَارْهَبُونَ } النحل 51 فعدها بنفسه وهناك ذكر اللام فان هنا قوله { فَايَّايَ } النحل 51 أتم من قوله فلى
وقوله هنا لك { لِرَبِّهِمْ } الأعراف 154 أتم من قوله ربهم فان الضمير المنفصل المنصوب أكمل من
ضمير الجر بالياء وهناك اسم ظاهر فتقويته باللام أولى وأتم من تجريده ومن هذا قوله { إِنْ كُنْتُمْ
لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ } يوسف 43 ويقال عبرت رؤياه ⁴

10- عند التقديم يجب الاعمال وفى التوسط يجوز الالغاء وفى التأخر يحسن مع جواز الاعمال فانه
اذا قدم المفعول ضعف العمل ولهذا يقوونه بدخول حرف الجر كما يقوونه فى اسم الفاعل لكونه
اضعف من الفعل كقوله { لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ } الأعراف 154 وقوله { إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ } يوسف 43
وقوله { وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ } الشعراء 55 ⁵

¹ مجموع الفتاوى ج: 9 ص: 42 و مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 316

² مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 152

³ الجواب الصحيح ج: 3 ص: 453

⁴ مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 291

⁵ مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 490

11- {وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ} يوسف 45 فتأويل الكلام الطلبي الأمر والنهي هو نفس فعل المأمور به وترك المنهي عنه كما قال سفيان بن عيينة السنة تأويل الأمر والنهي¹

¹درء التعارض ج: 1 ص: 206

يوسف 50-57

{وَقَالَ الْمَلِكُ انْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ
الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ}{50} قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَاوَدْتَنِّي يُوسُفَ عَنِ
نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا
رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ}{51} ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخْنُهِ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا
يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ}{52} وَمَا أُبْرِي نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ
رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ}{53} وَقَالَ الْمَلِكُ انْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُكَ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ
لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ}{54} قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ}{55} وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا
لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نَصِيبٌ بِرَحْمَتِنَا مِنْ نَشَاءٍ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ
الْمُحْسِنِينَ}{56} وَلَا جُرْ الْأَخْرَةَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ}{57}

يوسف ممن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى

وقال شيخ الإسلام رحمه الله بعد كلام بالذنب فيذكر مقامه بين فيدعه فكان يوسف ممن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ثم أن يوسف عليه الصلاة والسلام كان شابا عزبا اسيرا في بلاد العدو حيث لم يكن هناك أقارب أو أصدقاء فيستحي منهم إذا فعل فاحشة فإن كثيرا من الناس يمنعه من مواجهة القبائح حياؤه ممن يعرفه فإذا تغرب فعل ما يشتهيه وكان أيضا خليا لا يخاف مخلوقا فحكم النفس الأمارة لو كانت نفسه كذلك أن يكون هو المتعرض لها بل يكون هو المتحيل عليها كما جرت به عادة كثير ممن له غرض في نساء الأكابر إن لم يتمكن من الدعوة ابتداء فأمّا إذا دعي ولو كانت الداعية خدامة لكان أسرع مجيب فكيف إذا كانت الداعية سيدهته الحاكمة عليه التي يخاف الضرر بمخالفتها ثم أن زوجها الذي عادته أن يزجر المرأة لم يعاقبها بل أمر يوسف بالأعراض كما ينعر الديوث ثم إنها استعانت بالنساء وحبسته وهو يقول {قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ} يوسف 33 فاليتدبر اللبيب هذه الدواعي التي دعت يوسف إلى مادعته وأنه مع توفرها وقوتها ليس له عن ذلك صارف إذا فعل ذلك ولا من ينجيه من المخلوقين ليتبين له أن الذي ابتلى به يوسف كان من أعظم الأمور وإن تقواه وصبره عن المعصية حتى لا يفعلها مع ظلم الظالمين له حتى لا يجيبهم كان من أعظم الحسنات وأكبر الطاعات وإن نفس يوسف عليه الصلاة والسلام كانت من أزكى الأنفس فكيف أن يقول {وَمَا أُبْرِي نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ} يوسف 53 والله يعلم أن نفسه بريئة ليست أماراة بالسوء بل نفس زكية من أعظم النفوس زكاء والهم الذي وقع كان زيادة في زكاء نفسه وتقواها وبحصوله مع تركه لله لتثبت له به حسنة من أعظم الحسنات التي تزكى نفسه¹

¹(فيه نقص في بداية الموضوع اين الوجه الخامس وما قبله)

الوجه السادس أن قوله **{ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ} يوسف 52** إذا كان معناه على ما زعموه أن يوسف أراد أن يعلم العزيز أنني لم أخنه في امرأته على قوله أكثرهم أو ليعلم الملك أو ليعلم الله لم يكن هنا ما يشار إليه فإنه لم يتقدم من يوسف كلام يشير به إليه ولا تقدم أيضا ذكر عفاfe وإعتصامه فإن الذي ذكره النسوة قولين **{ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ } يوسف 51** وقول امرأة العزيز **{ أَنَا رَأَوْنَاهُ عَنْ نَفْسِهِ } يوسف 51** وهذا فيه بيان كذبها فيما قالتة أولا ليس فيه نفس فعله الذي فعله هو فقول القائل إن قوله ذلك من قول يوسف مع أنه لم يتقدم منه هنا قول ولا عمل لا يصلح بحال

الوجه السابع أن المعنى على هذا التقرير لو كان هنا ما يشار إليه من قول يوسف أو عمله إن عفتى عن الفاحشة كان ليعلم العزيز أنني لم أخنه ويوسف عليه الصلاة والسلام إنما تركها خوفا من الله ورجاء لثوابه ولعلمه بأن الله يراه لا لأجل مجرد علم مخلوق قال الله تعالى **{وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لَنَصْرَفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلِصِينَ} يوسف 24** فأخبر أنه رأى برهان ربه وأنه من عباده المخلصين ومن ترك المحرمات ليعلم المخلوق بذلك لم يكن هذا لأجل برهان من ربه ولم يكن بذلك مخلصا فهذا الذي أضافوه إلى يوسف إذا فعله أحد الناس لم يكن له ثواب من الله بل يكون ثوابه على من عمل لأجله فإن قيل فقد قال يوسف أولا **{ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ } يوسف 23** قيل إن كان مراده بذلك سيده فالمعنى أنه أحسن إلي وأكرمني فلا يحل لي أن أخونه في أهله فاني أكون ظالما ولا يفلح الظالم فترك خيانتة في أهله خوفا من الله لا ليعلم هو بذلك فإن قيل مراده تآتى إظهار برائتي ليعلم العزيز أنني لم أخنه بالغييب فالمعلل إظهار براءتة لا نفس عفاfe قيل لم يكن مراده بظهار براءتة مجرد علم واحد بل مراده علم الملك وغيره ولهذا قال للرسول **{ ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن } يوسف 50** ولو كان هذا من قول يوسف لقال ذلك ليعلموا أنني برىء وإني مظلوم ثم هذا لا يليق أن يذكر عن يوسف لأنه قد ظهرت براءتة وحصل مطلوبه فلا يحتاج أن يقول ذلك لتحصل ذلك وهم قد علموا أنه إنما تأخر لتظهر براءتة فلا يحتاج مثل هذا ان ينطق به

الوجه الثامن أن الناس عادتهم في مثل هذا يعرفون بما عملوه من لذلك عنده قدر وهذا يناسب لو كان العزيز غيورا وللعفة عنده جزاء كثير والعزيز قد ظهر عنه من قلة الغيرة وتمكين امرأته من حبسه مع الظالمين مع ظهور براءتة ما يقتضى أن مثل هذا ينبغي في عادة الطباع أن يقابل على ذلك بمواقعة أهله فإن النفس الأمانة تقول في مثل هذا هذا لم يعرف قدر إحسانى إليه وصونى لأهله وكف نفسي عن ذلك بل سلطها ومكنها فكثير من النفوس لو لم يكن في نفسها الفاحشة إذا رأت من حاله هذا تفعل الفاحشة أما نكاية فيه ومجازاة له على ظلمه وإما اهمالا له لعدم غيرته وظهور ديانتته ولا يصبر في مثل هذا المقام عن الفاحشة إلا من يعمل لله خائفا منه وراجيا لثوابه لا من يريد تعريف الخلق بعمله

الوجه التاسع أن الخيانة ضد الأمانة وهما من جنس الصدق والكذب ولهذا يقال الصادق الأمين ويقال الكاذب الخائن وهذا حال امرأة العزيز فإنها لو كذبت على يوسف في مغيبه وقالت روادنى لكانت كاذبة وخائنة فلما اعترفت بأنها هي المرادة كانت صادقة في هذا الخبر أمينة فيه ولهذا قالت **{وَأِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ} يوسف 51** فأخبرت بأنه صادق في تبرنته دونها فأما فعل الفاحشة فليس من باب الخيانة والأمانة ولكن هو باب الظلم والسوء والفحشاء كما وصفها الله بذلك في قوله تعالى عن يوسف **{ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ } يوسف 23** ولم يقل هنا الخائنين ثم قال تعالى

{ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ } يوسف 24 ولم يقل لنصرف عنه الخيانة فليتدبر اللبيب هذه الدقائق في متاب الله تعالى

الوجه العاشر أن في الكلام المحكى الذي أقره الله تعالى { **إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي** } يوسف 53 وهذا يدل على أنه ليس كل نفس أمارة بالسوء بل ما رحم ربي ليس فيه النفس الأمارة بالسوء وقد ذكر طائفة من الناس ان النفس لها ثلاثة أحوال تكون أمارة بالسوء ثم تكون لوامة أي تفعل الذنب ثم تلوم عليه أو تتلوم فتتردد بين الذنب والتوبة ثم تصير مطمئنة و المقصود هنا أن ما رحم ربي من النفوس ليست بأمارة وإذا كانت النفوس منقسمة إلى مرحومة وأمارة فقد علمنا قطعا ان نفس امرأة العزيز من النفوس الأمارة بالسوء لأنها أمرت بذلك مرة بعد مرة وراودت وافترت وإستعانت بالنسوة وسجنت وهذا من أعظم ما يكون من الأمر بالسوء وأما يوسف عليه الصلاة والسلام فإن لم تكن نفسه من النفوس المرحومة عن أن تكون أمارة فما في الأنفس مرحوم فإن من تدبر قصة يوسف علم أن الذي رحم به وصرف عنه من السوء والفحشاء من أعظم ما يكون ولولا ذلك لما ذكره الله في القرآن وجعله عبرة وما من أحد من الصالحين الكبار والصغار إلا ونفسه إذا ابتليت بمثل هذه الدواعي أبعد عن أن تكون مرحومة من نفس يوسف وعلى هذا التقدير فإن لم تكن نفس يوسف مرحومة فما في النفوس مرحومة فإذا كل النفوس أمارة بالسوء وهو خلاف ما في القرآن ولا يلتفت إلى الحكاية المذكورة عن سلم بن يسار أن اعرابية دعت إلى نفسها وهما في البادية فامتنع وبكى وجاء أخوه وهو يبكي فبكى وبكت المرأة وذهبت فنام فرأى يوسف في منامه وقال أنا يوسف الذي هممت وانت مسلم الذي لم تهتم فقد يظن من يسمع هذه الحكاية أن حال مسلم كان أكمل وهذا جهل لوجهين أحدهما أن مسلما لم يكن تحت حكم المرأة ولا لها عليه حكم ولا لها عليه قدرة أن تكذب عليه وتستعين بالنسوة وتحبسه وزوجها لا يعينه ولا أحد غير زوجها يعينه على العصمة بل مسلم لما بكى ذهبت تلك المرأة ولو إستعصمت لكان صراخه منها أو خوفا من الناس يصرفها عنه وأين هذا مما إبتلى به يوسف عليه الصلاة والسلام الثاني أن الهم من يوسف لما تركه الله كان له به حسنة ولا نقص عليه وثبت في الصحيحين من حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله رجل دعت امرأته ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله رب العالمين وهذا لمجرد الدعوة فيكيف بالمرأودة والإستعانة والحبس ومعلوم أنها كانت ذات منصب وقد ذكر أنها كانت ذات جمال وهذا هو الظاهر فإن امرأة عزيز مصر يشبه أن تكون جميلة وأما البدوية الداعية لمسلم فلا ريب أنها دون ذلك ورؤياه في المنام وقوله أنا يوسف الذي هممت وأنت مسلم الذي لم تهتم غايته أن يكون بمنزلة أن يقول ذلك له يوسف في اليقظة وإذا قال هذا كان هذا خيرا له ومدحا وثناء وتواضعا من يوسف وإذا تواضع الكبير مع من دونه لم تسقط منزلته

الوجه الحادي عشر أن هذا الكلام فيه مع الإعراف بالذنب الإعتذار بذكر سببه فإن قولها { **أَنَا رَأَوْتُهُ عَنِ نَفْسِي وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ** } يوسف 51 فيه إعراف بالذنب وقولها { **وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ** } يوسف 53 إشارة تطابق لقولها أنا روادته أي أنا مقرة بالذنب ما أنا مبرئة لنفسي ثم بينت السبب فقالت { **إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ** } يوسف 53 فنفسى من هذا الباب فلا ينكر صدور هذا مني ثم ذكرت ما يقضى طلب المغفرة والرحمة فقالت { **إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ** } يوسف 53 فإن قيل فهذا كلام من يقر بأن الزنا ذنب وأن الله قد يغفر لصاحبه قلت نعم والقرآن قد دل على ذلك حيث قال زوجها { **يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ** } يوسف 29 فأمره لها بالاستغفار لذنبها دليل أنه كانوا يرون ذلك ذنبا ويستغفرون منه وإن كانوا مع ذلك مشركين فقد كانت العرب مشركين وهم يحرمون الفواحش ويستغفرون الله منها حتى إن النبي لما بايع هند

بنت عتبة بن ربيعة بيعة النساء على أن لا تشرك بالله شيئاً ولا تسرق ولا تزنى قالت أو تزني الحرة وكان الزنا معروفا عندهم في الأماء ولهذا غلب على لغتهم أن يجعلوا الحرية في مقابلة الرق وأصل اللفظ هو العفة ولكن العفة عادة من ليست أمة بل قد ذكر البخاري في صحيحه عن أبي رجاء العطاردي أنه رأى في الجاهلية قرداً يزنى بقردة فاجتمعت القردة عليه حتى رجته وقد حدثني بعض الشيوخ الصادقين أنه رأى في جامع نوعاً من الطير قد باض فأخذ الناس بيضة وجاء ببيض جنس آخر من الطير فلما انفقس البيض خرجت الفراخ من غير جنس فجعل الذكر يطلب جنسه حتى اجتمع منهن عدد فما زالوا بالأنثى حتى قتلوها ومثل هذا معروف في عادة البهائم والفواحش مما اتفق أهل الأرض على استقباحتها وكرهاتها وأولئك القوم كانوا يقرون بالصانع مع شركهم ولهذا قال لهم يوسف { يَا صَاحِبِي السِّجْنُ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ {39} مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ {40} يوسف 39-40 الوجه الثاني عشر أن يقال إن الله سبحانه وتعالى لم يذكر عن نبي من الأنبياء ذنباً إلا ذكر توبته منه ولهذا كان الناس في عصمة الأنبياء على قولين أما أن يقولوا بالعصمة من فعلها وأما أن يقولوا بالعصمة من الإقرار عليها لا سيما فيما يتعلق بتبليغ الرسالة فإن الأمة متفقة على أن ذلك معصوم أن يقر فيه على خطأ فإن ذلك يناقض مقصد الرسالة ومدلول المعجزة وليس هذا موضع بسط الكلام في ذلك ولكن المقصود هنا أن الله لم يذكر في كتابه عن نبي من الأنبياء ذنباً إلا ذكر توبته منه كما ذكر في قصة آدم وموسى وداود وغيرهم من الأنبياء وبهذا يجب من ينصر قول الجمهور يقولون بالعصمة من الإقرار على من ينفي الذنوب مطلقاً فإن هؤلاء من أعظم حججهم ما اعتمده القاضي عياض وغيره حيث قالوا نحن مأمورون بالتأسي بهم في الأفعال وتجوز ذلك يقدح في التأسي فأجيبوا بأن التأسي إنما هو فيما اقروا عليه كما ان النسخ جائز فيما يبلغونه من الأمر والنهي وليس تجوز ذلك مانعاً من وجوب الطاعة لأن الطاعة تجب فيما لم ينسخ فعدم النسخ يقرر الحكم وعدم الإنكار يقرر الفعل والأصل عدم كل منهما ويوسف عليه الصلاة والسلام لم يذكر الله تعالى عنه في القرآن أنه فعل مع المرأة ما يتوب منه أو يستغفر منه أصلاً وقد اتفق الناس على أنه لم تقع منه الفاحشة ولكن بعض الناس يذكر أنه وقع منه بعض مقدماتها مثل ما يذكرون أنه حل السراويل وقعد منها قعد الخاتن ونحو هذا وما ينقلون في ذلك ليس هو عن النبي ولا مستند له فيه إلا النقل عن بعض أهل الكتاب وقد عرف كلام اليهود في الأنبياء ورضهم منه كما قالوا في سليمان ما قالوا وفي داود ما قالوا فلو لم يكن معنا ما يرد نقلهم لم نصدقهم فيما لم نعلم صدقهم فيه فكيف نصدقهم فيما قد دل القرآن على خلافه والقرآن قد أخبر عن يوسف من الاستعصام والتقوى والصبر في هذه القضية ما لم يذكر عن أحد نظيره فلو كان يوسف قد أذنب لكان إما مصراً وإما تائباً والإصرار منتع فتعين أن يكون تائباً والله لم يذكر عنه توبة في هذا ولا استغفار كما ذكر عن غيره من الأنبياء فدل ذلك على أن ما فعله يوسف كان من الحسنات المبرورة والمساعي المشكورة كما أخبر الله عنه بقوله تعالى { إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } يوسف 90 وإذا كان الأمر في يوسف كذلك كان ما ذكر من قوله { إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي } يوسف 53 إنما يناسب حال امرأة العزيز لا يناسب حال يوسف فاضافة الذنوب إلى يوسف في هذه القضية فرية على الكتاب والرسول وفيه تحريف للكلم عن مواضعه وفيه الإغتياب لنبي كريم وقول الباطل فيه بلا دليل ونسبته إلى ما نزهه الله عنه وغير مستبد أن يكون أصل هذا من اليهود أهل البهت الذين كانوا يرمون موسى بما برأه الله منه فكيف بغيره من الأنبياء وقد تلقى نقلهم من أحسن به الظن وجعل تفسير القرآن تابعا لهذا الإعتقاد وأعلم أن المنحرفين في مسألة العصمة على طرفي نقيض كلامها خالف لكتاب الله من

بعض الوجوه قوم افراطوا في دعوى إمتناع الذنوب حتى حرفوا نصوص القرآن المخبرة بما وقع منهم من التوبة من الذنوب ومغفرة الله لهم ورفع درجاتهم بذلك وقوم افراطوا في أن ذكروا عنهم مادل القرآن على براءتهم وأضافوا إليهم للقرآن ومن اتبع القرآن على ما هو عليه من غير تحريف كان من الأمة الوسط مهتديا إلى الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدقيين والشهداء والصالحين قال النبي اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون وقد ثبت في الصحيح عن النبي أنه قال لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه قالوا يا رسول الله اليهود والنصارى قال فمن وفى الحديث الآخر الذي في الصحيح لتأخذن أمتي مأخذ الأمم قبلها شبرا بشبر وذراعا بذراع قالوا يا رسول الله فرس والروم قال ومن الناس إلا هؤلاء ولا ريب أنه صار عند كثير من الناس من علم أهل الكتاب ومن فارس والروم ما أدخلوه في علم المسلمين ودينهم وهم لا يشعرون كما دخل كثير من أقوال المشركين من أهل الهند واليونان وغيرهم والمجوس والفرس والصابئين من اليونان وغيرهم في كثير من المتأخرين لا سيما في جنس المتفلسفة والمتكلمة ودخل كثير من أقوال أهل الكتاب اليهود والنصارى في طائفة هم أمثل من هؤلاء إذ أهل الكتاب كانوا خيرا من غيرهم ولما فتح المسلمون البلاد كانت الشام ومصر ونحوها مملوءة من أهل الكتاب النصارى واليهود فكانوا يحدثونهم عن أهل الكتاب بما بعضه حق وبعضه باطل فكان من أكثرهم حديثا عن أهل الكتاب كعب الأحماس وقد قال معاوية رضي الله عنه ما رأينا في هؤلاء الذين يحدثونا عن أهل الكتاب أصدق من كعب وإن كنا لنبلوا عليه الكذب أحيانا ومعلوم أن عامة ما عند كعب ان ينقل ما وجد في كتبهم ولو نقل ناقل ما وجد في الكتب عن نبينا صلى الله عليه وسلم لكان فيه كذب كثير فكيف بما كتب أهل الكتاب مع طول المدة وتبديل الدين وفرق أهله وكثرة أهل الباطل فيه وهذا باب ينبغي للمسلم أن يعتني به وينظر ما كان عليه أصحاب رسول الله الذين هم أعلم الناس بما جاء به وأعلم الناس بما يخالف ذلك من دين أهل الكتاب والمشركين والمجوس والصابئين فإن هذا أصل عظيم ولهذا قال الأئمة كأحمد بن حنبل وغيره أصول السنة هي التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ومن تأمل هذا الباب وجد كثيرا من البدع أحدثت بآثار أصلها عنهم مثل ما يروى في فضائل بقاع في الشام من الجبال والغيران ومقامات الأنبياء ونحو ذلك مثل ما يذكر في جبل قاسيون ومقامات الأنبياء التي فيه وما في إتيان ذلك من الفضيلة حتى إن بعض المفترين من الشيوخ جعل زيارة مغارة فيه ثلاث مرات تعدل حجة ويسمونها مقامات الأنبياء والآثار التي تروى في ذلك لا تصل إلى الصحابة وإنما هي عن دونهم ممن أخذها عن أهل الكتاب والافلو كان لهذا أصل لكان هذا عند أكابر الصحابة الذين قدموا الشام مثل بلال بن رباح ومعاذ بن جبل وعبادة بن الصامت بل ومثل أبي عبيدة بن الجرح أمين الأمة وأمثالهم فقد دخل الشام من أكابر الصحابة أفضل ممن دخل بقية الأمصار غير الحجاز فلم ينقل عن أحد منهم اتباع شيء من آثار الأنبياء لا مقابرهم ولا مقاماتهم فلم يتخذوها مساجد ولا كانوا يتحرون الصلاة فيها والدعاء عندها بل قد ثبت عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان في سفر فرأى قوما ينتابون مكانا يصلون فيه فقال ما هذا قالوا صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم أتريدون أن تتخذوا آثار أنبيائكم مساجد إنما هلك من كان قبلكم بهذا من أدركته الصلاة فيه فليصل وإلا فليمض ولما دخل البيت المقدس وأراد أن يبني مصلى المسلمين قال لكعب أين أبنيه قال أبنه خلف الصخرة قال خالطتك يهودية يا ابن اليهودية بل أبنيه أمامها ولهذا كان عبدالله بن عمر إذا دخل بيت المقدس صلى في قلبه ولم يذهب إلى الصخرة وكانوا يكذبون ما ينقله كعب إن الله قال لها أنت عرشي الأدنى ويقولون من وسع كرسيه السموات والأرض كيف تكون الصخرة عرشه الأدنى ولم تكن الصحابة يعظمونها وقالوا إنما بنى القبة عليها عبدالملك بن مروان لما كان محاربا

لابن الزبير وكان الناس يذهبون إلى الحج فيجتمعون به عظم الصخرة ليشتغلوا بزيارتها عن جهة ابن الزبير وإلا فلا موجب في شريعتنا لتعظيم الصخرة وبناء القبة عليها وسترها بالانطاع والجوخ ولو كان هذا من شريعتنا لكان عمر وعثمان ومعاوية رضي الله عنهم أحق بذلك ممن بعدهم فإن هؤلاء أصحاب رسول الله وأعلم بسنته واتباع لها ممن بعدهم وكذلك الصحابة لم يكونوا ينتابون قبر الخليل بل ولا فتحوه بل ولا بنوا على قبر أحد من الأنبياء مسجدا فإنهم كانوا يعلمون أن النبي قال أن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك ولما ظهر قبر دانيال بتستر كتب فيه أبو موسى إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فكتب إليه عمر إذا كان بالنهار فاحفر ثلاثة عشر قبراً ثم أدفنه بالليل في واحد منها وعفر قبره لئلا يفتتن به الناس وقد تأملت الآثار التي تروى في قصد هذه المقامات والدعاء عندها أو الصلاة فلم أجد لها عن الصحابة أصلاً بل أصلها عن أخذ عن أهل الكتاب فمن أصول الإسلام أن تميز ما بعث الله به محمداً من الكتاب والحكمة ولا تخلطه بغيره ولا تلبس الحق بالباطل كفعل أهل الكتاب فإن الله سبحانه أكمل لنا الدين وأتم علينا النعمة ورضي لنا الإسلام ديناً وقد قال صلى الله عليه وسلم تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك وقال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه خط لنا رسول الله خطأ وخط خطوطاً عن يمينه وشماله ثم قال هذا سبيل الله وهذه السبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ثم قرأ قوله تعالى {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ} {الأنعام: 153} وجماع ذلك بحفظ أصليين أحدهما تحقيق ما جاء به الرسول فلا يخلط بما ليس منه من المنقولات الضعيفة والتفسيرات الباطلة بل يعطى حقه من معرفة نقله ودلالته والثاني أن لا يعارض ذلك بالشبهات لا رأياً ولا رواية قال الله تعالى فيما يأمر به بنى إسرائيل وهو لنا {وَأْمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَٰئِكَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَسْتُرُوا بِآيَاتِي تَمَنَّا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونَ} {41} وَلَا تَلْبَسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} {42} البقرة 41-42 فلا يكتم الحق الذي جاء به الرسول ولا يلبس بغيره من الباطل ولا يعارض بغيره قال الله تعالى {اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ} {الأعراف: 3} وقال تعالى {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ} {الأنعام: 93} وهؤلاء الأقسام الثلاثة هم أعداء الرسل فإن أحدهم إذا أتى بما يخالفه إما ان يقول إن الله أنزله علي فيكون قد افتري على الله أو يقول أوحى إليه ولم يسم من أوحاه أو يقول أنا انشأته وأنا أنزل مثل ما أنزل الله فأما ان يضيفه إلى الله أو إلى نفسه أو لا يضيفه إلى أحد وهذه الأقسام هم من شياطين الإنس والجن الذين {يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا} {الأنعام: 112} قال الله تعالى {وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا} {30} وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا} {31} الفرقان 30-31 والله أعلم والحمد لله¹

الإشراك لا يكون إلا من مقر بالله

¹مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 138-152

والإشراك لا يكون إلا من مقر بالله وإلا فالجاحد له لم يشرك به قيل لم يذكر الله جحود الصانع إلا عن فرعون موسى وأما الذين كانوا في زمن يوسف فالقرآن يدل على أنهم كانوا مقرين بالله وهم مشركون به ولهذا كان خطاب يوسف للملك وللعزيز ولهم يتضمن الإقرار بوجود الصانع كقوله { أَرَبَابٌ مُتَّفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ } يوسف 39 { ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ ۗ } يوسف 50 الى قوله { إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِمْ عَلِيمٌ } يوسف 50 { ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ } يوسف 52 الى قوله { وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ } يوسف 53¹

الاسماء مختصة بالله اذا اضيفت اليه لا يشركه فيها غيره

سمى الله نفسه باسماء وسمى صفاته بأسماء وكانت تلك الاسماء مختصة به اذا اضيفت اليه لا يشركه فيها غيره وسمى بعض مخلوقاته بأسماء مختصة بهم مضافة اليهم توافق تلك الاسماء اذا قطعت عن الاضافة والتخصيص ولم يلزم من اتفاق الاسمين وتمائل مساهما واتحاده عند الاطلاق والتجريد عن الاضافة والتخصيص اتفاقهما ولا تمائل المسمى عند الاضافة والتخصيص فضلا عن ان يتحد مساهما عند الاضافة والتخصيص فقد سمي الله نفسه حيا فقال { اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ } البقرة 255 وسمى بعض عباده حيا فقال { يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ } الروم 19 وليس هذا الحي مثل هذا الحي لأن قوله الحي إسم لله مختص به وقوله { يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ } الروم 19 اسم للحي المخلوق مختص به وإنما يتفقان اذا اطلقا وجردا عن التخصيص ولكن ليس للمطلق مسمى موجود في الخارج ولكن العقل يفهم من المطلق قدرا مشتركا بين المسميين وعند الاختصاص يقيد ذلك بما يتميز به الخالق عن المخلوق والمخلوق عن الخالق ولا بد من هذا في جميع أسماء الله وصفاته يفهم منها ما دل عليه الاسم بالمواطأة والاتفاق وما دل عليه بالإضافة والاختصاص المانعة من مشاركة المخلوق للخالق في شيء من خصائصه سبحانه وتعالى وكذلك سمي الله نفسه بالعزیز فقال { الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ } الحشر 23 وسمى بعض عباده بالعزیز فقال { قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ } يوسف 51 وليس العزيز كالعزیز وكذلك سمي الله نفسه بالملك فقال { يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ } الجمعة 1 وسمى بعض عباده بالملك فقال { وَقَالَ الْمَلِكِ انْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ } يوسف 54 وليس الملك كالملك وكذلك سمي صفاته بأسماء وسمى صفات عباده بنظير ذلك فوصف نفسه بالتكليم في قوله { وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا } النساء 164 ووصف عبده بالتكليم في قوله { وَقَالَ الْمَلِكِ انْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ } يوسف 54 وليس التكليم كالتكليم²

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 634

²مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 14-12

إن الله لا يهدي كيد الخائنين

ولفظ الخيانة حيث استعمل لا يستعمل إلا فيما خفي عن المخون كالذي يخون أمانته فيخون من اتئمنه إذا كان لا يشاهده و لو شاهده لما خانته قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } الأنفال 27 و قال تعالى { وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ } المائدة 13 و قالت امرأة العزيز { ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ } يوسف 52 و قال تعالى { يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ } غافر 19 و قال النبي صلى الله عليه وسلم لما قام أما فيكم رجل يقوم الى هذا فيضرب عنقه فقال له رجل هلا أو مضت إلي فقال ما ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين قال تعالى { وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَانًا أَثِيمًا } {107} { يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ } {108} النساء 107-108 و في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب و إذا وعد أخلف و اذا أؤتمن خان و في حديث آخر على كل خلق يطبع المؤمن إلا الخيانة و الكذب و مثل هذا كثير¹

(فيه نقص بالبداية) وإن كانوا كاذبين فإن الله لا يهدي كيد الخائنين { ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ } يوسف 52²

{ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ }

قال تعالى { وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ } يوسف 53 و ذلك أن الجنيد رضي الله عنه ذكر أن التوحيد قول القلب فأضاف القول إلى القلب وهذا مما لا نزاع فيه أن القول والحديث ونحوهما مع التقييد يضاف إلى النفس والقلب كما في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل وقد قال تعالى { إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ } يوسف 53 و قال ابو الدرداء ليحذر أحدكم أن تلغنه قلوب المؤمنين وهو لا يشعر وقال الحسن البصري ما زال أهل العلم يوعدون بالتذكر على التفكير وبالتفكر على التذكر ويناطقون القلوب حتى نطقت فإذا لها أسماع وأبصار فنطقت بالعلم وأورثت الحكمة فوصف القلب والنفس بأنه يقول ويأمر ويتحدث وينطق ونحو ذلك يستعمل مع التقييد باتفاق المسلمين³

¹مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 447

²السياسة الشرعية ج: 1 ص: 58

³الاستقامة ج: 1 ص: 210

الامر والنهي من لوازم وجود بنى آدم

معقولا في الإنسان أنه يكون أمرا مأمورا كقوله { **إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ** } يوسف 53 وقوله { **وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ** } النازعات 40 مع أن العبد له أمر وناه فوجه¹

وكل بشر على وجه الأرض فلا بد له من أمر ونهي ولا بد أن يأمر وينهى حتى لو أنه وحده لكان يأمر نفسه وينهاها اما بمعروف واما بمنكر كما قال تعالى { **إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ** } يوسف 53 فان الأمر هو طلب الفعل واراادته والنهي طلب الترك واراادته ولا بد لكل حى من ارادة وطلب فى نفسه يقتضى بهما فعل نفسه ويقتضى بهما فعل غيره اذا أمكن ذلك فان الانسان حى يتحرك بارادته وبنوا آدم لا يعيشون الا باجتماع بعضهم مع بعض واذ اجتمع اثنان فصاعدا فلا بد أن يكون بينهما ائتمار بأمر وتناه عن أمر ولهذا كان أقل الجماعة فى الصلاة اثنين كما قيل الاثنان فما فوقهما جماعة لكن لما كان ذلك اشتراكا فى مجرد الصلاة حصل باثنين أحدهما إمام والآخر مأموم كما قال النبى لمالك بن الحويرث وصاحبه اذا حضرت الصلاة فاذنا وأقيما وليؤمكما اكبركما وكانا متقاربين فى القراءة وأما الأمور العادية فى السنن انه قال لا يحل لثلاثة يكونون فى سفر الا أمروا عليهم أحدهم وإذا كان الأمر والنهي من لوازم وجود بنى آدم فمن لم يأمر بالمعروف الذى أمر الله به ورسوله وينه عن المنكر الذى نهى الله عنه ورسوله ويؤمر بالمعروف الذى أمر الله به ورسوله وينه عن المنكر الذى نهى الله عنه ورسوله والا فلا بد أن يأمر وينهى ويؤمر وينهى اما بما يصاد ذلك واما بما يشترك فيه الحق الذى أنزل الله بالباطل الذى لم ينزله الله واذا اتخذ ذلك دينا كان دينا مبتدعا وهذا كما أن كل بشر فانه متحرك بارادته همام حارث فمن لم تكن نيته سالحة وعمله عملا سالحا لوجه الله والا كان عملا فاسدا أو لغير وجه الله وهو الباطل كما قال تعالى { **إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى** } الليل 4 وهذه الأعمال كلها باطلة من جنس أعمال الكفار²

الرد على قول المفسرين ان يوسف قال { وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي }

وقوله قال تعالى { **وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ** } يوسف 53 فمن كلام امرأة العزيز كما يدل القرآن على ذلك دلالة بيينة لا يرتاب فيها من تدبر القرآن حيث قال تعالى { **وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْنِسِي بِيهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ** } 50 { **قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَاوَدْتَنِّي يُوسُفَ عَنِ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ** } 51 { **ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ** } 52 { **وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ** } يوسف 53-50

¹الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 413

²الاستقامة ج: 2 ص: 292 و مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 169

فهذا كله كلام امرأة العزيز ويوسف إذ ذاك في السجن لم يحضر بعد إلى الملك ولا سمع كلامه ولا رآه ولكن لما ظهرت براءته في غيبته كما قالت امرأة العزيز {ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ} يوسف 53 أي لم أخنه في حال مغيبه عني وإن كنت في حال شهودته راودته فحينئذ {وَقَالَ الْمَلِكُ انْتُونِي بِهِ اسْتَخْلَصْنَاهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ} يوسف 54 وقد قال كثير من المفسرين إن هذا من كلام يوسف ومنهم من لم يذكر إلا هذا القول وهو قول في غاية الفساد ولا دليل عليه بل الأدلة تدل على نقيضه وقد بسط الكلام على هذه الأمور في غير هذا الموضع¹

الولاية لها ركنان القوة والأمانة

وقال النبي صلى الله عليه وسلم إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم أخرجاه في الصحيحين لكن إن كان منه عجز ولا حاجة إليه أو خيانة عوقب على ذلك وينبغي أن يعرف الأصلح في كل منصب فان الولاية لها ركنان القوة والأمانة كما قال تعالى {إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ} القصص 26 وقال صاحب مصر ليوسف عليه السلام {إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ} يوسف 54 وقال تعالى في صفة جبريل { إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ {19} ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ {20} } مُطَاعٌ ثُمَّ أَمِينٌ {21} التكوير 19-21 والقوة في كل ولاية بحسبها فالقوة في إمارة الحرب ترجع إلى شجاعة القلب وإلى الخبرة بالحروب والمخادعة فيها فان الحرب خدعة والى القدرة على انواع القتال من رمى وطعن وضرب وركوب وكر وفر ونحو ذلك كما قال الله تعالى {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِّن قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ} الأنفال 60 وقال النبي ارموا واركبوا وان ترموا أحب إلى من ان تركبوا ومن تعلم الرمي ثم نسيه فليس منا وفي رواية فهي نعمة جدها رواه مسلم والقوة في الحكم بين الناس ترجع إلى العلم بالعدل الذي دل عليه الكتاب والسنة والى القدرة على تنفيذ الأحكام والأمانة ترجع إلى خشية الله وألا يشتري بآياته ثمنا قليلا وترك خشية الناس وهذه الخصال الثلاث التي اخذها الله على كل من حكم على الناس في قوله تعالى {فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَخَشَوْنَ اللَّهَ وَآيَاتِي ثُمَّ لَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} المائدة 44 ولهذا قال النبي القضاة ثلاثة قاضيان في النار وقاض في الجنة فرجل علم الحق وقضى بخلافة فهو في النار ورجل قضى بين الناس على جهل فهو في النار ورجل علم الحق وقضى به فهو في الجنة رواه أهل السنن والقاضى اسم لكل من قضى بين اثنين وحكم بينهما سواء كان خليفة او سلطانا او نائبا او واليا او كان منصوبا ليقضى بالشرع او نائبا له حتى من يحكم بين الصبيان في الخطوط إذا تخايروا هكذا ذكر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ظاهر فصل اجتماع القوة والأمانة في الناس قليل ولهذا كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول اللهم اشكو اليك جلد الفاجر وعجز الثقة فالواجب في كل ولاية الأصلح بحسبها فاذا تعين رجلان أحدهما أعظم أمانة والآخر اعظم قوة قدم أنفعهما لتلك الولاية وأقلهما

ضررا فيها فيقدم في إمارة الحروب الرجل القوى الشجاع وان كان فيه فجور على الرجل الضعيف العاجز وإن كان أمينا كما سئل الامام أحمد عن الرجلين يكونان أميرين في الغزو واحدهما قوى فاجر والآخر صالح ضعيف مع ايهما يغزى فقال أما الفاجر القوى فقوته للمسلمين وفجورة على نفسه وأما الصالح الضعيف فصلاحه لنفسه وضعفه على المسلمين فيغزى مع القوى الفاجر وقد قال النبي إن

¹دقائق التفسير ج: 2 ص: 273

الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وروى بأقوام لا خلاق لهم وان لم يكن فاجرا كان أولى بامارة الحرب ممن هو أصلح منه في الدين إذا لم يسد مسده ولهذا كان النبي يستعمل خالد بن الوليد على الحرب منذ أسلم وقال ان خالدا سيف سله الله على المشركين مع انه أحيانا قد كان يعمل ما ينكره النبي حتى إنه مرة قام ثم رفع يديه الى السماء وقال اللهم إني أبرأ إليك مما فعل خالد لما ارسله إلى بني جذيمة فقتلهم واخذ اموالهم بنوع شبهة ولم يكن يجوز ذلك وانكره عليه بعض من معه من الصحابة حتى وداهم النبي صلى الله عليه وسلم وضمن اموالهم ومع هذا فما زال يقدمه في إمارة الحرب لأنه كان اصلح في هذا الباب من غيره وفعل ما فعل بنوع تأويل

وكان ابو ذر رضى الله عنه اصلح منه في الأمانة والصدق ومع هذا فقال له النبي يا أبا ذر انى اراك ضعيفا وانى احب لك ما احب لنفسى لا تأمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم رواه مسلم نهى ابا ذر عن الامارة والولاية لأنه رآه ضعيفا مع انه قد روى ما اظلت الخضراء ولا اقلت الغبراء اصدق لهجة من ابى ذر¹

أتى الله سبحانه الملك لبعض الكفار كما آتاه لبعض الأنبياء

فإنه سبحانه قد أتى الملك لمن آتاه من الأنبياء كما قال في داود { وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ } البقرة 251 وقال تعالى { أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا } النساء 54 وقال تعالى { وَقَالَ الْمَلِكُ **أَتُونِي بِهِ** } يوسف 54 وقال { وَكَانَ وِرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا } الكهف 79 وقال تعالى { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ } البقرة 258 فقد أتى الملك لبعض الكفار كما آتاه لبعض الأنبياء²

الواجب انما هو فعل المقدور

يجب على كل ولى أمر ان يستعين بأهل الصدق والعدل واذا تعذر ذلك استعان بالامثل فالامثل وإن كان فيه كذب وظلم فان الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خلاق لهم والواجب انما هو فعل المقدور وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم أو عمر ابن الخطاب من قلد رجلا على عصابة وهو يجد فى تلك العصابة من هو أَرْضَى لله منه فقد خان الله وخان رسوله وخان المؤمنين فالواجب انما هو الارضى من الموجود والغالب انه لا يوجد كامل فيفعل خير الخيرين ويدفع شر الشرير

¹مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 253-256 والسياسة الشرعية ج: 1 ص: 15

²منهاج السنة النبوية ج: 1 ص: 132

ولهذا كان عمر بن الخطاب يقول اشكوا إليكم جلد الفاجر وعجز الثقة وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يفرحون بانتصار الروم والنصارى على المجوس وكلاهما كافر لأن أحد الصنفين أقرب إلى الإسلام وأنزل الله في ذلك سورة الروم لما اقتتل الروم وفارس والقصة مشهورة وكذلك يوسف كان نائباً لفرعون مصر وهو وقومه مشركون وفعل من العدل والخير ما قدر عليه ودعاهم إلى الإيمان بحسب الإمكان¹

يدفع أعظم المفسدتين بإحتمال أدناهما

وفي صحيح مسلم عن عمران ابن حصين حديث المرأة التي لعنت ناقة لها فأمر النبي صلى الله عليه وسلم فأخذ ما عليها وأرسلت وقال لا تصحبنا ناقة ملعونة وفي الصحيحين عنه أنه لما اجتاز بديار ثمود قال لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم لئلا يصيبكم ما أصابهم فنهى عن عبور ديارهم إلا على وجه الخوف المانع من العذاب وهكذا السنة في مقارنة الظالمين والزناة وأهل البدع والفجور وسائر المعاصي لا ينبغي لأحد أن يقارنهم ولا يخالطهم إلا على وجه يسلم به من عذاب الله عز وجل وأقل ذلك أن يكون منكراً لظلمهم ماقتاً لهم شأننا ما هم فيه بحسب الإمكان كما في الحديث من رأى منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الإيمان وقال تعالى { وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةٌ فِرْعَوْنَ } التحريم 11 الآية وكذلك ما ذكره عن يوسف الصديق وعمله على خزائن الأرض لصاحب مصر لقوم كفار وذلك ان مقارنة الفجار إنما يفعلها المؤمن في موضعين أحدهما أن يكون مكرهاً عليها والثاني أن يكون ذلك في مصلحة دينية راجحة على مفسدة المقارنة أو أن يكون في تركها مفسدة راجحة في دينه فيدفع أعظم المفسدتين بإحتمال أدناهما وتحصل المصلحة الراجحة بإحتمال المفسدة المرجوحة وفي الحقيقة فالمكره هو من يدفع الفساد الحاصل بإحتمال أدناهما وهو الأمر الذي أكره عليه قال تعالى { إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ } النحل 106²

قول يوسف عليه السلام لربه { اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ } يوسف 55 فلما سأل الولاية للمصلحة الدينية لم يكن هذا مناقضاً للتوكل ولا هو من سؤال الإمارة المنهي عنه³

علق السعادة بالإيمان والتقوى

¹مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 68

²مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 325

³مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 105

وقد علق السعادة بالإيمان والتقوى في عدة مواضع كقوله عن يوسف **{وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } 56** **وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ {57}**¹

أجر الآخرة خير للمؤمنين المتقين

وقال ان الريح من روح الله وانها تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب فلا تسبوا ولكن سلوا الله من خيرها وتعودوا بالله من شرها فأخبر انها تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب وأمر أن نسأل الله من خيرها ونعوذ بالله من شرها فهذه السنة في أسباب الخير والشر ان يفعل العبد عند اسباب الخير الظاهرة والأعمال الصالحة ما يجلب الله به الخير وعند اسباب الشر الظاهرة من العبادات ما يدفع الله به عنه الشر فأما ما يخفى من الاسباب فليس العبد مأمور بان يتكلف معرفته بل اذا فعل ما أمر به وترك ما حظر كفاه الله مؤنة الشر ويسر له اسباب الخير { وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا } 2 { وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا } 3 { الطلاق 2-3 } وقد قال تعالى فيمن يتعاطى السحر لجلب منافع الدنيا { وَأَتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ } البقرة 101 الى قوله { وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } البقرة 102 فأخبر سبحانه ان من اعراض بذلك يعلم انه لا نصيب له في الآخرة وانما يرجو بزعمه نفعه في الدنيا كما يرجون بما يفعلونه من السحر المتعلق بالكواكب وغيرها مثل الرياسة والمال ثم قال { وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ } البقرة 103 فبين ان الايمان والتقوى هو خير لهما في الدنيا والآخرة قال تعالى { أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } 62 { الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ } 63 { لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } 64 { يونس 62-64 } وقال في قصة يوسف **{وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } 56** **وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ {57}** {يوسف 56-57} فأخبر ان أجر الآخرة خير للمؤمنين المتقين مما يعطون في الدنيا من الملك والمال كما أعطي يوسف وقد أخبر سبحانه بسوء عاقبة من ترك الايمان والتقوى في غير آية في الدنيا والآخرة ولهذا قال تعالى { وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى } طه 69 والمفلس الذي ينال المطلوب وينجو من المرهوب فالساحر لا يحصل له ذلك²

فقال تعالى { وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ } البقرة 103 فأخبر أن أولياءه الذين آمنوا وكانوا يتقون ينبتهم على أن في ذلك ما هو خير لهم مما طلبوه في الدنيا لو كانوا يعلمون فيحصل لهم في الآخرة من الخير الذي هو المنفعة ودفع المضرة ما هو أعظم مما يحصلوه

¹ عقيدة الفرقة الناجية ج: 1 ص: 9

² مجموع الفتاوى ج: 35 ص: 170 و الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 400

بذلك من خير الدنيا كما قال تعالى {وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} يوسف 56 ثم قال {وَلَا جُرْ الْآخِرَةَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} يوسف 57 وقال تعالى {وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} {147} فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} {148} آل عمران 148 وقال عن إبراهيم {وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ} النحل 122¹

سينات المصائب والجزاء من سينات الأعمال وان الطاعة سبب النعمة

ومن المعلوم بما أرانا الله من آياته في الآفاق وفي انفسنا وبما شهد به في كتابه أن المعاصي سبب المصائب فسينات المصائب والجزاء من سينات الأعمال وان الطاعة سبب النعمة فاحسان العمل سبب لاحسان الله قال تعالى {مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ} النساء 79 وقال {وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ} الشورى 48 وقد أخبر سبحانه بما عاقب به أهل السيئات من الأمم كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين وقوم فرعون في الدنيا وأخبر بما يعاقبهم به في الآخرة ولهذا قال مؤمن آل فرعون {يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ} {30} مِثْلَ ذَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ} {31} وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ} {32} يَوْمَ تُؤَلَوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} {33} غافر 30-33 وقال تعالى {كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} القلم 33 وقال {سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ} التوبة 101 وقال {وَلَنذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} السجدة 21 وقال {فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ} الدخان 10 الى قوله {يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ} الدخان 16 ولهذا يذكر الله في عامة سور الانذار ما عاقب به أهل السيئات في الدنيا وما أعده لهم في الآخرة وقد يذكر في السورة وعد الآخرة فقط اذ عذاب الآخرة أعظم وثوابها أعظم وهي دار القرار وانما يذكر ما يذكره من الثواب والعذاب في الدنيا تبعا كقوله في قصة يوسف {وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} {56} وَلَا جُرْ الْآخِرَةَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} {57} يوسف 56-57²

قال أحمد الهم همان هم خطرات وهم إصرار ولهذا كان الذي دل عليه القرآن أن يوسف لم يكن له في هذه القضية ذنب أصلا بل صرف الله عنه السوء والفحشاء أنه من عباده المخلصين مع ما حصل من المرادة والكذب والإستعانة عليه بالنسوة وحبسه وغير ذلك من الأسباب التي لا يكاد بشر يصبر معها عن الفاحشة ولكن يوسف اتقى الله وصبر فأتاه الله برحمته في الدنيا {وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي

¹قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 186

²مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 139 و الاستقامة ج: 2 ص: 236

الأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ {56} وَلَا أَجْرَ
الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ {57} يوسف 56- 57¹

الإحسان يجمع كمال الإخلاص لله ويجمع الإتيان بالفعل الحسن

قال تعالى {وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا
نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ {56} وَلَا أَجْرَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ {57} يوسف 56- 57
وأما الإحسان فقوله أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك قد قيل أن الإحسان
هو الإخلاص والتحقيق أن الإحسان يتناول الإخلاص وغيره والإحسان يجمع كمال الإخلاص لله
ويجمع الإتيان بالفعل الحسن الذي يحبه الله قال تعالى {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ
عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ {البقرة 112} وقال تعالى {وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ
وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا {النساء 125} فذكر إحسان
الدين أولاً ثم ذكر الإحسان ثانياً²

والإحسان ضد الإساءة وهو فعل الحسن سواء كان لازماً لصاحبه أو متعدياً إلى الغير³

خلق الله سبحانه الخلق لدار القرار

وإذا كانت اللذة مطلوبة لنفسها فهي إنما تدم إذا اعقبت الما اعظم منها أو منعت لذة خيراً منها
وتحمد إذا اعانت على اللذة المستقرة وهو نعيم الآخرة التي هي دائمة عظيمة كقوله تعالى {وَكَذَلِكَ
مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ
الْمُحْسِنِينَ {56} وَلَا أَجْرَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ {57} يوسف 56 57} والله سبحانه
إنما خلق الخلق لدار القرار وهي الجنة والنار فأما الدار الدنيا فمنقطعة لذاتها لا تصفوا ولا تدوم أبداً
بخلاف الآخرة فإن لذاتها ونعيمها صاف من الكدر دائم غير منقطع ليس فيها حزن ولا نصب ولا
لغوب واهل الجنة لا يبولون ولا يتغوطون ولا يبصقون ولا يمتخطون بل فيها ما تشتهي النفس وتلذ
الاعين⁴

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 528

²مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 622

³مجموع الفتاوى ج: 30 ص: 370

⁴الاستقامة ج: 2 ص: 151

المظلوم المحسود إذا صبر و إتقى الله كانت له العاقبة

الأعمال هي سبب في الثواب والعقاب فلو قال قائل إن الله أخرج آدم من الجنة بلا ذنب و أنه قدر ذلك أو قال إنه غفر لآدم بلا توبة و إنه علم ذلك كان هذا كذبا و بهتاناً بخلاف ما إذا قال { قَتَلْتَنِي آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ } البقرة 37 { فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوَاتُهُمَا وَ طَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ } طه 121 فإنه يكون صادقا في ذلك والله سبحانه علم ما يكون من آدم قبل أن يكون وهو عالم به بعد أن كان وكذلك كل ما أخبر به من قصص الأنبياء فإنه علم أنه أهلك نوح و عاد و ثمود و فرعون و لوط و مدين و غيرهم بذنوبهم و أنه نجي الأنبياء و من إتبعهم بإيمانهم و تقواهم كما قال { فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَدَابِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَانُوا يُفْسِقُونَ } الأعراف 165 وقال { فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَعْرَفْنَا وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } العنكبوت 40¹

قال تعالى { وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } 56 { وَلَا جُزْءَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ } 57 يوسف 56-57
أدل الله الذين ظلموه ثم تابوا فكان فيها من العبرة أن المظلوم المحسود إذا صبر و إتقى الله كانت له العاقبة و أن الظالم الحاسد قد يتوب الله عليه و يعفو عنه و أن المظلوم ينبغي له العفو عن ظالمه إذا قدر عليه²

قد يعطف على الايمان بعض أنواعه الرفيعة

قال تعالى { وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } 56 { وَلَا جُزْءَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ } 57 يوسف 56-57
و أما إذا استعمل اسم الإيمان مقيدا كما في قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ } البقرة 277 وقوله { الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ } يونس 63 وقول النبي صلى الله عليه وسلم الإيمان أن تؤمن بالله و ملائكته و كتبه و رسله و البعث بعد الموت و نحو ذلك فهنا قد يقال إنه متناول لذلك و ان عطف ذلك عليه من باب عطف الخاص على العام كقوله تعالى { وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ } البقرة 98 وقوله { وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ } الأحزاب 7 وقد يقال أن دلالة الاسم تنوعت بالافراد و أجمع كلفظ الفقير و المسكين فان أحدهما إذا أفرد تناول الآخر و إذا جمع بينهما كانا صنفين كما في آية الصدقة ولا ريب أن فروع الإيمان مع أصوله كالمعطوفين وهي مع جميعه كالبعض مع الكل و من هذا

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 278-279

²مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 23

الموضع نشأ نزاع وإشتباه هل الأعمال داخلة في الإيمان أم لا لكونها عطف على ومن هذا الباب قد يعطف على الإيمان بعض شعبه العالية أو بعض أنواعه الرفيعة كاليقين والعلم ونحو ذلك فيشعر العطف بالمغايرة فيقال هذا أرفع الإيمان أي اليقين والعلم أرفع من المؤمن الذي ليس معه هذا اليقين والعلم كما قال الله تعالى { يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } المجادلة 11 ومعلوم أن الناس يتفاضلون في نفس الإيمان والتصديق في قوته وضعفه وفي عمومته وخصوصه وفي بقائه ودوامه وفي موجبه ونقيضه وغير ذلك من أموره فيخص أحد نوعيه بإسم يفضل به على النوع الآخر ويبقى إسم الإيمان في مثل ذلك متناولا للقسم الآخر وكذلك يفعل في نظائر ذلك كما يقال الإنسان خير من الحيوان والإنسان خير من الدواب وان كان الإنسان يدخل في الدواب في قوله { إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ } الأنفال 22 فإذا عرف هذا فحيث وجد في كلام مقبول تفضيل شيء على الإيمان فانما هو تفضيل نوع خاص على عمومته أو تفضيل بعض شعبه العالية على غيره¹

لطائف لغوية

1- قال تعالى { وَقَالَ الْمَلِكُ انْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ } يوسف 50 عليم منزله عن الجهل²

2- قال تعالى { قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنِ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتْ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ } 51 { ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ } 52 { يوسف 51-52 عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك لفظ الهدى إذا أطلق تناول العلم الذي بعث الله به رسوله والعمل به جميعا فيدخل فيه كل ما أمر الله به كما في قوله { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } الفاتحة 6 والمراد طلب العلم بالحق والعمل به جميعا وكذلك قوله { هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ } البقرة 2 والمراد به أنهم يعلمون ما فيه ويعملون به ولهذا صاروا مفلحين وكذلك قول أهل الجنة { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا } الأعراف 43 وانما هداهم بأن ألهمهم العلم النافع والعمل الصالح ثم قد يقرن الهدى اما بالاجتناب كما في قوله { وَاجْتَنِبْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } الأنعام 87 وكما في قوله { شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتِنَابًا وَهَدَاهُ } النحل 121 { اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ } الشورى 13 وكذلك قوله تعالى { هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ } التوبة 33 والهدى هنا هو الإيمان ودين الحق هو الاسلام واذا أطلق الهدى كان كالإيمان المطلق يدخل فيه هذا وهذا³

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 648

²الجواب الصحيح ج: 4 ص: 407

³مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 166

3- قال تعالى { وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } {56} وَلَا جُرْ الْآخِرَةَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ } {57} يوسف 56 57
ورحمته اسم جامع لكل خير ودار الرحمة الخالصة هي الجنة¹

4- لفظ الإصابة قد يقال أصابه بخير وأصابه بشر قال تعالى { وَإِنْ يُرِيدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ } يونس 107 وقال تعالى { فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ } الروم 48 وقال تعالى { وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ } يوسف 56 وقد قال تعالى أيضا { أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَا لَهُمْ لَوْ لَأَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا } {78} مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ } {79} النساء 78- 79²

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 65

²مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 45

يوسف 58-68

{ وَجَاءَ إِخْوَةَ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ } {58} **وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ إِنَّنِي بِأَخٍ لَكُمْ مِّنْ أَيْكُمُ الْأَتْرُونَ أَنَّى أُوْفَى الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ } {59}**
فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ } {60} **قَالُوا سَنَرَاوُدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ } {61}** **وَقَالَ لَفَتْيَانَهُ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } {62}** **فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نُّكَتِلُ وَإِنَّا لَهُ لِحَافِظُونَ } {63}** **قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمَنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ قَالَ اللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ } {64}** **وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانًا وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ } {65}** **قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ } {66}** **وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةً وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ مِّنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ } {67}** **وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِّنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لُدُوْا عَلِمَ لَمَّا عَلِمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } {68}**

الله سبحانه أرحم الراحمين

فاعتقاد الفرقة الناجية المنصورة الى قيام الساعة أهل السنة والجماعة وهو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والايمان بالقدر خيره وشره ومن الايمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكليف ولا تمثيل بل يؤمنون بأن الله سبحانه ليس كمثل شئ وهو السميع البصير فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يلحدون في أسماء الله وآياته ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه لأنه سبحانه لا سمى له ولا كفو له ولا ند له ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى فإنه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلاً وأحسن حديثاً من خلقه ثم رسله صادقون مصدوقون بخلاف الذين يقولون عليه مالا يعلمون ولهذا قال سبحانه وتعالى {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ} {180} **وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ} {181}** **وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} {182}** الصافات 180- 182 فسبح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسول وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون فإنه الصراط المستقيم صراط الذين انعم الله عليهم من النبيين والصدقيين والشهداء والصالحين وقد دخل في هذه الجملة ما وصف به نفسه في سورة الإخلاص التي تعدل ثلث القرآن وقوله سبحانه **{قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمَنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ قَالَ اللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ } يوسف 64**¹

¹مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 132 و العقيدة الواسطية ج: 1 ص: 10

وهو أرحم الراحمين وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها كما اقسام على ذلك النبي فقال والله الله أرحم بعباده من هذه الوالدة بولدها¹

النذر وعد مؤكد

قال تعالى { وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِن آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ } {75} فَلَمَّا آتَاهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ } {76} فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ } {77} التوبة 75-77 فان كونه في الصالحين واجب والصدقة المفروضة واجبة وقد روى انها هي المنذورة وهذا نص في انه يجب بالنذر ما كان واجبا بالشرع فإذا تركه عوقب لاختلاف الوعد الذي هو النذر فان النذر وعد مؤكد هكذا نقل عن العرب وهذه الآية تسمى النذر وعدا وقوله { قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ } يوسف 66 ورده الى ابيه كان واجبا عليهم بلا موثق²

التوكل لله وحده لا شريك له

ومن تحقيق التوحيد ان يعلم أن الله تعالى أثبت له حقا لا يشركه فيه مخلوق كالعبادة والتوكل والخوف والخشية والتقوى كما قال تعالى في التوكل { **إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ** } يوسف 67³

فالتوكل فله وحده لا شريك له كما قال { **إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ** } يوسف 67⁴

¹مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 400

²مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 651

³مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 107

⁴مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 69

وقد أمر الله بالتوكل في غير آية أعظم مما أمر بالوضوء والغسل من الجنابة ونهى عن التوكل على غير الله قال تعالى { فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ } هود 123 وقال تعالى { **إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ** } يوسف 67¹

التوكل المأمور به ما يجتمع فيه مقتضى التوحيد والعقل والشرع

القسم المحمود وهو حال الذين حققوا إياك نعبد وإياك نستعين وقوله هود فاعبده وتوكل عليه فاستعانوا به على طاعته وشهدوا أنه إلههم الذي لا يجوز أن يعبدوا إلا إياه وطاعة رسوله وأنه ربهم الذي ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع وأنه { مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } فاطر 2 ولهذا قال طائفة من العلماء الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقص في العقل والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع وإنما التوكل المأمور به ما يجتمع فيه مقتضى التوحيد والعقل والشرع فقد بين أن من ظن التوكل من مقامات عامة اهل الطريق فقد غلط غلطا شديدا وإن كان من أعيان المشايخ كصاحب علل المقامات وهو من أجل المشايخ وأخذ ذلك عنه صاحب محاسن المجالس وأظهر ضعف حجته فمن قال ذلك قال إن المطلوب به حظ العامة فقط وظنه أنه لا فائدة له في تحصيل المقصود وهذه حال من جعل الدعاء كذلك وذلك بمنزلة من جعل الأعمال المأمور بها كذلك كمن اشتغل بالتوكل عما يجب عليه من الأسباب التي هي عبادة الله وطاعة مأمور بها فإن غلط هذا من ترك الأسباب المأمور بها التي هي داخله في قوله هود فاعبده وتوكل عليه كغلط الأول في ترك التوكل المأمور به الذي هو داخل في قوله فاعبده وتوكل عليه لكن يقال من كان توكله على الله ودعاؤه له هو في حصول مباحات فهو من العامة وإن كان في حصول مستحبات وواجبات فهو من الخاصة كما أن من دعاه وتوكل عليه في حصول محرمات فهو ظالم لنفسه ومن أعرض عن التوكل فهو عاص لله ورسوله بل خارج عن حقيقة الإيمان فكيف يكون هذا المقام للخاصة قال الله تعالى { **وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ** } يوسف 67²

قول يعقوب عليه السلام { لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ } لم يناقض توكله

أن قول يعقوب عليه السلام { **لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ** } يوسف 67 لم يناقض توكله بل قال { **وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ** } يوسف 67³

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 16

²أمراض القلوب ج: 1 ص: 52

³مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 105

"إذا سألت فاسئل الله وإذا استعنت فاستعن بالله"

وتوحيد الله وإخلاص الدين له فى عبادته وإستعانتة فى القرآن كثير جدا بل هو قلب الإيمان وأول الإسلام وآخره كما قال النبى صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وقال إنى لأعلم كلمة لا يقولها عند الموت أحد إلا وجد روحه لها روحا وقال من كان آخر كلامه لا إله إلا الله وجبت له الجنة وهو قلب الدين والإيمان وسائر الأعمال كالجوارح له وقول النبى إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرى ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه فبين بهذا أن النية عمل القلب وهى أصل العمل وإخلاص الدين لله وعبادة الله وحده ومتابعة الرسول فيما جاء به هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وهو دين الإسلام العام الذى بعث الله به جميع الرسل كما قال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنْ اْعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} النحل 36 وقال النبى لمعاذ بن جبل يا معاذ أتدرى ما حق الله على عباده قلت الله ورسوله أعلم قال حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك أن لا يعذبهم وقال لابن عباس إذا سألت فاسئل الله وإذا استعنت فاستعن بالله وقال تعالى {وَمَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِّنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ} يوسف 67¹

فلا خالق إلا الله ولا رب إلا الله ولا يجيب المضطرين ويرزق العباد إلا الله فهو الذى يعطى ويمنع ويخفف ويرفع ويعز ويذل وهو الذى يستحق أن يستعان به ويتوكل عليه ويستعاض به ويلتجىء العباد إليه فإنه لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع ولا ينفع ذا الجد منه الجد كما قال تعالى فى فاتحة الكتاب {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} الفاتحة 5 فالعباد لا ينبغى أن يرجى الا الله ولا ينبغى لهم أن يتوكلوا الا على الله كما قال تعالى {وَمَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِّنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ} يوسف 67²

الفرق بين أمر الله الدينى وخلق الكونى

إن الله سبحانه قد فرق بالقرآن وبالإيمان بين أمره الدينى وخلق الكونى فإن الله سبحانه خالق كل شىء ورب كل شىء ومليكه سواء فى ذلك الذوات وصفاتها وأفعالها وما شاء الله كان وما لم يشأ لم

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 72

²مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 489

يكن لا يخرج عن مشيئته شيء ولا يكون شيء الا بمشيئته وقد فرق الله في كتابه بين القسمين بين من قام بكلماته الكونيات وبين من اتبع كلماته الدينيات وذلك في أمره وإرادته وقضائه وحكمه وإذنه وبعثه وارساله فقال في الحكم الديني { أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ } المائدة 50 وقال في الحكم الكوني { فَلَنْ أُبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْتَنِّي لِئَبي أَوْ يُحْكَمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ } يوسف 80 وبهذا الجمع والتفريق تزول الشبهة في مسألة الأمر الشرعي هل هو مستلزم للإرادة الكونية أم لا فان التحقيق أنه غير مستلزم للإرادة الكونية القدرية وإن كان مستلزما للإرادة الدينية الشرعية وقد يجمع الحكمين مثل ما في قوله { **إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ** } يوسف 67¹

لطائف لغوية

1- أن جميع الأفعال مشتقة سواء كانت هي مشتقة من المصدر أو كان المصدر مشتقا منها أو كان كل واحد منهما مشتقا من الآخر بمعنى أن بينهما مناسبة في اللفظ والمعنى لا بمعنى أن أحدهما أصل والآخر فرع بمنزلة المعاني المتضايقة كالأبوة والبنوة أو كالأخوة من الجانبين ونحو ذلك فعلى كل حال إذا أمر بفعل كان نفس مصدر الفعل أمرا مطلوباً للأمر مقصوداً له كما في قوله { **عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ** } يوسف 67 وفي قوله { **وَاتَّقُوا اللَّهَ** } البقرة 189 وفي قوله { **وَأَحْسِنُوا** } المائدة 93 وفي قوله { **فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ** } التغابن 8 وفي قوله { **أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا** } نوح 3 فإن نفس التقوى والإحسان والإيمان والعبادة والتوكل أمور مطلوبة مقصودة بل هي نفس المأمور به²

يوسف 69-87

{ **وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** } 69 { **فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رِجْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذِنَ مُؤَدِّنٌ أَيُّهَا الْعَبْرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ** } 70 { **قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ** } 71 { **قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلَمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ** } 72 { **قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ** } 73 { **قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ** } 74 { **قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رِجْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ** } 75 { **فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ** } 76 { **قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ** } 77 { **قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ** } 78

¹مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 413

²اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 51

قَالَ مَعَادَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا تَطَلَّمُونَ {79} فَلَمَّا اسْتَيْسَأُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ آبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْتَقًا مِّنَ اللَّهِ وَمَنْ قَبْلَ مَا فَرَطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ {80} ارْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ {81} وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ {82} قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبِرْ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ {83} وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِبيضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ {84} قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذَكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ {85} قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ {86} يَا بَنِي إِدْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُؤُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَبْئِسُ مِنَ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ {87}

الظلم أمر نسبي إضافي

أن الظلم أمر نسبي إضافي فمن أمر غيره أن يقتل شخصا فقتله هذا القاتل من غير جرم يعلمه كان ظلما وإن كان ذلك الأمر إنما أمره به لكونه قد قتل أباه والمأمور لم يفعله لذلك فلو فعله بطريق النيابة لم يكن ظلما فإن كان له معه غرض فقتله ظلما ولكن الأمر كان مستحقا لقتله وكذلك من أمر غيره بما هو كذب من المأمور كأمر يوسف للمؤذن أن يقول { **أَيُّهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ** } { **يوسف 70** } يوسف عليه السلام قصد إنكم لسارقون يوسف من أبيه وهو صادق في هذا والمأمور قصد إنكم لسارقون الصواع وهو يظن أنهم سرقوه فلم يكن متعمدا للكذب وإن كان خبره كذبا ¹

حكم ضمان السوق

وسئل رحمه الله عن يكتب ضمان الأسواق و غيرها من الكتابة التي لا تجوز في الشرع هل علي الكاتب إثم فانه يكتب و يشهد على من حضر بما يرضى فان كان لا يجوز فان الكتاب لا يخلون من ذلك فهل ياثمون بذلك أم لا فأجاب ضمان السوق و هو أن يضمن الضامن ما يجب على التاجر من الديون و ما يقبضه من الأعيان المضمونة ضمان صحيح و هو ضمان ما لم يجب و ضمان المجهول و ذلك جائز عند جمهور العلماء كمالك و أبي حنيفة و أحمد بن حنبل و قد دل عليه الكتاب كقوله { **وَلَمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ** } { **يوسف 72** } و الشافعي يبطله فيجوز للكاتب و الشاهد أن يكتبه و يشهد عليه و لو لم ير جوازه لأنه من مسائل الاجتهاد و ولي الأمر يحكم بما يراه من القولين ²

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 451

²مجموع الفتاوى ج: 29 ص: 549

جحود الصانع لم يكن ديناً غالباً على أمة من الأمم قط

والإشراك لا يكون إلا من مقر بالله وإلا فالجاحد له لم يشرك به قيل لم يذكر الله جحود الصانع إلا عن فرعون موسى وأما الذين كانوا في زمن يوسف فالقرآن يدل على أنهم كانوا مقرين بالله وهم مشركون به ولهذا كان خطاب يوسف للملك وللعزيز ولهم يتضمن الإقرار بوجود الصانع كقوله { أَرَبَابٌ مُتَّفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ } يوسف 39 { ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النَّسُوتِ } يوسف 50 الى قوله { إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ } يوسف 50 { وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ } يوسف 52 الى قوله { وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ } يوسف 53 وقد قال مؤمن آل حم { وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا } غافر 34 فهذا يقتضي أن أولئك الذين بعث اليهم يوسف كانوا يقرون بالله ولهذا كان اخوة يوسف يخاطبونه قبل أن يعرفوا أنه يوسف ويظنونه من آل فرعون بخطاب يقتضي الاقرار بالصانع كقولهم { تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ } يوسف 73 وقال لهم { أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ } يوسف 77 وقال { قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ } يوسف 79 وقالوا له { يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلْنَا الضَّرَّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ } يوسف 88 وذلك أن فرعون الذي كان في زمن يوسف أكرم أبويه وأهل بيته لما قدموا إكراما عظيما مع علمه بدينهم وإستقراء أحوال الناس يدل على ذلك فإن جحود الصانع لم يكن ديناً غالباً على أمة من الأمم قط وإنما كان دين الكفار الخارجين عن الرسالة هو الإشراك وإنما كان يجحد الصانع بعض الناس وأولئك كان علماءهم من الفلاسفة الصابئة المشركين الذين يعظمون الهياكل والكواكب والأصنام والابخار المروية من نقل أخبارهم وسيرهم كلها تدل على ذلك ولكن فرعون موسى { فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَّاعُوهُ } الزخرف 54 وهو الذي قال لهم دون الفراعنة المتقدمين { مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي } القصص 38 ثم قال لهم بعد ذلك { أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى } { 24 } فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْأَخْرَةِ وَالْأُولَى } { 25 } النازعات 25 نكال الكلمة الأولى ونكال الكلمة الأخيرة وكان فرعون في الباطن عارفا بوجود الصانع وإنما إستكبر كإبليس وأنكر وجوده ولهذا قال له موسى { لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَائِرٍ } الإسراء 102 فلما أنكر الصانع وكانت له آلهة يعبدها بقي على عبادتها ولم يصفه الله تعالى بالشرك وإنما وصفه بجحود الصانع وعبادة آلهة اخرى والمنكر للصانع منهم مستكبر كثيرا ما يعبد آلهة ولا يعبد الله قط فانه يقول هذا العالم واجب الوجود بنفسه وبعض أجزائه مؤثر في بعض ويقول إنما إنتفع بعبادة الكواكب والأصنام ونحو ذلك¹

العقل يفهم من المطلق قدرا مشتركا بين المسميين وعند الاختصاص يقيد ذلك

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 630-631

سمى الله نفسه باسماء وسمى صفاته بأسماء وكانت تلك الاسماء مختصة به اذا اضيفت اليه لا يشركه فيها غيره وسمى بعض مخلوقاته بأسماء مختصة بهم مضافة اليهم توافق تلك الاسماء اذا قطعت عن الاضافة والتخصيص ولم يلزم من اتفاق الاسمين وتمائل مساهما واتحاده عند الاطلاق والتجريد عن الاضافة والتخصيص اتفاقهما ولا تماثل المسمى عند الاضافة والتخصيص فضلا عن ان يتحد مساهما عند الاضافة والتخصيص فقد سمي الله نفسه حيا فقال {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} البقرة 255 وسمى بعض عباده حيا فقال {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ} الروم 19 وليس هذا الحي مثل هذا الحي لأن قوله الحي إسم لله مختص به وقوله {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ} الروم 19 اسم للحي المخلوق مختص به وإنما يتفقان اذا اطلقا وجردا عن التخصيص ولكن ليس للمطلق مسمى موجود في الخارج ولكن العقل يفهم من المطلق قدرا مشتركا بين المسميين وعند الاختصاص يقيد ذلك بما يتميز به الخالق عن المخلوق والمخلوق عن الخالق ولا بد من هذا في جميع أسماء الله وصفاته يفهم منها ما دل عليه الاسم بالمواطأة والاتفاق وما دل عليه بالإضافة والاختصاص المانعة من مشاركة المخلوق للخالق في شيء من خصائصه سبحانه وتعالى وكذلك سمي صفاته بأسماء وسمى صفات عباده بنظير ذلك فقال {وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ} البقرة 255 أنزله بعلمه وسمى صفة المخلوق علما فقال {وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ} يوسف 176

تقسيم اللغة الى حقيقة ومجاز تقسيم مبتدع محدث

وكذلك ما ادعوا أنه مجاز في القرآن كلفظ المكر و الاستهزاء و السخرية المضاف الى الله وزعموا أنه مسمى باسم ما يقابله على طريق المجاز وليس كذلك بل مسميات هذه الأسماء اذا فعلت بمن لا يستحق العقوبة كانت ظلما له وأما اذا فعلت بمن فعلها بالمجنى عليه عقوبة له بمثل فعله كانت عدلا كما قال تعالى {كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ} يوسف 76 فكاد له كما كادت اخوته لما قال له أبوه {لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا} يوسف 5 وقال تعالى {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا} 15 {وَأَكِيدُ كَيْدًا} 16 {الطارق 15-16} وقال تعالى {وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} 50 {فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ} 51 {النمل 50} فلا مجاز في القرآن بل وتقسيم اللغة الى حقيقة ومجاز تقسيم مبتدع محدث لم ينطق به السلف والخلف فيه على قولين وليس النزاع فيه لفظيا بل يقال نفس هذا التقسيم باطل لا يتميز هذا عن هذا ولهذا كان كل ما يذكرونه من الفروق تبين أنها فروق باطلة وكلما ذكر بعضهم فرقا أبطله الثاني²

وقوله {وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ} الأنفال 30 وقوله {اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ} البقرة 15 واما الاستهزاء والمكر بان يظهر الانسان الخير والمراد شر فهذا اذا كان على وجه جحد الحق وظلم الخلق فهو ذنب

¹مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 13

²مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 111-113

محرم واما اذا كان جزاء على من فعل ذلك بمثل فعله كان عدلا حسنا قال الله تعالى { وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ } {14} { اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ } {15} البقرة 14-15 فان الجزاء من جنس العمل وقال تعالى { وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا } النمل 50 كما قال { إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا } {15} { وَأَكِيدُ كَيْدًا } {16} الطارق 15-16 وقال { كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ } يوسف 76 وكذلك جزاء المعتدى بمثل فعله فان الجزاء من جنس العمل وهذا من العدل الحسن وهو مكر وكيد اذا كان يظهر له خلاف ما يبطن¹

الدين هو التعاهد والتعاقد

الدين هو التعاهد والتعاقد وإذا كان كذلك فالأمور التي يحتاجون إليها يحتاجون أن يوجبوها علي أنفسهم والأمور التي تضرهم يحتاجون أن يحرموها علي نفوسهم وذلك دينهم وذلك لا يكون إلا باتفاقهم علي ذلك وهو التعاهد والتعاقد ولهذا جاء في الحديث لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له فهذا هو من الدين المشترك بين جميع بني آدم من التزام واجبات ومحرمات وهو الوفاء والعهد وهذا قد يكون باطلا فاسدا إذا كان فيه مضرة لهم راجحة علي منفعته وقد يكون دين حق إذا كانت منفعة خاصة أو راجحة كما قال تعالى { قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ } {1} { لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ } {2} { وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ } {3} { وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ } {4} { وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ } {5} { لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ } {6} الكافرون 1-6 وقال تعالى { مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ } يوسف 76²

وقد قص الله سبحانه قصة فرعون في غير موضع من القرآن وكان هو وقومه على دين لهم من دين الملوك كما قال تعالى في قصة يوسف { مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ } يوسف 76 وهذا الملك كان فرعون يوسف وكان قبل فرعون موسى وفرعون اسم لمن يملك مصر من القبط وهو اسم جنس كقيصر وكسري والنجاشي ونحو ذلك³

رفع الدرجات والأقدار على قدر معاملة القلوب بالعلم والإيمان

وقوله تعالى { يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ } المجادلة 11 خص سبحانه رفعه بالأقدار والدرجات الذين أوتوا العلم والإيمان وهم الذين إستشهد بهم في قوله تعالى { شَهِدَ اللَّهُ

¹مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 471

²قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 36

³قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 46

أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ { آل عمران 18 } وأخبر أنهم هم الذين يرون ما أنزل إلى الرسول هو الحق بقوله تعالى { وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ {سبأ 6} فدل على أن تعلم الحجة والقيام بها يرفع درجات من يرفعها كما قال تعالى { تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ {يوسف 76} قال زيد بن أسلم بالعلم فرفع الدرجات والأقدار على قدر معاملة القلوب بالعلم والإيمان فكم ممن يختم القرآن في اليوم مرة أو مرتين وآخر لا ينام الليل وآخر لا يفطر وغيرهم أقل عبادة منهم وأرفع قدرا في قلوب الأمة فهذا كرز بن وبرة وكهمس وابن طارق يختمون القرآن في الشهر تسعين مرة وحال ابن المسيب وابن سيرين والحسن وغيرهم في القلوب أرفع وكذلك ترى كثيرا ممن لبس الصوف ويهجر الشهوات ويتقشف وغيره ممن لا يدانيه في ذلك من أهل العلم والإيمان أعظم في القلوب وأحلى عند النفوس وما ذاك إلا لقوة المعاملة الباطنة وصفائها وخلوصها من شهوات النفوس وأكدار البشرية وطهارتها من القلوب التي تكدر معاملة أولئك وإنما نالوا ذلك بقوة يقينهم بما جاء به الرسول وكمال تصديقه في قلوبهم ووده ومحبته وأن يكون الدين كله لله فإن أرفع درجات القلوب فرحها التام بما جاء به الرسول وإبتهاجها وسرورها كما قال تعالى { وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ {الرعد 36} وقال تعالى { قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا {يونس 58} الآية فضل الله ورحمته القرآن والإيمان من فرح به فقد فرح بأعظم مفروح به ومن فرح بغيره فقد ظلم نفسه ووضع الفرح في غير موضعه فإذا استقر في القلب وتمكن فيه العلم بكفايته لعبده ورحمته له وحلمه عنده وبره به وإحسانه إليه على الدوام أوجب له الفرح والسرور أعظم من فرح كل محب بكل محبوب سواه فلا يزال مترقيا في درجات العلو والإرتفاع بحسب رقيه في هذه المعارف هذا في باب معرفة الأسماء والصفات وأما في باب فهم القرآن فهو دائم التفكير في معانيه والتدبر لألفاظه وإستغنائه بمعاني القرآن وحكمه عن غيره من كلام الناس وإذا سمع شيئا من كلام الناس وعلومهم عرضه على القرآن فإن شهد له بالتركية قبله وإلا رده وإن لم يشهد له بقبول ولا رد وقفه وهمته عاكفة على مراد ربه من كلامه ولا يجعل همته فيما حجب به أكثر الناس من العلوم عن حقائق القرآن إما بالوسوسة في خروج حروفه وترقيقها وتفخيمها وإمالتها والنطق بالمد الطويل والقصير والمتوسط وغير ذلك فإن هذا حائل للقلوب قاطع لها عن فهم مراد الرب من كلامه وكذلك شغل النطق ب أنذرتهم وضم الميم من عليهم ووصلها بالواو وكسر الهاء أو ضمها ونحو ذلك وكذلك مراعاة النغم وتحسين الصوت وكذلك تتبع وجوه الإعراب واستخراج التأويلات المستكرهة التي هي بالألغاز والأحاجي أشبه منها بالبيان وكذلك صرف الذهن إلى حكاية أقوال الناس ونتائج أفكارهم وكذلك تأويل القرآن على قول من قلده دينه أو مذهبه فهو يتعسف بكل طريق حتى يجعل القرآن تبعا لمذهبه وتقوية لقول إمامه كل محجوبون بما لديهم عن فهم مراد الله من كلامه في كثير من ذلك أو أكثره وكذلك يظن من لم يقدر القرآن حق قدره أنه غير كاف في معرفة التوحيد والأسماء والصفات وما يجب لله وينزه عنه بل الكافي في ذلك عقول الحيارى والمتهوكين الذين كل منهم قد خالف صريح القرآن مخالفة ظاهرة وهؤلاء أغلظ الناس حجابا عن فهم كتاب الله تعالى والله سبحانه وتعالى أعلم¹

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 48-51

فإذا أريد بالخطأ الاثم فليس المجتهد بمخطيء بل كل مجتهد مصيب مطيع لله فاعل ما أمره الله به وإذا أريد به عدم العلم بالحق في نفس الأمر فالمصيب واحد وله أجران كما في المجتهدين في جهة الكعبة إذا صلوا إلى أربع جهات فالذي أصاب الكعبة واحد وله أجران لاجتهاده وعمله كان أكمل من غيره والمؤمن القوي أحب إلى الله من المؤمن الضعيف ومن زاده الله علما وعملا زاده أجرا بما زاده من العلم والعمل قال تعالى { وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءِ } الأنعام 83 قال مالك عن زيد بن أسلم بالعلم وكذلك قال في قصة يوسف { مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءِ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ } يوسف 76¹

صنفان إذا صلحوا صلح الناس العلماء و الأمراء

قال تعالى { وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءِ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ } الأنعام 83 وقال تعالى { كَذَلِكَ كَدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءِ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ } يوسف 76 ذكر الله أنه يرفع درجات من يشاء في قصة مناظرة إبراهيم و في قصة احتيال يوسف و لهذا قال السلف بالعلم فان سياق الآيات يدل عليه فقصة إبراهيم في العلم بالحجة و المناظرة لدفع ضرر الخصم عن الدين و قصة يوسف في العلم بالسياسة و التدبير لتحصل منفعة المطلوب فالأول علم بما يدفع المضار في الدين و الثاني علم بما يجلب المنافع أو يقال الأول هو العلم الذي يدفع المضرة عن الدين و يجلب منفعته و الثاني علم بما يدفع المضرة عن الدنيا و يجلب منفعتها أو يقال قصة إبراهيم في علم الأقوال النافعة عند الحاجة إليها و قصة يوسف في علم الأفعال النافعة عند الحاجة إليها فالحاجة جلب المنفعة و دفع المضرة قد تكون إلى القول و قد تكون إلى الفعل ولهذا كان المقصرون عن علم الحجج و الدلالات و علم السياسة و الامارات مقهورين مع هذين الصنفين تارة بالاحتياج إليهم إذا هجم عدو يفسد الدين بالجدل او الدنيا بالظلم و تارة بالاحتياج إليهم اذا هجم على أنفسهم من أنفسهم ذلك و تارة بالاحتياج إليهم لتخليص بعضهم من شر بعض في الدين و الدنيا و تارة يعيشون في ظلهم في مكان ليس فيه مبتدع يستطيل عليهم ولا وال يظلمهم و ما ذاك إلا لوجود علماء الحجج الدامغة لأهل البدع و السياسة الدافعة للظلم و لهذا قيل صنفان إذا صلحوا صلح الناس العلماء و الأمراء و كما أن المنفعة فيهما فالمضرة منهما فان البدع و الظلم لا تكون إلا فيهما أهل الرياسة العلمية و أهل الرياسة القدرية و لهذا قال طائفة من السلف كالثوري و ابن عيينة و غيرهما ما معناه أن من نجا من فتنة البدع و فتنة السلطان فقد نجا من الشر كله و قد بسطت القول في هذا في الصراط المستقيم عند قوله { فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ } التوبة 69²

يجيء الوصف في القرآن مستعملا في الكذب

¹مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 124

²مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 493

فالواصف ان لم يكن قوله مطابقا كان كاذبا ولهذا انما يجيء الوصف في القرآن مستعملا في الكذب بأنه وصف يقوم بالواصف من غير أن يقوم بالموصوف شيء كقوله سبحانه { سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ } الأنعام 139 { وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لَتَنفَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُلْحِقُونَ } النحل 116 { **وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ** } يوسف 77 { سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ } الأنعام 100 وقد جاء مستعملا في الصدق فيما أخرجاه في الصحيحين عن عائشة أن رجلا كان يكثر قراءة قل هو الله أحد فقال النبي سلوه لم يفعل ذلك فقال لأنها صفة الرحمن فأنا أحبها فقال النبي صلى الله عليه وسلم أخبروه ان الله يحبه¹

الفرق بين الحكم الديني والحكم الكوني

الله سبحانه قد بين في كتابه في كل واحدة من الكلمات و الامر والارادة و الاذن و الكتاب و الحكم و القضاء و التحريم ونحو ذلك ما هو ديني موافق لمحبة الله ورضاه وامره الشرعي وما هو كوني موافق لمشيئته الكونية²

إن الله سبحانه قد فرق بالقرآن وبالإيمان بين أمره الديني وخلق الكوني فإن الله سبحانه خالق كل شيء ورب كل شيء ومليكه سواء في ذلك الذوات وصفاتها وأفعالها وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن لا يخرج عن مشيئته شيء ولا يكون شيء الا بمشيئته وقد فرق الله في كتابه بين القسمين بين من قام بكلماته الكونيات وبين من اتبع كلماته الدينيات وذلك في أمره وإرادته وقضائه وحكمه وإذنه وبعثه وارساله فقال في الحكم الديني { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُنْتَلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحْلِي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ } المائدة 1 وقال في الحكم الكوني { **فَلَنْ أُبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكَمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ** } يوسف 80 وقال تعالى { قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ } الأنبياء 112 وبهذا الجمع والتفريق تزول الشبهة في مسألة الأمر الشرعي هل هو مستلزم للإرادة الكونية أم لا فان التحقيق أنه غير مستلزم للإرادة الكونية القدرية وإن كان مستلزمًا للإرادة الدينية الشرعية³

الاستيناس ليس هو الاياس

¹مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 319

²مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 39 و أمراض القلوب ج: 1 ص: 47

³مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 413

{قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} {78} قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ} {79} فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْتِيَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ} {80} ارْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ} {81} وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ} {82} قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} {83} وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ وَإِبيضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ} {84} قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ} {85} قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} {86} يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُيَاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} {87} يوسف 78-

87

فأما لفظ استيأسوا فإنه قال سبحانه {حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ} يوسف 110 ولم يقل يسئ الرسل ولا ذكر ما استيأسوا منه وهذا اللفظ قد ذكره في هذه السورة {فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْتِيَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ} يوسف 80 وقد يقال الاستيأس ليس هو الاياس لوجوه أحدها ان أخوة يوسف لم ييأسوا منه بالكلية فإن قول كبيرهم { فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْتِيَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ} يوسف 80 دليل على أنه يرجو أن يحكم الله له وحكمه هنا لا بد أن يتضمن تخليصنا ليوسف منهم وإلا فحكمه له بغير ذلك لا يناسب قعوده في مصر لأجل ذلك وأيضا في اليأس يكون الشيء الذي لا يكون ولم يجيء ما يقتضية ذلك فإنهم قالوا { قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} {78} قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ} {79} يوسف 78-79 فامتنع من تسليمه إليهم ومن المعلوم أن هذا لا يوجب القطع بأنه لا يسلم إليهم فإنه يتغير عزمه ونيته وما أكثر تقلب القلوب وقد يتبدل الأمر بغيره حتى يصير الحكم إلى غيره وقد يتخلص بغير إختياره والعادات قد جرت بهذا على مثل من عنده من قال لا يعطيه فقد يعطيه وقد يخرج من يده بغير إختياره وقد يموت عنه فيخرج والعالم مملوء من هذا الوجه الثاني قال لهم يعقوب { يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُيَاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} يوسف 87 فنهاهم عن اليأس من روح الله ولم ينههم عن الاستيأس وهو الذي كان منهم وأخبر { إِنَّهُ لَا يُيَاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} ومن المعلوم أنهم لم يكونوا كافرين فهذا هو الوجه الثالث أيضا وهو أنه أخبر { إِنَّهُ لَا يُيَاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} يوسف 87 فيمتنع أن يكون للأنبياء يأس من روح الله وإن يقعوا في الاستيأس بل المؤمنون ما داموا مؤمنين لا ييأسون من روح الله وهذه السورة تضمنت ذكر المستيأسين وإن الفرح جاءهم بعد ذلك لنلا ييأس المؤمن ولهذا فيها {لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةً لَأُولِي الْأَلْبَابِ} يوسف 111 فذكر استيأس الأخوة من أخي يوسف وذكر عائشة جميعا الوجه الرابع أن الاستيأس إستفعال من اليأس والاستفعال يقع على وجوه يكون لطلب الفعل من الغير فالاستخراج والاستفهام والاستعلام يكون في الأفعال المتعدية يقال إستخرجت المال من غيري وكذلك إستفهمت ولا يصلح هذا أن يكون معنى الاستيأس فإن أحدا لا يطلب اليأس ويستدعيه ولأن إستيأس فعل لازم لا متعدي ويكون للاستفعال لصيرورة المستقبل على صفة غيره وهذا يكون

في الأفعال اللازمة كقولهم إستحجر الطين أي صار كالحجر وإستنوق الفحل أي صار كالناقة وأما النظر فيما إستيأسوا منه فإن الله تعالى ذكر ذلك في قصة أخوة يوسف حيث قال **{فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ {يوسف 80}** وأما الرسل فلم يذكر ما إستيأسوا منه بل أطلق وصفهم بالاستيأس فليس لأحد أن يقيدهم بأنهم إستيأسوا مما وعدوا به وأخبروا بكونه ولا ذكر ابن عباس ذلك¹

من أخبر غيره بشيء فقد شهد به

أن الشهادة تتضمن كلام الشاهد و قوله و خبره عما شهد به و هذا قد يكون مع أن الشاهد نفسه يتكلم بذلك و يقوله و يذكره و إن لم يكن معلما به لغيره و لا مخبرا به لسواه فهذه أول مراتب الشهادة ثم قد يخبره و يعلمه بذلك فتكون الشهادة إعلاما لغيره و إخبارا له و من أخبر غيره بشيء فقد شهد به سواء كان بلفظ الشهادة أو لم يكن كما في قوله تعالى **{وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاتًا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَنُكُنَّبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ}** {الزخرف 19} و قوله تعالى **{ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا }** {يوسف 81} الآية ففي كلا الموضوعين إنما أخبروا خبرا مجردا و قد قال **{ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ }** {30} **{حُفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ}** {31} {الحج 30- 31}²

في اللغة يكون أمران متلازمان فيطلق الإسم عليهما

كثير في اللغة يكون أمران متلازمان إما دائما وإما غالبا فيطلق الإسم عليهما ويغلب هذا تارة وهذا تارة و قد يقع على أحدهما مفردا كلفظ النهر و القرية و الميزاب و نحو ذلك مما فيه حال و محل فالإسم يتناول مجرى الماء و الماء الجاري وكذلك لفظ القرية يتناول المساكن و السكان ثم تقول حفر النهر فالمراد به المجرى و تقول جرى النهر فالمراد به الماء و تقول جرى الميزاب تعنى الماء و نصب الميزاب تعنى الخشب و قال تعالى **{ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ }** {النحل 112} و المراد السكان فى المكان و قال تعالى **{ وَكَمْ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ }** {الأعراف 4} و قال تعالى **{ وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا }** {يوسف 82} و قال تعالى **{ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا }** {الكهف 59} و قال تعالى **{ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ }** {هود 102} و قال تعالى **{ لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا }** {الشورى 7} و قال تعالى **{ فَكَأَيِّنْ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَبُرُّ مُعْتَلِّةً وَقَصْرٌ مَّشِيدٍ }** {الحج 45} و الخاوي على عروشه المكان لا السكان و قال تعالى **{ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا }** {البقرة 259} لما كان المقصود بالقرية هم السكان كان إرادتهم أكثر في كتاب الله وكذلك لفظ النهر لما كان المقصود هو الماء كان إرادته أكثر

¹مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 180- 195

²مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 169

كقوله { وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ } الأنعام 6 وقوله { وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا } الكهف 33 فهذا كثير أكثر من قولهم حفرنا النهر و كذلك إطلاق لفظ القرآن على نفس الكلام أكثر من إطلاقه على نفس التكلم وكذلك لفظ الكلام والقول والقصص و سائر أنواع الكلام يراد بها نفس الكلام أكثر مما يراد بها فعل المتكلم وهذه الأمور لبسطها موضع آخر¹

ومن ظن ان الحقيقة فى مثل قوله { **وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا** } يوسف 82 هو سؤال الجدران فهو جاهل هناك من ينكرون استعمال اللفظ فى حال فى معنى وفى حال اخرى كما يستعمل لفظ القرية تارة فى السكان وتارة فى المساكن ويدعون انه لا يعنى به الا المساكن وهذا غلط فبعضهم يقولون هنا محذوف تقديره واسأل أهل القرية وبعضهم يقولون بل المراد واسأل الجدران والصواب ان المراد بالقرية نفس الناس المشتركين الساكنين فى ذلك المكان فلفظ القرية هنا أريد به هؤلاء كما فى قوله تعالى { **وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكُنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ** } محمد 13 وكذلك قوله تعالى { **وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقَرْيَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ** } هود 102 وقوله { **وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَنَّتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَاَهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَدَّبْنَاَهَا عَذَابًا نُكْرًا** } الطلاق 8 ونظائره متعددة²

قال ابن عقيل فى أسئلتهم وقد تكلفوا غاية التكليف وتعسفوا غاية التعسيف فى بيان انه حقيقة فمن ذلك قولهم ان القرية هي مجتمع الناس مأخوذ من قرية الماء فى الحوض وما قرأت الناقة فى رحمها فالضيافة مقرىء ومقرى لاجتماع الاضياف عندهم وسمى القرآن والقراءة لذلك لكونه مجموع كلام فكذلك حقيقة لاجتماع انما هو للناس دون الجدران فما اراد الا مجمع الناس وهو فى نفسه حقيقة القرية يوضح ذلك قوله تعالى { **وَتِلْكَ الْقَرْيَ أَهْلَكُنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا** } الكهف 59 وقوله تعالى { **وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَنَّتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ** } الطلاق 8 وهذا يرجع الى المجتمع الى الناس دون الجدران والعيير اسم للقافلة قالوا والابنية والحمير اذا اراد الله نطقها أنطقها وزمن النبوات وقت لحوار العادات ولو سألتها لأجابته عن حاله معجزة له وكرامة قال ابن عقيل فيقال للقرية ما جمعت واجتمع فيها لانفس المجتمع فلهذا سمي القرى والاقراء لزمان الحيض او زمان الطهر والتصبية والمصرأة والصراة اسم مجمع اللبن والماء لا لنفس اللبن والماء المجتمع والقارى الجامع للقرى والمقرى الجامع للضياف فأما نفس الأضياف فلا والقافلة لا تسمى عيرا ان لم تكن ذات بهائم مخصوصة فان المشاة والرجال لا تسمى عيرا فلو كان اسما لمجرد القافلة لكان يقع على الرجال كما يقع على ارباب الدواب فبطل ما قالوه وقولهم لو سأل لاجاب الجدار فمثل ذلك يقع بحسب الاختيار ولا يكون معتمدا على وقوعها إلا عند التحدي به فاما ان يقع بالهاجس وعموم الاوقات فلا قلت أما ما ذكروه من القرية فالقرية والنهر ونحو ذلك اسم للحال والمحل فهو اسم يتناول المساكن

¹مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 37-38

²مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 463

وسكانها ثم الحكم قد يعود الى الساكن وقد يعود الى المساكن وقد يعود اليهما كاسم الانسان فانه اسم للروح والجسد وقد يعود الحكم على احدهما وكذلك الكلام اسم للفظ والمعنى وقد يعود الحكم الى احدهما وأما الاشتقاق فهذا الموضوع غلط فيه طائفة من العلماء لم يفرقوا بين قرأ بالهمزة وقرى بقرى بالياء فان الذى بمعنى الجمع هو قرى بقرى بلا همزة ومنه القرية والقراءة ونحو ذلك ومنه قرىب الضيف اقرىه اى جمعته وضمته اليك وقرىب الماء فى الحوض جمعته وقرىب المياه تتبعها وقرىب البلاد وقرىبتها واستقرىبتها اذا تتبعها تخرج من بلد الى بلد ومنه الاستقراء وهو تتبع الشيء اجمعه وهذا غير قولك استقرأته القرآن فان ذلك من المهموز فالقرية هي المكان الذي يجتمع فيه الناس والحكم يعود الى هذا تارة والى هذا اخرى وأما قرأ بالهمز فمعناه الاظهار والبيان والقرء والقراءة من هذا الباب ومنه قولهم ما قرأت الناقة سلا جزور قط أى ما أظهرته وأخرجته من رحمها والقارى هو الذي يظهر القرآن ويخرجه قال تعالى {إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ} القيامة 17 ففرق بين الجمع والقرآن والقرء هو الدم لظهوره وخروجه وكذلك الوقت فان التوقيت انما يكون بالامر الظاهر ثم الطهر يدخل فى اسم القرء تبعا كما يدخل الليل فى اسم اليوم قال النبى صلى الله عليه وسلم للمستحاضة دعي الصلاة أيام أقرائك والطهر الذي يتعقبه حيض هو قرء فالقرء اسم للجميع وأما الطهر المجرد فلا يسمى قرءا ولهذا اذا طلقت فى اثناء طهر كان القرء الحيضة مع ما تقدمها من الطهر ولهذا كان اكابر الصحابة على ان الاقراء الحيض كعمر وعثمان وعلي وابى موسى وغيرهم لأنها مأمورة بتربص ثلاثة قروء فلو كان القرء هو الطهر لكانت العدة قرأين وبعض الثالث فان النزاع من الطائفتين فى الحيضة الثالثة فان اكابر الصحابة ومن وافقهم يقولون هو احق بها ما لم تغتسل من الحيضة الثالثة وصغار الصحابة اذا طعنت فى الحيضة الثالثة فقد حلت فقد ثبت بالنص والاجماع ان السنة ان يطلقها طاهرا من غير جماع وقد مضى بعض الطهر والله امر ان يطلق لاستقبال العدة لا فى اثناء العدة وقوله {ثَلَاثَةٌ قُرُوءٍ} البقرة 228 عدد ليس هو كقوله اشهر فان ذاك صيغة جمع لا عدد فلا بد من ثلاثة قروء كما امر الله لايكفى بعض الثالث¹

لغة القرآن والحديث

ومن الأمثلة المشهورة لمن يثبت المجاز فى القرآن {وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ} يوسف 82 قالوا المراد به أهلها فحذف المضاف وأقيم مقامه فقيل لهم لفظ القرية والمدينة والنهر والميزاب وأمثلة هذه الأمور التى فيها الحال والمحال كلاهما داخل فى الاسم ثم قد يعود الحكم على الحال وهو السكان وتارة على المحل وهو المكان وكذلك فى النهر يقال حفرت النهر وهو المحل وجرى النهر وهو الماء ووضعت الميزاب وهو المحل وجرى الميزاب وهو الماء وكذلك القرية قال تعالى {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً} النحل 112 وقوله {وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ} 4 {فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ} 5 الأعراف 4-5 وقال فى آية أخرى {أَقَامِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ} الأعراف 97 فجعل القرى هم السكان وقال {وَكَايِّنَ مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ} محمد 13 وهم السكان وكذلك قوله تعالى {وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم

¹مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 475-478

مَوْعِدًا { الكهف 59 وقال تعالى { أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا { البقرة 259 فهذا المكان لا السكان لكن لابد أن يلحظ أنه كان مسكونا فلا يسمى قرية الا اذا كان قد عمر للسكنى مأخوذ من القرى وهو الجمع ومنه قولهم قرية الماء في الحوض اذا جمعت فيه ونظير ذلك لفظ الانسان يتناول الجسد والروح ثم الاحكام تتناول هذا تارة وهذا تارة لتلازمهما فكذلك القرية اذا عذب أهلها خربت واذا خربت كان عذابا لأهلها فما يصيب أحدهما من الشر ينال الآخر كما ينال البدن والروح ما يصيب أحدهما فقولهُ { وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ { يوسف 82 مثل قوله { قَرْيَةً كَأَنَّ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً { النحل 112 فاللفظ هنا يراد به السكان من غير اضممار ولا حذف فهذا بتقدير أن يكون في اللغة مجاز فلا مجاز في القرآن بل وتقسيم اللغة الى حقيقة ومجاز تقسيم مبتدع محدث لم ينطق به السلف والخلف فيه على قولين وليس النزاع فيه لفظيا بل يقال نفس هذا التقسيم باطل لا يتميز هذا عن هذا ولهذا كان كل ما يذكرونه من الفروق تبين أنها فروق باطلة وكما ذكر بعضهم فرقا أبطله الثاني كما يدعى المنطقيون أن الصفات القائمة بالموصوفات تنقسم اللازمة لها الى داخل في ماهيتها الثابتة في الخارج والى خارج عنها لازم للماهية ولازم خارج للوجود وذكروا ثلاثة فروق كلها باطلة لأن هذا التقسيم باطل لا حقيقة له بل ما يجعلونه داخلا يمكن جعله خارجا وبالعكس كما قد بسط في موضعه وقولهم اللفظ ان دل بلا قرينة فهو حقيقة وان لم يدل الا معها فهو مجاز قد تبين بطلانه وأنه ليس في الالفاظ الدالة ما يدل مجردا عن جميع القرائن ولا فيها ما يحتاج الى جميع القرائن وأشهر أمثلة المجاز لفظ الأسد و الحمار و البحر ونحو ذلك مما يقولون أنه استعير للشجاع والبليد والجواد وهذه لا تستعمل الا مؤلفة مركبة مقيدة بقيود لفظية كما تستعمل الحقيقة كقول أبي بكر الصديق عن أبي قتادة لما طلب غيره سلب القتل لها الله اذا يعمد الى أسد من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله وصف له بالقوة للجهد في سبيله وقد عينه تعيينا أزال اللبس وكذلك قول النبي ان خالد سيف من سيوف الله سله الله على المشركين وأمثال ذلك وان قال القائل القرائن اللفظية موضوعة ودلالاتها على المعنى حقيقة لكن القرائن الحالية مجاز قيل اللفظ لا يستعمل قط الا مقيدا بقيود لفظية موضوعة والحال حال المتكلم والمستمع لابد من اعتباره في جميع الكلام فانه اذا عرف المتكلم فهم من معنى كلامه ما لا يفهم اذا لم يعرف لأنه بذلك يعرف عاداته في خطابه واللفظ انما يدل اذا عرف لغة المتكلم التي بها يتكلم وهي عاداته وعرفه التي يعتادها في خطابه ودلالة اللفظ على المعنى دلالة قصدية ارادية اختيارية فالمتكلم يريد دلالة اللفظ على المعنى فاذا اعتاد أن يعبر باللفظ عن المعنى كانت تلك لغته ولهذا كل من كان له عناية بألفاظ الرسول ومراده بها عرف عاداته في خطابه وتبين له من مراده ما لا يتبين لغيره ولهذا ينبغي أن يقصد اذا ذكر لفظ من القرآن والحديث ان يذكر نظائر ذلك اللفظ ماذا عنى بها الله ورسوله فيعرف بذلك لغة القرآن والحديث وسنة الله ورسوله التي يخاطب بها عباده وهي العادة المعروفة من كلامه ثم اذا كان لذلك نظائر في كلام غيره وكانت النظائر كثيرة عرف أن تلك العادة واللغة مشتركة عامة لا يختص بها هو بل هي لغة قومه ولا يجوز أن يحمل كلامه على عادات حدثت بعده في الخطاب لم تكن معروفة في خطابه وخطاب أصحابه كما يفعله كثير من الناس وقد لا يعرفون انتفاء ذلك في زمانه ولهذا كان استعمال القياس في اللغة وان جاز في الاستعمال فانه لا يجوز في الاستدلال فانه قد يجوز بلانسان أن يستعمل هو اللفظ في نظير المعنى الذي استعملوه فيه مع بيان ذلك على ما فيه من النزاع لكن لا يجوز أن يعمد الى ألفاظ قد عرف استعمالها في معان فيحملها على غير تلك المعانى ويقول انهم أرادوا تلك بالقياس على تلك بل هذا تبديل وتحريف فاذا قال الجار أحق بسقبة فالجار هو الجار ليس هو الشريك فان هذا لا يعرف في لغتهم لكن ليس في اللفظ ما يقتضى انه يستحق الشفعة لكن يدل على ان البيع له اولى واما الخمر فقد ثبت بالنصوص الكثيرة والنقول

الصحيحة انها كانت اسما لكل مسكر لم يسم النبيذ خمرا بالقياس وكذلك النباش كانوا يسمونه سارقا كما قالت عائشة سارق موتانا كسارق احيانا واللائط عندهم كان أغلظ من الزاني بالمرأة ولا بد في تفسير القران والحديث من ان يعرف ما يدل على مراد الله ورسوله من الالفاظ وكيف يفهم كلامه فمعرفة العربية التي خوطبنا بها مما يعين على ان نفقه مراد الله ورسوله بكلامه وكذلك معرفة دلالة الالفاظ على المعاني فان عامة ضلال اهل البدع كان بهذا السبب فانهم صاروا يحملون كلام الله ورسوله على ما يدعون انه دال عليه ولا يكون الامر كذلك ويجعلون هذه الدلالة حقيقة وهذه مجاز¹

دعاء الله واستغاثته به واشتكاؤه إليه لا ينافي الصبر المأمور به

قال تعالى { قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ } {83} وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ } {84} قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوْسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ } {85} قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } {86} يَا بَنِيَّ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُؤْا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَبْيَأْسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ } {87} يوسف 83-87

وقال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح من يستغن يغنه الله ومن يستعفف يعفه الله ومن يتصبر يصبره الله ما اعطى احد عطاء خيرا واوسع من الصبر واوصى خواص اصحابه ان لا يسألوا الناس شيئا وفي المسند ان ابا بكر كان يسقط السوط من يده فلا يقول لأحد ناولني اياه ويقول ان خليلي امرني ان لا اسأل الناس شيئا وفي صحيح مسلم وغيره عن عوف بن مالك ان النبي بايعه في طائفة واسر اليهم كلمة خفية ان لا تسألوا الناس شيئا فكان بعض اولئك النفر يسقط السوط من يد احدهم ولا يقول لأحد ناولني اياه وقد دلت النصوص على الامر بمسألة الخالق والنهي عن مسألة المخلوق في غير موضع كقوله تعالى {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ } {7} وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ } {8} الشرح 7-8 وقال صلى الله عليه وسلم لابن عباس إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله ولا بد للإنسان من شيئين طاعته بفعل المأمور وترك المحذور وصبره على ما يصيبه من القضاء المقذور فالأول هو التقوى والثاني هو الصبر قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً } آل عمران 118 إلى قوله { وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضْرِبْكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ } آل عمران 120 وقال تعالى {بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فُورِهِمْ هَذَا يَمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ } آل عمران 125 وقال تعالى {لَنْبَلُونَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَىٰ كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } آل عمران 186 وقد قال يوسف { أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } يوسف 90 ومنه قول الخليل {فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ } العنكبوت 17 ولم يقل فابتغوا الرزق عند الله لأن تقديم الظرف يشعر بالاختصاص والحصر كانه قال لا تبتغوا الرزق الا عند الله وقد قال تعالى { وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ } النساء 32 والانسان لا بد له من حصول ما يحتاج اليه من الرزق ونحوه

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 113-116

ودفع ما يضره وكلا الامرين شرع له ان يكون دعاؤه لله فله ان يسأل الله واليه يشتكى كما قال يعقوب عليه السلام { **إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ** } يوسف 86 والله تعالى ذكر في القرآن الهجر الجميل و الصفح الجميل و الصبر الجميل وقد قيل ان الهجر الجميل هو هجر بلا اذى والصفح الجميل صفح بلا معاتبة والصبر الجميل صبر بغير شكوى الى المخلوق ولهذا قرىء على احمد بن حنبل في مرضه ان طاوسا كان يكره انين المريض ويقول انه شكوى فما أن احمد حتى مات واما الشكوى الى الخالق فلا تنافى الصبر الجميل فان يعقوب قال { **فَصَبْرٌ جَمِيلٌ** } يوسف 83 وقال { **إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ** } يوسف 86 وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقرأ في الفجر بسورة يونس و يوسف و النحل فمر بهذه الآية في قراءته فبكى حتى سمع نشيجه من آخر الصفوف ومن دعاء موسى اللهم لك الحمد واليك المشتكى وانت المستعان وبك المستغاث و عليك التكلان ولا حول ولا قوة الا بك وفي الدعاء الذي دعا به النبي لما فعل به اهل الطائف ما فعلوا اللهم اليك اشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس انت رب المستضعفين وانت ربي اللهم الى من تكلني الى بعيد يتجهمني ام الى عدو ملكته امري ان لم يكن بك غضب علي فلا ابالي غير ان عاقبتك اوسع لي اعوذ بنور وجهك الذي اشرقت به الظلمات وصلح عليه امر الدنيا والآخرة ان ينزل بي سخطك او يحل علي غضبك لك العتبي حتى ترضى فلا حول ولا قوة الا بك وفي بعض الروايات ولا حول ولا قوة الا بك وكلما طمع العبد في فضل الله ورحمته ورجائه لقضاء حاجته ودفع ضرورته قويت عبوديته له وحرية مما سواه فكما ان طمعه في المخلوق يوجب عبوديته له فيأسه منه يوجب غنى قلبه عنه كما قيل استغن عن شئت تكن نظيره وافضل على من شئت تكن اميره واحتج الى من شئت تكن اسيره فكذلك طمع العبد في ربه ورجاؤه له يوجب عبوديته له واعراض قلبه عن الطلب من غير الله والرجاء له يوجب انصراف قلبه عن العبودية لله لا سيما من كان يرجو المخلوق ولا يرجو الخالق بحيث يكون قلبه معتمدا اما على رئاسته وجنوده واتباعه ومماليكه واما على اهله واصدقائه واما على امواله وذخائره واما على ساداته وكبرائه كماله وملكه وشيخه ومخدومه وغيرهم ممن هو قد مات او يموت قال تعالى { **وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا** } الفرقان 58 وكل من علق قلبه بالمخلوقات ان ينصروه او يرزقوه او ان يهدوه خضع قلبه لهم وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك وان كان في الظاهر اميرا لهم مدبرا لهم متصرفا بهم فالعاقل ينظر الى الحقائق لا الى الظواهر فالرجل اذا تعلق قلبه بامرأة ولو كانت مباحة له يبقى قلب اسيرا لها تحكم فيه وتتصرف بما تريد وهو في الظاهر سيدها لانه زوجها وفي الحقيقة هو اسيرها ومملوكها لا سيما اذا درت بفقره اليها وعشقه لها وانه لا يعتاض عنها بغيرها انها حينئذ تحكم فيه بحكم السيد القاهر الظالم في عبده المقهور الذي لا يستطيع الخلاص منه بل اعظم فإن اسر القلب اعظم من اسر البدن واستعباد القلب اعظم من استعباد البدن فان من استعبد بدنه واسترق لا يبالي اذا كان قلبه متريحا من ذلك مطمئنا بل يمكنه الاحتيال في الخلاص واما اذا كان القلب الذي هو الملك رقيقا مستعبدا متيما لغير الله هذا هو الذل والاسر المحض والعبودية لما استعبد القلب وعبودية القلب واسره هي التي يترتب عليها الثواب والعقاب ان المسلم لو اسره كافر او استرقه فاجر بغير حق لم يضره ذلك اذا كان قائما بما يقدر علي من الواجبات ومن استعبد بحق اذا ادى حق الله وحق مواليه له اجران ولو اكره على التكلم بالكفر فتكلم به وقلبه مطمئن بالايمان لم يضره ذلك واما من استعبد قلبه صار عبدا لغير الله فهذا يضره ذلك ولو كان في الظاهر ملك الناس فالحرية حرية القلب والعبودية عبودية القلب كما ان الغنى غنى النفس قال النبي ليس الغنى عن كثرة العرض وانما الغنى غنى النفس وهذا لعمرى اذا كان قد استعبد قلبه صورة مباحة فاما من استعبد قلبه صورة محرمة امرأة اوصبي فهذا هو العذاب

الذي لا يدان فيه وهؤلاء من اعظم الناس عذابا واقلهم ثوابا فإن العاشق لصورة اذا بقي قلبه متعلقا بها مستعبدا لها اجتمع له من انواع الشر والفساد ما لا يحصيه الا رب العباد ولو سلم من فعل الفاحشة الكبرى فدوام تعلق القلب بها بلا فعل الفاحشة اشد ضررا عليه ممن يفعل ذنبا ثم يتوب منه ويزول اثره من قلبه وهؤلاء يشبهون بالسكارى والمجانين كما قيل سكران سكر هوى وسكر مدامة ومتى افاقة من به سكران وقيل قالوا جننت بمن تهوى فقلت لهم العشق اعظم مما بالمجانين العشق لا يستفيق الدهر صاحبه وانما يصرع المجنون في الحين ومن اعظم اسباب هذا البلاء اعراض القلب عن الله فان القلب اذا ذاق طعم عبادة الله والاخلاص له لم يكن عنده شيء قط احلى من ذلك ولا أذ ولا اطيب والانسان لا يترك محبوبا الا بمحسوب آخر يكون أحب اليه منه او خوفا من مكروهه فالحب الفاسد انما ينصرف القلب عنه بالحب الصالح او بالخوف من الضرر

1

حزن القلب لا ينافي الصبر على المصائب

فقد أخبر الله عن يعقوب أنه حزن على ابنه يوسف { وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنِّيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ } {84} قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ } {85} قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ {86} يوسف 84-86 فهذا إسرائيل نبي كريم قد حزن على ابنه هذا الحزن فإن الصبر على المصائب واجب بالكتاب والسنة ومع هذا فحزن القلب لا ينافي ذلك كما قال صلى الله عليه وسلم إن الله لا يؤاخذ على دمع العين ولا على حزن القلب ولكن يؤاخذ على هذا يعني اللسان أو يرحم فإن الأنبياء قد حزنوا ولم يكن ذلك دليلا على عدم يقينهم بالله كما ذكر الله عن يعقوب وثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم لما مات ابنه إبراهيم قال تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضى الرب وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون²

واما الحزن فلم يأمر الله به ولا رسوله بل قد نهى عنه في مواضع وان تعلق بامر الدين كقوله تعالى { وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } آل عمران 139 وقوله { وَلَا تَحْزَنَ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ } النحل 127 وقوله { إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا } التوبة 40 وقوله { وَلَا يَحْزَنْكَ قَوْلُهُمْ } يونس 65 وقوله { لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ } الحديد 23 وامثال ذلك كثير وذلك لانه لا يجلب منفعة ولا يدفع مضرة فلا فائدة فيه ومالا فائدة فيه لا يأمر الله به نعم لا يأثم صاحبه اذا لم يقترن بحزنه محرم كما يحزن على المصائب كما قال النبي ان الله لا يؤاخذ على دمع العين ولا على حزن القلب ولكن يؤاخذ على هذا او يرحم و اشار بيده الى لسانه وقال تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول الا ما يرضى الرب

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 183-187 و مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 666-668 و مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 623 و منهاج السنة النبوية ج: 4 ص: 244 و الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 100 و الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 382 و مجموع الفتاوى ج: 24 ص: 284

²منهاج السنة النبوية ج: 8 ص: 459-461

ومنه قوله تعالى { وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ }
 {يوسف 84} وقد تبين بالحنن ما يثاب صاحبه عليه ويحمد عليه فيكون محمودا من تلك الجهة لا
 من جهة الحزن كالحزين على مصيبة في دينه وعلى مصائب المسلمين عموما فهذا يثاب على ما في
 قلبه من حب الخير وبغض الشر وتوابع ذلك ولكن الحزن على ذلك اذا افضى الى ترك مأمور من
 الصبر والجهاد وطلب منفعة ودفع مضرة نهى عنه والا كان حسب صاحبه رفع الاثم عنه من جهة
 الحزن واما ان افضى الى ضعف القلب واشتغاله به عن فعل ما امر الله ورسوله به كان
 مذموما عليه من تلك الجهة وان كان محمودا من جهة اخرى¹

قول القلب وعمله هو الأصل

إن المحبة التامة لله ورسوله تستلزم وجود محبوباته ولهذا جاء في الحديث الذي في الترمذي من
 احب لله وأبغض لله وأعطى الله ومنع الله فقد استكمل الإيمان فإنه إذا كان حبه لله وبغضه لله وهما
 عمل قلبه وعطاؤه لله ومنعه لله وهما عمل بدنه دل على كمال محبته لله ودل ذلك على كمال
 الإيمان وذلك ان كمال الإيمان أن يكون الدين كله لله وذلك عبادة الله وحده لا شريك له والعبادة
 تتضمن كمال الحب وكمال الذل والحب مبدأ جميع الحركات الإرادية ولا بد لكل حي من حب وبغض
 فإذا كانت محبته لمن يحبه الله وبغضه لمن يبغضه الله دل ذلك على صحة الإيمان في قلبه لكن قد
 يقوى ذلك وقد يضعف بما يعارضه من شهوات النفس واهوائها الذي يظهر في بذل المال الذي هو
 مادة النفس فإذا كان حبه لله وعطاؤه لله ومنعه لله دل على كمال الإيمان باطنا وظاهرا واصل
 الشرك في المشركين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا إنما هو إتخاذ أنداد يحبونهم كحب الله كما قال
 تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ } البقرة 165 ومن كان حبه لله
 وبغضه لله لا يحب إلا الله ولا يبغض إلا الله ولا يعطى إلا الله ولا يمنع إلا الله فهذه حال السابقين من
 أولياء الله كما روى البخارى في صحيحه عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال
 يقول الله من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما إفترضته عليه ولا
 يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر
 به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى ولئن
 سألتى لأعطينه ولئن استعذنى لأعيذنه وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى
 المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه فهؤلاء الذين أحبوا الله محبة كاملة تقربوا بما
 يحبه من النوافل بعد تقربهم بما يحبه من الفرائض أحبهم الله محبة كاملة حتى بلغوا ما بلغوه وصار
 أحدهم يدرك بالله ويتحرك بالله بحيث أن الله يجيب مسألته ويعيذه مما استعاذ منه وقد ذم في كتابه
 من أحب أندادا من دونه قال تعالى { وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ } البقرة 93 وذم من إتخذ
 الهه هواه وهو أن يتأله ما يهواه ويحبه وهذا قد يكون فعل القلب فقط وقد مدح تعالى وذم في كتابه فى
 غير موضع على المحبة والإرادة والبغض والسخط والفرح والغم ونحو ذلك من أفعال القلوب كقوله

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 17

{وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ} البقرة 165 كقوله تعالى {يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُؤْا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيَاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} يوسف 87 ومثل هذا كثير في كتاب الله وسنة رسوله واتفاق المؤمنين يحمد ويذم على ما شاء الله من مساعي القلوب وأعمالها بل قول القلب وعمله هو الأصل مثل تصديقه وتكذيبه وحبه وبغضه من ذلك ما يحصل به مدح وذم وثواب وعقاب بدون فعل الجوارح الظاهرة ومنه ما لا يقترن به ذلك الا مع الفعل بالجوارح الظاهرة اذا كانت مقدورة وأما ما ترك فيه فعل الجوارح الظاهرة للعجز عنه فهذا حكم صاحبه حكم الفاعل¹

لطائف لغوية

- 1- الأذان مصدر أذن يؤذن تأذينا و أذانا و إيذانا و هو الإعلام الرفيع المدرك بالسمع و منه قوله تعالى { تَمَّ أَذْنٌ مُؤَدِّنٌ أَيُّهَا الْعَيْرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ } يوسف 270²
- 2- واما لفظ الزعيم فانه مثل لفظ الكفيل والقبيل والضمين قال تعالى { وَلَمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلٌ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ } يوسف 72 فمن تكفل بأمر طائفة فانه يقال هو زعيم فان كان قد تكفل بخير كان محمودا على ذلك وان كان شرا كان مذموما على ذلك³
- 3- قال تعالى { فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ } يوسف 76
عليم منزله عن الجهل⁴
- 4- قال تعالى { قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ } يوسف 78 والإحسان ضد الإساءة وهو فعل الحسن سواء كان لازما لصاحبه أو متعديا إلى الغير⁵
- 5- فدفعه الشر الذي تريده النفوس الشريرة هو من الخير وهو بيديه ولو مكن تلك النفوس لفعلته فهو سبحانه لا يمكنها بل يمنعها إذا أرادت مع أنها لو خلقت لفعلته فهو تارة بمنع الشر بإزالة سببه ومقتضيه وتارة يخلق ما يضاده وينافيه وقول القائل خير وشر أي هذا خير من هذا وهذا شر من هذا ولهذا غالب استعمال هذين الإسمين كذلك كقول وقال يوسف { أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ } يوسف 77⁶

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 769 و الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 184

²شرح العمدة ج: 4 ص: 95

³مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 92

⁴الجواب الصحيح ج: 4 ص: 407

⁵مجموع الفتاوى ج: 30 ص: 370

⁶رسالة في معنى كون الرب عادلا ج: 1 ص: 132

6- فان الحكم يكون بمعنى الأمر الدينى وهو الأحكام الشرعية وقوله { نَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ } الممتحنة 10 ويكون الحكم حكما بالحق والتكوين والفعل كقوله {يَأْتِنِي لِأبي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ} يوسف 80¹

7- أن المصر الجامع يسمى قرية وقد سمي الله مكة قرية بل سماها أم القرى بل وما هو أكبر من مكة كما في قوله { وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَا هُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ } محمد 13 وسمى مصر القديمة قرية بقوله {وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ} يوسف 82 ومثله في القرآن كثير²

8- أن حذف المضاف اليه يقارنه قرائن فلا بد أن يكون مع الكلام قرينة تبين ذلك كما قيل في قوله {وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا} يوسف 82³

9- قال تعالى { قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ } يوسف 83 عليم منزه عن الجهل حكيم منزه عن السفه⁴

¹مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 264

²الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 161 و مجموع الفتاوى ج: 24 ص: 210

³مجموع الفتاوى ج: 6 ص: 471

⁴الجواب الصحيح ج: 4 ص: 407

يوسف 87-100

{ يَا بَنِيَّ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَبِئْسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ } {87} فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلُنَا الضَّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفَ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ } {88} قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ } {89} قَالُوا إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفَ قَالَ أَنَا يُوسُفَ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } {90} قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ أَثَرْنَا اللَّهَ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ } {91} قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَعْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ } {92} أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ } {93} وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ } {94} قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ } {95} فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } {96} قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ } {97} قَالَ سَوْفَ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } {98} فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبْوِيهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مَعِيَ فِي الْمِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِينَ } {99} وَرَفَعَ أَبْوِيهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبْتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ } {100}

المؤمنون لا يياسون من روح الله

فأما لفظ استياسوا فإنه قال سبحانه { حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ } يوسف 110 ولم يقل يئس الرسل ولا ذكر ما استياسوا منه وهذا اللفظ قد ذكره في هذه السورة { فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ } يوسف 80 وقد يقال الاستيناس ليس هو الاياس لوجوه أحدها ان أخوة يوسف لم يياسوا منه بالكلية فإن قول كبيرهم { فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ } يوسف 80 دليل على أنه يرجو أن يحكم الله له وحكمه هنا لا بد أن يتضمن تخليصنا ليوسف منهم وإلا فحكمه له بغير ذلك لا يناسب قعوده في مصر لأجل ذلك وأيضا في اليأس يكون الشيء الذي لا يكون ولم يجيء ما يقتضية ذلك فإنهم قالوا { قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ } {78} قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ } {79} يوسف 78-79 فامتنع من تسليمه إليهم ومن المعلوم أن هذا لا يوجب القطع بأنه لا يسلم إليهم فإنه يتخير عزمه ونيته وما أكثر تقلب القلوب وقد يتبدل الأمر بغيره حتى يصير الحكم إلى غيره وقد يتخلص بغير إختياره والعادات قد جرت بهذا على مثل من عنده من قال لا يعطيه فقد يعطيه وقد يخرج من يده بغير إختياره وقد يموت عنه فيخرج والعالم مملوء من هذا الوجه الثاني قال لهم يعقوب { يَا بَنِيَّ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا

يَبْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ {يوسف 87} فنهاهم عن اليأس من روح الله ولم ينههم عن الاستيئاس وهو الذي كان منهم وأخبر { **إِنَّهُ لَا يَبْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ** } {يوسف 87} ومن المعلوم أنهم لم يكونوا كافرين فهذا هو الوجه الثالث أيضا وهو أنه أخبر { **إِنَّهُ لَا يَبْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ** } {يوسف 87} فيمتنع أن يكون للأنبياء يأس من روح الله وإن يقعوا في الاستيئاس بل المؤمنون ما داموا مؤمنين لا ييأسون من روح الله وهذه السورة تضمنت ذكر المستيئسين وإن الفرح جاءهم بعد ذلك لئلا ييأس المؤمن ولهذا فيها { **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لَأُولِي الْأَلْبَابِ** } {يوسف 111} فذكر إستيئاس الأخوة من أخي يوسف وذكر عائشة جميعا الوجه الرابع أن الاستيئاس إستفعال من اليأس والاستفعال يقع على وجوه يكون لطلب الفعل من الغير فالاستخراج والاستفهام والاستعلام يكون في الأفعال المتعدية يقال إستخرجت المال من غيري وكذلك إستفهمت ولا يصلح هذا أن يكون معنى الاستيئاس فإن أحدا لا يطلب اليأس ويستدعيه ولأن إستيئاس فعل لازم لا متعدي ويكون للاستفعال لصيرورة المستقبل على صفة غيرة وهذا يكون في الأفعال اللازمة كقولهم إستحجر الطين أي صار كالحجر وإستنوق الفحل أي صار كالناقة وأما النظر فيما إستيأسوا منه فإن الله تعالى ذكر ذلك في قصة أخوة يوسف حيث قال { **فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ** } {يوسف 80} وأما الرسل فلم يذكر ما إستيأسوا منه بل أطلق وصفهم بالاستيئاس فليس لأحد أن يقيده بأنهم إستيأسوا مما وعدوا به وأخبروا بكونه ولا ذكر ابن عباس ذلك ¹

الله تعالى يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ

قال تعالى { **يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَأسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَبْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ** } {87} { **فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلْنَا الضَّرُّ وَجِئْنَا بِيضَاعَةً مُزْجَاةً فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ** } {88} {يوسف 87-88} فإن الإحسان يكون بجلب منفعة وبدفع مضرة ولهذا سماه الله صدقة { **وقد قال تعالى { وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ** } {133} { **الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكََاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** } {134} { **آل عمران 133-134** } فذكر أنه يحب المحسنين والعافين عن الناس وتبين بهذا أن هذا من الإحسان والإحسان ضد الإساءة وهو فعل الحسن سواء كان لازما لصاحبه أو متعديا إلى الغير ومنه قوله { **مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** } {القصص 84} وقال { **مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا** } {الأنعام 160} فالكاظم للغيظ والعافي عن الناس قد أحسن إلى نفسه والى الناس فإن ذلك عمل حسنة مع نفسه ومع الناس ومن أحسن إلى الناس فإلى نفسه كما يروى عن بعض السلف أنه قال ما أحسنت إلى أحد وما أسأت إلى أحد وإنما أحسنت إلى نفسي وأسأت إلى نفسي قال تعالى { **إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا** } {الإسراء 7} وقال تعالى { **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا** } {فصلت 46} ولو لم يكن الإحسان إلى الخلق إحسانا إلى المحسن يعود نفعه عليه لكان فاعلا إثما أو ضررا فإن العمل الذي لا يعود نفعه على فاعله إما حيث لم يكن فيه فائدة وإما شر من العيب إذا ضر فاعله والعفو عن الظالم أحد نوعي

¹الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 241 و مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 686 و الاستقامة ج: 2 ص: 80 و الزهد

والورع والعبادة ج: 1 ص: 118

الصدقة المعروف والإحسان إلى الناس وجماع ذلك الزكاة والله سبحانه دائماً يأمر بالصلاة والزكاة وهى الصدقة وقد ثبت فى الصحيح عن النبى من غير وجه أنه قال كل معروف صدقة وذلك نوعان أحدهما اتصال نفع إليه الثانى دفع ضرر عنه فإذا كان المظلوم يستحق عقوبة الظلم ونفسه تدعوه إليه فكف نفسه عن ذلك ودفع عنه ما يدعوه إليه من إضراره فهذا إحسان منه إليه وصدقة عليه والله تعالى {يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ} يوسف 88 و{لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} التوبة 120¹

لا بد من التقوى بفعل المأمور والصبر على المقدور

المؤمن إنما فارق الكفر بالإيمان بالله وبرسله وبتصديقهم فيما أخبروا وطاعتهم فيما أمروا وإتباع ما يرضاه الله ويحبه دون ما يقدره ويقضيه من الكفر والفسوق والعصيان ولكن يرضى بما أصابه من المصائب لا بما فعله من المعائب فهو من الذنوب يستغفر وعلى المصائب يصبر فهو كما قال تعالى {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ} غافر 55 فيجمع بين طاعة الأمر والصبر على المصائب كما قال تعالى {وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً} آل عمران 120 وقال تعالى {وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} آل عمران 186 وقال يوسف {إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} يوسف 90²

والمؤمن مأمور بأن يفعل المأمور ويترك المحذور ويصبر على المقدور كما قال تعالى فى قصة يوسف {إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} يوسف 90 فالتقوى فعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه ولهذا قال الله تعالى {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ} غافر 55 فأمره مع الاستغفار بالصبر فإن العباد لابد لهم من الاستغفار أولهم وآخرهم قال النبى فى الحديث الصحيح يا أيها الناس توبوا الى ربكم فوالذى نفسى بيده إنى لأستغفر الله وأتوب اليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة وقال انه ليغان على قلبى وإنى لأستغفر الله وأتوب اليه فى اليوم مائة مرة وكان يقول اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى واسرافى فى أمرى وما أنت أعلم به منى اللهم اغفر لى خطيئى وعمدى وهزلى وحدى وكل ذلك عندى اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به منى أنت المقدم وأنت المؤخر وقد ذكر عن آدم أبى البشر انه استغفر ربه وتاب اليه فاجتباه ربه فتاب عليه وهداه وعن ابليس أبى الجن لعنه الله أنه أصر متعلقاً بالقدر فلعنه وأقصاه فمن أذنب وتاب وندم فقد أشبهه أباه ومن أشبهه أباه فما ظلم³

¹مجموع الفتاوى ج: 30 ص: 370

³مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 120

ففي هذا توكل على الله وإستعانة به أن يثبت القلب على الإيمان والطاعة وفيه صبر على المحنة والبلاء والأذى الحاصل إذا ثبت على الإيمان والطاعة وهذا كقوله موسى عليه السلام لقومه { اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } الأعراف 128 لما قال فرعون { سَنُقْتَلُ أَوْ نُبْتَلُ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } الأعراف 127-128 وكذلك قوله { وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جُزْءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرَ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } {41} الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } {42} النحل 41-42 ومنه قول يوسف عليه السلام **{فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}** {يوسف 90} وهو نظير قوله {بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ } آل عمران 125 وقوله { وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } آل عمران 186 فلا بد من التقوى بفعل المأمور والصبر على المقذور كما فعل يوسف عليه السلام إتقى الله بالعفة عن الفاحشة وصبر على أذاهم له بالمرأودة والحبس واستعان الله ودعاه حتى يثبتته على العفة فتوكل عليه أن يصرف عنه كيدهن وصبر على الحبس¹

من الخطأ الظن بأن نعيم الدنيا لا يكون إلا لأهل الكفر والفجور

قال تعالى { إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ } {13} وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ } {14} الانفطار 13-14 ووعده أهل الإيمان والعمل الصالح بالنعيم التام في الدار الآخرة ووعده الكفار بالعذاب التام في الدار الآخرة أعظم من أن يذكر هنا وهذا مما لم ينازع فيه أحد من أهل الإسلام من الخطأ الظن بأن نعيم الدنيا لا يكون إلا لأهل الكفر والفجور ولكن تذكر هنا نكتة نافعة وهو أن الإنسان قد يسمع ويرى ما يصيب كثيرا من أهل الإيمان والإسلام في الدنيا من المصائب وما يصيب كثيرا من الكفار والفجار في الدنيا من الرياسة والمال وغير ذلك فيعتقد أن النعيم في الدنيا لا يكون إلا لأهل الكفر والفجور وأن المؤمنين ليس لهم في الدنيا ما ينتعمون به إلا قليلا وكذلك قد يعتقد أن العزة والنصرة قد تستقر للكفار والمنافقين علي المؤمنين وإذا سمع ما جاء في القرآن من أن العزة لله ورسوله وللمؤمنين وأن العاقبة للتقوى وقول الله تعالى { وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْعَالِبُونَ } الصافات 173 وهو ممن يصدق بالقرآن حمل هذه الآيات علي الدار الآخرة فقط وقال أما الدنيا فما نري بأعيننا إلا أن الكفار والمنافقين فيها يظهرن ويغلبون المؤمنين ولهم العزة والنصرة والقرآن لا يرد بخلاف المحسوس ويعتمد علي هذا فيما إذا أديل عليه عدو من جنس الكفار والمنافقين أو الظالمين وهو عند نفسه من أهل الإيمان والتقوى فيرى أن صاحب الباطل قد علا علي صاحب الحق فيقول أنا علي الحق وأنا مغلوب وإذا ذكره إنسان بما وعده الله من حسن العاقبة للمتقين قال هذا في الآخرة فقط وإذا قيل له كيف يفعل الله بأوليائه مثل هذه الأمور قال يفعل ما يشاء وربما قال بقلبه أو لسانه أو كان حاله يقتضي أن هذا نوع من الظلم وربما ذكر قول بعضهم ما علي الخلق أضر من الخالق لكن يقول يفعل الله ما يشاء وإذا ذكر برحمة الله وحكمته لم يقل إلا أنه يفعل ما يشاء فلا يعتقدون أن صاحب الحق والتقوى منصور مؤيد بل يعتقدون أن الله يفعل ما يشاء وهذه الأقوال مبنية علي مقدمتين إحداها حسن ظنه بدين

¹مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 130-131

نفسه نوعا أو شخصا واعتقاد أنه قائم بما يجب عليه وتارك ما نهى عنه في الدين الحق واعتقاده في خصمه ونظيره خلاف ذلك أن دينه باطل نوعا أو شخصا لأنه ترك المأمور وفعل المحظور والمقدمة الثانية أن الله قد لا يؤيد صاحب الدين الحق وينصره وقد لا يجعل له العاقبة في الدنيا فلا ينبغي الاعتراض بهذا المؤمن يطلب نعيم الدنيا والنعيم التام في الآخرة ومن المعلوم أن العبد وإن أقر بالآخرة فهو يطلب حسن عاقبة الدنيا فقد يطلب ما لا بد منه من دفع الضرر وجلب المنفعة وقد يطلب من زيادة النفع ودفع الضرر ما يظن أنه مباح فإذا اعتقد أن الدين الحق قد ينافي ذلك لزم من ذلك إعراض القلب عن الرغبة في كمال الدين الحق وفي حال السابقين والمقربين بل قد يعرض عن حال المقتصدین أصحاب اليمين فيدخل مع الظالمين بل قد يكفر ويصير من المرتدين المنافقين أو المعانين بالكفر وإن لم يكن هذا في أصل الدين كان في كثير من أصوله وفروعه كما قال النبي يصبح الرجل مؤمنا ويمسى كافرا أو يمسى مؤمنا ويصبح كافرا يبيع دينه بعرض من الدنيا وذلك إذا اعتقد أن الدين لا يحصل إلا بفساد دنياه ولذلك فإنه يفرح بحصول الضرر له ويرجو ثواب ضياع ما لا بد له من المنفعة وهذه الفتنة التي صدت أكثر بنى آدم عن تحقيق الدين وأصلها الجهل بحقيقة الدين وبحقيقة النعيم الذي هو مطلوب النفوس في كل وقت إذ قد ذكرنا أن كل عمل فلا بد فيه من إرادة به لطلب ما ينعم فهناك عمل يطلب به النعيم ولا بد أن يكون المرء عارفا بالعمل الذي يعمل به وبالنعيم الذي يطلبه ثم إذا علم هذين الأصلين فلا بد أن تكون فيه إرادة جازمة علي العمل بذلك وإلا فالعلم بالمطلوب وبطريقه لا يحصلان المقصود إلا مع الإرادة الجازمة والإرادة الجازمة لا تكون إلا مع الصبر ولهذا قال سبحانه وتعالى { وَالْعَصْرُ {1} إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ {2} إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ {3} الْعَصْرُ 1-3 وقال تعالى { وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ {السجدة 24} فاليقين هو العلم الثابت المستقر والصبر لا بد منه لتحقيق الإرادة الجازمة والمقدمتان اللتان التي بنيت عليهما هذه البلية مبناهما علي الجهل بأمر الله ونهيه وبوعده ووعيده فإن صاحبهما إذا اعتقد أنه قائم بالدين الحق فقد اعتقد أنه فاعل للمأمور تارك للمحظور وهو على العكس من ذلك وهذا يكون من جهله بالدين الحق وإذا اعتقد أن صاحب الحق لا ينصره الله في الدنيا بل قد تكون العاقبة في الدنيا للكفار على المؤمنين ولأهل الفجور علي أهل البر فهذا من جهله بوعده الله تعالى من الخطأ الاعتقاد أن الله ينصر الكفار في الدنيا ولا ينصر المؤمنين أما الأول فما أكثر من يترك واجبات لا يعلم بها ولا بوجودها وما أكثر من يفعل محرمات لا يعلم بتحريمها بل ما أكثر من يعبد الله بما حرم ويترك ما أوجب وما أكثر من يعتقد أنه هو المظلوم المحق من كل وجه وأنه خصمه هو الظالم المبطل من كل وجه ولا يكون الأمر كذلك بل يكون معه نوع من الباطل والظلم ومع خصمه نوع من الحق والعدل وحبك الشيء يعمي ويصم والإنسان مجبول على محبة نفسه فهو لا يرى إلا محاسنها ومبغض لخصمه فلا يرى إلا مساوئها وهذا الجهل غالبه مقرون بالهوى والظلم فإن الإنسان ظلوم جهول وأكثر ديانات الخلق إنما هي عادات أخذوها عن آبائهم وأسلافهم وتقليدهم في التصديق والتكذيب والحب والبغض والموالات والمعاداة كما قال تعالى { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَئِكَ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ {لقمان 21} وقال تعالى { يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ {66} وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا {67} الأحزاب 66-67 وقال تعالى { وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِّيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّثْنُ مُرِيْبٍ {الشورى 14} وأما الثاني فما أكثر من يظن أن أهل الدين الحق في الدنيا يكونون أذلاء معذبين بما فيه بخلاف من فارقههم إلي طاعة أخري وسبيل آخر ويكذب بوعده الله بنصرهم والله

سبحانه قد بين بكتابه كلا المقدمتين فقال تعالى { إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُادُ } غافر 51 وقال تعالى في كتابه { وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ {171} إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ } {172} وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ {173} } الصافات 171- 173 وقال تعالى في كتابه { إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كَثَبُوا وَكَبُتُوا كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } المجادلة 5 وقال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ {20} كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ } {21} المجادلة 20- 21 وقال تعالى في كتابه { إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ } {55} وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ } {56} المائدة 55- 56 ودم من يطلب النصر بولاء غير هؤلاء فقال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } {51} فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ } {52} وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتِ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ } {53} المائدة 51- 53 وقال تعالى في كتابه { بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا } {138} الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِيتُّهُمُ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا } {139} النساء 138- 139 وقال تعالى في كتابه { يَقُولُونَ لِنِيبِنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزَّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَاللَّهُ الْعِزَّةَ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ } المنافقون 8 وقال تعالى في كتابه { مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْوَءُونَ } فاطر 10 وقال في كتابه { هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا } الفتح 28 وقال تعالى في كتابه { هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ } {9} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ } {10} تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } {11} يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } {12} وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ } {13} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَنْتَ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتِ طَائِفَةٌ فَأَيْدِنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عُدُودِهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ } {14} الصف 9- 14 وقال تعالى في كتابه { يَا عِيسَى ابْنِي مَتَوْفِيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلِ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ } آل عمران 55 وقال تعالى في كتابه { وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلُوا الْأُدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا } {22} سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا } {23} الفتح 22- 23 وقال تعالى في كتابه { هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ } الحشر 2 إلي قوله تعالى { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } الحشر 4 وقال تعالى { وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } آل عمران 139 وقال تعالى لما قص قصة نوح وهي نصرته علي قومه في الدنيا فقال تعالى { تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْعُغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ } هود 49 وقال تعالى { وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسَأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرِزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى } طه 132 وقال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا } آل عمران 118 إلي قوله { وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ } آل عمران 120 وقال تعالى { بَلَىٰ إِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمُ

مَنْ قَوَّرَهُمْ هَذَا يُمَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ { آل عمران 125 وقال يوسف وقد نصره الله في الدنيا لما دخل عليه إخوته } **قَالُوا أَلَيْكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ { يوسف 90** وقال تعالى في كتابه { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ { الأنفال 29 وقال تعالى { وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا {2} وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا {3} الطلاق 2-3 وقد روي عن أبي ذر عن النبي أنه قال لو عمل الناس كلهم بهذه الآية لوسعتهم رواه ابن ماجه وغيره وأخبر أن ما يحصل له من مصيبة انتصار العدو وغيرها إنما هو بذنوبهم فقال تعالى في يوم أحد { أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مَثَلِهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ { آل عمران 165 وقال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ { آل عمران 155 وقال تعالى { وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ { الشورى 30 وقال تعالى { مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ { النساء 79 وقال تعالى { وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ { الشورى 48 وقال تعالى { أَوْ يُوبِقْهُمْ يَمَا كَسَبُوا { الشورى 34 ودم في كتابه من لا يثق بوعدده لعباده المؤمنين وذكر ما يصيب الرسل والمؤمنين فقال تعالى { إِذْ جَاؤُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا {10} هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زُلْزَالًا شَدِيدًا {11} { وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا {12} { وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا {13} { وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَطْرَافِهَا تَمَّ سُلُوكُ الْفِتْنَةِ لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا {14} { الاحزاب 10-14 وقال تعالى { أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ { البقرة 214 وقال تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ {109} حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ {110} لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ {111} يوسف 109-

111

ولهذا أمر الله رسوله والمؤمنين باتباع ما أنزل إليهم وهو طاعته وهو المقدمة الأولى وأمرهم بانتظار وعده وهي المقدمة الثانية وأمرنا بالاستغفار والصبر لأنهم لا بد أن يحصل لهم تقصير وذنوب فيزيله الاستغفار ولا بد مع انتظار الوعد من الصبر فبالاستغفار تتم الطاعة وبالصبر يتم اليقين بالوعد إن كان هذا كله يدخل في مسمى الطاعة والإيمان قال تعالى { وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ { يونس 109 وقال تعالى { وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَّبِإِ الْمُرْسَلِينَ { الأنعام 34 وقال تعالى { فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ { هود 49 وأمرهم أيضا بالصبر إذا أصابتهم مصيبة بذنوبهم مثل ظهور العدو وكما قال تعالى في قصة أحد { وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ {139} إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوَلَهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ {140} وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا

وَيَمَحَقَ الْكَافِرِينَ {141} آل عمران 139-141 وأيضا فقد قص سبحانه في كتابه نصره لرسوله ولعباده المؤمنين على الكفار في قصة نوح وهود وصالح وشعيب ولوط وفرعون وغير ذلك وقال تعالى {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ} يوسف 111 وقال تعالى {وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ} النور 34 وهذا يتبين بأصلين أحدهما أن حصول النصر وغيره من أنواع النعيم لطائفة أو شخص لا ينافي ما يقع في خلال ذلك من قتل بعضهم وجرحه ومن أنواع الأذى وذلك أن الخلق كلهم يموتون فليس في قتل الشهداء مصيبة زائدة علي ما هو معتاد لبني آدم فمن عد القتل في سبيل الله مصيبة مختصة بالجهاد كان من أجهل الناس بل الفتن التي تكون بين الكفار وتكون بين المختلفين من أهل القبلة ليس مما يختص بالقتال فإن الموت يعرض لبني آدم بأسباب عامة وهي المصائب التي تعرض لبني آدم من مرض بطاعون وغيره ومن جوع وغيره وبأسباب خاصة فالذين يعتادون القتال لا يصيبهم أكثر مما يصيب من لا يقاتل بل الأمر بالعكس كما قد جربه الناس ثم موت الشهيد من أيسر المينات ولهذا قال سبحانه وتعالى

{ قُلْ لَن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُمْ مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تَمُوتُونَ إِلَّا قَلِيلًا } {16} قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِن أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا } {17} الاحزاب 16-17 فأخبر سبحانه أن الفرار من القتل أو الموت لا ينفع فلا فائدة فيه وأنه لو نفع لم ينفع إلا قليلا إذ لا بد من الموت وأخبر أن العبد لا يعصمه من الله أحد إن أراد به سوءا أو أراد به رحمة وليس له من دون الله ولي ولا نصير فأين نفر من أمره وحكمه ولا ملجأ منه إلا إليه قال تعالى {فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ} الذاريات 50 وهذا أمر يعرفه الناس من أهل طاعة الله وأهل معصيته كما قال أبو حازم الحكيم لما يلقي الذي لا يتقي الله من معالجه الخلق أعظم مما يلقاه الذي يتقي الله من معالجة التقوى والله تعالى قد جعل أكمل المؤمنين إيمانا أعظمهم بلاء كما قيل للنبي أي الناس أشد بلاء قال الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمتل فالأمتل بيتلي الرجل علي حسب دينه فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه وإن كان في دينه رقة خفف عنه ولا يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشي علي الأرض وليس عليه خطيئة ومن هذا أن الله شرع من عذاب الكفار بعد نزول التوراة بأيدي المؤمنين في الجهاد ما لم يكن قبل ذلك حتى إنه قيل لم ينزل بعد التوراة عذاب عام من السماء للأمم كما قال تعالى {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} القصص 43 فإنه قبل ذلك قد أهلك قوم فرعون وشعيب لوط وعاد وثمود وغيرهم ولم يهلك الكفار بجهاد المؤمنين ولما كان موسى أفضل من هؤلاء وكذلك محمد وهما الرسولان المبعوثان بالكتابين العظيمين كما قال تعالى {إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا} المزمل 15 وقال تعالى {قَالُوا لَوْلَا أوتِي مِثْلَ مَا أوتِي مُوسَىٰ أَوْلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أوتِي مُوسَىٰ مِن قَبْلُ} القصص 48 إلى قوله {قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ} القصص 49 وأمر الله هذين الرسولين بالجهاد على الدين وشريعة محمد أكمل فلهذا كان الجهاد في أمته أعظم منه في غيرهم قال تعالى {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} البقرة 216 وقال تعالى {وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ} محمد 4 وقال تعالى للمنافقين {وَنَحْنُ نَنْزِبُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتْرَبِّصُونَ} التوبة 52 فالجهاد للكفار أصلح من هلاكهم بعذاب سماء من وجوه أحدها أن ذلك أعظم في ثواب المؤمنين وأجرهم وعلو درجاتهم لما يفعلونه من الجهاد في سبيل الله لأن تكون كلمة الله هي العليا ويكون الدين كله لله الثاني أن ذلك أنفع للكفار أيضا فإنهم قد يؤمنون من الخوف

ومن أسر منهم وسيم من الصغار يسلم أيضا وهذا من معنى قوله تعالى {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} آل عمران 110 قال أبو هريرة وكنتم خير الناس للناس تأتون بهم في الأقياد والسلاسل حتى تدخلوهم الجنة فصارت الأمة بذلك خير أمة أخرجت للناس وأفلح بذلك المقاتلون وهذا هو مقصود الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهذا من معنى كون محمد ما أرسل إلا رحمة للعالمين فهو رحمة في حق كل أحد بحسبه حتى المكذبين له هو في حقهم رحمة أعظم مما كان غيره ولهذا لما أرسل الله إليه ملك الجبال وعرض عليه أن يقلب عليهم الأخشبين قال لا استأني بهم لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده لا شريك له الوجه الثالث أن ذلك أعظم عزة للإيمان وأهله وأكثر لهم فهو يوجب من علو الإيمان وكثرة أهله ما لا يحصل بدون ذلك وأمر المنافقين والفجار بالمعروف ونهيهم عن المنكر هو من تمام الجهاد وكذلك إقامة الحدود ومعلوم أن في الجهاد وإقامة الحدود من إتلاف النفوس والأطراف والأموال ما فيه فلو بلغت هذه النفوس النصر بالدعاء ونحوه من غير جهاد لكان ذلك من جنس نصر الله للأنبياء المتقدمين من أممهم لما أهلك نفوسهم وأموالهم وأما النصر بالجهاد وإقامة الحدود فذلك من جنس نصر الله لما يختص به رسوله وإن كان محمد وأُمَّته منصورين بالنوعين جميعا لكن يشرع في الجهاد باليد ما لا يشرع في الدعاء وأما الأصل الثاني فإن التمتع إما بالأموال الدنيوية وإما بالأموال الدنيوية فأما الدنيوية فهي الحسية مثل الأكل والشرب والنكاح واللباس وما يتبع ذلك والنفسية وهي الرياسة والسلطان فأما الأولى فالمؤمن والكافر والمنافق مشتركون في جنسها ثم يعلم أن التمتع بها ليس هو حقيقة واحدة مستوية في بني آدم بل هم متفاوتون في قدرها ووصفها متفاوتا عظيما فإن من الناس من يتنعم بنوع من الأطعمة والأشربة الذي يتأذي بها غيره إما لاعتياده ببلده وإما لموافقته مزاجه وإما لغير ذلك ومن الناس من يتنعم بنوع من المناكح لا يحبها غيره كمن سكن البلاد الجنوبية فإنه يتنعم بنكاح السمير ومن سكن البلاد الشمالية فإنه يتنعم بنكاح البيض وكذلك اللباس والمسكن فإن أقواما يتنعمون من البرد بما يتأذي به غيرهم وأقواما يتنعمون من المساكن بما يتأذي به غيرهم بحسب العادة والطباع وكذلك الأزمنة فإنه في الشتاء يتنعم الإنسان بالحر وفي الصيف يتنعم بالبرد وأصل ذلك أن التمتع في الدنيا بحسب الحاجة إليها والانتفاع بها فكل ما كانت الحاجة أقوى والمنفعة أكثر كان التمتع واللذة أكمل والله قد أباح للمؤمنين الطيبات فالذين يقتصدون في المآكل نعيمهم بها أكثر من نعيم المسرفين فيها فإن أولئك إذا أدمنوها وألفوها لا يبقى لهذا عندهم كبير لذة مع أنهم قد لا يصبرون عنها وتكثر أمراضهم بسببها وأما الدين فجماعه شيان تصديق الخبر وطاعة الأمر ومعلوم أن التمتع بالخبر بحسب شرفه وصدقه والمؤمن معه من الخبر الصادق عن الله وعن مخلوقاته ما ليس مع غيره فهو من أعظم الناس نعيما بذلك بخلاف من يكثر في أخبارهم الكذب وأما طاعة الأمر فإن من كان ما يؤمر به صلاحا وعدلا ونافعا يكون تنعمه به أعظم من تنعم من يؤمر بما ليس بصلاح ولا عدل ولا نافع وهذا من الفرق بين الحق والباطل فإن الله سبحانه يقول في كتابه {الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ} {1} وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ} {2} ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ} {3} محمد 1-3 وقال {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ} {النور 39} وتفصيل ذلك أن الحق نوعان حق موجود وحق مقصود وكل منهما ملازم للآخر فالحق الموجود هو الثابت في نفسه فيكون العلم به حقا والخبر عنه حقا والحق المقصود هو النافع الذي إذا قصده الحي انتفع به وحصل له النعيم فصل ومما يظهر الأمر ما ابتلي الله به عباده في الدنيا من السراء والضراء وقال سبحانه

{ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِي {15} وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ {16} كَلَّا {17} الفجر 15-17 يقول الله سبحانه ليس الأمر كذلك ليس إذا ما ابتلاه فأكرمه ونعمه يكون ذلك إكراما مطلقا وليس إذا ما قدر عليه رزقه يكون ذلك إهانة بل هو ابتلاء في الموضعين وهو الاختبار والامتحان فإن شكر الله على الرخاء وصبر على الشدة كان كل واحد من الحالين خيرا له كما قال النبي لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء فشكر كان خيرا له وإن أصابته ضراء فصبر كان خيرا له وإن لم يشكر ولم يصبر كان كل واحد من الحالين شرا له¹

المؤمن يصبر على المصائب ويستغفر من الذنوب

وما قدر من المصائب يجب الاستسلام له فإنه من تمام الرضا بالله ربا وأما الذنوب فليس للعبد أن يذنب وإذا أذنب فعليه أن يستغفر ويتوب فيتوب من المعائب ويصبر على المصائب قال تعالى {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ { غافر 55 } وَقَالَ تَعَالَى { وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا } آل عمران 120 وقال { وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } آل عمران 186 وقال يوسف { إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } يوسف 90²

قال تعالى { مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ } التغابن 11 قال بعض السلف هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم وقال تعالى { مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلٍ أَنْ نُنزِّلَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ } {22} لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ } {23} الحديد 22-23 وفي الصحيحين عن النبي أنه قال احتج آدم وموسى فقال أنت آدم الذى خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه واسجد لك ملائكته وعلمك اسماء كل شئ فلماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة فقال آدم أنت موسى الذى اصطفاك الله برسالته وبكلامه فهل وجدت ذلك مكتوبا على قبل ان أخلق قال نعم قال فحج آدم موسى وأدم عليه السلام لم يحتج على موسى بالقدر ظنا أن المذنب يحتج بالقدر قان هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل ولو كان هذا عذرا لكان عذرا لابليس وقوم هود وكل كافر ولا موسى لام آدم أيضا لأجل الذنب فان آدم قد تاب إلى ربه فاجتباه وهدى ولكن لامة لأجله المصيبة التى لحقتهم بالخطيئة ولهذا قال فلماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة فأجابه آدم أن هذا كان مكتوبا قبل أن أخلق فكان العمل والمصيبة المترتبة عليه مقدار وما قدر من المصائب يجب لاستسلام له فإنه من تمام الرضا بالله ربا وأما الذنوب فليس للعبد ان يذنب واذا اذنب فعليه ان يستغفر ويتوب من المعائب ويصبر على المصائب قال تعالى {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ { غافر 55 } وَقَالَ تَعَالَى { وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا } آل عمران 120 وقال { وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } آل عمران 186 وقال يوسف { إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } يوسف 90

¹قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 138-157

²الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 368

وكذلك ذنوب العباد يجب على العبد فيها ان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بحسب قدرته ويجاهد في سبيل الله الكفار والمنافقين ويوالي اولياء الله ويعادي اعداء الله ويحب في الله ويبغض في الله¹

صاحب العاقبة المحمودة

ولم يعذر الله أحدا قط بالقدر و لو عذر به لكان أنبياءه و أوليائه أحق بذلك و آدم إنما حج موسى لأنه لامه على المصيبة التي أصابت الذرية فقال له لماذا أخرجتنا و نفسك من الجنة و ما أصاب العبد من المصائب فعليه أن يسلم فيها لله و يعلم أنها مقدورة عليه كما قال تعالى { مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ } التغابن 11 قال علقمة و قد روى عن ابن مسعود هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى و يسلم فالعبد مأمور بالتقوى و الصبر فالتقوى فعل ما أمر به و من الصبر على ما أصابه و هذا هو صاحب العاقبة المحمودة كما قال يوسف عليه السلام { إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } يوسف 90 و قال تعالى { وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } آل عمران 186 و قال { وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَأَيُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا } آل عمران 120 و قال { بَلَى إِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُضِدُّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ } آل عمران 125 لابد لكل عبد من أن يقع منه ما يحتاج معه إلى التوبة و الإستغفار و يبتلى بما يحتاج معه إلى الصبر فلهذا يؤمر بالصبر و الإستغفار كما قيل لأفضل الخلق { فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ } غافر 55 و قد بسط الكلام في غير هذا الموضوع على مناظرة آدم و موسى فإن كثيرا من الناس حملوها على محامل مخالفة للكتاب و السنة و إجماع الأمة و منهم من كذب بالحديث لعدم فهمه له و الحديث حق يوجب أن الإنسان إذا جرت عليه مصيبة بفعل غيره مثل أبيه او غير أبيه لا سيما إذا كان أبوه قد تاب منها فلم يبق عليه من جهة الله تبعة كما جرى لآدم صلوات الله عليه قال تعالى { وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى } { 121 } ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى { 122 } طه 121-122 و قال { فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ } البقرة 37 و كان آدم و موسى أعلم بالله من أن يحتج أحدهما لذنبه بالقدر و يوافقه الآخر و لو كان كذلك لم يحتج آدم إلى توبة و لا أهبط من الجنة و موسى هو القائل { رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي } القصص 16 و هو القائل { رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ } الأعراف 151 و هو القائل { فَتَوَبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ } البقرة 54 فلو كان المذنب يعذر بالقدر لم يحتج إلى هذا بل كان الإحتجاج بالقدر لما حصل من موسى ملام على ما قدر عليه من المصيبة التي كتبها الله و قدرها و من الإيمان بالقدر أن يعلم العبد أن ما أصابه لم يكن ليخطئه و ما أخطأه لم يكن ليصيبه فالمؤمن يصبر على المصائب و يستغفر من الذنوب و المعائب و الجاهل الظالم يحتج بالقدر على ذنوبه و سيئاته و لا يعذر بالقدر من أساء إليه و لا يذكر القدر عند ما يبسرره الله له من الخير فعكس القضية بل كان الواجب عليه إذا عمل حسنة أن يعلم أنها نعمة من الله هو يسرها و تفضل بها فلا يعجب بها و لا

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 156

يضيفها إلى نفسه كأنه الخالق لها و إذا عمل سيئة إستغفر و تاب منها و إذا أصابته مصيبة سماوية أو بفعل العباد يعلم أنها كانت مقدره مقضية عليه¹

شروط القيام بالواجبات من الدعوة الواجبة وغيرها

والقيام بالواجبات من الدعوة الواجبة وغيرها يحتاج إلى شروط يقام بها كما جاء في الحديث ينبغي لمن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر أن يكون فقيها فيما يأمر به فقيها فيما ينهى عنه رفيقا فيما يأمر به رفيقا فيما ينهى عنه حليما فيما يأمر به حليما فيما ينهى عنه فالفقه قبل الأمر ليعرف المعروف وينكر المنكر والرفق عند الأمر ليسلك أقرب الطرق إلى تحصيل المقصود والحلم بعد الأمر ليصير على أذى المأمور المنهى فإنه كثيرا ما يحصل له الأذى بذلك ولهذا قال تعالى {وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ} لقمان 17 وقد أمر نبينا بالصبر في مواضع كثيرة كما قال تعالى في أول المدثر {فَمُتَّذِرُ {2} وَرَبِّكَ فَكَبِّرُ {3} وَثِيَابَكَ فَطَهِّرُ {4} وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ {5} وَلَا تَمُنْ بِتَسْكِينِ {6} وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ {7} المدثر 2-7 وقال تعالى {وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا} الطور 48 وقال {وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ} المزملة 10 وقال تعالى {وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرْنَا} الأنعام 34 وقال {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ} القلم 48 وقد جمع سبحانه بين التقوى والصبر في مثل قوله {لَتَنبَلُونَ فِي أُمُورِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَدَىٰ كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِّن عَزْمِ الْأُمُورِ} آل عمران 186 والمؤمنون كانوا يدعون إلى الإيمان بالله وما أمر به من المعروف وينهون عما نهى الله عنه من المنكر فيؤذونهم المشركون وأهل الكتاب وقد أخبرهم بذلك قبل وقوعه وقال لهم {وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِّن عَزْمِ الْأُمُورِ} آل عمران 186 وقد قال يوسف عليه السلام {أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} يوسف 90 فالتقوى تتضمن طاعة الله ومنها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر يتناول الصبر على المصائب التي منها أذى المأمور المنهي للأمر الناهي²

أمر من يبغى بالعشق أن يعف و يكرم و يصبر

نهى الله تعالى عن اشاعة الفاحشة وكذلك أمر بستر الفواحش كما قال النبي صلى الله عليه و سلم من ابغى من هذه القاذورات بشيء فاليسنتر بستر الله فانه من يبذلنا صفحته نقم عليه كتاب الله و قال كل أمتي معافى إلا المجاهرين و ان من المجاهرة أن يبغى الرجل على الذنب قد ستره الله فيصبح يتحدث به فما دام الذنب مستورا فعقوبته على صاحبه خاصة و إذا ظهر و لم ينكر كان

¹مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 102

²مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 168 و مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 507

ضرره عاما فكيف إذا كان في ظهوره تحريك لغيره إليه ولهذا كره الامام أحمد و غيره إنشاد الأشعار الغزل الرقيق لأنه يحرك النفوس الى الفواحش فلهذا أمر من يبتلى بالعشق أن يعف و يكتم و يصبر فيكون حينئذ ممن قال الله فيه { **إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** } يوسف 90 والمقصود أنه يثاب على هذه المجاهدة و المجاهد من جاهد نفسه في الله¹ أنه إذا عف عن المحرمات نظرا وقولا وعملا وصبر على طاعة الله و عن معصيته فانه يكون ممن اتقى الله وصبر { **إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** } يوسف 90²

بالتقوى والصبر يتحقق النصر على عدوه من الكفار والمنافقين

وفى الصحيح عن النبي أنه كان يقول فى خطبته خير الكلام كلام الله وخير الهدى هدى محمد وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة وإذا كان خير الكلام كلام الله وخير الهدى هدى محمد فكل من كان إلى ذلك أقرب وهو به أشبه كان إلى الكمال أقرب وهو به أحق ومن كان عن ذلك أبعد وشبهه به أضعف كان عن الكمال أبعد وبالباطل أحق والكامل هو من كان لله أطوع وعلى ما يصيبه أصبر فكلما كان إتبع لما يأمر الله به ورسوله وأعظم موافقة لله فيما يحبه ويرضاه وصبرا على ما قدره وقضاه كان أكمل وأفضل وكل من نقص عن هذين كان فيه من من النقص بحسب ذلك وقد ذكر الله تعالى الصبر والتقوى جميعا فى غير موضع من كتابه وبين أنه ينتصر العبد على عدوه من الكفار المحاربين المعاندين والمنافقين وعلى من ظلمه من المسلمين ولصاحبه تكون العافية قال الله تعالى { **بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ** } آل عمران 125 وقال الله تعالى { **لَتُثَلِّوثَنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَىٰ كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِّن عَزْمِ الْأُمُورِ** } آل عمران 186 وقال تعالى { **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُورًا مَا عَنِتُّمْ قَد بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَد بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ** } {118} هَآأَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لُفُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْتُوا بَعِيثِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بَدَاتِ الصُّدُورِ } {119} إِن تَمَسَّسْكُم حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِيبْكُم سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضْرُكُم كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ } {120} آل عمران 118-120 وقال أخوة يوسف له { **قَالُوا أَلَيْكَ لَأَنَّتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** } يوسف 90³

¹مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 472

²أمراض القلوب ج: 1 ص: 25

³مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 676 و الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 108 و مجموع الفتاوى ج: 11 ص:

من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين

والعبد مأمور أن يسأل ربه دون خلقه كما قال تعالى { فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ } {7} وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ } {8} الشرح 7-8 وقال صلى الله عليه وسلم لابن عباس اذا سألت فاسأل الله واذا استغنت فاستعن بالله ولا بد للانسان من شئين طاعته بفعل المأمور وترك المحذور وصبره على ما يصيبه من القضاء المقذور فالأول هو التقوى والثاني هو الصبر قال تعالى { لَتُنْبَلُونَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } آل عمران 186 ولهذا كان الشيخ عبد القادر ونحوه من المشايخ المستقيمين يوصون في عامة كلامهم بهذين الأصلين المسارعة الى فعل المأمور والتقاعد عن فعل المحذور والصبر والرضا بالأمر المقذور وذلك أن هذا الموضوع غلط فيه كثير من العامة بل ومن السالكين فمنهم من يشهد القدر فقط ويشهد الحقيقة الكونية دون الدينية فيرى أن الله خالق كل شيء ورببه ولا يفرق بين ما يحبه الله ويرضاه وبين ما يسخطه ويبغضه وان قدره وقضاه ولا يميز بين توحيد الألوهية وبين توحيد الربوبية فيشهد الجمع الذي يشترك فيه جميع المخلوقات سعيدها وشقيها مشهد الجمع الذي يشترك فيه المؤمن والكافر والبر والفاجر والنبي الصادق والمنتبىء الكاذب وأهل الجنة وأهل النار وأولياء الله وأعداؤه والملائكة المقربون والمردة الشياطين أفهام خاطئة في القضاء والقدر فإن هؤلاء كلهم يشتركون في هذا الجمع وهذه الحقيقة الكونية وهو أن الله ربهم وخالقهم ومليكهم لا رب لهم غيره ولا يشهد الفرق الذي فرق الله به بين أوليائه وأعدائه وبين المؤمنين والكافرين والأبرار والفجار وأهل الجنة والنار وهو توحيد الألوهية وهو عبادته وحده لا شريك له وطاعته وطاعة رسوله وفعل ما يحبه ويرضاه وهو ما أمر الله به ورسوله أمر ايجاب أو أمر استحباب وترك ما نهى الله عنه ورسوله وموالات أوليائه ومعادات أعدائه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجهاد الكفار والمنافقين بالقلب واليد واللسان فمن لم يشهد هذه الحقيقة الدينية الفارقة بين هؤلاء وهؤلاء ويكون مع أهل الحقيقة الدينية والا فهو من جنس المشركين وهو شر من اليهود والنصارى¹

بيان قول الشيخ عبد القادر لا بد لكل مؤمن فى سائر أحواله من ثلاثة أشياء

قال الشيخ أبو محمد عبد القادر فى كتاب فتوح الغيب لا بد لكل مؤمن فى سائر أحواله من ثلاثة أشياء أمر يمتثلها ونهى يجتنبه وقدر يرضى به فاقبل حالة لا يخلو المؤمن فيها من أحد هذه الأشياء الثلاثة فينبغى له ان يلزم بها قلبه ويحدث بها نفسه وياخذ بها الجوارح فى كل أحواله قلت هذا كلام شريف جامع يحتاج إليه كل أحد وهو تفصيل لما يحتاج إليه العبد وهى مطابقة لقوله تعالى { إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } يوسف 90 ولقوله تعالى { وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا } آل عمران 120 ولقوله تعالى { وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } آل عمران 186 فإن التقوى تتضمن فعل المأمور وترك المحذور و الصبر يتضمن الصبر على المقذور فالثلاثة

¹ الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 101 و دقائق التفسير ج: 2 ص: 295

ترجع إلى هذين الأصلين والثلاثة في الحقيقة ترجع إلى إمتثال الأمر وهو طاعة الله ورسوله فحقيقة الأمر أن كل عبد فإنه محتاج في كل وقت إلى طاعة الله ورسوله وهو أن يفعل في ذلك الوقت ما أمر به في ذلك الوقت وطاعة الله ورسوله هي عبادة الله التي خلق لها الجن والإنس كما قال تعالى { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } الذاريات 56 وقال تعالى { وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ } الحجر 99 وقال تعالى { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } البقرة 21 لكن هذه الثلاثة وإن دخلت في إمتثال الأمر عند الإطلاق فعند التفصيل والإقتران أما أن تخص بالذكر وأما أن يقال يراد بهذا ما لا يراد بهذا كما في قوله { فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ } هود 123 وقوله { فَأَعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي } طه 14 فإن هذا داخل في العبادة إذا أطلق إسم العبادة وعند الإقتران إما أن يقال ذكره عموماً وخصوصاً وأما أن يقال ذكره خصوصاً يغني عن دخوله في العام ومثل هذا قوله تعالى { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } الفاتحة 5 وقوله { وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً } {8} { رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا } {9} { وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا } {10} { المزملة 8-10 } وقد ويقال لفظ التبتيل لا يتناول هذه الأمور المعطوفة كما يتناولها لفظ العبادة والطاعة و بالجملة فرق ما بين ما يؤمر به الإنسان إبتداءً وبين ما يؤمر به عند حاجته إلى جلب المنفعة ودفع المضرّة أو عند حب الشيء وبعضه وكلام الشيخ قدس الله روحه يدور على هذا القطب وهو أن يفعل المأمور ويترك المحذور ويخلو فيما سواهما عن إرادة لئلا يكون له مراد غير فعل ما أمر الله به وما لم يؤمر وما لم يؤمر به العبد بل فعله الرب عز وجل بلا واسطة العبد أو فعله بالعبد بلا هوى من العبد فهذا هو القدر الذي عليه أن يرضى به وسيأتى في كلام الشيخ ما يبين مراده وأن العبد في كل حال عليه أن يفعل ما أمر به ويترك ما نهى عنه وأما إذا لم يكن هو أمر العبد بشيء من ذلك فما فعله الرب كان علينا التسليم فيما فعله وهذه هي الحقيقة في كلام الشيخ وأمثاله وتفصيل الحقيقة الشرعية في هذا المقام أن هذا نوعان أحدهما أن يكون العبد مأموراً فيما فعله الرب إما بحب له وإعانة عليه وأما بيبغض له ودفع له والثاني أن لا يكون العبد مأموراً بواحد منهما فالأول مثل البر والتقوى الذي يفعله غيره فهو مأمور بحبه وإعانتة عليه كإعانة المجاهدين في سبيل الله على الجهاد وإعانة سائر الفاعلين للحسنات على حسناتهم بحسب الإمكان وبمحبّة ذلك والرضا به وكذلك هو مأمور عند مصيبة الغير إما بنصر مظلوم وإما بتعزية مصاب وإما بإغناء فقير ونحو ذلك وأما ما هو مأمور بيبغضه ودفعه فمثل ما إذا أظهر الكفر والفسوق والعصيان فهو مأمور بيبغض ذلك ودفعه وإنكاره بحسب الإمكان كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان وأما ما لا يؤمر العبد فيه بواحد منهما فمثل ما يظهر له من فعل الإنسان للمباحات التي لم يتبين له أنه يستعان بها على طاعة ولا معصية فهذه لا يؤمر بحبها ولا بيبغضها وكذلك مباحات نفسه المحضة التي لم يقصد الإستعانة بها على طاعة ولا معصية مع أن هذا نقص منه فإن الذي ينبغى أنه لا يفعل من المباحات إلا ما يستعين به على الطاعة ويقصد الإستعانة بها على الطاعة فهذا سبيل المقربين السابقين الذين تقربوا إلى الله تعالى بالنوافل بعد الفرائض ولم يزل أحدهم يتقرب إليه بذلك حتى أحبه فكان سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشى بها وأما من فعل المباحات مع الغفلة أو فعل فضول المباح التي لا يستعان بها على طاعة مع أداء الفرائض وإجتتاب المحارم باطنا وظاهراً فهذا من المقتصدين أصحاب اليمين و بالجملة الأفعال التي يمكن دخولها تحت الأمر والنهي لا تكون مستوية من كل وجه بل إن فعلت على الوجه المحبوب كان وجودها خيراً للعبد وإلا كان تركها خيراً له وإن

لم يعاقب عليها ففضول المباح التي لا تعين على الطاعة عدتها خير من وجودها إذا كان مع عدمها يشتغل بطاعة الله فإنها تكون شاغلة له عن ذلك وأما إذا قدر أنها تشتغل عما دونها فهي خير له مما دونها وإن شغلته عن معصية الله كانت رحمة في حقه وإن كان إشتغاله بطاعة الله خيرا له من هذا وهذا وكذلك أفعال الغفلة والشهوة التي يمكن الإستعانة بها على الطاعة كالنوم الذي يقصد به الإستعانة على العبادة والأكل والشرب واللباس والنكاح الذي يمكن الإستعانة به على العبادة إذا لم يقصد به ذلك كان ذلك نقصا من العبد وفوات حسنة وخير يحبه الله ففي الصحيحين عن النبي أنه قال لسعد أنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا إزددت بها درجة ورفعة حتى اللقمة تضعها في في إمرأتك وقال في الصحيح نفقة المسلم على أهله يحتسبها صدقة فما لا يحتاج إليه من المباحات أو يحتاج إليه ولم يصحبه إيمان يجعله حسنة فعدمه خير من وجوده إذا كان عدمه يشتغل بما هو خير منه وقد قال النبي في بضع أحدكم صدقة قالوا يا رسول الله يأتي أحدنا شهوته ويكون له أجر قال أرأيتم لو وضعها في الحرام إما كان عليه وزر قالوا بلى قال فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له بها أجر فلم تعتدون بالحرام ولا تعتدون بالحلال وذلك أن المؤمن عند شهوة النكاح يقصد أن يعدل عما حرمه الله إلى ما أباحه الله ويقصد فعل المباح معتقدا أن الله أباحه والله يحب أن يأخذ برخصه كما يكره أن تؤتى معصيته كما رواه الإمام أحمد في المسند ورواه غيره ولهذا أحب القصر والفطر فعدول المؤمن عن الرهبانية والتشديد وتعذيب النفس الذي لا يحبه الله إلى ما يحبه الله من الرخصة هو من الحسنات التي يثيبه الله عليها وإن فعل مباحا لما إقترن به من الإعتقاد والقصد الذين كلاهما طاعة لله ورسوله فإنما الأعمال بالنيات وإنما لكل إمرئ ما نوى و أيضا فالعبد مأمور بفعل ما يحتاج إليه من المباحات هو مأمور بالأكل عند الجوع والشرب عند العطش ولهذا يجب على المضطر إلى الميتة أن يأكل منها ولو لم يأكل حتى مات كان مستوجبا للوعيد كما هو قول جماهير العلماء من الأئمة الأربعة وغيرهم وكذلك هو مأمور بالوطء عند حاجته إليه بل وهو مأمور بنفس عقد النكاح إذا إحتاج إليه وقدر عليه فقول النبي في بضع أحدكم صدقة فإن المباحة مأمور بها لحاجته ولحاجة المرأة إلى ذلك فإن قضاء حاجتها التي لا تنقضى إلا به بالوجه المباح صدقة و السلوك سلوك الأبرار أهل اليمين وهو أداء الواجبات وترك المحرمات باطنا وظاهرا و الثاني سلوك المقربين السابقين وهو فعل الواجب والمستحب بحسب الإمكان وترك المكروه والمحرم كما قال النبي إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم¹

العبد له في المقدور حالان

و كل عمل لا يعين الله العبد عليه فإنه لا يكون و لا ينفع فما لا يكون به لا يكون و ما لا يكون له لا ينفع و لا يدوم فلذلك أمر العبد أن يقول {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} الفاتحة⁵ والعبد له في المقدور حالان حال قبل القدر و حال بعده فعليه قبل المقدور أن يستعين بالله و يتوكل عليه و يدعوه فإذا قدر المقدور بغير فعله فعليه أن يصبر عليه أو يرضى به و إن كان بفعله و هو نعمة حمد الله على ذلك و إن كان ذنبا إستغفر إليه من ذلك وله في المأمور حالان حال قبل

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 456-463

الفعل و هو العزم على الإمتثال و الإستعانة بالله على ذلك و حال بعد الفعل و هو الأستغفار من التقصير و شكر الله على ما أنعم به من الخير و قال تعالى {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ} غافر 55 أمره أن يصبر على المصائب المقدرة و يستغفر من الذنب و إن كان إستغفار كل عبد بحسبه فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين و قال تعالى {وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} آل عمران 186 و قال يوسف { **إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** } يوسف 90 فذكر الصبر على المصائب و التقوى بترك المعائب و قال النبي صلى الله عليه و سلم إحرص على ما ينفعك و استعن بالله و لا تعجزن و إن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا و كذا و لكن قل قدر الله و ما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان فأمره إذا أصابته المصائب أن ينظر إلى القدر و لا يتحسر على الماضي بل يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه و أن ما أخطأه لم يكن ليصيبه فالنظر إلى القدر عند المصائب و الإستغفار عند المعائب قال تعالى {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلٍ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} 22 {لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} 23 {الحديد 22- 23} و قال تعالى {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ} {التغابن 11} قال علقمة و غيره هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى و يسلم و الله سبحانه و تعالى أعلم¹

من احتج بالقدر على ترك الأمور فقد عكس الايمان والدين

ومن الضالين في القدر من خاصم الرب في جمعه بين القضاء والقدر والأمر والنهي كما يذكرون ذلك على لسان إبليس وهؤلاء خصماء الله وأعداؤه و أما أهل الايمان فيؤمنون بالقضاء والقدر والأمر والنهي ويفعلون الأمور ويتركون المحظور و يصبرون على المقدور كما قال تعالى { **إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** } يوسف 90 فالنقوى تتناول فعل الأمور وترك المحظور والصبر يتضمن الصبر على المقدور وهؤلاء إذا أصابتهم مصيبة في الأرض أو في أنفسهم علموا أن ذلك في كتاب وأن ما أصابهم لم يكن ليخطئهم وما أخطأهم لم يكن ليصيبهم فسلموا الأمر لله وصبروا على ما ابتلاهم به و أما إذا جاء أمر الله فانهم يسارعون في الخيرات ويسابقون الى الطاعات ويدعون ربهم رغبا ورهبا ويجتنبون محارمه ويحفظون حدوده ويستغفرون الله ويتوبون اليه من تقصيرهم فيما أمر وتعيدهم لحدوده علما منهم بأن التوبة فرض على العباد دائما واقتداء بنبيهم حيث يقول في الحديث الصحيح أيها الناس توبوا إلى ربكم فالذي نفسي بيده انى لاستغفر الله وأتوب اليه في اليوم مائة مرة وفي رواية أكثر من سبعين مرة وآخر سورة نزلت عليه (إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ } 1 { وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا } 2 { فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا } 3 { النصر 1-3 }²

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 76-77

²مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 303-304

والعبد مأمور ان يصبر على المقدور ويطيع المأمور واذا أذنب استغفر كما قال تعالى {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ} غافر 55 وقال تعالى {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ} التغابن 11 قال طائفة من السلف هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم فمن احتج بالقدر على ترك المأمور وجزع من حصول ما يكرهه من المقدور فقد عكس الايمان والدين وصار من حزب الملحدين المنافقين وهذا حال المحتجين بالقدر فإن أحدهم اذا أصابته مصيبة عظم جزعه وقل صبره فلا ينظر الى القدر ولا يسلم له واذا أذنب ذنبا أخذ يحتج بالقدر فلا يفعل المأمور ولا يترك المحذور ولا يصبر على المقدور ويدعى مع هذا أنه من كبار أولياء الله المتقين وأئمة المحققين الموحدين وانما هو من أعداء الله الملحدين وحزب الشيطان اللعين وهذا الطريق انما يسلكه أبعد الناس عن الخير والدين والايمان تجد أحدهم أجبر الناس اذا قدر وأعظمهم ظلما وعدوانا وأذل الناس اذا قهر وأعظمهم جزعا ووهنا كما جربه الناس من الاحزاب البعيدين عن الايمان بالكتاب والمقاتلة من أصناف الناس والمؤمن ان قدر عدل وأحسن وان قهر وغلب صبر واحتسب كما قال كعب بن زهير فى قصيدته التى أشدها للنبي صلى الله عليه وسلم التى أولها بانئت سعاد الخ فى صفة المؤمنين ليسوا مفاريج إن نالت رماحهم يوما وليسوا مجازيعا اذا نيلوا وسئل بعض العرب عن شىء من أمر النبي فقال رأيتاه يغلب فلا يبطر ويغلب فلا يضجر وقد قال تعالى {قَالُوا أَأَتَاكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} يوسف 90 وقال تعالى {وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً} آل عمران 120 وقال تعالى {بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ} آل عمران 125 وقال تعالى {وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} آل عمران 186 فذكر الصبر والتقوى فى هذه المواضع الاربعة فالصبر يدخل فيه الصبر على المقدور والتقوى يدخل فيها فعل المأمور وترك المحذور فمن رزق هذا وهذا فقد جمع له الخير بخلاف من عكس فلا يتقى الله بل يترك طاعته متبعا لهواه ويحتج بالقدر ولا يصبر اذا ابتلى ولا ينظر حينئذ الى القدر فان هذا حال الاشقياء كما قال بعض العلماء أنت عند الطاعة قدرى وعند المعصية جبرى أى مذهب وافق هواك تمذهبت به يقول أنت اذا أطعت جعلت نفسك خالقا لطاعتك فتنسى نعمة الله عليك أن جعلك مطيعا له واذا عصيت لم تعترف بانك فعلت الذنب بل تجعل نفسك بمنزلة المجبور عليه بخلاف مراده أو المحرك الذى لا إرادة له ولا قدرة ولا علم وكلاهما خطأ وقد ذكر أبو طالب المكى عن سهل بن عبد الله التستري أنه قال إذا عمل العبد حسنة فقال أى ربى أنا فعلت هذه الحسنة قال له ربه أنا يسرتك لها وأنا أعنتك عليها فان قال أى ربى أنت أعنتى عليها ويسرتنى لها قال له ربه أنت عملتها وأجرها لك واذا فعل سيئة فقال أى ربى أنت قدرت على هذه السيئة قال له ربه أنت اكتسبتها وعليك وزرها فان قال أى ربى انى أذنبت هذا الذنب وأنا أتوب منه قال له ربه أنا قدرته عليك وأنا أغفره لك وهذا باب مبسوط فى غير هذا الموضع وقد كثر فى كثير من المنتسبين الى المشيخة والتصوف شهود القدر فقط من غير شهود الأمر والنهى والاستناد اليه فى ترك المأمور وفعل المحذور وهذا أعظم الضلال ومن طرد هذا القول والتزم لوازمه كان أكفر من اليهود والنصارى والمشركين لكن أكثر من يدخل فى ذلك يتناقض ولا يطرد قوله¹

¹مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 328

لفظ الخطأ يستعمل في العمد وفي غير العمد

ولفظ الخطأ يستعمل في العمد وفي غير العمد قال تعالى {وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا} {الإسراء 31} والا كثرون يقرؤون خطأ على وزن رداً وعلما وقرأ ابن عامر خط على وزن عملا كلفظ الخطأ في قوله {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطْئًا} {النساء 92} وقرأ ابن كثير خطاء على وزن هجاء وقرأ ابن رزين خطاء على وزن شرابا وقرأ الحسن وقتادة خطا على وزن قتلا وقرأ الزهري خطا بلا همز على وزن عدى قال الاخفش خطى يخطأ بمعنى أذنب وليس معنى أخطأ لان اخطأ في ما لم يصنعه عمدا يقول فيما اتيت به عمدا خطيت وفيما لم يتعمده أخطأت وكذلك قال أبو بكر ابن الانباري الخطأ الاثم يقال قد خطا يخطا اذا اثم وأخطأ يخطيء اذا فارق الصواب وكذلك قال ابن الانباري في قوله {قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ أَتَرَكْنَا اللَّهَ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ} {يوسف 91} فان المفسرين كابن عباس وغيره قالوا لمذنبين آثمين في أمرك وهو كما قالوا فانهم قالوا {قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ} {يوسف 97} وكذلك قال العزيز لامرأته {وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ} {يوسف 29} قال ابن الانباري ولهذا اختير خاطئين على مخطئين وان كان اخطأ على ألسن الناس اكثر من خطا يخطى لان معنى خطا يخطى فهو خاطيء اثم ومعنى أخطأ يخطيء ترك الصواب ولم ياتم قال عبادك يخطئون وأنت رب تكفل المنايا والحتوم وقال الفراء الخطأ الاثم الخطا والخطا والخطا ممدود ثلاث اللغات قلت يقال في العمد خطأ كما يقال في غير العمد على قراءة ابن عامر فيقال لغير المتعمد أخطأت كما يقال له خطيت ولفظ الخطيئة من هذا ومنه قوله تعالى {مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا} {نوح 25} وقول السحرة {إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَاتِنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ} {الشعراء 51} ومنه قوله في الحديث الصحيح الالهي يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم وفي الصحيحين عن أبي موسى عن النبي أنه كان يقول في دعائه اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني اللهم اغفر لي هزلي وجدي وخطئي وعمدي وكل ذلك عندي وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي أنه قال أرأيت سكوتك بين التكبير والقراءة ماذا تقول قال أقول اللهم باعد بيني وخطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب اللهم نقني من خطاياي كما ينقي الثوب الأبيض من الدنس اللهم اغسلني من خطاياي بالماء والثلج والبرد والذين قالوا كل مجتهد مصيب والمجتهد لا يكون على خطأ وكرهوا أن يقال للمجتهد إنه أخطأ هم وكثير من العامة يكره أن يقال عن إمام كبير إنه أخطأ وقوله أخطأ لأن هذا اللفظ يستعمل في الذنب كقراءة بن عامر إنه كان خطأ كبيرا ولأنه يقال في العمد أخطأ يخطيء كما قال يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم فصار لفظ الخطا والخطأ قد يتناول النوعين كما يخض غير العامل وأما لفظ الخطيئة فلا يستعمل إلا في الاثم والمشهور أن لفظ الخطأ يفارق العمد كما قال تعالى {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطْئًا وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطْئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ} {النساء 92} الآية ثم قال بعد ذلك {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ} {النساء 93} وقد بين الفقهاء أن الخطأ ينقسم إلى خطأ في الفعل وإلى خطأ في القصد فالأول أن يقصد الرمي إلى ما يجوز رميه من صيد وهدف فيخطيء بها وهذا فيه

الكفارة والدية والثاني أن يخطى في قصده لعدم العلم كما أخطأ هناك لضعف القوة وهو أن يرمى من يعتقد مباح الدم ويكون معصوم الدم كمن قتل رجلا في صفوف الكفار ثم تبين أنه كان مسلما والخطأ في العلم هو من هذا النوع ولهذا قيل في أحد القولين إنه لا دية فيه لأنه مأمور به بخلاف الأول وأيضا فقد قال تعالى { وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ } الأحزاب 5 ففرق بين النوعين وقال تعالى { رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا } البقرة 286 وقد ثبت في الصحيح ان الله تعالى قال قد فعلت فلفظ الخطأ وأخطأ عند الاطلاق يتناول غير العمد وإذا ذكر مع النسيان أو ذكر في مقابلة العمد كان ناصا فيه وقد يراد به مع القرينة العمد أو العمد والخطأ جميعا كما في قراءة ابن عامر وفي الحديث الالهي إن كان لفظه كما يرويه عامة المحدثين تخطئون بالضم واما اسم الخاطيء فلم يجيء في القرآن الا للثم بمعنى الخطيئة كقوله { وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ } يوسف 29 وقوله { قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ } يوسف 91 وقوله { قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ } يوسف 97 وقوله { لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِؤُونَ } الحاقة 37¹

في قصة يوسف أنواع من العبرة للمظلوم والمحسود والمبتلى بدواعي الفواحش

الله هو أرحم الراحمين وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها كما أقسم على ذلك النبي فقال والله الله أرحم بعباده من هذه الوالدة بولدها²

قال الله تعالى { وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } يوسف 56 وأذل الله الذين ظلموه ثم تابوا فكان فيها من العبرة أن المظلوم المحسود إذا صبر وإتقى الله كانت له العاقبة وأن الظالم الحاسد قد يتوب الله عليه و يعفو عنه وأن المظلوم ينبغي له العفو عن ظالمه إذا قدر عليه وبهذا إعتبر النبي صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة لما قام على باب الكعبة وقد أذل الله له الذين عادوه وحاربوه من الطلقاء فقال ماذا أنتم قائلون فقالوا نقول أخ كريم وابن عم كريم فقال إني قائل لكم كما قال يوسف لأخوته { قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّومَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ } يوسف 92 و كذلك عائشة لما ظلمت وافتري عليها وقيل لها إن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه فقالت في كلامها أقول كما قال أبو يوسف { فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ } يوسف 18 ففي قصة يوسف أنواع من العبرة للمظلوم والمحسود والمبتلى بدواعي الفواحش و الذنوب وغير ذلك³

¹مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 20-23

²مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 400

³مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 23

القديم خلاف الحديث

القديم خلاف الحديث وإن كان مسبقاً بغيره قال تعالى { **قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ** } **يوسف 95** وكل ما تقدم على غيره فهو قديم في لغة العرب كما قال { **كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ** } يس 39 وقال { **وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَمَسِيْقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ** } الأحقاف 11 وقال { **قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ** } 75 { **أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ** } 76 الشعراء 75-76¹

اصطلاح المتكلمين على ان القديم هو مالا أول لوجوده أو ما لم يسبقه عدم ثم يقول بعضهم وقد يستعمل القديم في المتقدم على غيره سواء كان أزلياً أو لم يكن كما قال تعالى { **حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ** } يس 39 وقال { **وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَمَسِيْقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ** } الأحقاف 11 وقوله تعالى { **قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ** } يوسف 95 وقال { **أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ** } 75 { **أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ** } 76 الشعراء 75-76 وتخصيص القديم بالأول عرف اصطلاحى ولا ريب انه أولى بالقدم في لغة العرب ولهذا كان لفظ المحدث في لغة العرب بازاء القديم قال تعالى { **مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ** } الأنبياء 2 وهذا يقتضى أن الذى نزل قبله ليس بمحدث بل متقدم وهذا موافق للغة العرب التى نزل بها القرآن²

الذنوب المعصية

قال تعالى { **فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا** } قَالَ **أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** } 96 { **قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ** } 97 { **قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ** } 98 { **يوسف 96-98** عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك لفظ الذنوب إذا أطلق دخل فيه ترك كل واجب وفعل كل محرم كما فى قوله { **يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا** } الزمر 53 ثم قد يقرن بغيره كما فى قوله { **رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا** } آل عمران 147³

الذنوب المعصية والمعصية تضييع الفرائض وانتهاك المحارم وهو مخالفة الأمر والنهي⁴

¹الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 1

²مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 105

³مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 166

⁴مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 362

من الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه

من الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل بل يؤمنون بأن الله سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يلحدون في أسماء الله وآياته ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه لأنه سبحانه لا سمي له ولا كفو له ولا ند له ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى فإنه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلاً وأحسن حديثاً من خلقه وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات وقد دخل في هذه الجملة قوله سبحانه {قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ} يوسف 98¹

التأويل في لغة القرآن

من معانى التأويل هو الحقيقة التي يؤول اليها الكلام كما قال الله تعالى {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ} الأعراف 53 فتأويل ما فى القرآن من أخبار المعاد هو ما اخبر الله به فيه مما يكون من القيامة والحساب والجزاء والجنة والنار ونحو ذلك كما قال الله تعالى فى قصة يوسف لما سجد أبواه وإخوته قال {يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ} يوسف 100 فجعل عين ما وجد فى الخارج هو تأويل الرؤيا²

قال تعالى {فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبْوِيهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ} 99 {وَرَفَعَ أَبْوِيهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجْدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} 100 {يوسف 99-100 فتأويل الأحاديث التي هى رؤيا المنام هى نفس مدلولها التي تؤول اليه كما قال يوسف {هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ} يوسف 100 والعالم بتأويلها الذى يخبر به كما قال يوسف {لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ} يوسف 37 أى فى المنام {إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيكُمَا} يوسف 37 أى قبل أن يأتياكما التأويل³

¹العقيدة الواسطية ج: 1 ص: 10

²مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 56

³مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 300

وقد كتبت كلام أحمد بألفاظه كما ذكره الخلال في كتاب السنة و كما ذكره من نقل كلام أحمد بإسناده في الكتب المصنفة في ذلك في غير هذا الموضع و بين أن لفظ التأويل في الآية إنما أريد به التأويل في لغة القرآن كقوله تعالى { هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ } الأعراف 53 وعن ابن عباس في قوله { هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ } الأعراف 53 تصديق ما وعد في القرآن وعن قتادة تأويله ثوابه وعن مجاهد جزاءه وعن السدي عاقبته وعن ابن زيد حقيقته قال بعضهم تأويله ما يؤول إليه أمرهم من العذاب وورود النار وقوله تعالى { بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ } يونس 39 قال بعضهم تصديق ما وعدوا به من الوعيد والتأويل ما يؤول إليه الأمر وعن الضحاك يعني عاقبة ما وعد الله في القرآن أنه كائن من الوعيد والتأويل ما يؤول إليه الأمر وقال الثعلبي تفسيره وليس بشيء وقال الزجاج لم يكن معهم علم تأويله وقال يوسف الصديق عليه السلام { يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ } يوسف 100 فجعل نفس سجود أبويه له تأويل رؤياه¹

أن التأويل هو الحقيقة التي يؤول الكلام إليها وان وافقت ظاهره فتأويل ما أخبر الله به في الجنة من الأكل والشرب واللباس والنكاح وقيام الساعة وغير ذلك هو الحقائق الموجودة أنفسها لا ما يتصور من معانيها في الأذهان ويعبر عنه باللسان وهذا هو التأويل في لغة القرآن كما قال تعالى عن يوسف أنه قال { يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا } يوسف 100 وقال تعالى { هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ } الأعراف 53 وقال تعالى { فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا } النساء 59 وهذا التأويل هو الذي لا يعلمه الا الله وتأويل الصفات هو الحقيقة التي انفرد الله تعالى بعلمها وهو الكيف المجهول الذي قال فيه السلف كمالك وغيره الإستواء معلوم والكيف مجهول فالاستواء معلوم يعلم معناه ويفسر و يترجم بلغة اخرى وهو من التأويل الذي يعلمه الراسخون في العلم وأما كيفية ذلك الاستواء فهو التأويل الذي لا يعلمه الا الله تعالى وقد روى عن ابن عباس ما ذكره عبدالرزاق وغيره في تفسيرهم عنه أنه قال تفسير القرآن على أربعة أوجه تفسير تعرفه العرب من كلامها وتفسير لا يعذر أحد بجهالته وتفسير يعلمه العلماء وتفسير لا يعلمه الا الله عز وجل فمن ادعى علمه فهو كاذب²

{إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ }

وقد قال تعالى في سورة الملك { وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ } الملك 14 وهو بيان ما في المخلوقات من لطف الحكمة التي تتضمن إيصال الأمور إلى غاياتها بألطف الوجوه كما قال يوسف عليه السلام

¹مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 364-373

²مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 36-37

{إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} يوسف 100 وهذا يستلزم العلم بالغاية المقصودة والعلم بالطريق الموصل وكذلك الخبرة¹

السجود على ضربين سجود عبادة محضة وسجود تشریف

أبو يوسف وإخوته خروا له سجدا ويقال كانت تحيتهم فكيف يقال إن السجود حرام مطلقا وقد كانت البهائم تسجد للنبي والبهائم لا تعبد الله فكيف يقال يلزم من السجود لشيء عبادته وقد قال النبي ولو كنت أمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لعظم حقه عليها ومعلوم أنه لم يقل لو كنت أمرا أحدا أن يعبد وفيه التفسير أن يقال أما الخضوع والقنوت بالقلوب والإعراف بالربوبية والعبودية فهذا لا يكون على الإطلاق إلا لله سبحانه وتعالى وحده وهو غيره ممتنع باطل وأما السجود فشريعة من الشرائع إذ أمرنا الله تعالى أن نسجد له ولو أمرنا أن نسجد لأحد من خلقه غيره لسجدنا لذلك الغير طاعة لله عز وجل إذ أحب أن نعظم من سجدنا له ولو لم يفرض علينا السجود لم يجب البتة فعله فسجود الملائكة لآدم عبادة لله وطاعة له وقربة يتقربون بها إليه وهو لآدم تشریف وتكريم وتعظيم وسجود أخوة يوسف له تحية وسلام ألا ترى أن يوسف لو سجد لأبويه تحية لم يكره له وقوله { وَلَهُ يَسْجُدُونَ } الأعراف 206 فإنه إن سلم أنه يفيد الحصر فالقصد منه والله أعلم الفضل بينهم وبين البشر الذين يشركون بربهم ويعبدون غيره فأخبرهم أن الملائكة لا تعبد غيره ثم هذا عام وتلك الآية خاصة فيستثنى آدم ثم يقال السجود على ضربين سجود عبادة محضة وسجود تشریف فأما الأول فلا يكون إلا لله وأما الثاني فلم قلت إنه كذلك والآية محمولة على الأول توفيقا بين الدلائل²

الإحناء عند التحية منهي عنه

وأما الإحناء عند التحية فينهي عنه كما في الترمذي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنهم سألوه عن الرجل يلقي أخاه ينحنى له قال لا ولأن الركوع والسجود لا يجوز فعله إلا لله عز وجل وإن كان هذا على وجه التحية في غير شريعتنا كما في قصة يوسف { وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ } يوسف 100 وفي شريعتنا لا يصلح السجود إلا لله بل قد تقدم نهي عن القيام كما يفعله الأعاجم بعضها لبعض فكيف بالركوع والسجود وكذلك ما هو ركوع ناقص يدخل في النهي عنه³

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 354-355

²مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 361

³مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 377

فان الله تعالى قد أخبر عن سجود إخوة يوسف وأبويه وأخبر عن الذين غلبوا على أهل الكهف أنهم قالوا { لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا } الكهف 21 فلم يلزم أن يكون هذا شرعا لنا فنحن قد نهينا عن بناء المساجد على القبور¹

لطائف لغوية

1- في قوله تعالى { أَيْعِدُكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِئْتُمْ وَكُنْتُمْ ثُرَابًا وَعِظَامًا أَنْتُمْ مُخْرَجُونَ } المؤمنون 35 طال الفصل بين أن وإسمها وخبرها فأعاد أن لتقع على الخبر لتأكيد به ونظير هذا قوله تعالى { أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ } التوبة 63 لما طال الكلام أعاد أن هذا قول الزجاج وطائفة وأحسن من هذا أن يقال كل واحدة من هاتين الجملتين شرطية مركبة من جملتين جزائيتين فأكدت الجملة الشرطية بأن على حد تأكيدها في قول الشاعر إن من يدخل الكنيسة يوما يلق فيها جاذرا وظباء ثم أكدت الجملة الجزائية ب أن إذ هي المقصودة على حد تأكيدها في قوله تعالى { وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ } الأعراف 170 ونظير الجمع بين تأكيد الجملة الكبرى المركبة من الشرط والجزاء وتأكيد جملة الجزاء قوله تعالى { إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } يوسف 90 فلا يقال في هذا إن أعيدت لطول الكلام ونظيره قوله تعالى { إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى } طه 74 ونظيره { أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } الأنعام 54 فهما تأكيدان مقصودان لمعنيين مختلفين ألا ترى تأكيد قوله غفور رحيم ب إن غير تأكيد من عمل سوءا بجهالة فإنه غفور رحيم له ب أن وهذا ظاهر لإخفاء به وهو كثير في القرآن وكلام العرب²

2- قال تعالى { قَالُوا أَلَيْكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } يوسف 90 عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك إذا أفرد اسم طاعة الله دخل في طاعته كل ما أمر به وكانت طاعة الرسول داخلة في طاعته وكذا اسم التقوى إذا افرد دخل فيه فعل كل مأمور به وترك كل محذور قال طلق بن حبيب التقوى ان تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو رحمة الله وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عذاب الله وهذا كما في قوله { إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ } 54 { فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ } 55 { الْقَمَرِ 54- 55 } وقد يقرن بها اسم آخر كقوله { وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا } 2 { وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ } 3 { الطلاق 2- 3 } وقوله { إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ } يوسف 90 وقوله { وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ } النساء 1³

¹مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 300

²مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 276- 279

³مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 164

3- قال تعالى { قَالُوا إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } يوسف 90 وأما الإحسان فقوله أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك قد قيل أن الإحسان هو الإخلاص والتحقيق أن الإحسان يتناول الإخلاص وغيره والإحسان يجمع كمال الإخلاص لله ويجمع الإتيان بالفعل الحسن الذي يحبه الله قال تعالى { بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } البقرة 112 وقال تعالى { وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا } النساء 125 فذكر إحسان الدين أولاً ثم ذكر الإحسان ثانياً¹

4- قال تعالى { قَالُوا تَأْتِيهِمْ إِنْكَ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ } يوسف 95 فالمحدث يقابل هذا القديم²

5- قال تعالى { فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } 96 { قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ } 97 { قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } 98 { يوسف 96- 98 عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتفديد وكذلك لفظ الذنوب إذا أطلق دخل فيه ترك كل واجب وفعل كل محرم كما في قوله { يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا } الزمر 53 ثم قد يقرن بغيره كما في قوله { رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا } آل عمران 147³

6- الذنوب المعصية والمعصية تضييع الفرائض وانتهاك المحارم وهو مخالفة الأمر والنهي⁴

7- قال تعالى { وَرَفَعَ أَبْوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبْتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 622

²الصفدية ج: 2 ص: 85 و مجموع الفتاوى ج: 12 ص: 522 والجواب الصحيح ج: 3 ص: 269 و مجموع

الفتاوى ج: 1 ص: 245

³مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 166

⁴مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 362

بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ {يوسف 100} عليم منزه عن الجهل
حكيم منزه عن السفه¹

8-قال تعالى { وَرَفَعَ أَبْوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبْتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ
جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ
بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ {يوسف 100} أن الخرور هو السقوط
والوقوع²

9-لفظ التأويل في كتاب الله يراد به ما يؤول إليه الكلام وإن وافق ظاهره ومنه تأويل الرؤيا كقول
يوسف الصديق { وَرَفَعَ أَبْوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبْتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ
قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ
الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ {يوسف 100}³

¹الجواب الصحيح ج: 4 ص: 407

²مجموع الفتاوى ج: 22 ص: 549

³الجواب الصحيح ج: 4 ص: 73

يوسف 101-111

{ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ
وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ {101} ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ
نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ {102} وَمَا أَكْثَرَ النَّاسَ وَلَوْ
حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ {103} وَمَا تَسَأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ {104} وَكَأَيِّنْ
مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ {105} وَمَا يُؤْمِنُ
أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ {106} أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمْ
السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ {107} قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ
اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ {108} وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي
إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ {109} حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ
كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَشَاءٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ {110} لَقَدْ كَانَ
فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ
وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ {111}

دين الأنبياء كلهم الإسلام

وقد ذكر في غير موضع أن دين الأنبياء كلهم الإسلام كما قال تعالى عن نوح { وَأَمْرٌ أَنْ أَكُونَ
مِنَ الْمُسْلِمِينَ } النمل 91 وقال عن إبراهيم { إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ {131} }
وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ {132} }
البقرة 131-132 وقال يوسف { فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي
مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ } يوسف 101 { وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ
كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ } يونس 84 وقال عن السحرة { رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّفْنَا مُسْلِمِينَ } الأعراف 126
وقال عن بلقيس { رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } النمل 44 وقال { وَإِذْ أُوحِيَتْ إِلَى
يَحْيَىٰ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ } المائدة 44 وقال { وَإِذْ أُوحِيَتْ إِلَى
الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ } المائدة 111 وفي الصحيحين عن
النبي صلى الله عليه وسلم قال إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد وتنوع الشرائع لا يمنع أن يكون الدين
واحدا وهو الإسلام كالدين الذي بعث الله به محمدا صلى الله عليه وسلم فإنه هو دين الإسلام أولا
وأخرا وكانت القبلة في أول الأمر بيت المقدس ثم صارت القبلة الكعبة وفي كلا الحالين الدين
واحد وهو دين الإسلام فهكذا سائر ما شرع للأنبياء قبلنا ولهذا حيث ذكر الله الحق في القرآن
جعله واحدا وجعل الباطل متعددا كقوله { وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ

فَفَرَّقَ بَيْنَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ { الأنعام 153 } وقوله { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } {6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ {7} الفاتحة 6-7¹

دين الأنبياء واحد وان تنوعت شرائعهم

أن الإسلام دين و الدين مصدر دان يدين ديننا اذا خضع وذل و دين الاسلام الذي ارتضاه الله وبعث به رسله هو الاستسلام لله وحده فاصله في القلب هو الخضوع لله وحده بعبادته وحده دون ما سواه فمن عبده و عبد معه الها آخر لم يكن مسلما ومن لم يعبده بل استكبر عن عبادته لم يكن مسلما والاسلام هو الاستسلام لله وهو الخضوع له والعبودية له هكذا قال اهل اللغة اسلم الرجل اذا استسلم فالاسلام في الاصل من باب العمل عمل القلب والجوارح²

حقيقة الدين هي عبادة الله وحده لا شريك له وهي حقيقة دين الاسلام وهو ان يستسلم العبد لله رب العالمين لا يستسلم لغيره فمن استسلم له ولغيره كان مشركا والله { لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ } النساء 48 ومن لم يستسلم لله بل استكبر عن عبادته كان ممن قال الله فيه { إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ } غافر 60 ودين الاسلام هو دين الأولين والآخرين من النبيين والمرسلين وقوله تعالى { وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ } آل عمران 85 عام في كل زمان ومكان فنوح وإبراهيم ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى والحواريون كلهم دينهم الاسلام الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له قال الله تعالى عن نوح { يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ } آل عمران 51 وقال يوسف عليه السلام { تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ } يوسف 101 فدين الأنبياء واحد وان تنوعت شرائعهم كما في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم قال انا معشر الأنبياء ديننا واحد³

حقيقة دين الإسلام

فإن الربوبية العامة قد أقر بها المشركون الذين قال فيهم { وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ } يوسف 106 وإنما يصير الرجل مسلما حنيفا موحدًا إذا شهد أن لا إله إلا الله فعبد الله وحده بحيث لا يشرك معه أحدا في تألهه ومحبهه له وعبوديته وإنابته إليه وإسلامه له ودعائه له والتوكل

¹ منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 265-270 و مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 112

² مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 271

³ مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 220 و اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 450 و رسالة في التوبة ج: 1 ص: 234

عليه وموالاته فيه ومعاداته فيه ومحبته ما يحب وبغضه ما يبغض ويفنى بحق التوحيد عن باطل الشرك وهذا فناء يقارنه البقاء فيفنى عن تأله ماسوى الله بتأله الله تحقيقاً لقوله لا إله إلا الله فيفنى ويفنى من قلبه تأله ما سواه ويثبت بيقني في قلبه تأله الله وحده وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة وفي الحديث الآخر من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة وقال في الصحيح لقتلوا موتاكم لا إله إلا الله فإنها حقيقة دين الإسلام فمن مات عليها مات مسلماً والله تعالى قد أمرنا ألا نموت إلا على الإسلام في غير موضع كقوله تعالى { اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } آل عمران 102 وقال الصديق { تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ } يوسف 101 والصحيح من القولين أنه لم يسأل الموت ولم يتمنه وإنما سأل أنه إذا مات يموت على الإسلام فسأل الصفة لا الموصوف كما أمر الله بذلك وأمر به خليله إبراهيم وإسرائيل وهكذا قال غير واحد من العلماء منهم ابن عقيل وغيره والله تعالى أعلم¹

دين الإسلام مبنى على أصليين

فإن الله أمر العباد كلهم أن يعبدوه مخلصين له الدين وهذا هو دين الإسلام الذي بعث الله به الأولين والآخرين من الرسل فلا يقبل من أحد ديناً غيره قال تعالى { وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ } آل عمران 85 وكان نوح وإبراهيم وموسى والمسيح وسائر أتباع الأنبياء عليهم السلام على الإسلام وقال يوسف { تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ } يوسف 101 ودين الإسلام مبنى على أصليين أن نعبد الله وحده لا شريك له وأن نعبد بما شرعه من الدين وهو ما أمرت به الرسل أمر إيجاب أو أمر استحباب فيعبد في كل زمان بما أمر به في ذلك الزمان فلما كانت شريعة التوراة محكمة كان العاملون بها مسلمين وكذلك شريعة الإنجيل وكذلك في أول الإسلام لما كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلى الى بيت المقدس كانت صلواته اليه من الإسلام ولما أمر بالتوجه الى الكعبة كانت الصلاة اليها من الإسلام والعدول عنها الى الصخرة خروجاً عن دين الإسلام فكل من لم يعبد الله بعد مبعث محمد بما شرعه الله من واجب ومستحب فليس بمسلم ولا بد في جميع الواجبات والمستحبات أن تكون خالصة لله رب العالمين²

بكمال العبودية لله يبرأ من الكبر والشرك

لن يستغنى القلب عن جميع المخلوقات الا بأن يكون الله هو مولاه الذي لا يعبد إلا اياه ولا يستعين الا به ولا يتوكل الا عليه ولا يفرح الا بما يحبه ويرضاه ولا يكره الا ما يبغضه الرب ويكرهه ولا يوالي الا من والاه الله ولا يعادى الا من عاداه الله ولا يحب إلا الله ولا يبغض شيئاً الا الله ولا يعطى

¹مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 370

²مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 190

الا الله ولا يمنع الا الله فكلما قوى اخلاص دينه الله كملت عبوديته واستغناؤه عن المخلوقات وبكمال عبوديته لله يبرئه من الكبر والشرك والشرك غالب على النصارى والكبر غالب على اليهود قال تعالى في النصارى { اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ } التوبة 31 وقال في اليهود { أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ } البقرة 87 وقال تعالى { سَأَصْرَفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كَلِمًا آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوا سَبِيلَ الرَّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا } الأعراف 146 ولما كان الكبر مستلزماً للشرك والشرك ضد الاسلام وهو الذنب الذي لا يغفره الله { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا } النساء 48 وقال { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا } النساء 116 كان الانبياء جميعهم مبعوثين بدين الاسلام فهو الدين الذي لا يقبل الله غيره لا من الاولين ولا من الآخرين قال في حق ابراهيم { وَمَنْ يَرْغَبْ عَنِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ } { 130 } إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ } { 131 } البقرة 130-131 الى قوله { فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } البقرة 132 وقال يوسف { تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ } يوسف 101 ¹

الإسلام الذي هو دين الله الذي أنزل به كتبه وأرسل به رسله وهو أن يسلم العبد لله رب العالمين فيستسلم لله وحده لا شريك له ويكون سالماً له بحيث يكون متألهاً له غير متألهاً لما سواه كما بينته أفضل الكلام ورأس الإسلام وهو شهادة أن لا إله إلا الله وله ضدان الكبر والشرك ولهذا روى أن نوحاً عليه السلام أمر بنبيه بلا إله إلا الله وسبحان الله ونهاهم عن الكبر والشرك في حديث قد ذكرته في غير هذا الموضع فإن المستكبر عن عبادة الله لا يعبده فلا يكون مستسلماً له والذي يعبده ويعبد غيره يكون مشركاً به فلا يكون سالماً له بل يكون له فيه شرك ولفظ الإسلام يتضمن الإستسلام والسلامة التي هي الإخلاص وقد علم أن الرسل جميعهم بعثوا بالإسلام العام المتضمن لذلك كما قال تعالى { يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا } المائدة 44 وقال موسى { إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ } يونس 84 وقال تعالى { بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } البقرة 112 وقال الخليل لما قال له ربه { أَسْلِمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ } { 131 } وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } { 132 } البقرة 131-132 وقال يوسف { تَوَفَّنِي مُسْلِمًا } يوسف 101 ونظائره كثيرة وعلم أن إبراهيم الخليل هو إمام الحنفاء المسلمين بعده كما جعله أمة وإماماً وجاءت الرسل من ذريته بذلك ²

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 198-199 و الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 389

²مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 623 و الصفية ج: 2 ص: 303

الأنبياء أفضل الخلق

والأنبياء أفضل الخلق وهم أصحاب الدرجات العلى في الآخرة فيمتنع أن يكون النبي من الفجار بل ولا يكون من عموم أصحاب اليمين بل من أفضل السابقين المقربين فإنهم أفضل من عموم الصديقين والشهداء والصالحين وإن كان النبي أيضا يوصف بأنه صديق وصالح وقد يكون شهيدا لكن ذلك أمر يختص بهم لا يشركهم فيه من ليس بنبي كما قال عن الخليل { **وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ** } العنكبوت 27 وقال يوسف { **تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ** } يوسف 101 فهذا مما يوجب تنزيه الأنبياء أن يكونوا من الفجار والفساق وعلى هذا إجماع سلف الأمة وجماهيرها وأما من جوز أن يكون غير النبي أفضل منه فهو من أقوال بعض ملاحدة المتأخرين من غلاة الشيعة والصوفية والمتفلسفة ونحوهم وما يحكى عن الفضلية من الخوارج أنهم جوزوا الكفر على النبي فهذا بطريق اللزوم لهم لأن كل معصية عندهم كفر وقد جوزوا المعاصي على النبي وهذا يقتضى فساد قولهم بأن كل معصية كفر¹

الأمر باتباع السلف

الأمر باتباع الكتاب والسنة فكثير جدا كقوله { **اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ** } الأعراف 3 { **وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا** } الأنعام 155 واما السلف مثل قوله { **وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ** } النساء 83 ومنها قوله { **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** } 6 { **صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ** } غير المغضوب عليهم ولا الضالين } 7 { **الْفَاتِحَةَ** } 6-7 أمر بسؤاله الهداية الى صراطهم وقال { **فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا** } النساء 69 الآية وفيها الدلالة ومنها قوله { **وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ** } النساء 115 ومن خرج عن اجماعهم فقد اتبع غير سبيلهم ومنها قوله { **اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ** } التوبة 119 ومنها قول الخليل { **رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ** } الشعراء 83 وقول يوسف { **تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ** } يوسف 101²

من النبوة ما يكون ملكا

قد ذكرت فيما تقدم الكلام على الملك هل هو جائز في شريعتنا و لكن خلافة النبوة مستحبة وأفضل منه أم خلافة النبوة واجبة و انما تجوز تركها الى الملك للعدر كسائر الواجبات تكلمت على ذلك وأما فى شرع من قبلنا فإن الملك جائز كالغنى يكون للأنبياء تارة و للصالحين أخرى قال الله تعالى فى داود { **وَأَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ** } البقرة 251 و قال عن سليمان { **رَبِّ اغْفِرْ**

¹ منهاج السنة النبوية ج: 2 ص: 418

² مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 504

لِي وَهَبَ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ {ص35} وقال عن يوسف {رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ {يوسف101} فهؤلاء ثلاثة أنبياء أخبر الله أنه آتاهم الملك وقال {أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا {54} فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا {55} النساء54-55} فهذا ملك لآل إبراهيم وملك لآل داود وقد قال مجاهد في قوله { تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ {آل عمران26} قال النبوة فجعل النبوة نفسها ملكا والتحقيق أن من النبوة ما يكون ملكا فإن النبي له ثلاثة أحوال إما أن يكذب ولا يتبع ولا يطاع فهو نبي لم يؤت ملكا وإما أن يطاع فنفس كونه مطاعا هو ملك لكن إن كان لا يأمر إلا بما أمر به فهو عبد رسول ليس له ملك وإن كان يأمر بما يريده مباحا له ذلك بمنزلة الملك كما قيل لسليمان { هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ {ص39} فهذا نبي ملك فالملك هنا قسيم العبد الرسول كما قيل للنبي صلى الله عليه وسلم اختر إما عبدا رسولا وإما نبيا ملكا وأما بالتفسير الأول وهو الطاعة والاتباع فقسم من النبوة والرسالة وهؤلاء أكمل وهو حال نبينا صلى الله عليه وسلم فإنه كان عبدا رسولا مؤيدا مطاعا متبوعا فأعطى فائدة كونه مطاعا متبوعا ليكون له مثل أجر من اتبعه ولينتفع به الخلق ويرحموا به ويرحم بهم ولم يختر أن يكون ملكا لئلا ينقص لما في ذلك من الاستمتاع بالرياسة والمال عن نصيبه في الآخرة فإن العبد الرسول أفضل عند الله من النبي الملك ولهذا كان أمر نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم أفضل من داود وسليمان ويوسف حتى إن من أهل الكتاب من طعن في نبوة داود وسليمان كما يطعن كثير من الناس في ولاية بعض أهل الرياسة والمال وليس الأمر كذلك وأما الملوك الصالحون فقوله سبحانه { إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ {247} وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ {248} {البقرة247-248} وقوله سبحانه { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا {83} {إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا {84} {الكهف83-84} الآية قال مجاهد ملك الأرض مؤمنان وكافران فالمؤمنان سليمان وذو القرنين والكافران بختنصر ونمرود وسملكها خامس من هذه الأمة وقوله تعالى { يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا {المائدة20} وأما جنس الملوك فكثيرة كقوله { وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا {الكهف79} وقوله { وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ {يوسف43}

الصالح من استوت سريرته وعلانيته على ما يرضى ربه

¹مجموع الفتاوى ج: 35 ص: 33-35

وكذلك لفظ الصالح و الشهيد و الصديق يذكر مفردا فيتناول النبيين قال تعالى
 في حق الخليل { وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ } العنكبوت 27 وقال
 { وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ } النحل 122 وقال الخليل { رَبِّ هَبْ لِي
 حُكْمًا وَاجْعَلْنِي بِالصَّالِحِينَ } الشعراء 83 وقال يوسف { تَوَقَّيْ مُسْلِمًا وَاجْعَلْنِي بِالصَّالِحِينَ }
 يوسف 101 وقال سليمان { وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ } النمل 19 وقال النبي
 صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح المتفق على صحته لما كانوا يقولون في آخر صلاتهم
 السلام على الله قبل عبادته السلام على فلان فقال لنا رسول الله ذات يوم ان الله هو السلام
 فاذا قعد أحدكم في الصلاة فليقل التحيات لله والصلوات والطيبات السلام عليك أيها النبي ورحمة الله
 وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فاذا قالها أصابت كل عبد صالح لله في السماء
 والأرض الحديث وقد يذكر الصالح مع غيره كقوله تعالى { فَأَوْلِيكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ
 اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا } النساء 69 قال الزجاج
 وغيره الصالح القائم بحقوق الله وحقوق عباده ولفظ الصالح خلاف الفاسد فاذا أطلق فهو الذي
 أصلح جميع امره فلم يكن فيه شيء من الفساد فاستوت سريرته وعلانيته وأقواله وأعماله على ما
 يرضى ربه وهذا يتناول النبيين ومن دونهم¹

الحكمة من نفي شهادة محمد لهذه الأمور الغائبة وحضوره لها

فإن الذي اتفقت عليه الكتب والرسول هو الذي لا يد للخلق منه في كل زمان ومكان وهو الإيمان بالله
 واليوم الآخر والعمل الصالح كما قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ
 آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ }
 البقرة 62 وعامة السورة المكية كالأنعام والأعراف وآل حم وآل طس وآل الرهي من الأصول
 الكلية التي اتفقت عليها شرائع المرسلين كالأمر بعبادة الله وحده لا شريك له والصدق والعدل
 والإخلاص وتحريم الظلم والفواحش والشرك والقول على الله بلا علم وعامة ما عند اهل الكتاب من
 النقول الصحيحة عن الأنبياء من التوراة والإنجيل والزبور ونبوات الأنبياء توافق المنقول عن محمد
 شهد هذا لهذا وهذا لهذا وذلك من دلائل نبوة أولئك الأنبياء ومن دلائل نبوة محمد ولهذا يذكر الله
 ذلك بيانا لإنعامه بمحمد ودلالة لنبوته كقوله تعالى { وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ
 وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ } 42 { يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ
 الرَّاكِعِينَ } 43 { ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَمَّهْمُ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا
 كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ } 44 { آل عمران 42-44 فذكر الإلاه نعمته وآيته بكونه لم يكن
 يعلمها هو ولا قومه أيضا كانوا يعلمونها لنلا يظن أنه تعلم ذلك من قومه فإن قومه لم يكونوا يعلمون
 ذلك وقد علم بالنقل المتواتر أن محمدا ولد بمكة وبها نشأ بعد أن كان مسترضعا في بادية سعد بن
 بكر قريبا من الطائف شرقي مكة وهو صغير ثم حملته مرضعته حليلة السعدية إلى أمه بمكة لا يعلم
 شيئا من ذلك ولا هناك من يتعلم منه شيء من ذلك وأهل مكة يعلمون حاله وأنه لم يتعلم ذلك من أحد
 ثم أخبرهم بالغيب الذي لا يعلمه أحد إلا بتعليم الله له فكان هذا من أعلام رسالته ودلائل نبوته
 عليهم أولا وعلى غيرهم آخرا فإنهم كانوا مشاهدين له يعلمون أنه لم يتعلم ذلك من أحد وغيرهم يعلم

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 57

ذلك بالأخبار المتواترة ويعلم أن قومه المكذبين له مع حرصهم على الطعن فيه ومع علمهم بحاله لو كان قد تعلم من أهل الكتاب لقالوا هذا قد تعلمه منهم قال تعالى {قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَأَكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِئْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} يونس 16 والمقصود أنه نفي علم قومه بما أخبره فيه بيانا لآلاء الله التي هي آياته ونعمه فإن ذلك يدل على أنه لم يتعلم ذلك من قومه وفيه إنعام الله على الخلق بذلك قال تعالى {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ} يوسف 102 فنفي سبحانه شهادته لهذه الأمور الغائبة وحضوره لها تنبيها للناس على أنه أخبر بالغيبي الذي لم يشهده ولم يعرفه من جهة أخبار الناس فإن قومه لم يكونوا يعلمون ذلك ولا عاشر غير قومه وكل من عرف حاله يعلم أنه لم يتعلم شيئا من ذلك لا من أهل الكتاب ولا ممن نقل عن أهل الكتاب فإذا كان محمد أخبر بمثل ما أخبرت به الأنبياء قبله في باب أسماء الله وصفاته وتوحيده وملائكته وأوليائه وأعدائه مع العلم بأن في هذه الأمور من التفاصيل الكثيرة ما يمتنع اتفاق اثنين عليه إلا عن مواطأة بينهما ومحمد وموسى صلوات الله عليهما وسلامه لم يتواطأ بل لم يواطىء محمد أحدا من الرسل قبله ولا واطؤه والخبر الكذب إما أن يتعمد صاحبه الكذب وإما أن يغلط فالكاذبان المتعمدان للكذب لا يتفقان في القصص الطويلة والتفاصيل العظيمة وكذلك الغالطان لا يتفق غلطهما في مثل ذلك بل الاثنان من آحاد الناس إذا أخبر كل منهما عن حال بلدة وأخبار الآخر بمثل خبره من غير مواطأة عرف صدقهما فكيف بالأمور الغائبة التي لا يمكن العلم بها إلا من جهة الله تعالى فهذا من دلائل نبوة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وأما القدر الذي يخالف ما جاء به محمد مما ينقلونه عن الأنبياء فهو نوعان أحدهما ما وقع فيه النسخ من الشرائع وهذا لا يمنعه لكن المنسوخ مثل هذا بالنسبة إلى ما لم ينسخ من الكتاب نظير المنسوخ من القرآن والأحاديث النبوية فإنه قليل جدا بالنسبة إلى ما لم ينسخ وكذلك عامة ما أمر به موسى وداود والمسيح وغيرهم من الأنبياء إذا اعتبر بما أمر به محمد وجد عامة ذلك متفقا لم ينسخ منه إلا القليل والثاني الخبريات وهذه قد ادعى بعض أهل الكتاب أن محمدا خالف بعض ما أخبرت به الأنبياء قبله وهذا باطل فإن أخبار الأنبياء لا يجوز أن تتناقض إذ هم كلهم صادقون مصدقون ومن علم أن محمدا رسول الله وأن موسى رسول الله وأن المسيح رسول الله علم أن أخبارهم لا تتناقض لكن قد يخبر هذا بما لم يخبر به هذا فيكون في أخبار أحدهم زيادات على أخبار غيره لا ما يناقض خبر غيره وما يذكره أهل الكتاب مما يناقض خبر محمد فهو عامته مما حرفوا معناه وتأويله وقليل منه حرف لفظه وأهل الكتاب اليهود والنصارى مع المسلمين متفقون على أن الكتب المتقدمة وقع التحريف بها إما عمدا وإما خطأ في ترجمتها وفي تفسيرها وشرحها وتأويلها وإنما تنازع الناس هل وقع التحريف في بعض ألفاظها¹

الأخبار عن الأمم الماضية لا يمكن أن تعلم بالحدس وقوى النفس

¹الجواب الصحيح ج: 5 ص: 118- 123

فإن القرآن فيه من الأخبار عن الأمم الماضية كقصة آدم وإبليس ونوح وقومه ومخاطبته لهم وقصة عاد وثمود وفرعون وما جرى من الأمم وقومهم من المخاطبات في الأمور الجزئية مما لا يمكن أن تعلم بالحدس وقوى النفس التي تتال بواسطة العلم بالحد الأوسط وكذلك الخبر عن الأمور المستقبلية المفصلة فإن هذه كلها لا يمكن في الجبل أن تعلم إلا بمخبر يخبر بها الإنسان وأما علمه بها بدون الخبر فممتنع من قوى النفس ولهذا يقول سبحانه وتعالى { **ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ** } {102} **وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ** } {103} **وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ** } {104} يوسف 102-104¹

الأخبار بالغيب من أعلام رسالته ودلائل نبوته

والقرآن نفسه قد بين من آيات نبوته وبراهين رسالته أنواعا متعددة مع اشتمال كل نوع على عدد من الآيات والبراهين مثال ذلك إخباره لقومه بالغيب الماضي الذي لا يمكن بشرا أن يعلمه إلا أن يكون نبيا أو يكون ممن تلقاه عن نبي وقومه يعلمون أنه لم يتعلم ذلك من بشر ولا من أهل الكتاب ولا غيرهم وهذا نوعان منه ما كان يسأله عنه المشركون وأهل الكتاب لينظر هل هو نبي أم لا وكان قومه يرسلون إلى أهل الكتاب البعيدين عنهم مثل من كان بالمدينة وغيرها من أهل الكتاب يطلبون منهم ما يسألونه عنه فيرسلون إليهم ليسأله عن ذلك ويمتحنون بذلك هل هو نبي أم لا ومنه ما كان الله يخبره به ابتداء ويجعله علما وآية لنبوته وبرهانا لرسالته مع ما في ذكر هذه القصص من الاعتبار لأمر أخرى فكان كل من هذين النوعين دليلا وعبرة على نبوته من طريقين فكان دليلا وعبرة على نبوته من جهة إخبار بالغيب الذي لا يعلمه إلا نبي وكانت عبرة بما فيها من أحوال المؤمنين والكافرين التي توجب اتباع سبيل المؤمنين الذين اتبعوا مثله وتجنب سبيل الكافرين الذين خالفوا مثله وحكم الشيء حكم نظيره فإذا كان من كان مثله ومثل من اتبعه سعيدا وحال من خالف مثله ومثل من اتبعه شقيا كان في هذا دلالة وعبرة توجب اتباعه وتنتهي عن مخالفته وهذا أيضا دليلا على نبوة من قبله من الأنبياء من وجهين من جهة أنه أخبر بمثل ما أخبروا به من غير مواطأة بينهم وبينه ولا تشاعر لم يأخذوا عنه ولم يأخذ عنهم وكل منهما أخبر عن الله بأخبار مفصلة يمتنع الاتفاق عليها عادة إلا بتواطء فإذا لم يكن تواطؤ وتشاعر وامتنع اتفاق ذلك من غير مواطأة علم أن كلا من المخبرين صادق قال تعالى { **لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْسَّائِلِينَ** } يوسف 7 وقص قصته في السورة إلى أن قال { **ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ** } {102} **وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ** } {103} **وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ** } {104} **وَكَايُنَ مِنْ آيَةِ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ** } {105} **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ** } {106} **أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ** } {107} **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** } {108} **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ** } {109} **حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ** } {110} **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا**

¹الصفدية ج: 1 ص: 142

يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصَدِّقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ {111} سورة يوسف الآيات 102-111¹

والإنسان إنما يعلم مثل هذا بمشاهدة أو خبر فنبه بقوله { وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ } يوسف 102 على أنه إنما علمت ذلك بإخبارنا وإيحائنا إليك وإعلامنا لك بذلك إذ كان معلوما عند كل من عرفه أنه لم يسمع ذلك من بشر وأنه لم يكن هو ولا قومه يعلمون ذلك وقد قال تعالى { قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ } يونس 16 بين بذلك أن تلاوته عليهم هذا الكتاب وإدراءهم أي إعلامهم به هو بمشيئة الله وقدرته لا من تلقاء نفسه²

فطريق واخبار من تقدم من الأنبياء فلا بد من اخبار الله تعالى عنها كما قال تعالى { ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ } يوسف 102³

القرآن هو شرف لمن آمن به من قومه وغيرهم

فإن القرآن هو شرف لمن آمن به من قومه وغيرهم وليس شرفا لجميع قومه بل من كذب به منهم كان أحق بالذم كما قال تعالى { وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ } {66} سورة الأنعام الآية 66 بخلاف كونه تذكرة وذكرى فإنه تذكرة لهم ولغيرهم كما قال تعالى { أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ افْتَدَاهُمْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ } الأنعام 90 فعم العالمين جميعهم فقال { وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ } يوسف 104⁴

تعليم القرآن والعلم بغير أجره أفضل الأعمال وأحبها إلى الله

قال تعالى { وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ } يوسف 104 أما تعليم القرآن والعلم بغير أجره فهو أفضل الأعمال وأحبها إلى الله وهذا مما يعلم بالإضطرار من دين الإسلام ليس هذا مما يخفى على أحد ممن نشأ بديار الإسلام والصحابة والتابعون وتابعوا التابعين وغيرهم من

¹الجواب الصحيح ج: 5 ص: 319 و العقيدة الأصفهانية ج: 1 ص: 193

²الجواب الصحيح ج: 5 ص: 334

³الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 22

⁴الجواب الصحيح ج: 1 ص: 444

العلماء المشهورين عند الأمة بالقرآن والحديث والفقہ إنما كانوا يعلمون بغير أجره ولم يكن فيهم من يعلم بأجره أصلاً فإن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهما وإنما ورثوا العلم فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر والأنبياء صلوات الله عليهم إنما كانوا يعلمون العلم بغير أجره كما قال نوح عليه السلام { وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ } الشعراء 109 وكذلك قال هود وصالح وشعيب ولوط وغيرهم وكذلك قال خاتم الرسل { قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ } ص 86 وقال { قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا } الفرقان 57 وتعليم القرآن والحديث والفقہ وغير ذلك بغير أجره لم يتنازع العلماء في أنه عمل صالح فضلاً عن أن يكون جائزاً بل هو من فروض الكفاية فإن تعليم العلم الذي بينه فرض على الكفاية كما قال النبي في الحديث الصحيح بلغوا عني ولو آية وقال ليبلغ الشاهد الغائب¹

ما يخصه من أخبار المؤمنين والكفار هو من باب الآيات

{ وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ } 105 { وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ } 106 { يوسف 105-106 } وقال تعالى { فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } 35 { فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ } 36 { وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ } 37 { الذاريات 35-37 } وقال في سفينة نوح { وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُّدَكَّرٍ } القمر 15 فأخبر أنه أبقى آيات وهي العلامات والدلالات فدل ذلك على أن ما يخصه من أخبار المؤمنين وحسن عاقبتهم في الدنيا وأخبار الكفار وسوء عاقبتهم في الدنيا هو من باب الآيات والدلالات التي يستدل بها ويعتبر بها علماً ووعظاً فيفيد معرفة صحة ما أخبرت به الرسل ويفيد الترغيب والترهيب ويدل ذلك على أن الله يرضي عن أهل طاعته ويكرمهم ويغضب على أهل معصيته ويعاقبهم كما يستدل بمخلوقاته العامة على قدرته فإن الفعل يستلزم قدرة الفاعل ويستدل بأحكام الأفعال على علمه لأن الفعل المحكم يستلزم علم الفاعل وبالتخصيص على مشيئته لأن التخصيص مستلزم لإرادته فكذلك يستدل بالتخصيص بما هو أحمد عاقبة على حكمته لأن تخصيص الفعل بما هو محمود في العاقبة مستلزم للحكمة ويستدل بتخصيص الأنبياء وإتباعهم بالنصر وحسن العاقبة وتخصيص مكذبيهم بالخزي وسوء العاقبة على أنه يأمر ويحب ويرضي ما جاءت به الأنبياء ويكره ويسخط ما كان عليه مكذبوهم لأن تخصيص أحد النوعين بالإكرام والنجاة والذكر الحسن والدعاء وتخصيص الآخر بالعذاب والهلاك وقبح الذكر واللعنة يستلزم محبة ما فعله الصنف الأول وبغض ما فعله الصنف الثاني²

حقيقة التوحيد

التوحيد الذي بعث الله به رسله وانزل به كتبه هو ان يعبد الله وحده لا شريك له فهو توحيد الالوهية وهو مستلزم لتوحيد الربوبية وهو ان يعبد الحق رب كل شيء فأما مجرد توحيد الربوبية وهو شهود

¹مجموع الفتاوى ج: 30 ص: 205

²مجموع الفتاوى ج: 17 ص: 121

ربوبية الحق لكل شيء فهذا التوحيد كان في المشركين كما قال تعالى { وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ } {106} أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ } {107} يوسف 106-107 هو اعترافهم بالصانع وخضوعهم له وإن كانوا كفارا¹

أن مجرد الإقرار بأن الله رب كل شيء لا يكون توحيدا حتى يشهد أن لا إله إلا الله كما قال تعالى { وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ } {106} أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ } {107} يوسف 106-107 قال ابن عباس (قال عكرمة في مصدر آخر) تسألهم من خلق السموات والأرض فيقولون الله ثم يعبدون غيره وكانوا يقولون في تليبتهم لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك²

التوحيد الذي جاء به الرسول تضمن إثبات الألوهية لله وحده بأن يشهد أن لا إله إلا هو ولا يعبد إلا إياه ولا يتوكل إلا عليه ولا يوالي إلا له ولا يعادي إلا فيه ولا يعمل إلا لأجله وذلك يتضمن إثبات ما أثبتته لنفسه من الأسماء والصفات وذلك أن الرجل لو أقر بما يستحقه الرب تعالى من الصفات ونزهه عن كل ما ينزه عنه وأقر بأنه وحده خالق كل شيء لم يكن موحدًا بل ولا مؤمنا حتى يشهد أن لا إله إلا الله فيقر بأن الله وحده هو الإله المستحق للعبادة ويلتزم بعبادة الله وحده لا شريك له والإله هو بمعنى المألوه المعبود الذي يستحق العبادة ليس هو الإله بمعنى القادر على الخلق فإذا فسر المفسر الإله بمعنى القادر على الإختراع واعتقد لأن هذا أخص وصف الإله وجعل إثبات هذا التوحيد هو الغاية في التوحيد كما يفعل ذلك من يفعله من متكلمة الصفاتية وهو الذي ينقلونه عن أبي الحسن وأتباعه لم يعرفوا حقيقة التوحيد الذي بعث الله به رسوله فإن مشركي العرب كانوا مقرين بأن الله وحده خالق كل شيء وكانوا مع هذا مشركين قال تعالى { وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ } {106} أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ } {107} يوسف 106-107 قال طائفة من السلف تسألهم من خلق السموات والأرض فيقولون الله وهم مع هذا يعبدون غيره³

ومن التنبيه على مقاصد الشريعة وما فيها من إخلاص الدين لله وعبادته وحده لا شريك له وما سدته من الذريعة إلى الشرك دقه وجله فإن هذا هو أصل الدين وحقيقة دين المرسلين وتوحيد رب العالمين وقد غلط في مسمى التوحيد طوائف من أهل النظر والكلام ومن أهل الإرادة والعبادة حتى قلبوا حقيقته في نفوسهم فطائفة ظنت أن التوحيد هو نفي الصفات بل نفي الأسماء الحسنی أيضا وسموا أنفسهم أهل التوحيد وأثبتوا ذاتا مجردة عن الصفات ووجودا مطلقا بشرط الإطلاق وقد علم بصريح المعقول المطابق لصحيح المنقول أن ذلك لا يكون إلا في الأذهان لا في الأعيان وزعموا أن إثبات الصفات يستلزم ما سموه تركيبا وظنوا أن العقل ينفيه كما قد كشفنا أسرارهم وبيننا فرط جهلهم وما أضلهم من الألفاظ المجملة المشتركة في غير هذا الموضع وطائفة ظنوا أن التوحيد

¹ الاستقامة ج: 2 ص: 31 و مجموع الفتاوى ج: 1 ص: 44 و العقيدة الأصفهانية ج: 1 ص: 42 الجواب الصحيح ج: 1 ص: 360 و بغية المرتاد ج: 1 ص: 373 و مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 129 و الاستقامة ج: 1 ص: 179

² مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 108

³ درء التعارض ج: 1 ص: 226

ليس إلا الإقرار بتوحيد الربوبية وأن الله خلق كل شيء وهو الذي يسمونه توحيد الأفعال ومن أهل الكلام من أطال نظره في تقرير هذا الموضوع إما بدليل أن الاشتراك يوجب نقص القدرة وفوات الكمال وبأن استقلال كل من الفاعلين بالمفعول محال وإما بغير ذلك من الدلائل ويظن أنه بذلك قرر الوجدانية وأثبت أنه لا إله إلا هو وأن الإلهية هي القدرة على الاختراع ونحو ذلك فإذا ثبت أنه لا يقدر على الاختراع إلا الله وأنه لا شريك له في الخلق كان هذا عندهم هو معنى قولنا لا إله إلا الله ولم يعلم أن مشركي العرب كانوا مقرين بهذا التوحيد كما قال تعالى {وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ فَاَنَّى يُؤْفَكُونَ} العنكبوت 61 وقال تعالى {قُلْ لَمَنْ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} {84} سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} {85} المؤمنون 84-85 الآيات وقال تعالى { وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ} {106} أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} {107} يوسف 106-107 قال ابن عباس وغيره تسألهم من خلق السموات والأرض فيقولون الله وهم مع هذا يعبدون غيره وهذا التوحيد هو من التوحيد الواجب لكن لا يحصل به كل الواجب ولا يخلص بمجردة عن الإشراك الذي هو أكبر الكبائر الذي لا يغفره الله بل لا بد أن يخلص الله الدين والعبادة فلا يعبد إلا إياه ولا يعبد إلا بما شرع فيكون دينه كله لله والإله هو المألوه الذي تأله القلوب وكونه يستحق الإلهية مستلزما لصفات الكمال فلا يستحق أن يكون معبودا محبوبا لذاته إلا هو وكل عمل لا يراد به وجهه فهو باطل وعبادة غيره وحب غيره يوجب الفساد كما قال تعالى {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ} {الأنبياء 22¹

توحيد الربوبية لم ينازع في أصله أحد من بني آدم

فتوحيد الربوبية وهذا مما لم ينازع في أصله أحد من بني آدم وإنما نازعوا في بعض تفاصيله كنزاع المجوس والثوية والطبيعية والقدرية وأمثالهم من ضلال المتفلسفة والمعتزلة ومن يدخل فيهم وأما توحيد الإلهية فهو الشرك العام الغالب الذي دخل من أقر أنه لا خالق إلا الله ولا رب غيره من أصناف المشركين كما قال تعالى { وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ} {106} أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} {107} يوسف 106-107²

ورأس الإسلام مطلقاً شهادة أن لا إله إلا الله وبها بعث جميع الرسل وقد قال سبحانه {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا} النساء 116 ذكر ذلك في موضعين من كتابه وقد بين في كتابه الشرك بالملائكة والشرك بالأنبياء والشرك بالكواكب والشرك بالأصنام وأصل الشرك الشرك بالشيطان وقال تعالى {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّنَّ بِمَا كُنْتُمْ

¹ اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 460-461

² مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 38

تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ {79} وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ {80} آل عمران 79- 80 فبيّن ان اتخاذ الملائكة والنبيين أربابا كفر ومعلوم أن أحدا من الخلق لم يزعم أن الأنبياء والاحبار والرهبان والمسيح بن مريم شاركوا الله في خلق السموات والارض بل ولا زعم أحد من الناس أن العالم له صانعان متكافئان في الصفات والأفعال بل ولا أثبت أحد من بنى آدم الها مساويا لله في جميع صفاته بل عامة المشركين بالله مقرون بأنه ليس شريكه مثله بل عامتهم يقرون ان الشريك مملوك له سواء كان ملكا أو نبيا أو كوكبا أو صنما كما كان مشركوا العرب يقولون في تلييتهم لبيك لا شريك لك الا شريكا هو لك تملكه وما ملك فأهل رسول الله بالتوحيد وقال لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك ان الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك وقد ذكر أرباب المقالات ما جمعوا من مقالات الأولين والآخرين في الملل والنحل والآراء والديانات فلم ينقلوا عن أحد إثبات شريك مشارك له في خلق جميع المخلوقات ولا مماثل له في جميع الصفات بل من أعظم ما نقلوا في ذلك قول الثنوية الذين يقولون بالأصلين النور و الظلمة وان النور خلق الخير والظلمة خلقت الشر ثم ذكروا لهم في الظلمة قولين أحدهما أنها محدثة فتكون من جملة المخلوقات له والثاني أنها قديمة لكنها لم تفعل إلا الشر فكانت ناقصة في ذاتها وصفاتها ومفعولاتها عن النور وقد أخبر سبحانه عن المشركين من إقرارهم بأن الله خالق المخلوقات ما بينه في كتابه فقال { وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ } {106} أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ } {107} يوسف 106- 107 وبهذا وغيره يعرف ما وقع من الغلط في مسمى التوحيد فإن عامة المتكلمين الذين يقررون التوحيد في كتب الكلام والنظر غايتهم أن يجعلوا التوحيد ثلاثة أنواع فيقولون هو واحد في ذاته لا قسيم له وواحد في صفاته لا شبيه له وواحد في أفعاله لا شريك له وأشهر الأنواع الثلاثة عندهم هو الثالث وهو توحيد الأفعال وهو أن خالق العالم واحد وهم يحتجون على ذلك بما يذكرونه من دلالة التمانع وغيرها ويظنون ان هذا هو التوحيد المطلوب وان هذا هو معنى قولنا لا اله الا الله حتى يجعلوا معنى الإلهية القدرة على الإختراع ومعلوم ان المشركين من العرب الذين بعث اليهم محمد صلى الله عليه وسلم أولا لم يكونوا يخالفونه في هذا بل كانوا يقرون بأن الله خالق كل شيء حتى أنهم كانوا يقرون بالقدر أيضا وهم مع هذا مشركون فقد تبين أن ليس في العالم من ينازع في أصل هذا الشرك ولكن غاية ما يقال إن من الناس من جعل بعض الموجودات خلقا لغير الله كالقدرية وغيرهم لكن هؤلاء يقرون بأن الله خالق العباد وخالق قدرتهم وإن قالوا أنهم خلقوا أفعالهم وكذلك أهل الفلسفة والطبع والنجوم الذين يجعلون أن بعض المخلوقات مبدعة لبعض الأمور هم مع الإقرار بالصانع يجعلون هذه الفاعلات مصنوعة مخلوقة لا يقولون انها غنية عن الخالق مشاركة له في الخلق فأما من أنكر الصانع فذاك جاحد معطل للصانع كالقول الذي أظهر فرعون والكلام الآن مع المشركين بالله المقربين بوجوده فإن هذا التوحيد الذي قرروه لا ينازعهم فيه هؤلاء المشركون بل يقرون به مع انهم مشركون كما ثبت بالكتاب والسنة والإجماع وكما علم بالإضطرار من دين الإسلام وكذلك النوع الثاني وهو قولهم لا شبيه له في صفاته فإنه ليس في الامم من أثبت قديما مماثلا له في ذاته سواء قال أنه يشاركه أو قال أنه لا فعل له بل شبه به شيئا من مخلوقاته وإنما يشبهه به في بعض الأمور وقد علم بالعقل امتناع أن يكون له مثل في المخلوقات يشاركه فيما يجب أو يجوز او يمتنع عليه فإن ذلك يستلزم الجمع بين النقيضين كما تقدم وعلم أيضا بالعقل أن كل موجودين قائمين بأنفسهما فلا بد بينهما من قدر مشترك كإتفاقيهما في مسمى الوجود والقيام بالنفس والذات ونحو ذلك فإن نفي ذلك يقتضى التعطيل المحض وانه لا بد من إثبات خصائص الربوبية وقد تقدم الكلام على ذلك ثم إن

الجهمية من المعتزلة وغيرهم أدرجوا نفى الصفات فى مسمى التوحيد فصار من قال ان الله علما أو قدرة أو أنه يرى فى الآخرة أو أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق يقولون أنه مشبه ليس بموحد وزاد عليهم غلاة الفلاسفة والقرامطة فنفوا أسماءه الحسنى وقالوا من قال إن الله عليم قدير عزيز حكيم فهو مشبه ليس بموحد وزاد عليهم غلاة الغلاة وقالوا لا يوصف بالنفى و لا الإثبات لأن فى كل منهما تشبيها له وهؤلاء كلهم وقعوا من جنس التشبيه فيما هو شر مما فروا منه فإنهم شبهوه بالممتنعات والمعدومات والجمادات فرارا من تشبيهم بزعمهم له بالأحياء ومعلوم ان هذه الصفات الثابتة لله لا تثبت له على حد ما يثبت لمخلوق أصلا وهو سبحانه وتعالى ليس كمثل شئ لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله فلا فرق بين إثبات الذات وإثبات الصفات فإذا لم يكن فى إثبات الذات إثبات مماثلة للذوات لم يكن فى إثبات الصفات إثبات مماثلة له فى ذلك فصار هؤلاء الجهمية المعطلة يجعلون هذا توحيدا ويجعلون مقابل ذلك التشبيه ويسمون نفوسهم الموحدين وكذلك النوع الثالث وهو قولهم هو واحد لا قسيم له فى ذاته او لا جزء له او لا بعض له لفظ مجمل فان الله سبحانه احد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد فيمتنع عليه ان يتفرق أو يتجزأ أو يكون قد ركب من أجزاء لكنهم يدرجون فى هذا اللفظ نفى علوه على عرشه ومباينته لخالقه وامتيازه عنهم ونحو ذلك من المعانى المستلزمة لنفيه وتعطيله ويجعلون ذلك من التوحيد فقد تبين أن ما يسمونه توحيدا فيه ما هو حق وفيه ما هو باطل ولو كان جميعه حقا فإن المشركين إذا أقرروا بذلك كله لم يخرجوا من الشرك الذى وصفهم به فى القرآن وقاتلهم عليه الرسول بل لا بد أن يعترفوا أنه لا إله إلا الله وليس المراد بالاله هو القادر على الإختراع كما ظنه من ظنه من أئمة المتكلمين حيث ظن أن الإلهية هى القدرة على الاختراع دون غيره وأن من أقر بأن الله هو القادر على الإختراع دون غيره فقد شهد أن لا إله إلا هو فإن المشركين كانوا يقرون بهذا وهم مشركون كما تقدم بيانه بل الإله الحق هو الذى يستحق بأن يعبد فهو إله بمعنى مألوه لا إله بمعنى آله والتوحيد أن يعبد الله وحده لا شريك له والإشراك أن يجعل مع الله إله آخر وإذا تبين أن غاية ما يقرره هؤلاء النظار أهل الإثبات للقدر المنتسبون الى السنة إنما هو توحيد الربوبية وأن الله رب كل شئ ومع هذا فالمشركون كانوا مقرين بذلك مع انهم مشركون وكذلك طوائف من اهل التصوف والمنتسبين الى المعرفة والتحقيق والتوحيد غاية ما عندهم من التوحيد هو شهود هذا التوحيد وأن يشهد أن الله رب كل شئ ومليكه وخالقه لا سيما اذا غاب العارف بموجوده عن وجوده وبمشهوده عن شهوده وبمعروفه عن معرفته ودخل فى فناء توحيد الربوبية بحيث يفتى من لم يكن ويبقى من لم يزل فهذا عندهم هو الغاية التى لا غاية وراءها ومعلوم أن هذا هو تحقيق ما أقر به المشركون من التوحيد ولا يصير الرجل بمجرد هذا التوحيد مسلما فضلا عن أن يكون وليا لله أو من سادات الأولياء وطائفة من أهل التصوف والمعرفة يقررون هذا التوحيد مع إثبات الصفات فيفنون فى توحيد الربوبية مع اثبات الخالق للعالم المبين لمخلوقاته وآخرون يضمنون هذا الى نفى الصفات فيدخلون فى التعطيل مع هذا وهذا شر من حال كثير من المشركين وكان جهم ينفى الصفات ويقول بالجبر فهذا تحقيق قول جهم لكنه اذا اثبت الأمر والنهى والثواب والعقاب فارق المشركين من هذا الوجه لكن جهما ومن اتبعه يقول بالإرغاء فىضعف الأمر والنهى والثواب والعقاب عنده والنجارية والضرارية وغيرهم يقربون من جهم فى مسائل القدر والإيمان مع مقاربتهم له أيضا فى نفى الصفات والكلائية والأشعرية خير من هؤلاء فى باب الصفات فإنهم يثبتون لله الصفات العقلية وأئمتهم يثبتون الصفات الخبرية فى الجملة كما فصلت أقوالهم فى غير هذا الموضع وأما فى باب القدر ومسائل الأسماء والأحكام فأقوالهم متقاربة والكلائية هم أتباع أبى محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب الذى سلك الأشعرى خطته وأصحاب ابن كلاب كالحارث المحاسبى وأبى العباس القلانسى ونحوهما خير

من الأشعرية فى هذا وهذا فكلما كان الرجل إلى السلف والأئمة أقرب كان قوله أعلى وأفضل والكرامية قولهم فى الإيمان قول منكر لم يسبقهم إليه أحد حيث جعلوا الإيمان قول اللسان وان كان مع عدم تصديق القلب فيجعلون المناق مؤمنا لكنه يخلد فى النار فخالقوا الجماعة فى الاسم دون الحكم وأما فى الصفات والقدر والوعيد فهم أشبه من أكثر طوائف الكلام التى فى أقوالها مخالفة للسنة وأما المعتزلة فهم ينفون الصفات ويقاربون قول جهم لكنهم ينفون القدر فهم وإن عظموا الأمر والنهى والوعد والوعيد وغلوا فيه فهم يكذبون بالقدر ففيهم نوع من الشرك من هذا الباب والإقرار بالأمر والنهى والوعد والوعيد مع إنكار القدر خير من الإقرار بالقدر مع إنكار الأمر والنهى والوعد والوعيد ولهذا لم يكن فى زمن الصحابة والتابعين من ينفى الأمر والنهى والوعد والوعيد وكان قد نبغ فيهم القدرية كما نبغ فيهم الخوارج الضرورية وإنما يظهر من البدع أولا ما كان أخفى وكما ضعف من يقوم بنور النبوة قويت البدعة فهؤلاء المتصفون الذين يشهدون الحقيقة الكونية مع اعراضهم عن الأمر والنهى شر من القدرية المعتزلة ونحوهم أولئك يشبهون المجوس وهؤلاء يشبهون المشركين الذين قالوا {لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ} {الأنعام 148} والمشركون شر من المجوس فهذا أصل عظيم على المسلم أن يعرفه فإنه أصل الإسلام الذى يتميز به أهل الإيمان من أهل الكفر وهو الإيمان بالوحدانية والرسالة شهادة ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله وقد وقع كثير من الناس فى الإخلال بحقيقة هذين الأصلين أو أحدهما مع ظنه أنه فى غاية التحقيق والتوحيد والعلم والمعرفة فأقرار المشرك بأن الله رب كل شيء ومليكه وخالقه لا ينجيه من عذاب الله ان لم يقتنر به اقراره بأنه لا اله الا الله فلا يستحق العبادة أحد الا هو وأن محمدا رسول الله فيجب تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر¹

التوحيد والاشراك يكون فى اقوال القلب ويكون فى اعمال القلب

أول الدين وآخره وظاهره وباطنه هو التوحيد وإخلاص الدين كله هو تحقيق قول لا اله الا الله فإن المسلمين وإن اشتركوا فى الإقرار بها فهم متفاضلون فى تحقيقها تفضلا لا نقدر أن نضبطة حتى أن كثيرا منهم يظنون أن التوحيد المفروض هو الإقرار والتصديق بان الله خالق كل شيء وربّه ولا يميزون بين الإقرار بتوحيد الربوبية الذى اقر به مشركوا العرب وبين توحيد الالهية الذى دعاهم اليه رسول الله ولا يجمعون بين التوحيد القولى والعملى فإن المشركين ما كانوا يقولون ان العالم خلقه اثنان ولا ان مع الله ربا ينفرد دونه بخلق شيء بل كانوا كما قال الله عنهم {وَلَّيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} العنكبوت 61 وقال تعالى { وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ } {106} { أَقَامُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ } {107} يوسف 106-107 وقال تعالى { قُلْ لِّمَنْ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } {84} سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نَذَكَّرُونَ } {85} قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ } {86} سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ } {87} قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } {88} سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ } {89} المؤمنون 84-89 وكانوا مع اقرارهم بان الله هو الخالق وحده يجعلون معه آلهة اخرى يجعلونهم شفعاء لهم اليه ويقولون { مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا

¹مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 97

لِيُقَرَّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى} الزمر 3 ويحبونهم كحب الله والاشراك في الحب والعبادة والدعاء والسؤال غير الإشتراك في الاعتقاد والاقرار كما قال تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ} البقرة 165 فمن احب مخلوقا كما يحب الخالق فهو مشرك به قد اتخذ من دون الله اندادا يحبهم كحب الله وان كان مقرا بان الله خالقه ولهذا فرق الله ورسوله بين من احب مخلوقا لله وبين من احب مخلوقا مع الله فالأول يكون الله هو محبوبه ومعبوده الذى هو منتهى حبه وعبادته لا يحب معه غيره لكنه لما علم ان الله يحب انبياءه وعباده الصالحين احبهم لأجله وكذلك لما علم ان الله يحب فعل المأمور وترك المحذور احب ذلك فكان حبه لما يحبه تابعا لمحبة الله وفرعا عليه وادخلا فيه بخلاف من احب مع الله فجعله ندا يرجوه ويخافه او يطيعه من غير ان يعلم ان طاعته طاعة لله ويتخذ شفيعا له من غير ان يعلم الله يأذن له ان يشفع فيه وقال تعالى {وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ} يونس 18 وقال تعالى {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} التوبة 31 وقد قال عدى بن حاتم للنبي صلى الله عليه وسلم ما عبدوهم قال احلوا لهم الحرام فأطاعوهم وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم فكانت تلك عبادتهم اياهم قال تعالى {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ} الشورى 21 وقال تعالى {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا} {27} يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا} {28} لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا} {29} الفرقان 27- 29 فالرسول وجبت طاعته لأنه من يطع الرسول فقد اطاع الله فالحلال ما حلله والحرام ما حرمه والدين ما شرعه ومن سوى الرسول من العلماء والمشايخ والأمراء والملوك انما تجب طاعتهم اذا كانت طاعتهم طاعة الله وهم اذا امر الله ورسوله بطاعتهم فطاعتهم داخله في طاعة الرسول قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ} النساء 59 فلم يقل واطيعوا الرسول واطيعوا اولى الأمر منكم بل جعل طاعة اولى الأمر داخله في طاعة الرسول وطاعة الرسول طاعة الله واعاد الفعل في طاعة الرسول دون طاعة اولى الأمر فإنه من يطع الرسول فقد اطاع الله فليس لاحد اذا امره الرسول بأمر ان ينظر هل امر الله به ام لا بخلاف اولى الأمر فانهم قد يأمرون بمعصية الله فليس كل من اطاعهم مطيعا لله بل لابد فيما يأمرون به ان يعلم انه ليس معصية لله وينظر هل امر الله به ام لا سواء كان اولى الأمر من العلماء او الامراء ويدخل في هذا تقليد العلماء وطاعة امراء السرايا وغير ذلك وبهذا يكون الدين كله الله قال تعالى {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ} الأنفال 39 وقال النبي لما قيل له يارسول الله الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء فأى ذلك فى سبيل الله فقال من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو فى سبيل الله ثم ان كثيرا من الناس يحب خليفة او عالما او شيخا او اميرا فيجعله ندا لله وان كان قد يقول انه يحبه لله فمن جعل غير الرسول تجب طاعته فى كل ما يأمر به وينهى عنه وان خالف امر الله ورسوله فقد جعله ندا وربما صنع به كما تصنع النصرارى بالمسيح ويدعوه ويستغيث به ويوالى اوليائه ويعادى اعداءه مع ايجابه طاعته فى كل ما يأمر به وينهى عنه ويحلله ويحرمه ويقيمه مقام الله ورسوله فهذا من الشرك الذى يدخل اصحابه فى قوله تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ} البقرة 165 فالتوحيد والاشراك يكون فى اقوال القلب ويكون فى اعمال القلب ولهذا قال الجنيد التوحيد قول القلب والتوكل عما القلب اراد بذلك التوحيد الذى هو التصديق فإنه لما قرنه بالتوكل جعله اصله واذا افرد لفظ التوحيد فهو يتضمن قول القلب وعمله والتوكل من تمام التوحيد وهذا كلفظ الايمان فانه اذا افرد دخلت فيه الاعمال الباطنة والظاهرة وقيل الايمان قول وعمل اى

قول القلب واللسان وعمل القلب والجوارح ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق عليه الايمان بضع وستون شعبة اعلاها قول لا اله الا الله وادناها اماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الايمان¹

قياس المشركين الذين عدلوا بالله وجعلوا لله أندادا

هذا جمع بين ما فرق الله بينه بمنزلة قياس الذين قالوا إنما البيع مثل الربا وأصل هذا القياس المشركين الذين عدلوا بالله وجعلوا لله أندادا سووهم برب العالمين في عبادتها أو اتخاذها آلهة وكذلك من عدل رسوله متنبئا كذابا كمسيلمة الكذاب أو عدل بكتابه وتلاوته واستماعه كلاما آخر أو قراءته أو سماعه أو عدل بما شرعه من الدين دينا آخر شرعه له شركاؤه فهذا كله من فعل المشركين وإن دخل في بعضه من المؤمنين قوم متأولون فالناس كما قال الله تعالى { وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ } {106} { أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ } {107} يوسف 106-107 فالشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل وهذا مقام ينبغي للمؤمنين التدبر فيه فإنه ما بدل دين الله في الأمم المتقدمة وفي هذه الأمة إلا بمثل هذا القياس ولهذا قيل ما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس وأصل الشرك أن تعدل بالله تعالى مخلوقاته في بعض ما يستحقه وحده فإنه لم يعدل أحد بالله شيئا من المخلوقات في جميع الأمور فمن عبد غيره أو توكل عليه فهو مشرك به²

العبادة تجمع غاية الحب وغاية الذل

ولم يعرفوا من التوحيد إلا توحيد الربوبية وهو الإقرار بأن الله خالق كل شيء وربهم وهذا التوحيد كان يقر به المشركون الذين قال الله عنهم {وَأَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} لقمان 25 وقال تعالى { قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ } {86} سَيَقُولُونَ لِلَّهِ {87} المؤمنون 86-87 وقال عنهم { وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ } {106} { أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ } {107} يوسف 106-107 قال طائفة من السلف يقول لهم من خلق السماوات والأرض فيقولون الله وهم مع هذا يعبدون غيره وإنما التوحيد الذي أمر الله به العباد هو توحيد الألوهية المتضمن لتوحيد الربوبية بأن يعبد الله وحده لا يشركون به شيئا فيكون الدين كله لله ولا يخاف إلا الله ولا يدعى إلا الله ويكون الله أحب إلى العبد من كل شيء فيحبون الله ويبغضون الله ويعبدون الله ويتوكلون عليه والعبادة تجمع غاية الحب

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 264-268 و الفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 320-321

²الاستقامة ج: 1 ص: 344

و غاية الذل فيحبون الله بأكمل محبة ويزنون له أكمل ذل ولا يعدلون به ولا يجعلون له أندادا ولا يتخذون من دونه أولياء ولا شفعاء¹

من لم يجعل الله معبودا محبوبا فإنما يشهد أن لا رب إلا هو والمشركون كانوا يقرون بهذه الشهادة لم يشهدوا أن لا إله إلا الله والرسول عليهم الصلاة والسلام بعثوا بتوحيد الألوهية المتضمن توحيد الربوبية وأما توحيد الربوبية مجردا فقد كان المشركون يقرون بأن الله وحده خالق السموات والأرض كما أخبر الله بذلك عنهم في غير موضع من القرآن قال تعالى {وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَن خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} الزمر 38 وقال تعالى { وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ } 106 { أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ } 107 { يوسف 106-107 }²

أصل الشر هو الإشراف بالله كما أن أصل الخير هو الإخلاص لله

فإن أصل الشر هو الإشراف بالله كما أن أصل الخير هو الإخلاص لله فإن الله سبحانه خلق الخلق ليعبده وحده لا يشركوا به شيئا وبذلك أرسل الرسل وبه أنزل الكتب كما قال تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ } الأنبياء 25 وقال تعالى { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ } النحل 36 العبادة تجمع كمال المحبة وكمال الذل والعبادة تجمع كمال المحبة وكمال الذل فالعابد محب خاضع بخلاف من يحب من لا يخضع له بل يحبه ليتوسل به إلي محبوب آخر وبخلاف من يخضع لمن لا يحبه كما يخضع للظالم فإن كلا من هذين ليس عبادة محضة وإن كل محبوب لغير الله ومعظم لغير الله ففيه شوب من العبادة كما قال النبي في الحديث الصحيح تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار تعس عبد القטיפه تعس عبد الخميصة تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش وذلك كما جاء في الحديث إن الشرك في هذه الأمة أخفي من دبيب النمل مع أنه ليس في الأمم أعظم تحقيقا للتوحيد من هذه الأمة ولهذا كان شداد بن أوس يقول يا نعايا العرب يا نعايا العرب إن أخوف ما أخوف عليكم الرياء والشهوة الخفية قال أبو داود الشهوة الخفية حب الرياسة وفي حديث الترمذي عن كعب بن مالك أن النبي قال ما ذنبان جائعان أرسلنا في غنم بأفسد لها من حرص المرء علي المال والشرف لدينه قال الترمذي حديث حسن صحيح والحرص يكون علي قدر قوة الحب والبغض وقد قال الله تعالى { وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ } 106 { أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ } 107 { يوسف 106-107 } وروي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال للنبي إذا كان الشرك أخفي من دبيب النمل فكيف نتجنبه فقال النبي ألا أعلمك كلمة إذا قلتها نجوت من قليله وكثيره قل اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم فأمره مع الاستعاذة من الشرك

¹ منهاج السنة النبوية ج: 3 ص: 289

² منهاج السنة النبوية ج: 5 ص: 330

المعلوم بالاستغفار فإن الاستغفار والتوحيد بهما يكمل الدين كما قال تعالى {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} محمد19 وقال تعالى {الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} {1} {أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ} {2} وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ {3} {هود1-3 وفي الحديث إن الشيطان قال أهلك بني آدم بالذنوب وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار فلما رأيت ذلك بثت فيهم الأهواء فهم يذنبون ولا يستغفرون لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا وهذا كذلك فإن من اتخذ إلهه هواه صار يعبد من يهواه وقد زين له سوء عمله فرآه حسنا قال تعالى {أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ ذُنُوبِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا} {102} {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا} {103} {الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسَبُونَ أَنَّهم يُحْسِنُونَ صُنْعًا} {104} {الكهف102-104 وقال تعالى {وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِّفِرْعَوْنَ سَوْءَ عَمَلِهِ وَصَدُّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ} {غافر37} ¹

من أقر بالقضاء والقدر دون الأمر والنهي الشرعيين فهو أكفر من اليهود والنصارى

كان الشيخ عبدالقادر ونحوه من المشائخ المستقيمين يوصون في عامة كلامهم بهذين الأصلين المسارعة إلى فعل المأمور والتقاعد عن فعل المحذور والصبر والرضا بالأمر المقدر وذلك أن هذا الموضوع غلط فيه كثير من العامة بل ومن السالكين فمنهم من يشهد القدر فقط ويشهد الحقيقة الكونية دون الدينية فيرى أن الله خالق كل شيء وربّه ولا يفرق بين ما يحبه الله ويرضاه وبين ما يسخطه ويبغضه وإن قدره وقضاه ولا يميز بين توحيد الألوهية وبين توحيد الربوبية فيشهد الجمع الذي يشترك فيه جميع المخلوقات سعيد وشقيها مشهد الجمع الذي يشترك فيه المؤمن والكافر والبر والفاجر والنبى الصادق والمنتبىء الكاذب وأهل الجنة وأهل النار وأولياء الله وأعدائه والملائكة المقربون والمردة الشياطين فإن هؤلاء كلهم يشتركون في هذا الجمع وهذه الحقيقة الكونية وهو أن الله ربهم وخالقهم ومليكمهم لا رب لهم غيره ولا يشهد الفرق الذي فرق الله به بين أوليائه وأعدائه وبين المؤمنين والكافرين والأبرار والفجار وأهل الجنة والنار وهو توحيد الأولوية وهو عبادته وحده لا شريك له وطاعته وطاعة رسوله وفعل ما يحبه ويرضاه وهو ما أمر الله به ورسوله أمر إيجاب أو أمر إستحباب وترك ما نهى الله عنه ورسوله وموالاته أوليائه ومعاداة أعدائه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجهاد الكفار والمنافقين بالقلب واليد واللسان فمن لم يشهد هذه الحقيقة الدينية الفارقة بين هؤلاء وهؤلاء ويكون مع أهل الحقيقة الدينية وإلا فهو من جنس المشركين وهو شر من اليهود والنصارى فإن المشركين يقولون بأن الله رب كل شيء كما قال تعالى {وَأَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ} الزمر38 وقال تعالى {قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} {84} {سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} {85} {قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} {86} {سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ} {87} {قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} {88} {سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ} {89} المؤمنون84-89 ولهذا قال سبحانه { وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ } {106} {أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} {107} {يوسف106-107} قال بعض السلف تسألهم من خلق السموات والأرض فيقولون الله وهم مع هذا يعبدون غيره فمن أقر

¹قاعدة في المحبة ج: 1 ص: 98-102

بالقضاء والقدر دون الأمر والنهي الشرعيين فهو أكفر من اليهود والنصارى فإن أولئك يقرون بالملائكة والرسل الذين جاؤا بالأمر والنهي الشرعيين لكن آمنوا ببعض وكفروا ببعض كما قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا } {150} أَوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا {151} النساء 150-151 وأما الذى يشهد الحقيقة الكونية وتوحيد الربوبية الشامل للخليفة ويقر أن العباد كلهم تحت القضاء والقدر ويسلك هذه الحقيقة فلا يفرق بين المؤمنين والمتقين الذين اطاعوا أمر الله الذى بعث به رسله وبين من عصى الله ورسوله من الكفار والفجار فهؤلاء أكفر من اليهود والنصارى لكن من الناس من قد لمحو الفرق فى بعض الأمور دون بعض بحيث يفرق بين المؤمن والكافر ولا يفرق بين البر والفاجر أو يفرق بين بعض الأبرار وبين بعض الفجار ولا يفرق بين آخرين إتباعا لظنه وما يهواه فيكون ناقص الإيمان بحسب ما سوى بين الأبرار والفجار ويكون معه من الإيمان بدين الله تعالى الفارق بحسب ما فرق به بين أوليائه واعدائه ومن أقر بالأمر والنهي الدينين دون القضاء والقدر كان من القدرية كالمعتزلة وغيرهم الذين هم مجوس هذه الأمة فهؤلاء يشبهون المجوس وأولئك يشبهون المشركين الذين هم شر من المجوس ومن أقر بهما وجعل الرب متناقضا فهو من إتباع إبليس الذى إعترض على الرب سبحانه وخاصمه كما نقل ذلك عنه فهذا التقسيم فى القول والإعتقاد وكذلك هم فى الأحوال والأفعال فالصواب منها حالة المؤمن الذى يتقى الله فيفعل المأمور ويترك المحذور ويصبر على ما يصيبه من المقدور فهو عند الأمر والنهى والدين والشريعة ويستعين بالله على ذلك كما قال تعالى { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } الفاتحة 5 وإذا أذنب استغفر وتاب لا يحتج بالقدر على ما يفعله من السيئات ولا يرى للمخلوق حجة على رب الكائنات بل يؤمن بالقدر ولا يحتج به كما فى الحديث الصحيح الذى فيه سيد الإستغفار أن يقول العبد اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما إستطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبي فأغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت فيقر بنعمة الله عليه فى الحسنات ويعلم أنه هو هداة ويسره لليسرى ويقر بذنوبه من السيئات ويتوب منها كما قال بعضهم أطعتك بفضلك والمنة لك وعصيتك بعلمك والحجة لك فأسألك بوجوب حجتك على وإنقطاع حجتى إلا غفرت لى وفى الحديث الصحيح الإلهى يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفىكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن نفسه¹

من اكتفى بالحقائق الكونية ولم يتبع الحقائق الدينية كان من أتباع إبليس والكافرين

فهو سبحانه رب العالمين وخالقهم ورازقهم ومحبيهم ومميتهم ومقلب قلوبهم ومصرف أمورهم لا رب لهم غيره ولا مالك لهم سواه ولا خالق إلا هو سواء اعترفوا بذلك أنكروه وسواء علموا ذلك أو جهلوه لكن أهل الإيمان منهم عرفوا ذلك واعترفوا به بخلاف من كان جاهلا بذلك أو جاحدا له مستكبرا على ربه ولا يقر ولا يخضع له مع علمه بأن الله ربه وخالقه فالمعرفة بالحق إذا كانت مع الاستكبار عن قبوله والجدد له كان عذابا على صاحبه كما قال تعالى { وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 668-672 و الزهد والورع والعبادة ج: 1 ص: 102

أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ { النمل 14 } وقال تعالى { الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ } البقرة 146 وقال تعالى { فَانَّهُمْ لَا يُكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ } الأنعام 33 فإن اعترف العبد ان الله ربه وخالقه وأنه مفتقر اليه محتاج اليه عرف العبودية المتعلقة بربوبية الله وهذا العبد يسأل ربه فيتضرع اليه ويتوكل عليه لكن قد يطيع امره وقد يعصيه وقد يعبد مع ذلك وقد يعبد الشيطان والاصنام ومثل هذه العبودية لاتفرق بين اهل الجنة والنار ولا يصير بها الرجل مؤمنا كما قال تعالى { وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ } {106} أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ } {107} يوسف 106-107 فإن المشركين كانوا يقولون ان الله خالقهم ورازقهم وهم يعبدون غيره قال تعالى { وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ } لقمان 25 وقال تعالى { قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } {84} سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ } {85} المؤمنون 84-85 الى قوله { قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ } المؤمنون 89 وكثير ممن يتكلم في الحقيقة ويشهدها يشهد هذه الحقيقة وهي الحقيقة الكونية التي يشترك فيها وفي شهودها ومعرفتها المؤمن والكافر والبر والفاجر وابليس معترف بهذه الحقيقة واهل النار قال ابليس { رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ } الحجر 36 وقال { رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ } الحجر 39 وقال { فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ } ص 82 وقال { أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ } الإسراء 62 وامثال هذا من الخطاب الذي يقر فيه بان الله ربه وخالقه وخالق غيره وكذلك اهل النار قالوا { قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ } المؤمنون 106 وقال تعالى { وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبَّنَا } الأنعام 30 فمن وقف عند هذه الحقيقة وعند شهودها ولم يقم بما امر به من الحقيقة الدينية التي هي عبادته المتعلقة بالهيته وطاعة امره وامر رسوله كان من جنس ابليس واهل النار وان ظن مع ذلك انه خواص اولياء الله واهل المعرفة والتحقيق الذين يسقط عنهم الأمر والنهي الشرعيان كان من اشر اهل الكفر والالحاد ومن ظن ان الخضر وغيره سقط عنهم الامر لمشاهدة الارادة ونحو ذلك كان قوله هذا من شر اقوال الكافرين بالله ورسوله حتى يدخل في النوع الثاني من معنى العبد وهو العبد العابد فيكون عابدا لله لا يعبد الا اياه فيطيع امره وأمر رسله ويوالي اولياءه المؤمنين المتقين ويعادى اعداءه وهذا العبادة متعلقة بالهيته ولهذا كان عنوان التوحيد لا اله الا الله بخلاف من يقر بربوبيته ولا يعبد او يعبد معه الها آخر فالاله الذي يأله القلب بكمال الحب والتعظيم والاجلال والاكرام والخوف والرجاء ونحو ذلك وهذه العبادة هي التي يحبها الله ويرضاها بها وصف المصطفين من عباده وبها بعث رسله وأما العبد بمعنى المعبد سواء اقر بذلك او أنكره فتلك يشترك فيها المؤمن والكافر وبالفارق بين هذين النوعين يعرف الفرق بين الحقائق الدينية الداخلة في عبادة الله ودينه وامره الشرعي التي يحبها ويرضاها ويوالي اهلها ويكرمهم بجنته وبين الحقائق الكونية التي يشترك فيها المؤمن والكافر والبر والفاجر التي من اكتفى بها ولم يتبع الحقائق الدينية كان من أتباع ابليس اللعين والكافرين برب العالمين ومن اكتفى بها في بعض الأمور دون بعض أو في مقام أو حال نقص من إيمانه وولايته لله بحسب ما نقص من الحقائق الدينية وهذا مقام عظيم فيه غلط الغالطون وكره فيه الاشتباه على السالكين حتى زلق فيه من اكابر الشيوخ المدعين التحقيق والتوحيد والعرفان مالا يحصيهم الا الله الذي يعلم السر والاعلان والى هذا اشار الشيخ عبد القادر رحمه الله فيما ذكر عنه فبين ان كثيرا من الرجال إذا وصلوا الى القضاء والقدر أمسكوا الا انا فإني انفتحت لي فيه روزنة فنازعت اقدار الحق بالحق للحق والرجل من يكون منازعا للقدر لا من يكون موافقا للقدر والذي ذكره الشيخ رحمه الله هو الذي امر الله به ورسوله لكن كثير من الرجال غلطوا فإنهم قد

يشهدون ما يقدر على احدهم من المعاصى والذنوب أو ما يقدر على الناس من ذلك بل من الكفر ويشهدون ان هذا جار بمشيئة الله وقضائه وقدرة داخل فى حكم ربوبيته ومقتضى مشيئته فيظنون الاستسلام لذلك وموافقته والرضا به ونحو ذلك دينا وطريقا وعبادة فيضاهون المشركين الذين قالوا { لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ } { الأنعام 148 } وقالوا { أَنْطَعُم مِّن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ } يس 47 وقالوا { لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ } { الزخرف 20 } ولو هدوا لعلموا أن القدر أمرنا ان نرضى به ونصبر على موجهه فى المصائب التى تصيبنا كال فقر والمرض والخوف قال تعالى { مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ } { التغابن 11 } قال بعض السلف هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم انها من عند الله فيرضى ويسلم وقال تعالى { مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ } { 22 } { لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ } { 23 } { الحديد 22-23 } وفى الصحيحين عن النبى أنه قال احتج آدم وموسى فقال أنت الذى خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه واسجد لك ملائكته وعلمك اسماء كل شئ فلماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة فقال آدم أنت موسى الذى اصطفاك الله برسالاته وبكلامه فهل وجدت ذلك مكتوبا على قبل ان أخلق قال نعم قال فحج آدم موسى وأدم عليه السلام لم يحتج على موسى بالقدر ظنا أن المذنب يحتج بالقدر قان هذا لايقوله مسلم ولا عاقل ولو كان هذا عذرا لكان عذرا لابليس وقوم هود وكل كافر ولا موسى لام آدم أيضا لأجل الذنب فان آدم قد تاب إلى ربه فاجتباه وهدى ولكن لامة لأجله المصيبة التى لحقتهم بالخطيئة ولهذا قال فلماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة فأجابه آدم أن هذا كان مكتوبا قبل أن أخلق فكان العمل والمصيبة المترتبة عليه مقدار وما قدر من المصائب يجب لاستسلام له فإنه من تمام الرضا بالله ربا واما الذنوب فليس للعبد ان يذنب واذا اذنب فعليه ان يستغفر وفيتوب من المعائب ويصبر على المصائب قال تعالى { فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ } غافر 55 وقال تعالى { وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً } آل عمران 120 وقال { وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } آل عمران 186 وقال يوسف { إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } يوسف 90 وكذلك ذنوب العباد يجب على العبد فيها ان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بحسب قدرته ويجاهد فى سبيل الله الكفار والمنافقين ويوالي اولياء الله ويعادي اعداء الله ويحب فى الله ويبغض فى الله¹

من إتبع الرسول دعا إلى الله على بصيرة

أرسل الله سبحانه وتعالى محمدا عبده ورسوله بالدين القيم والملة الحنيفية وجعله على شريعة من الأمر أمره باتباعها وأمره بأن يقول { هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ } يوسف 108²

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 156-160 والفتاوى الكبرى ج: 2 ص: 365

²اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 1

قال تعالى { قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } يوسف 108 فمن إتبع الرسول دعا إلى الله على بصيرة أى على بينة وعلم يدعو إليه بمنزل من الله بخلاف الذى يأمر بما لا يعلم أو بما لم ينزل به وحيا كما قال تعالى { وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ } الحج 71¹

كل من كان للرسول أتبع كان أولى الناس به فى الدنيا والآخرة

ان النبى له مثل اجر كل عمل صالح تعلمه أمته فانه قال من دعا الى هدى فله من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير ان ينقص من اجورهم شيئا وهو الذى دعا أمته الى كل خير فكل خير يعمله احد من الامة فله مثل اجره فلم يكن يحتاج الى ان يهدى اليه ثواب صلاة او صدقة او قراءة من احد فان له مثل اجر ما يعملونه من غير ان ينقص من اجورهم شيئا وكل من كان له أطوع وأتبع كان أولى الناس به فى الدنيا والآخرة قال تعالى { قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي } يوسف 108 وقال ان آل أبى فلان ليسوا لي بأولياء انما ولي الله وصالح المؤمنين وهو أولى بكل مؤمن من نفسه وهو الواسطة بين الله وبين خلقه فى تبليغ امره ونهيه ووعده ووعيده فالحلال ما حلله والحرام ما حرمه والدين ما شرعه والله هو المعبود المسئول المستعان به الذى يخاف ويرجى ويتوكل عليه²

الدعوة إلى الله هى الدعوة إلى الايمان به وبما جاءت به رسله

أن مقصود الدعوة النبوية بل المقصود بخلق الخلق وإنزال الكتب وارسال الرسل أن يكون الدين كله لله هو دعوة الخلائق إلى خالقهم بما قال تعالى { قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } يوسف 108³

فان الله سبحانه دلنا على نفسه الكريمة بما أخبرنا به فى كتابه العزيز وعلى لسان نبيه وبذلك أنزل الكتب وأرسل الرسل فقال تعالى { شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ } الشورى 13 وقال { وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ } الزخرف 45 وقال تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ } الأنبياء 25 وقد ثبت عن النبى أنه قال

¹مجموع الفتاوى ج: 27 ص: 427

²مجموع الفتاوى ج: 26 ص: 156

³مجموع الفتاوى ج: 2 ص: 464

انا معاشر الأنبياء ديننا واحد والشرائع مختلفة فجميع الرسل متفقون في الدين الجامع في الأصول الاعتقادية والعلمية كالايمان بالله ورسله واليوم الآخر والعملية كالأعمال المذكورة في سورة الأنعام والأعراف وبنى إسرائيل وهو قوله تعالى {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً} {الأنعام 151} الآيات الثلاث وقوله {قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ} {الأعراف 29} الآية وقوله {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ} {الأعراف 33} الآية وقوله {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ} {الإسراء 23} إلى آخر الوصايا وقوله {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي} **أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ** {يوسف 108} الآية فالدعوة والعبادة اسم جامع لغاية الحب لله وغاية الذل له فمن ذل له من غير حب لم يكن عابدا بل يكون هو المحبوب المطلق فلا يحب شيئا إلا له ومن أشرك غيره في هذا وهذا لم يجعل له حقيقة الحب فهو مشرك وإشراكه يوجب نقص الحقيقة كقوله تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ} {البقرة 165} الآية والحب يوجب الذل والطاعة والاسلام أن يستسلم لله لا لغيره فمن إستسلم له ولغيره فهو مشرك ومن لم يستسلم له فهو متكبر وكلاهما ضد الاسلام والقلب لا يصلح إلا بعبادة الله وحده وتحقيق هذا تحقيق الدعوة النبوية ومن المحبة الدعوة إلى الله وهي الدعوة إلى الايمان به وبما جاءت به رسله بتصديقهم فيما أخبروا به وطاعتهم بما أمروا به فالدعوة إليه من الدعوة إلى الله تعالى وما أبغضه الله ورسوله فمن الدعوة إلى الله النهي عنه ومن الدعوة إلى الله أن يفعل العبد ما أحبه الله ورسوله ويترك ما أبغضه الله ورسوله من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة بما أخبر به الرسول من أسماء الله وصفاته ومن سائر المخلوقات كالعرش والكرسي والملائكة والأنبياء وأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما¹

سبيل من اتبعه

الرسول صلى الله عليه وسلم بعثه الله تعالى هدى ورحمة للعالمين فإنه كما أرسله بالعلم والهدى والبراهين العقلية والسمعية فإنه أرسله بالإحسان إلى الناس والرحمة لهم بلا عوض وبالصبر على أذاهم وإحتماله فبعثه بالعلم والكرم والحلم عليهم هاد كريم محسن حلیم صفوح قال تعالى {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} {52} صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ} {53} الشورى 52-53 وقال تعالى {الرَّ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} إبراهيم 1 وقال تعالى {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} {الشورى 52} ونظائره كثيرة وقال {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ} {الفرقان 57} وقال {قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} {سبأ 47} وقال {قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجراً} {الأنعام 90} فهو يعلم ويهدي ويصلح القلوب ويدلها على صلاحها في الدنيا والآخرة بلا عوض وهذا نعت الرسل كلهم كل يقول {وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ} {الشعراء 109} ولهذا قال صاحب يس {يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ} {20} اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ

¹مجموع الفتاوى ج: 20 ص: 7

أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ {21} يس 21 وهذه سبيل من اتبعه كما قال { قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } يوسف 108¹

"لا تهلك أمة حتى يتبعوا أهواءهم ويتركوا ما جاءتهم به أنبيأؤهم"

وقال أبو الدرداء لا تهلك أمة حتى يتبعوا أهواءهم ويتركوا ما جاءتهم به أنبيأؤهم من البيئات والهدى وقال تعالى { قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } يوسف 108 فمن اتبعه يدعو إلى الله على بصيرة والبصيرة هي بينة²

هل الدعوة عامة تتعين في حق كل مسلم ومسلمة أم لا؟

سئل رضي الله عنه عن قوله تعالى { قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } يوسف 108 وهل الدعوة عامة تتعين في حق كل مسلم ومسلمة أم لا وهل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر داخل في هذه الدعوة أم لا وإذا كانا داخلين أو لم يكونا فهل هما من الواجبات على كل فرد من أفراد المسلمين كما تقدم أم لا وإذا كانا واجبين فهل يحبان مطلقا مع وجود المشقة بسببها أم لا وهل للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يقتصر من الجاني عليه إذا آذاه في ذلك لئلا يؤدي إلى طمع منه في جانب الحق أم لا وإذا كان له ذلك فهل تركه أولى مطلقا أم لا فأجاب رضي الله عنه وأرضاه الحمد لله رب العالمين الدعوة إلى الله هي الدعوة إلى الإيمان به وبما جاءت به رسله بتصديقهم فيما أخبروا به وطاعتهم فيما أمروا وذلك يتضمن الدعوة إلى الشهادتين وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت والدعوة إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله³

ليس لأحد أن يضع للناس عقيدة ولا عبادة من عنده

لا يجوز لأحد أن يعدل عما جاء في الكتاب والسنة واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها إلى ما أحدثه بعض الناس مما قد يتضمن خلاف ذلك أو يوقع الناس في خلاف ذلك وليس لأحد أن يضع للناس عقيدة ولا عبادة من عنده بل عليه ان يتبع ولا يبتدع ويفتدى ولا يبتدى فان الله سبحانه بعث محمدا بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا وقال له { قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي } يوسف 108 وقال تعالى { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ

¹مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 313-316

²مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 68

³مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 157

نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا { المائدة 3 } والنبى علم المسلمين ما يحتاجون إليه فى دينهم ف يأخذ المسلمون جميع دينهم من الاعتقادات والعبادات وغير ذلك من كتاب الله وسنة رسوله وما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها وليس ذلك مخالفا للعقل الصريح فان ما خالف العقل الصريح فهو باطل وليس فى الكتاب والسنة والاجماع باطل ولكن فيه الفاظ قد لا يفهمها بعض الناس أو يفهمون منها معنى باطلا فالآفة منهم لا من الكتاب والسنة فان الله تعالى قال { وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ } النحل 89¹

أخبر أنه يدعو إلى الله وإلى صراطه المستقيم

أن الله بعث محمدا بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا وأنه أكمل له ولأتمته الدين كما قال تعالى { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا } المائدة 3 وأنه بشر بالسعادة لمن أطاعه والشقاوة لمن عصاه فقال تعالى { وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا } النساء 69 وقال تعالى { وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا } الجن 23 وأمر الخلق أن يردوا ما تنازعوا فيه من دينهم إلى ما بعثه به كما قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا } النساء 59 وأخبر أنه يدعو إلى الله وإلى صراطه المستقيم كما قال تعالى { قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي } يوسف 108 وقال تعالى { وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } {52} صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ } {53} الشورى 52-53²

بعث الله سبحانه محمدا صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق

فإن الله سبحانه وتعالى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد وشهد له بأنه بعثه داعيا إليه بإذنه وسراجا منيرا وأمره ان يقول { قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي } يوسف 108 فمن المحال فى العقل والدين أن يكون السراج المنير الذى اخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور وانزل معه الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وأمر الناس ان يردوا ما تنازعوا فيه من أمر دينهم إلى ما بعث به من الكتاب والحكمة وهو يدعو إلى الله وإلى سبيله بإذنه على بصيرة وقد اخبر الله بأنه أكمل له ولأتمته دينهم واتم عليهم نعمته محال مع هذا وغيره ان يكون قد ترك باب الايمان بالله والعلم به ملتبسا مشتتها ولم يميز بين ما يجب لله من الأسماء الحسنى والصفات العليا

¹مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 490-491

²مجموع الفتاوى ج: 11 ص: 621

وما يجوز عليه وما يمتنع عليه فإن معرفة هذا أصل الدين وأساس الهداية وأفضل وأوجب ما اكتسبته القلوب وحصلته النفوس وأدركته العقول فكيف يكون ذلك الكتاب وذلك الرسول وأفضل خلق الله بعد النبيين لم يحكموا هذا الباب اعتقاداً وقولاً ومن المحال أيضاً أن يكون النبي قد علم أمته كل شيء حتى الخراءة وقال تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك وقال فيما صح عنه أيضاً ما بعث الله من نبي إلا كان حقا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم وقال أبو ذر لقد توفى رسول الله وما طائر يقرب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علماً وقال عمر بن الخطاب قام فينا رسول الله مقاماً فذكر بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه رواه البخارى ومحال مع تعليمهم كل شيء لهم فيه منفعة في الدين وإن دقت أن يترك تعليمهم ما يقولونه بألسنتهم ويعتقدونه في قلوبهم في ربهم ومعبودهم رب العالمين الذى معرفته غاية المعارف وعبادته أشرف المقاصد والوصول اليه غاية المطالب بل هذا خلاصة الدعوة النبوية وزبدة الرسالة الالهية¹

الدعوة إلى الله واجبة على من اتبعه

قال تعالى {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي} يوسف 108 والبعث بعد الموت والإيمان بالقدر خيره وشره والدعوة إلى أن يعبد العبد ربه كأنه يراه فإن هذه الدرجات الثلاث التى هي الإسلام والإيمان والداخلة في الدين كما قال في الحديث الصحيح هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم بعد أن أجابه عن هذه الثلاث فبين أنها كلها من ديننا و الدين مصدر والمصدر يضاف إلى الفاعل والمفعول يقال دان فلان فلانا إذا عبده وأطاعه كما يقال دانه إذا أدله فالعبد يدين الله أي يعبده ويطيعه فإذا أضيف الدين إلى العبد فلأنه العابد المطيع وإذا أضيف إلى الله فلأنه المعبود المطاع كما قال تعالى {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلَّهُ لِلَّهِ} الأنفال 39 فالدعوة إلى الله تكون بدعوة العبد إلى دينه وأصل عبادته وحده لا شريك له كما بعث الله بذلك رسله وأنزل به كتبه قال تعالى {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ} الشورى 13 وقال تعالى {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ} الزخرف 45 وقال تعالى {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ} النحل 36 وقال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} الأنبياء 25 وقد ثبت في الصحيح عن أبي هريرة عن رسول الله صلى اله عليه وسلم أنه قال أنا معاشر الأنبياء ديننا واحد الأنبياء إخوة لعلات وإن أولى الناس بابن مريم لأننا أنه ليس بينى وبينه نبي فالدين واحد وإنما تنوعت شرائعهم ومناهجهم كما قال تعالى {لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمَنْهَاجًا} المائدة 48 فالرسل متفقون في الدين الجامع للأصول الاعتقادية والعلمية فالاعتقادية كالإيمان بالله وبرسوله وباليوم الآخر والعملية كالأعمال العامة المذكورة فى الانعام والاعراف وسورة بنى إسرائيل كقوله تعالى {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا

¹مجموع الفتاوى ج: 5 ص: 6-8

حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ { الأنعام 151 إلى آخر الآيات الثلاث وقوله { وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ } الإسراء 23 إلى آخر الوصايا وقوله { قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ } الأعراف 29 وقوله { قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالنَّبْغِيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } الأعراف 33 فهذه الأمور هي من الدين الذي اتفقت عليه الشرائع كعمامة ما في السور المكية فإن السور المكية تضمنت الأصول التي اتفقت عليها رسل الله إذ كان الخطاب فيها يتضمن الدعوة لمن لا يقر بأصل الرسالة وأما السور المدنية ففيها الخطاب لمن يقر بأصل الرسالة كأهل الكتاب الذين آمنوا ببعض وكفروا ببعض وكالمؤمنين الذين آمنوا بكتب الله ورسله ولهذا قرر فيها الشرائع التي أكمل الله بها الدين كالقبلة والحج والصيام والاعتكاف والجهاد وأحكام المناكح ونحوها وأحكام الأموال بالعدل كالبيع والإحسان كالصدقة والظلم كالربا وغير ذلك مما هو من تمام الدين ولهذا كان الخطاب في السور المكية { يَا أَيُّهَا النَّاسُ } لعموم الدعوة إلى الأصول إذ لا يدعى إلى الفرع من لا يقر بالأصل فلما هاجر النبي إلى المدينة وعزبها أهل الإيمان وكان بها أهل الكتاب خوطب هؤلاء وهؤلاء يا أيها الذين آمنوا وهؤلاء يا أهل الكتاب أو يا بني إسرائيل ولم ينزل بمكة شيء من هذا ولكن في السور المدنية خطاب يا أيها الناس كما في سورة النساء وسورة الحج وهما مدنيتان وكذا في البقرة وهذا يعكس على قول ابن عباس لأن الحكم المذكور يشمل جنس الناس والدعوة بالإسم الخاص لا فالمؤمنون داخلون في الخطاب يا أيها الناس وفي الخطاب يا أيها الذين آمنوا فالدعوة إلى الله تتضمن الأمر بكل ما أمر الله به والنهي عن كل ما نهى الله عنه وهذا هو الأمر بكل معروف والنهي عن كل منكر والرسول صلى اله عليه وسلم قام بهذه الدعوة فإنه أمر الخلق بكل ما أمر الله به ونهاهم عن كل ما نهى الله عنه أمر بكل معروف ونهى عن كل منكر قال تعالى { وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ } { 156 } الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَجْلُ لُهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ } { 157 } الأعراف 156- 157 ودعوته إلى الله هي بإذنه لم يشرع ديناً لم يأذن به الله كما قال تعالى { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا } { 45 } وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا } { 46 } الأحزاب 45-46 خلاف الذين ذمهم في قوله { أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ } { الشورى 21 } وقد قال تعالى { قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أُذُنُ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ } يونس 59 ومما يبين ما ذكرناه أنه سبحانه يذكر أنه أمره بالدعوة إلى الله تارة وتارة بالدعوة إلى سبيله كما قال تعالى { ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ } النحل 125 وذلك أنه قد علم أن الداعي الذي يدعو غيره إلى أمر لا بد فيما يدعو إليه من أمرين أحدهما المقصود المراد و الثاني الوسيلة والطريق الموصل إلى المقصود فلهذا يذكر الدعوة تارة إلى الله وتارة إلى سبيله سبحانه هو المعبود المراد المقصود بالدعوة والعبادة إسم يجمع غاية الحب له وغاية الذل له فمن ذل لغيره مع بغضه لم يكن عابداً ومن أحبه من غير ذل له لم يكن عابداً والله سبحانه يستحق أن يحب غاية المحبة بل يكون هو المحبوب المطلق الذي لا يحب شيء إلا له وإن يعظم وينذل له غاية الذل بل لا ينذل لشيء إلا من أجله ومن أشرك غيره في هذا وهذا لم يحصل له حقيقة الحب والتعظيم فإن الشرك يوجب نقص المحبة قال تعالى { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ } البقرة 165 أي أشد حبا لله من هؤلاء لأناداهم وقال تعالى { ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا } الزمر 29 وكذلك الإستكبار يمنع حقيقة الذل لله بل يمنع حقيقة المحبة لله فإن الحب

التام بوجوب الذل والطاعة فإن المحب لمن يحب مطيع ولهذا الحب درجات أعلاها التتيم وهو التعبد وتيم الله أي عبادة الله فالقالب المتيم هو المعبد لمحبيه وهذا لا يستحقه إلا الله وحده والإسلام أن يستسلم العبد لله لا لغيره كما ينبيء عنه قول لا إله إلا الله فمن إستسلم له ولغيره فهو مشرك ومن لم يستسلم له فهو مستكبر وكلاهما ضد الإسلام والشرك غالب على النصارى ومن ضاهاهم من الضلال والمنتسبين إلى الأمة وقد بسطنا الكلام على ما يتعلق بهذا الموضوع في مواضع متعددة وذلك يتعلق بتحقيق الألوهية لله وتوحيده وإمتناع الشرك وفساد السموات والأرض بتقدير إله غيره والفرق بين الشرك فى الربوبية والشرك فى الألوهية وبيان أن العباد فطروا على الإقرار به ومحبتة وتعظيمه وأن القلوب لا تصلح إلا بأن تعبد الله وحده ولا كمال لها ولا صلاح ولا لذة ولا سرور ولا فرح ولا سعادة بدون ذلك وتحقيق الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدقيين والشهداء والصالحين وغير ذلك مما يتعلق بهذا الموضوع الذي فى تحقيق مقصود الدعوة النبوية والرسالة الإلهية وهو لب القرآن وزبدته وبيان التوحيد العلمي القولي المذكور فى قوله { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ {1} اللَّهُ الصَّمَدُ {2} } الاخلاص 1-2 والتوحيد القصدي العلمي المذكور فى قوله تعالى { قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ {1} } الكافرون 1 وما يتصل بذلك فإن هذا بيان لأصل الدعوة إلى الله وحققتها ومقصودها لكن المقصود فى الجواب ذكر ذلك على طريق الاجمال إذ لا يتسع الجواب لتفصيل ذلك وكلما أحبه الله ورسوله من واجب ومستحب من باطن وظاهر فمن الدعوة إلى الله الأمر به وكلما أبغضه الله ورسوله من باطن وظاهر فمن الدعوة إلى الله النهى عنه لا تتم الدعوة إلى الله إلا بالدعوة إلى أن يفعل ما أحبه الله ويترك ما أبغضه الله سواء كان من الأقوال أو الأعمال الباطنة أو الظاهرة كالتصديق بما أخبر به الرسول من أسماء الله وصفاته والمعاد وتفصيل ذلك وما أخبر به عن سائر المخلوقات كالعرش والكرسي والملائكة والأنبياء وأمهم وأعدائهم وكاخلاص الدين لله وأن يكون الله ورسوله أحب إلينا مما سواها وكالتوكل عليه والرجاء لرحمته وخشيته عذابه والصبر لحكمه وأمثال ذلك وكصدق الحديث وأداء الأمانة والوفاء بالعهد وصلة الأرحام وحسن الجوار وكالجهاد فى سبيله بالقلب واليد واللسان إذا تبين ذلك فالدعوة إلى الله واجبة على من اتبعه وهم أمته يدعون إلى الله كما دعا إلى الله وكذلك يتضمن أمرهم به ونهيهم عما ينهى عنه وأخبارهم بما أخبر به إذ الدعوة تتضمن الأمر وذلك يتناول الأمر بكل معروف والنهي عن كل منكر وقد وصف أمته بذلك فى غير موضع كما وصفه بذلك فقال تعالى { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ } آل عمران 110 وقال تعالى { وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ } التوبة 71 الآية كفاية إذا قام به طائفة منهم سقط عن الباقين فالأمة كلها مخاطبة بفعل ذلك ولكن إذا قامت به طائفة سقط عن الباقين قال تعالى { وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } آل عمران 104 فمجموع أمته تقوم مقامه فى الدعوة إلى الله ولهذا كان إجماعهم الله وإلى رسوله وكل واحد من الأمة يجب عليه أن يقوم من الدعوة بما يقدر عليه إذا لم يقم به غيره فما قام به غيره سقط عنه وما عجز لم يطلب به وأما ما لم يقم به غيره وهو قادر عليه فعليه أن يقوم به ولهذا يجب على هذا أن يقوم بما لا يجب على هذا وقد تقسّطت الدعوة على الأمة بحسب ذلك تارة وبحسب غيره أخرى فقد يدعو هذا إلى إعتقاد الواجب وهذا إلى عمل ظاهر واجب وهذا إلى عمل باطن واجب فتنوع الدعوة يكون فى الوجوب تارة وفى الوقوع أخرى وقد تبين بهذا أن الدعوة إلى الله تجب على كل مسلم لكنها فرض على الكفاية وإنما يجب على الرجل المعين من ذلك ما يقدر عليه إذا لم يقم به غيره وهذا شأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتبليغ ما جاء به الرسول والجهاد فى سبيل الله وتعليم الإيمان والقرآن وقد تبين بذلك أن الدعوة نفسها

أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فإن الداعي طالب مستدع مقتض لما دعى إليه وذلك هو الأمر به إذ الأمر طلب الفعل المأمور به واستدعاء له ودعاء إليه فالدعاء إلى الله الدعاء إلى سبيله فهو أمر بسبيله وسبيله تصديقه فإخبار وطاعته فيما أمر وقد تبين أنهما واجبان على كل فرد من أفراد المسلمين وجوب فرض الكفاية لا وجوب فرض الأعيان كالصلوات الخمس بل كوجوب الجهاد والقيام بالوجبات من الدعوة الواجبة وغيرها يحتاج إلى شروط يقام بها كما جاء في الحديث ينبغي لمن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر أن يكون فقيها فيما يأمر به فقيها فيما ينهى عنه رفيقا فيما يأمر به رفيقا فيما ينهى عنه حليما فيما يأمر به حليما فيما ينهى عنه فالفقه قبل الأمر ليعرف المعروف وينكر المنكر والرفق عند الأمر ليسلك أقرب الطرق إلى تحصيل المقصود والحلم بعد الأمر ليصير على أذى المأمور المنهى فإنه كثيرا ما يحصل له الأذى بذلك ولهذا قال تعالى {وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ} لقمان 17 وقد أمر نبينا بالصبر في مواضع كثيرة كما قال تعالى في أول المدثر {قُمْ فَأَنْذِرْ} 2 {وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ} 3 {وَتِيَابِكَ فَطَهِّرْ} 4 {وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ} 5 {وَلَا تَمُنَّ بِتَسْتَكْبِرُ} 6 {وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ} 7 المدثر 2-7 وقال تعالى {وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا} الطور 48 وقال {وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ} المزملة 10 وقال تعالى {وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا} الأنعام 34 وقال {فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ} القلم 48 وقد جمع سبحانه بين التقوى والصبر في مثل قوله {لَتَبْلُؤُنَّ فِي أُمُوكُمْ وَآنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَىٰ كَثِيرًا} وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} آل عمران 186 والمؤمنون كانوا يدعون إلى الإيمان بالله وما أمر به من المعروف وينهون عما نهى الله عنه من المنكر فيؤذيه المشركون وأهل الكتاب وقد أخبرهم بذلك قبل وقوعه وقال لهم {وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} آل عمران 186 وقد قال يوسف عليه السلام {أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} يوسف 90 فالتقوى تتضمن طاعة الله ومنها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر يتناول الصبر على المصائب التي منها أذى المأمور المنهي للأمر الناهي لكن للأمر الناهي أن يدفع عن نفسه ما يضره كما يدفع الإنسان عن نفسه الصائل فإذا أراد المأمور المنهي ضربه أو أخذ ماله ونحو ذلك وهو قادر على دفعه فله دفعه عنه بخلاف ما إذا وقع الأذى وتاب منه فإن هذا مقام الصبر والحلم والكمال في هذا الباب حال نبينا كما في الصحيحين عن عائشة أنها قالت ما ضرب رسول الله بيده خادما له ولا امرأة ولا دابة ولا شيئا قط إلا أن يجاهد في سبيل الله ولا ينيل منه فانتقم لنفسه إلا أن تنتهك محارم الله فإذا انتهكت محارم الله لم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم الله فقد تضمن خلقه العظيم أنه لا ينتقم لنفسه إذا نيل منه وإذا انتهكت محارم الله لم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم الله ومعلوم أن أذى الرسول من أعظم المحرمات فإن من آذاه فقد آذى الله وقتل سابه واجب باتفاق الأمة سواء قيل إنه قتل لكونه ردة أو لكونه ردة مغلظة أوجبت أن صار قتل الساب حدا من الحدود والمنقول عن النبي في إجماله وعفوه عن من كان يؤذيه كثير كما قال تعالى {وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ} البقرة 109 فالأمر الناهي إذا أودى وكان آذاه تعديا لحدود الله وفيه حق لله يجب على كل أحد النهي عنه وصاحبه مستحق للعقوبة لكن لما دخل فيه حق الأدمي كان له العفو عنه كما له أن يعفو عن القاذف والقاتل وغير ذلك وعفوه عنه لا

يسقط عن ذلك العقوبة التي وجبت لحق الله لكن يكمل لهذا الأمر الناهي مقام الصبر والعفو الذي شرع الله لمثله حتى يدخل في قوله تعالى { وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ } آل عمران 186 وفي قوله { فَأَعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ } البقرة 109 ثم هنا فرق لطيف أما الصبر فإنه مأمور به مطلقاً فلا ينسخ وأما العفو والصفح فإنه جعل إلى غاية وهو أن يأتي الله بأمره فلما أتى بأمره بتمكين الرسول ونصره صار قادر على الجهاد لأولئك والزامهم بالمعروف ومنعهم عن المنكر صار يجب عليه العمل باليد في ذلك ما كان عاجزاً عنه وهو مأمور بالصبر في ذلك كما كان مأمور بالصبر أولاً والجهاد مقصوده أن تكون كلمة الله هي العليا وأن يكون الدين كله لله فمقصوده إقامة دين الله لا إستيفاء الرجل حظه ولهذا كان ما يصاب به المجاهد في نفسه وماله أجره فيه على الله ف { إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ } التوبة 111 حتى إن الكفار إذا أسلموا أو عاهدوا لم يضمنوا ما أتلفوه للمسلمين من الدماء والأموال بل لو أسلموا وبأيديهم ما غنموه من أموال المسلمين كان ملكاً لهم عند جمهور العلماء كما كمالك وأبي حنيفة وأحمد وهو الذي مضت به سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنة خلفائه الراشدين فالأمر الناهي إذا نيل منه وأودى ثم إن ذلك المأمور المنهى تاب وقبل الحق منه فلا ينبغي له أن يقتصر منه ويعاقبه على أذاه فإنه قد سقط عنه بالتوبة حق الله كما يسقط عن الكافر إذا أسلم حقوق الله تعالى كما ثبت في الصحيح عن النبي أنه قال الإسلام يهدم ما كان قبله والتوبة تهدم ما كان قبلها والكافر إذا أسلم هدم الإسلام ما كان قبله دخل في ذلك ما اعتدى به على المسلمين في نفوسهم وأموالهم لأنه ما كان يعتقد ذلك حراماً بل كان يستحله فلما تاب من ذلك غفر له هذا الاسحلال وغفرت له توابعه فالمأمور المنهى إن كل مستحلاً لأذى الأمر الناهي كأهل البدع والأهواء الذين يعتقدون أنهم على حق وأن الأمر الناهي لهم معتد عليهم فإذا تابوا لم يعاقبوا بما اعتدوا به على الأمر الناهي من أهل السنة كالرافضي الذي يعتقد كفر الصحابة أو فسقهم وسبهم على ذلك فإن تاب من هذا الاعتقاد وصار يحبهم ويتولاهم لم يبق لهم عليه حق بل دخل حقهم في حق الله ثبوتاً وسقوطاً لأنه تابع لا اعتقاده ولهذا كان جمهور العلماء كأبي حنيفة ومالك وأحمد في أصح الروايتين والشافعي في أحد القولين على أن أهل البغي المتأولين لا يضمنون ما أتلفوه على أهل العدل بالتأويل كما لا يضمن أهل العدل أتلفوه على أهل البغي بالتأويل باتفاق العلماء وكذلك أصح قولي العلماء في المرتدين فإن المرتد والباغي المتأول والمبتدع كل هؤلاء يعتقد أحدهم أنه على حق فيفعل ما يفعله متأولاً فإذا تاب من ذلك كان كتوبة الكافر من كفره فيغفر له ما سلف مما فعله متأولاً وهذا بخلاف من يعتقد أن ما يفعله بغي وعدوان كالمسلم إذا ظلم المسلم والذمي إذا ظلم المسلم والمرتد الذي أتلف مال غيره وليس بمحارب بل هو في الظاهر مسلم أو معاهد فإن هؤلاء يضمنون ما أتلفوه بالاتفاق فالمأمور المنهى إن كان يعتقد أن أذى الأمر الناهي جائز له فهو من المتأولين وحق الأمر الناهي داخل في حق الله تعالى فإذا تاب سقط الحقان وإن لم يتب كان مطلوباً بحق الله المتضمن حق الأدمي فأما إن يكون كافراً وأما أن يكون فاسقاً وإما أن يكون غاصباً فهؤلاء كل يستحق العقوبة الشرعية بحسبه وإن كان مجتهداً مخطئاً فهذا قد عفى الله عنه خطأه فإذا كان قد حصل بسبب إجهاده الخطأ أذى للأمر الناهي بغير حق فهو كالحاكم إذا اجتهد فأخطأ وكان في ذلك ما هو أذى للمسلم أو كالشاهد أو كالفتى فإذا كان الخطأ لم يتبين لذلك المجتهد المخطيء كان هذا مما ابتلى الله به هذا الأمر الناهي قال تعالى { وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا } الفرقان 20 فهذا مما يرتفع عنه الإثم في نفس الأمر وكذلك الجزاء على وجه العقوبة ولكن قد يقال قد يسقط الجزاء على وجه القصاص الذي يجب في العمد ويثبت الضمان الذي يجب في الخطأ كما تجب الدية في الخطأ وكما يجب ضمان الأموال التي يتلفها الصبي والمجنون في ماله وإن وجبت الدية على عاقلة القاتل خطأً معاونة له فلا بد إستيفاء

حق المظلوم خطأ فكذاك هذا الذي ظلم خطأ لكن يقال يفرق بين ما كان الحق فيه لله وحق الأدمي تبع له وما كان حقا لأدمي محضا أو غالبا والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد من هذا الباب موافق لقول الجمهور الذين لا يوجبون على أهل البغي ضمان ما أتلفوه لأهل العدل بالتأويل وإن كان ذلك خطأ منهم ليس كفرا ولا فسقا وإذا قدر عليهم أهل العدل لم يتبعوا مديرهم ولم يجهزوا على جريحهم ولم يسبوا حريمهم ولم يغنوا أموالهم فلا يقاتلونهم على ما أتلفوه من النفوس والأموال إذا أتلفوه مثل ذلك أو تملكوا عليهم فتبين أن القصاص ساقط في هذا الموضوع لأن هذا من باب الجهاد الذي يجب فيه الأجر على الله وهذا مما يتعلق بحق العبد الأمر الناهي وأما قول السائل هل يقتص منه لئلا يؤدي إلى طمع منه في جانب الحق فيقال متى كان فيما فعله إفساد لجانب الحق كان الحق في ذلك لله ورسوله فيفعل فيه ما يفعل في نظيره وأن لم يكن فيه أذى للأمر الناهي والمصلحة في ذلك تتنوع فتارة تكون المصلحة الشرعية القتال وتارة تكون المصلحة المهادنة وتارة تكون المصلحة الإمساك والإستعداد بلا مهادنة وهذا يشبه ذلك لكن الإنسان تزين له نفسه ان عفوه عن ظالمه يجريه عليه وليس كذلك بل قد ثبت عن النبي في الصحيح أنه قال ثلاث ان كنت لحالفا عليهن ما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا وما نقصت صدقة من مال وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله فالذي ينبغي في هذا الباب أن يعفو الإنسان عن حقه ويستوفى حقوق الله بحسب الامكان قال تعالى {وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ} الشورى 39 قال إبراهيم النخعي كانوا يكرهون أن يستدلوا فإذا قدروا عفوا قال تعالى { هُمْ يَنْتَصِرُونَ } الشورى 39 يمدحهم بأن فيهم همة الانتصار للحق والحمية له ليسوا بمنزلة الذين يعفون عجزا وذلا بل هذا مما يذم به الرجل والممدوح العفو مع القدرة والقيام لما يجب من نصر الحق لا مع إهمال حق الله وحق العباد والله تعالى أعلم¹

وصف باليقين والهدى والبصيرة

أن هؤلاء (النظار الذين يوجبون العلم والنظر وللاستدلال وينهون عن التقليد) جعلوا هذا أصل دينهم وإيمانهم وجعلوا النظر في هذا الدليل هو النظر الواجب على كل مكلف وأنه من لم ينظر في هذا الدليل فاما أنه لا يصح إيمانه فيكون كافرا على قول طائفة منهم وإما أن يكون عاصيا على قول آخرين وأما إن يكون مقلدا لا علم له بدينه لكنه ينفعه هذا التقليد ويصير به مؤمنا غير عاص والأقوال الثلاثة باطلة لأنها مفرعة على أصل باطل وهو أن النظر الذي هو أصل الدين والإيمان هو هذا النظر في هذا الدليل فان علماء المسلمين يعلمون بالاضطرار أن الرسول لم يدع الخلق بهذا النظر ولا بهذا الدليل لا عامة الخلق ولا خاصتهم فامتنع أن يكون هذا شرطا في الإيمان والعلم وقد شهد القرآن والرسول لمن شهد له من الصحابة وغيرهم بالعلم وأنهم عالمون بصدق الرسول وبما جاء به وعالمون بالله وبأنه لا إله إلا الله ولم يكن الموجب لعلمهم هذا الدليل المعين وقد وصف

¹مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 158-171

باليقين والهدى والبصيرة في غير موضع كقوله {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} يوسف 108¹

اتفاق الرسل كلهم في أصول الدين

أن ذلك دليل على اتفاق الرسل كلهم في أصول الدين كما يعلم أن رسل الله قبله كانوا رجالاً من البشر لم يكونوا ملائكة فلا يجعل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هو الذي جاء بها كما قال تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ } 109 { حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ } 110 { لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } 111 { يوسف 109-111 أن هذه آية على نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم حيث أخبر بمثل ما أخبرت به الأنبياء من غير تعلم من بشر وهذه الأمور هي من الغيب

2

ليس في النساء نبية

قال تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ } 109 { حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ } 110 { لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } 111 { يوسف 109-111 ليس في النساء نبية كما تقوله عامة المسلمين وقد ذكر إجماعهم على ذلك غير واحد مثل القاضيين أبي بكر بن الطيب وابي يعلى ابن ابي الفراء والأستاذ أبي المعالي الجويني وغيرهم والقرآن والسنة دلا على ذلك كما في قوله { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى } يوسف 109 وقوله { مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ } المائدة 75 ذكر ان غاية ما انتهت اليه أمه الصديقية³

وقد حكى الإجماع على انه لم يكن في النساء نبية غير واحد كالقاضي أبي بكر بن الطيب والقاضي أبي يعلى وأبي المعالي الجويني وخلاف ابن حزم شاذ مسبوق بالإجماع فإن دعواه أن أم موسى كانت نبية هي ومريم قول لا يعرف عن أحد من السلف والأئمة وقد ثبت في الصحيح عدد من كمل من النساء وليس فيهن أم موسى بل قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم يعني ممن قبلنا فنذكرتا والتي

¹النبوات ج: 1 ص: 43

²العقيدة الأصفهانية ج: 1 ص: 192-193

³الجواب الصحيح ج: 2 ص: 349 و مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 396

حضنت موسى وفيمن كمل ممن ليس بنبي خديجة وآسية امرأة فرعون وغيرهما والأنبياء أفضل من غيرهم فلو كانت نبيه لكان غير النبي أفضل منه أو غير الكامل أفضل من الكامل¹

يبين أنه لم يرسل ملائكة بل رجالاً من أهل القرى ليبين أن هذا معتاد معروف ليس هو أمراً لم تجر به عادة الرب وقال في يوسف { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ } يوسف 109 فان الكفار كانوا يقولون إنما يرسل الله ملكاً أو يرسل مع البشر ملكاً قال تعالى { وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا } 94 { قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا } 95 { الإسراء 94-95 بين أنهم لا يطيقون الأخذ عن الملائكة إن لم يأتوا في صورة البشر ولو جاءوا في صورة لبشر لحصل اللبس²

العقل هو العلم الذي يعمل به والعمل بالعلم

قال تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ } يوسف 109 ان اسم العقل عند المسلمين وجمهور العقلاء إنما هو صفة وهو الذي يسمى عرضاً قائماً بالعقل وعلى هذا دل القرآن في قوله تعالى لعلمكم تعقلون وقوله { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُوا لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا } الحج 46 وقوله { قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ } آل عمران 118 ونحو ذلك مما يدل على ان العقل مصدر عقل يعقل عقلاً وإذا كان كذلك فالعقل لا يسمى به مجرد العلم الذي لم يعمل به صاحبه ولا العمل بلا علم بل إنما يسمى به العلم الذي يعمل به والعمل بالعلم ولهذا قال أهل النار { لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ } الملك 10 وقال تعالى { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُوا لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا } الحج 46 والعقل المشروط في التكليف لا بد أن يكون علوماً يميز بها الانسان بين ما ينفعه وما يضره فالمجنون الذي لا يميز بين الدراهم والفلوس ولا بين أيام الاسبوع ولا يفقه ما يقال له من الكلام ليس بعاقل أما من فهم الكلام ويميز بين ما ينفعه وما يضره فهو عاقل ثم من الناس من يقول العقل هو علوم ضرورية ومنهم من يقول العقل هو العمل بموجب تلك العلوم والصحيح أن اسم العقل يتناول هذا وهذا وقد يراد بالعقل نفس الغريزة التي في الانسان التي بها يعلم ويميز ويقصد المنافع دون المضار كما قال أحمد بن حنبل والحارث المحاسبى

¹الصفدية ج: 1 ص: 198

²النبوات ج: 1 ص: 16

وغيرهما ان العقل غريزة وهذه الغريزة ثابتة عند جمهور العقلاء كما أن في العين قوة بها يبصر وفي اللسان قوة بها يذوق وفي الجلد قوة بها يلمس عند جمهور العقلاء¹

الناس يدركون بعقولهم الامور الدنيا فيعرفون ما يجلب لهم منفعة في الدنيا وما يجلب لهم مضرة وهذا من العقل الذي ميز به الانسان فانه يدرك من عواقب الافعال ما لا يدركه الحس ولفظ العقل في القران يتضمن ما يجلب به المنفعة وما يدفع به المضرة²

جعل الله الرسل من أهل القرى

وذلك أن الله سبحانه وتعالى جعل سكنى القرى يقتضي من كمال الإنسان في العلم والدين ورقة القلوب مالا يقتضيه سكنى البادية كما أن البادية توجب من صلابة البدن والخلق ومثانة الكلام مالا يكون في القرى هذا هو الأصل وإن جاز تخلف هذا المقتضى لمانع وكانت البادية أحيانا أنفع من القرى ولذلك جعل الله الرسل من أهل القرى فقال تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ } **مَنْ أَهْلِ الْقُرَى** يوسف 109 وذلك لأن الرسل لهم الكمال في عامة الأمور حتى في النسب ولهذا قال الله سبحانه { الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ الْأَعْلَمُونَ حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } التوبة 97³

الطريق العقلية في القياس والاعتبار

والحكم بين الشيين بالتمائل أو التفاضل يستدعي معرفة كل منهما ومعرفة ما اتصف به من الصفات التي يقع بها التماثل والتفاضل كمن يريد أن يعرف أن البخاري أعلم من مسلم وكتابه أصح أو أن سيبويه أعلم من الأخفش ونحو ذلك وقد فضل الله بعض النبيين على بعض كما قال تعالى { وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا } الإسراء 55 والكلام في شيين أحدهما في كون المفضل يستحق تلك المنزلة دون الفاضل وهذا غاية الجهل والظلم كقول الرافضة الذين يقولون إن عليا كان إماما عالما عادلا والثلاثة لم يكونوا كذلك وكذلك اليهود والنصارى الذين يقولون إن موسى كان رسولا ومحمد لم يكن كذلك فإن هذا في غاية الجهل والظلم بخلاف من اعترف باستحقاق الاثنين للمنزلة ولكن فضل

¹مجموع الفتاوى ج: 9 ص: 286

²مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 311

³اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 146

المفضول فهذا أقل جهلا وظلما ومعلوم أن المرسلين يتفاضلون تارة في الكتب المنزلة عليهم وتارة في الآيات والمعجزات الدالة على صدقهم وتارة في الشرائع وما جاءوا به من العلم والعمل وتارة في أممهم فمن عنده علم وعدل فينظر في القرآن وفي غيره من الكتب كالتوراة والإنجيل أو في معجزات محمد ومعجزات غيره أو في شريعته وشريعة غيره أو في أمته وأمة غيره وجد له من التفضيل على غيره ما لا يخفى إلا على مفرط في الجهل أو الظلم فكيف يمكن مع هذا أن يقال هو كاذب مفتر وغيره هو النبي الصادق نعم كثير من أهل الكتاب لم يعرفوا من أخباره ما يبين لهم ذلك كما أن كثيرا من الرافضة لم يعرفوا من أخبار الثلاثة ما يبين لهم فضيلتهم عن علي رضي الله عنه فهو لاء في الجهل وطلب العلم عليهم فرض خصوصا أمر النبوة فإن النظر في أمر من قال {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} الأعراف 158 مقدم على كل شيء إذ كان التصديق بهذا مستلزما لغاية السعادة والتكذيب به مقتضيا لغاية الشقاوة فبالرسول يحصل الفرق بين السعداء والأشقياء وبين الحق والباطل والهدى والضلال والفرق بين أولياء الله وأعدائه وكما يسلك هذه الطريق العقلية في القياس والاعتبار بأن يعتبر حال محمد وكتابه وشرعه وأمنه بحال غيره وكتابه وشرعه وينظر هل هما متماثلان أو متفاضلان وأيها أفضل وإذا تبين أن حاله أفضل كان تصديقه أولى وامتنع أن يكون غيره صادقا وهو كاذب بل لو كانا متماثلين وجب كونه صادقا بل وكذلك لو كانا متقاربين وغيره أفضل فإن المتنبى الكذاب لا يقارب الصادق بل بينهما من التباين ما لا يخفى إلا على أعمى الناس وكذلك نسلك هذه الطريق في جنس الأنبياء عليهم السلام مطلقا وأمهم بأن تعرف أخبار من مضى من الأنبياء وأمهم وترى آثار هؤلاء وهؤلاء كما قال تعالى بعد ما ذكر قصة يوسف { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ } {109} حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ } {110} لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } {111} يوسف 109-111¹

{ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ } {109} حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ } {110} لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } {111} يوسف 109-111 ومثل هذا في القرآن متعدد في غير موضع يذكر الله تعالى قصص رسله ومن آمن بهم وما حصل لهم من النصر والسعادة وحسن العاقبة وقصص من كفر بهم وكذبهم وما حصل لهم من البلاء والعذاب وسوء العاقبة وهذا من أعظم الأدلة والبراهين على صدق الرسل وبرهم وكذب من خالفهم وفجوره ثم إنه سبحانه بين أن ذلك يعلم بالبصر أو السمع أو بهما فالبصر والمشاهدة لمن رآهم أو رأى آثارهم الدالة عليهم كمن شاهد

¹الجواب الصحيح ج: 5 ص: 135

أصحاب الفيل وما أحاط بهم ومن شاهد آثارهم بأرض الشام واليمن والحجاز وغير ذلك كآثار أصحاب الحجر وقوم لوط ونحو ذلك والسمع فبالأخبار التي تفيد العلم كتواتر الأخبار بما جرى في قصة موسى وفرعون وغرق فرعون في القلزم وكذلك تواتر الأخبار بقصة الخليل مع النمرود وتواتر الأخبار بقصة نوح وإغراق أهل الأرض وأمثال ذلك من الأخبار المتواترة عند أهل الملل وغير أهل الملل مع أن في بعض قصص من تواترت به هذه الأخبار ما يحصل العلم بخبرهم واشتراك البصر والسمع كما يشاهد بعض الآثار من تواتر الأخبار فإله سبحانه وتعالى أبقى في العالم الآثار الدالة على ما فعله بأنبيائه والمؤمنين من الكرامة وما فعله بمكذبيهم من العقوبة¹

وما أمر الله به من الاعتبار في كتابه يتناول قياس الطرد وقياس العكس فانه لما أهلك المكذبين للرسول بتكذبيهم كان من الاعتبار ان يعلم ان من فعل ما فعلوا أصابه ما أصابهم فينتقى تكذيب الرسل حذرا من العقوبة وهذا قياس الطرد ويعلم أن من لم يكذب الرسول بل أتبعهم لا يصيبه ما أصاب هؤلاء وهذا قياس العكس وهو المقصود من الاعتبار بالمعذبين فان المقصود ثبت في الفرع عكس حكم الاصل لا نظيره والاعتبار يكون بهذا وبهذا قال تعالى **{لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ {يوسف 111}** وقال **{قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ {آل عمران 13}**²

من آيات الأنبياء إهلاك الله لمكذبيهم ونصره للمؤمنين

ومن آيات الأنبياء إهلاك الله لمكذبيهم ونصره للمؤمنين بهم فهذا من أعلام نبوتهم ودلائل صدقهم كإغراق الله قوم نوح لما كذبوه وكإهلاكه قوم عاد بالريح الصرصر وإهلاك قوم صالح بالصيحة وإهلاك قوم شعيب بالظلة وإهلاك قوم لوط بإقلاب مداينهم ورجمهم بالحجارة وكإهلاك قوم فرعون بالغرق وقد ذكر الله القصص في القرآن في غير موضع وبين أنها من آيات الأنبياء الدالة على صدقهم كما يذكره في سورة الشعراء لما ذكر قصة موسى قال **{إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ {الشعراء 67}** ثم ذكر قصة إبراهيم وقال في آخرها **{إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ {الشعراء 103}** وكذلك ذكر مثل ذلك في قصة نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ومن ذلك ما جعله من اللعنة الشائعة لمن كذبهم ومن لسان الصدق والثناء والدعاء لهم ولمن آمن بهم كما قال تعالى لما ذكر قصة نوح عليه السلام **{وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ {78} سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ {79} الصافات 78-79}** ولهذا قال تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم **{فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ {هود 49}** فأخبر أن العاقبة للمتقين ثم إنه ما وقع لهؤلاء وهؤلاء يعلم بالسمع والنقل تارة ويعلم بالعقل والاعتبار بآثارهم تارة كما قال عن أهل النار **{وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي**

¹العقيدة الأصفهانية ج: 1 ص: 136

²الرد على المنطقيين ج: 1 ص: 384

أَصْحَابِ السَّعِيرِ {الملك 10} كما ذكر الله الطريقين في قوله {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ} يوسف 109¹

قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح عن أبي موسى أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تفيئها الرياح تقومها تارة وتمليها أخرى ومثل المنافق مثل شجرة الأرز لا تزال ثابتة على أصلها حتى يكون انجعافها مرة واحدة فالكاذب الفاجر وإن أعطي دولة فلا بد من زوالها بالكلية وبقاء ذمه ولسان السوء له في العالم وهو يظهر سريعاً ويزول سريعاً كدولة الأسود العنسي ومسيلمة الكذاب والحارث الدمشقي وبابا الرومي ونحوهم وأما الأنبياء فإنهم يبتلون كثيراً ليمحصوا بالبلاء فإن الله إنما يمكن العبد إذا ابتلاه ويظهر أمرهم شيئاً فشيئاً كالزرع قال تعالى {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} الفتح 29 ولهذا كان أول ما يتبعهم ضعفاء الناس فاعتبار هذه الأمور وسنة الله في أوليائه وأنبيائه الصادقين وفي أعداء الله والمتنبئين الكذابين مما يوجب الفرق بين النوعين وبين دلائل النبي الصادق ودلائل المتنبئ الكذاب وقد ذكر ابتلاء النبي والمؤمنين ثم كون العاقبة لهم في غير موضع كقوله تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ} {109} حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ} {110} لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} {111} يوسف 109-111²

{حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا}

في قوله تعالى {حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا} يوسف 110 الآية قراءتان في هذه الآية بالتخفيف والتنقيط وكانت عائشة رضي الله عنها تقرأ بالتنقيط وتنكر التخفيف كما في الصحيح عن الزهري قال أخبرني عروة عن عائشة قالت له وهو يسألها عن قوله {وَوَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا} يوسف 110 مخففة قالت معاذ الله لم تكن الرسل تظن ذلك بربها قلت فما هذا

¹الجواب الصحيح ج: 6 ص: 389-390

²الجواب الصحيح ج: 6 ص: 424-425

النصر **{حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ} يوسف 110** بمن كذبهم من قومهم وظنت الرسل ان اتباعهم قد كذبوهم جاءهم نصر الله عند ذلك لعمرى لقد إستيقنوا أن قومهم كذبوهم فما هو بالظن وفى الصحيح أيضا عن ابن جريج سمعت ابن ابي مليكة يقول قال ابن عباس **{حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا} 110} يوسف 110** خفيفة ذهب بها هنالك وتلا **{حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهَ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ} البقرة 214** فلقيت عروة فذكرت ذلك له فقال قالت عائشة معاذ الله واله ما وعد الله ورسوله من شىء قط إلا علم أنه كأن قبل أن يكون ولكن لم يزل البلاء بالرسل حتى ظنوا خافوا أن يكون من معهم يكذبهم فكانت تقرأها **{ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا } يوسف 110** مثقلة فعائشة جعلت إستيأس الرسل من الكفار للمكذبين وظنهم التكذيب من المؤمنين بهم ولكن القراءة الأخرى ثابتة لا يمكن إنكارها وقد تأولها ابن عباس وظاهر الكلام معه والآية التى تليها إنما فيها إستبطاء النصر وهو قولهم **{ مَتَى نَصُرُ اللَّهَ } البقرة 214** فإن هذه كلمة تنبئ لطلب التعجيل وقوله **{ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا } يوسف 110** قد يكون مثل قوله **{ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانَ فِي أُمْنِيهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ } الحج 52** والظن لا يراد به في الكتاب والسنة الاعتقاد الراجح كما هو في إصلاح طائفة من أهل الكلام فى العلم وبسمون الاعتقاد المرجوح وهما بل قد قال النبى إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث وقد قال تعالى **{ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا } يونس 36** فالاعتقاد المرجوح هو الظن وهو وهم وهذا الباب قد يكون من حديث النفس المغفوق عنه كما قال النبى إن الله تجاوز لأمتى ما حدثت به أنفسها ما لم تكلم أو تعمل وقد يكون من باب الوسوسة التى هي صريح الإيمان كما ثبت فى الصحيح أن الصحابة قالوا يا رسول الله ان أحدنا ليجد فى نفسه ما لأن يحرق حتى يصير حممة أو يجز من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتكلم به قال أو قد وجدتموه قالوا نعم قال ذلك صريح الإيمان وفى حديث آخر أن أحدنا ليجد ما يتعاضم أن يتكلم به قال الحمد لله الذى رد كيده إلى الوسوسة فهذه الأمور التى هي تعرض ثلاثة أقسام منها ما هو ذنب يضعف به الإيمان وإن كان لا يزيله واليقين فى القلب له مراتب ومنه ما هو عفو يعفى عن صاحبه ومنه ما يكون يقترن به صريح الإيمان ونظير هذا ما فى الصحيح عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب وأبى سلمة بن عبدالرحمن عن أبى هريرة قال قال رسول الله يرحم الله لوطا لقد كان يأوي إلى ركن شديد ولو لبثت فى السجن ما لبث يوسف لاجبت الداعي ونحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال له ربه **{ أَوْلَمْ تُؤْمِن قَال بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي } البقرة 260** وقد ترك البخاري ذكر قوله بالشك لما خاف فيها من توهم بعض الناس ومعلوم أن إبراهيم كان مؤمنا كما أخبر الله عنه بقوله **{ أَوْلَمْ تُؤْمِن قَال بَلَىٰ } البقرة 260** ولكن طلب طمأنينة قلبه كما قال **{ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي } البقرة 260** فالتفاوت بين الإيمان والإطمئنان سماه النبى صلى الله عليه وسلم شكا لذلك باحياء الموتى كذلك الوعد بالنصر فى الدنيا يكون الشخص مؤمنا بذلك ولكن قد يضطرب قلبه فلا يطمئن فيكون فوات الإطمئنان ظنا أنه قد كذب فالشك مظنة أنه يكون من باب واحد وهذه الأمور لا تقدر فى الإيمان الواجب وإن كان فيها ما هو ذنب فالأنبياء عليهم السلام معصومون من الإقرار على ذلك كما فى أفعالهم على ما عرف من أصول السنة والحديث وفى قصص هذه الأمور عبرة للمؤمنين بهم فإنهم لا بد أن يبتلوا بما هو أكثر من ذلك ولا ييأسوا إذا ابتلوا بذلك ويعلمون أنه قد ابتلى به من هو خير منهم وكانت العاقبة إلى خير فليتيقن المرتاب ويتوب المذنب ويقوى إيمان المؤمن فيها يصح الاتساء بالأنبياء كما فى قوله **{ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا } الأحزاب 21** وفى القرآن من قصص المرسلين التى فيها تسلية وتثبيت ليتأسى بهم فى الصبر على ما كذبوا وأوذوا كما قال تعالى **{ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا } الأنعام 34**

ولنا لأنه أسوة في ذلك ما هو كثير في القرآن ولهذا قال **{لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ**
{يوسف 111} وقال **{مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدَّ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ}** {فصلت 43} وقال **{فَاصْبِرْ كَمَا**
صَبَرَ أَوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ} {الأحقاف 35} **{وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ**
مَا نُنَبِّئُ بِهِ فُؤَادَكَ} {هود 120} وإذا كان الاتساء بهم مشروعاً في هذا وفي هذا فمن المشروع التوبة
من الذنب والثقة بوعده الله وإن وقع في القلب ظن من الظنون وطلب مزيد الآيات لطمأنينة القلوب
كما هو المناسب للاتساء والافتداء دون ما كان المتبوع معصوماً مطلقاً فيقول التابع أنا لست من
جنسه فإنه لا يذكر بذنب فإذا أذنب إستيأس من المتابعة والافتداء لما أتى به من الذنب الذي يفسد
المتابعة على القول بالعصمة بخلاف ما إذا قيل إن ذلك مجبور بالتوبة فإنه تصح معه المتابعة كما
قيل أول من أذنب وأجرم ثم تاب وندم آدم أبو البشر ومن أشبهه أباه ما ظلم والله تعالى قص علينا
قصص توبة الأنبياء لنقتدي بهم في المتاب وأما ما ذكره سبحانه أن الافتداء بهم في الأفعال التي
أقروا عليها فلم ينهوا عنها ولم يتوبوا منها فهذا هو المشروع فأما ما نهوا عنه وتابوا منه فليس بدون
المنسوخ من أفعالهم وإن كان ما أمروا به أبيض لهم ثم نسخ تنقطع فيه المتابعة فما لم يؤمروا به أخرى
وأولى وأيضاً ففوله **{ وَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا }** {يوسف 110} قد يكونون ظنوا في الموعود به ما ليس
هو فيه بطريق الاجتهاد منهم فتبين الأمر بخلاف فهذا جائز عليهم كما سنبينه فإذا ظن بالموعود به
ما ليس هو فيه ثم تبين الأمر بخلاف ظن أن ذلك كذب وكان كذباً من جهة ظن في الخبر ما لا يجب
أن يكون فيه فأما الشك فيما يعلم أنه أخبر به فهذا لا يكون وسنوضح ذلك إن شاء الله تعالى ومما
ينبغي أن يعلم أنه سبحانه ذكر هنا شيئين أحدهما إستيأس الرسل والثاني ظن أنه كذبوا
وقد ذكرنا لفظ الظن فأما لفظ إستيأسوا فإنه قال سبحانه **{ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ**
{يوسف 110} ولم يقل يئس الرسل ولا ذكر ما إستيأسوا منه وهذا اللفظ قد ذكره في هذه السورة
{ فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ آبَاءَكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ
مَا فَرَطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أُبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ
{يوسف 80} وقد يقال الاستيأس ليس هو الايأس لوجوه أحدها أن أخوة يوسف لم
يئأسوا منه بالكيفية فإن قول كبيرهم **{ فَلَنْ أُبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ**
الْحَاكِمِينَ } {يوسف 80} دليل على أنه يرجو أن يحكم الله له وحكمه هنا لا بد أن يتضمن تخليصنا
ليوسف منهم وإلا فحكمه له بغير ذلك لا يناسب قعوده في مصر لأجل ذلك وأيضاً في اليأس
يكون الشيء الذي لا يكون ولم يجيء ما يقتضية ذلك فإنهم قالوا **{ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا**
كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ } {78} قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده
إِنَّا إِذَا لَطَلِمُونَ } {79} {يوسف 78-79} فامتنع من تسليمه إليهم ومن المعلوم أن هذا لا يوجب القطع
بأنه لا يسلم إليهم فإنه يتغير عزمه ونيته وما أكثر تقليب القلوب وقد يتبدل الأمر بغيره حتى يصير
الحكم إلى غيره وقد يتخلص بغير إختياره والعادات قد جرت بهذا على مثل من عنده من قال لا
يعطيه فقد يعطيه وقد يخرج من يده بغير إختياره وقد يموت عنه فيخرج والعالم مملوء من هذا
الوجه الثاني قال لهم يعقوب **{ يَا بَنِيَّ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَّأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ**
إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ } {يوسف 87} فنهاهم عن اليأس من روح الله ولم ينههم
عن الاستيأس وهو الذي كان منهم وأخبر **{ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ }** {يوسف 87}
ومن المعلوم أنهم لم يكونوا كافرين فهذا هو الوجه الثالث أيضاً وهو أنه أخبر **{ إِنَّهُ لَا**
يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ } {يوسف 87} فيمتنع أن يكون للأنبياء يأس من روح الله وإن
يقعوا في الاستيأس بل المؤمنون ما داموا مؤمنين لا ييأسون من روح الله وهذه السورة تضمنت ذكر
المستيأسين وإن الفرح جاءهم بعد ذلك لئلا ييأس المؤمن ولهذا فيها **{لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً**

لأولي الألباب { يوسف 111 } فذكر إستيناس الأخوة من أخي يوسف وذكر عائشة جميعا الوجه الرابع أن الاستيناس إستفعال من اليأس والاستفعال يقع على وجوه يكون لطلب الفعل من الغير فالاستخراج والاستفهام والاستعلام يكون في الأفعال المتعدية يقال إستخرجت المال من غيري وكذلك إستفهمت ولا يصلح هذا أن يكون معنى الاستيناس فإن أحدا لا يطلب اليأس ويستدعيه ولأن إستيناس فعل لازم لا متعدي ويكون للاستفعال لصيرورة المستقبل على صفة غيرة وهذا يكون في الأفعال اللازمة كقولهم إستحجر الطين أي صار كالحجر وإستنوق الفحل أي صار كالناقة وأما النظر فيما إستيناسوا منه فإن الله تعالى ذكر ذلك في قصة أخوة يوسف حيث قال {فَلَمَّا اسْتِئْأَسُوا مِنْهُ { يوسف 80 } وأما الرسل فلم يذكر ما إستيناسوا منه بل أطلق وصفهم بالاستيناس فليس لأحد أن يقيد به بأنهم إستيناسوا مما وعدوا به وأخبروا بكونه ولا ذكر ابن عباس ذلك وثبت أن قوله **{ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا { يوسف 110 }** لا يدل على ظاهره فضلا عن باطنه أنه حصل في قلوبهم مثل تساوى الطرفين فيما أخبروا به فإن لفظ الظن في اللغة لا يقتضى ذلك بل يسمى ظنا ما هو من أكذب الحديث عن الظان لكونه أمرا مرجوحا في نفسه واسم اليقين والريب والشك ونحوها يتناول علم القلب وعمله وتصديقه وعدم تصديقه وسكينته وعدم سكينته ليست هذه الأمور بمجرد العلم فقط كما يحسب ذلك بعض الناس كما نبهنا عليه في غير هذا الموضوع إذ المقصود هنا الكلام على قوله **{ حَتَّى إِذَا اسْتِئْأَسَ الرَّسُلُ { يوسف 110 }** فإذا كان الخبر عن إستيناسهم مطلقا فمن المعلوم ان الله إذا وعد الرسل والمؤمنين بنصر مطلق كما هو غالب إخباراته لم يقيد زمانه ولا مكانه ولا سنته ولا صفته فكثيرا ما يعتقد الناس في الموعود به صفات أخرى لم ينزل عليها خطاب الحق بل اعتقدوها بأسباب أخرى كما اعتقد طائفة من الصحابة أخبار النبي لهم أنهم يدخلون المسجد الحرام ويطوفون به إن ذلك يكون عام الحديبية لأن النبي صلى الله عليه وسلم خرج متعمرا ورجا أن يدخل مكة ذلك العام ويطوف ويسعى فلما إستيناسوا من دخوله مكة ذلك العام لما صدهم المشركون حتى قاضاهم النبي على الصلح المشهور بقي في قلب بعضهم شيء حتى قال عمر للنبي ألم تخبرنا أنا ندخل البيت ونطوف قال بلى فأخبرت أنك تدخله هذا العام قال لا قال فإنك داخله ومطوف وكذلك قال له أبو بكر وكان أبو بكر رضي الله عنه أكثر علما وإيمانا من عمر حتى تاب عمر مما صدر منه وإن كان عمر رضي الله عنه محدثا كما جاء في الحديث الصحيح أنه قال قد كان في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي أحد فعمر فهو رضي الله عنه المحدث الملهم الذي ضرب الله الحق على لسانه وقلبه ولكن مزية التصديق الذي هو أكمل متابعة للرسول وعلما وإيمانا بما جاء به درجته فوق درجته فلهذا كان الصديق أفضل الأمة صاحب المتابعة للأثار النبوية فهو معلم لعمر ومؤدب للمحدث منهم الذي يكون له من ربه إلهام وخطاب كما كان أبو بكر معلما لعمر ومؤدبا له حيث قال له فأخبرك أنك تدخله هذا العام قال لا قال إنك آتية ومطوف فبين له الصديق أن وعد النبي صلى الله عليه وسلم مطلق غير مقيد بوقت وكونه سعى في ذلك العام وقصده لا يوجب أن يعنى ما أخبر به فإنه قد يقصد الشيء ولا يكون غيره إذ ليس من شرط النبي أن يكون كما قصده بل من تمام نعمة ربه عليه أن يقيد عما يقصده إلى أمر آخر هو أنفع مما قصده كما كان صلح الحديبية أنفع للمؤمنين من دخولهم ذلك العام بخلاف خبر النبي فإنه صادق لا بد أن يقع ما أخبر به ويتحقق وكذلك ظن النبي كما قال في تأبير النخل إنما ظننت ظنا فلا تؤاخذوني بالظن ولكن إذا حدثتكم عن الله فإنى لن أكذب على الله فإستيناس عمر وغيره من دخول ذلك هو إستيناس مما ظنوه موعودا به ولم يكن موعودا به ومثل هذا لا يمتنع على الأنبياء أن يظنوا شيئا فيكون الأمر بخلاف ما ظنوه فقد يظنون فيما وعدوه تعيينا وصفات ولا يكون كما ظنوه فيبأسون مما ظنوه في الوعد لا من تعيين الوعد كما قال النبي صلى الله عليه وسلم رأيت أن أبا جهل قد أسلم فلما أسلم خالد ظنوه

فلما أسلم عكرمة علم أنه هو وروى مسلم في صحيحه أن النبي مر يقوم يلحقون فقال لو لم تفعلوا هذا لصلح قال فخرج سبتا فمر بهم فقال ما لفحكم قالوا قلت كذا وكذا قال أنتم اعلم بأمر دنياكم وروى أيضا عن موسى بن طلحة عن أبيه طلحة ابن عبيد الله قال مررت مع رسول الله يقوم على رؤوس النخل فقال ما يصنع هؤلاء فقال يلحقونه يجعلون الذكر في الأنتى فتلقح فقال رسول الله ما أظن يغني ذلك شيئا فأخبروا بذلك فآخبر رسول الله صلى عليه وسلم بذلك فقال إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه فإننى ظننت ظنا فلا تؤاخذونى بالظن ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئا فخذوا به فإنى لنا أكذب على الله فإذا كان النبي يأمرنا إذا حدثنا بشيء عن الله أن نأخذ به فإنه لن يكذب على الله فهو أتقانا لله وأعلمنا بما يتقى وهو أحق أن يكون أخذا بما يحدثنا عن الله فإذا أخبره الله بوعده كان علينا أن نصدق به وتصديقه هو به أعظم من تصديقنا ولم يكن لنا أن نشك فيه وهو بأبى أولى وأحرى أن لا يشك فيه لكن قد يظن ظنا كقوله إنما ظننت ظنا فلا تؤاخذونى بالظن وإن كان أخبره به مطلقا فمستنده ظنون كقوله في حديث ذى اليمين ما قصرت الصلاة ولا نسيت وقد يظن الشيء ثم يبين الله الأمر على جلبيته كما وقع مثل ذلك في أمور كقوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا } الحجرات 6 نزلت في الوليد ابن عقبة لما استعمله النبي وهم أن يغزوهم لما ظن صدقه حتى أنزل الله هذه الآية وكذلك في قصة بنى أبيرق التي أنزل الله فيها { إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا } النساء 105 وذلك لما جاء قوم تركوا السارق الذى كان يسرق وأخرجوا البرىء فظن النبي صدقهم حتى تبين الأمر بعد ذلك وقال في حديث قصر الصلاة لم أنس ولم تقصر فقالوا بلى قد نسيت وكان قد نسي فأخبر عن موجب ظنه واعتقاده حتى تبين الأمر بعد ذلك وروى عنه أنه قال إني لا أنسى لأسن وأيضا فقوله في القرآن { رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا } البقرة 286 شامل للنبي وأمه حيث قال في صدر الآيات { آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ } البقرة 285 والآيات وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن عيسى الأنصارى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال بينا جبريل قاعد عند النبي سمع نقيضا من فوقه فرفع رأسه فقال هذا من السماء فتح اليوم لم يفتح إلا اليوم فنزل منه ملك فقال هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم فسلم وقال ابشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ بحرف منها إلا أعطيته وفي صحيح مسلم عن آدم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال لما نزلت هذه الآية { وَإِن تُبَدُّوْا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوْهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ } البقرة 284 دخل في قلوبهم منها شيء لم يدخل مثله فقال النبي قولوا سمعنا وأطعنا وسلمنا قال فألقى الله الإيمان في قلوبهم فأنزل الله تعالى { لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ } البقرة 286 الآيات إلى قوله { أَوْ أَخْطَأْنَا } البقرة 286 قال قد فعلت إلى آخر السورة قال قد فعلت وفي صحيح مسلم عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة قال لما نزلت على رسول الله الله { اللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِن تُبَدُّوْا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوْهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ } البقرة 284 إشتد ذلك على أصحاب رسول الله ثم برکوا على الركب فقالوا أى رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطبق الصلاة والصيام والجهاد والصدقة وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطبقها قال رسول الله أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتاب سمعنا وعصينا بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير فلما اقتراها القوم وذلت بها ألسنتهم أنزل الله عزوجل فى أثرها { آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ } البقرة 285 إلى قوله { وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ } البقرة 285 فلما فعلوا ذلك نسخها سبحانه فأنزل الله { لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا } البقرة 286 إلى قوله { قَبَلْنَا } البقرة 286 قال نعم { وَلَا تُحْمَلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ } البقرة 286 قال نعم إلى آخر السورة

قال نعم والذي عليه جمهور أهل الحديث والفقهاء أنه يجوز عليهم الخطأ في الإجتهد لكن لا يقرون عليه وإذا كان في الأمر والنهي فكيف في الخبر وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض وإنما أفضى بنحو مما اسمع فأحسب أنه صادق فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار فنفس ما يعد الله به الأنبياء والمؤمنين حقاً لا يمترون فيه كما قال تعالى في قصة نوح {وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ} هود 45 إلى آخر الآية ومثل هذا الظن قد يكون من إلقاء الشيطان المذكور في قوله { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } 52 { لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةَ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ } 53 { وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } 54 { الحج 52-54 وقد تكلمنا على هذه الآية في غير هذا الموضوع وللناس فيها قولان مشهوران بعد إتفاقهم على أن التمنى هو التلاوة والقرآن كما عليه المفسرون من السلف كما في قوله { وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ } البقرة 78 وأما من أول النهي على تمنى القلب فذاك فيه كلام آخر وإن قيل إن الآية تعم النوعين لكن الأول هو المعروف المشهور في التفسير وهو ظاهر القرآن ومراد الآية قطعاً لقوله بعد ذلك { فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } 52 { لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ } 53 { الحج 52-53 وهذا كله لا يكون في مجرد القلب إذا لم يتكلم به النبي لكن قد يكون في ظنه الذي يتكلم به بعضه النخل ونحوها وهو يوافق ما ذكرناه وإذا كان التمنى لا بد أن يدخل فيه القول ففيه قولان الأول أن الإلقاء هو في سمع المستمعين ولم يتكلم به الرسول وهذا قول من تأول الآية بمنع جواز الإلقاء في كلامه و الثاني وهو الذي عليه عامة السلف ومن إتبعهم أن الإلقاء في نفس التلاوة كما دلت عليه الآية وسياقها من غير وجه كما وردت به الآثار المتعددة ولا محذور في ذلك إلا إذا أقر عليه فأما إذا نسخ الله ما ألقى الشيطان وأحكم آياته فلا محذور في ذلك وليس هو خطأ وغلط في تبليغ الرسالة إلا إذا أقر عليه ولا ريب أنه معصوم في تبليغ الرسالة أن يقر على خطأ كما قال فإذا حدثتكم عن الله بشيء فخذوا به فإنني لن أكذب على الله ولولا ذلك لما قدمت الحجة به فإن كونه رسول الله يقتضى أنه صادق فيما يخبر به عن الله والصدق يتضمن نفي الكذب ونفي الخطأ فيه فلو جاز عليه الخطأ فيما يخبر به عن الله وأقر عليه لم يكن كل ما يخبر به عن الله والذين منعوا أن يقع الإلقاء في تبليغه فروا من هذا وقصدوا خيراً وأحسنوا في ذلك لكن يقال لهم ألقى ثم أحكم فلا محذور في ذلك فإن هذا يشبه النسخ لمن بلغه الأمر والنهي من بعض الوجوه فإنه إذا موقن مصدق برفع قول سبق لسانه به ليس أعظم من أخباره برفعه ولهذا قال في النسخ { وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ } البقرة 143 فظنهم أنهم قد كذبوا هو يتبع ما يظنونه من معنى الوعد وهذا جائز لا محذور فيه إذا لم يقرؤا عليه وهذا وجه حسن وهو موافق لظاهر الآية ولسائر الأصول من الآيات والأحاديث والذي يحقق ذلك أن باب الوعد والوعيد ليس بأعظم من باب الأمر والنهي فإذا كان من الجائز من باب الأمر والنهي أن يظنوا شيئاً ثم يتبين لهم بخلافه فلأن يجوز ذلك في باب الوعد والوعيد بطريق الأولى والأحرى حتى أن باب الأمر والنهي إذا تمسكوا فيه بالإستصحاب لم يقع في ذلك ظن خلاف ما هو عليه الأمر في نفسه فإن الوجوب والتحريم الذي لا يثبت إلا بخطاب إذا نفوه قبل الخطاب كان ذلك إعتقاداً مطابقاً للأمر في نفسه وباب الوعد إذا لم يخبروا به قد يظنون إنتقاه كما ظن الخليل جواز المغفرة لأبيه حتى إستغفر له ونهينا عن الإقتداء كما قال النبي لأبي طالب لأستغفرن لك ما لم أنه عنك وحتى استاذن ربه في

الإستغفار لأمه فلم يؤذن له في ذلك وحتى صلى على المنافقين قبل أن ينهي عن ذلك وكان يرجو لهم المغفرة حتى أنزل الله عز وجل {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ {113} وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ} {114} التوبة 113- 114 وقال عن المنافقين {وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا} {التوبة 84 الآية وقال {سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ} {المنافقون 6 فإذا كان صلى على المنافقين وإستغفر لهم راجيا ان يغفر لهم قبل ان يعلم ذلك ولهذا سوغ العلماء أن يروى في باب الوعد والوعيد من الأحاديث مالم يعلم انه كذب وإن كان ضعيف الإسناد بخلاف باب الأمر والنهي فإنه لا يؤخذ فيه إلا بما يثبت أنه صدق لأن باب الوعد والوعيد إذا أمكن أن يكون الخبر صدقا وأمکن أن يجرم بنبوته بلا علم إذ لا محذور فيه منابت الناس اللفظ تعيين الوعد والوعيد فلا يجوز منع ذلك بمنع الحديث إذا أمكن أن يكون صدقا لأن في ذلك إبطال لما هو حق ذلك لا يجوز ولهذا قال النبي حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج وهذا الباب وهو باب الوعد والوعيد هو في الكتاب بأسماء مطلقة للمؤمنين والصابرين والمجاهدين والمحسنين فما أكثر من يظن من الناس أنه من أهل الوعد ويكون اللفظ في ظنه أنه متصف بما يدخل في الوعد لا في إعتقاد صدق الوعد في نفسه وهذا كقوله {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} {غافر 51 وقوله {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ} {الصفوات 171 الآيتين فقد يظن الإنسان في نفسه أو غيره كمال الإيمان المستحق للنصر وأن جند الله الغالبون ويكون الأمر بخلاف ذلك وقد يقع من النصر الموعود به مالا يظن أنه من الموعود به فالظن المخطيء فهم ذلك كثيرا جدا أكثر من باب الأمر والنهي مع كثرة ما وقع من الغلط في ذلك وهذا مما يحصر الغلط فيه إلا الله تعالى وهذا عام لجميع آدميين لكن الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه لا يقرون بل يتبين لهم وغير الأنبياء قد لا يتبين له ذلك في الدنيا ولهذا كثر في القرآن ما يأمر نبيه بتصديق الوعد والإيمان وما يحتاج إليه ذلك من الصبر إلى أن يجيء الوقت ومن الإستغفار لزوال الذنوب التي بها تحقيق إتصافه بصفة الوعد كما قال تعالى {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ} {الروم 60 وقال تعالى {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَمَا نُرِيدُكَ بِعَظْمِ الَّذِي نَعُدُّهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ} {غافر 77 الآية والآيات في هذا الباب كثيرة معلومة والله تعالى أعلم¹

الرحمة تحصل بالقرآن

أصل جامع في الاعتصام بكتاب الله ووجوب اتباعه وبيان الاهتداء به في كل ما يحتاج إليه الناس من دينهم وأن النجاة والسعادة في اتباعه والشقاء في مخالفته وما دل عليه من اتباع السنة والجماعة قال الله تعالى { قَالَ اهْبِطْ مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَسْقَى } {123} { وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى } {124} { قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا } {125} { قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى } {126} طه 123-126 قال ابن عباس تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه

¹مجموع الفتاوى ج: 15 ص: 175-195

أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ثم قرأ هذه الآية وقال تعالى { مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى
وَلَكِن تَصَدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } يوسف 111¹

وقال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا غشيتهم الرحمة وتنزلت عليهم السكينة وحتفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده وقد ذكر الله في غير موضع من كتابه أن الرحمة تحصل بالقرآن كقوله تعالى { لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصَدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } يوسف 111²

أفضل النعم نعمة الإيمان

قال تعالى { هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْأُولَى } النجم 56 قيل محمد وقيل القرآن وهما متلازمان يقول هذا نذير أنذر بما أنذرت به الرسل والكتب الأولى وقوله من النذر الأولى أي من جنسها فأفضل النعم نعمة الإيمان وكل مخلوق من المخلوقات فهو الآيات التي يحصل بها ما يحصل من هذه النعمة قال تعالى { لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصَدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } يوسف 111 وقال { تَبْصِرَةٌ وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ } ق 8 وما يصيب الإنسان ان كان يسره فهو نعمة بينة وإن كان يسوءه فهو نعمة من جهة أنه يكفر خطاياهم ويثاب بالصبر عليه ومن جهة أن فيه حكمة ورحمة لا يعلمها { كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } البقرة 216 وقد قال في الحديث والله لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له وإذا كان هذا وهذا فكلاهما من نعم الله عليه الصبر على السراء والضراء والشكر عليهما وكلتا النعمتين تحتاج مع الشكر إلى الصبر³

كل ما يحتاج الناس إلى معرفته بينه الله ورسوله بيانا شافيا

فكل ما يحتاج الناس إلى معرفته واعتقاده والتصديق به من أصول الدين كمسائل التوحيد والصفات والقدر والنبوة والمعاد فقد بينه الله ورسوله بيانا شافيا قاطعا للعدو إذ هذا من أعظم ما بلغه الرسول البلاغ المبين وبينه للناس وهو من أعظم ما أقام الله الحجة على عباده فيه بالرسول الذين بينوه وبلغوه وكتاب الله الذي نقل الصحابة ثم التابعون عن الرسول لفظه ومعانيه والحكمة التي هي سنة

¹مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 80

²الاستقامة ج: 1 ص: 396

³الحسنة والسيئة ج: 1 ص: 72 و مجموع الفتاوى ج: 8 ص: 211

رسول الله صلى الله عليه وسلم التي نقلوها أيضا عن الرسول مشتملة من ذلك على غاية المراد وتمام الواجب والمستحب والحمد لله الذ بعث إلينا رسولا من أنفسنا يتلو علينا آياته ويزكينا ويعلمنا الكتاب والحكمة الذي أكمل لنا الدين وأتم علينا النعمة ورضي لنا الإسلام دينا الذي أنزل الكتاب تفصيلا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين { مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } يوسف 111 وإنما يظن عدم اشتمال الكتاب والحكمة على بيان ذلك من كان ناقصا في عقله وسمعه ومن له نصيب من قول أهل الكتاب الذين قالوا { لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ } الملك 10 وإن كان ذلك كثيرا في كثير من المتفلسفة والمتكلمة وجهال أهل الحديث والمتفهمة والمتصوفة¹

جامع الجامع جامع و دليل الدليل دليل

وقد قال تعالى { تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } {63} وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } {64} النحل 63- 64 فقد بين سبحانه أنه ما أنزل عليه الكتاب إلا ليبين لهم الذي اختلفوا فيه كما بين أنه أنزل جنس الكتاب مع النبيين ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه²

فان الله انزل الكتاب والميزان وأرى الناس آياته فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم ان القرآن حق وأما العمليات وما يسميه ناس الفروع والشرع والفقه فهذا قد بينه الرسول أحسن بيان فما شيء مما أمر الله به أو نهى عنه أو حلله أو حرمه الا بين ذلك وقد قال تعالى { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ } المائدة 3 وقال تعالى { مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } يوسف 111³

فان ما دل كتاب الله على إباحته بعمومه فانه فى كتاب الله لأن قولنا هذا فى كتاب الله يعم ما هو فيه بالخصوص وبالعموم وعلى هذا معنى قوله تعالى { وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ } النحل 89 وقوله { وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ } يوسف 111 وقوله { مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ } الأنعام 38 على قول من جعل الكتاب هو القرآن و أما على قول من جعله اللوح المحفوظ فلا يجيء ههنا يدل على ذلك أن الشرط الذي ثبت جوازه بسنة أو إجماع صحيح بالاتفاق فيجب ان يكون فى كتاب الله و قد لا يكون فى كتاب الله بخصوصه لكن فى كتاب الله

¹الفتاوى الكبرى ج: 1 ص: 445

²مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 179

³مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 173

الأمر باتباع السنة و اتباع سبيل المؤمنين فيكون في كتاب الله بهذا الاعتبار لأن جامع الجامع جامع و دليل الدليل دليل بهذا الاعتبار¹

يذكر الله سبحانه الأصل المعتبر به ليستفاد حكم الفرع منه

وبعض المواضع يذكر سبحانه الأصل المعتبر به ليستفاد حكم الفرع منه من غير تصريح بذكر الفرع كقوله {أَيُّودٌ أَحَدَكُمُ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ} البقرة 266 فإن هذا يحتاج الى تفكر و لهذا سأل عمر عنها من حضره من الصحابة فأجابه ابن عباس بالجواب الذي ارضاه و نظير ذلك ذكر القصص فإنها كلها أمثال هي أصول قياس و اعتبار و لا يمكن هناك تعديد ما يعتبر بها لأن كل إنسان له في حالة منها نصيب فيقال فيها {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ} يوسف 111 و يقال عقب حكايتها {فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ} الحشر 2 و يقال {قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا} آل عمران 13 الى قوله {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ} آل عمران 13 و الاعتبار هو القياس بعينه كما قال ابن عباس لما سئل عن دية الأصابع فقال هي سواء و اعتبروا ذلك بالأسنان أي قيسوها بها فإن الأسنان مستوية الدية مع اختلاف المنافع فكذلك الأصابع و يقال اعتبرت الدراهم بالصنجة إذا قدرتها بها²

واعلم أن في كتاب الله من النهي عن مشابهة الأمم الكافرة و قصصهم التي فيها عبرة لنا بترك ما فعلوه كثير مثل قوله لما ذكر ما فعله بأهل الكتاب من المثالات {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ} يوسف 111 و أمثال ذلك³

هل يجوز الخوض فيما تكلم الناس فيه من مسائل أصول الدين وإن لم ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم فيها كلام أم لا؟

فقول السائل هل يجوز الخوض فيما تكلم الناس فيه من مسائل أصول الدين وإن لم ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم فيها كلام أم لا سؤال ورد بحسب ما عهد من الأوضاع المبتدعة الباطلة فإن المسائل التي هي من أصول الدين التي تستحق أن تسمى أصول الدين أعنى الدين الذي أرسل الله به رسوله وأنزل به كتابه لا يجوز أن يقال لم ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم فيها كلام بل هذا كلام متناقض في نفسه إذ كونها من أصول الدين يوجب أن

¹مجموع الفتاوى ج: 29 ص: 163

²مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 67

³اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 17

تكون من أهم أمور الدين وأنها مما يحتاج إليه الدين ثم نفى نقل الكلام فيها عن الرسول يوجب أحد أمرين إما أن الرسول أهمل الأمور المهمة التي يحتاج إليها الدين فلم يبينها أو أنه بينها فلم تنقلها الأمة وكلا هذين باطل قطعاً وهو من أعظم مطاعن المنافقين في الدين وإنما يظن هذا وأمثاله من هو جاهل بحقائق ما جاء به الرسول أو جاهل بما يعقله الناس بقلوبهم أو جاهل بهما جميعاً فإن جهله بالأول يوجب عدم علمه بما اشتمل عليه ذلك من أصول الدين وفروعه وجهله بالثاني يوجب أن يدخل في الحقائق المعقولة ما يسميه هو وأشكاله عقليات وإنما هي جهليات وجهله بالأمريين يوجب أن يظن من أصول الدين ما ليس منها من المسائل والوسائل الباطلة وأن يظن عدم بيان الرسول لما ينبغي أن يعتقد في ذلك كما هو الواقع لطوائف من أصناف الناس حذاقهم فضلاً عن عامتهم وذلك أن أصول الدين إما أن تكون مسائل يجب اعتقادها ويجب أن تذكر قولاً أو تعمل عملاً كمسائل التوحيد والصفات والقدر والنبوة والمعاد أو دلائل هذه المسائل أما القسم الأول فكل ما يحتاج الناس إلى معرفته وإعتقاده والتصديق به من هذه المسائل فقد بينه الله ورسوله بيانا شافياً قاطعاً للعدر إذ هذا من أعظم ما بلغه الرسول البلاغ المبين وبينه للناس وهو من أعظم ما أقام الله الحجة على عباده فيه بالرسول الذين بينوه وبلغوه وكتاب الله الذي نقل الصحابة ثم التابعون عن الرسول لفظه ومعانيه والحكمة التي هي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي نقلوها أيضاً عن الرسول مشتملة من ذلك على غايه المراد وتام الواجب والمستحب والحمد لله الذي بعث فينا رسولا من أنفسنا يتلو علينا آياته ويزكينا ويعلمنا الكتاب والحكمة الذي أكمل لنا الدين وأتم علينا النعمة ورضي لنا الإسلام ديناً الذي أنزل الكتاب تفصيلاً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين { مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } يوسف 111 وإنما يظن عدم اشتمال الكتاب والحكمة على بيان ذلك من كان ناقصاً في عقله وسمعه ومن له نصيب من قول أهل النار الذين قالوا { وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ } الملك 10 وإن كان ذلك كثيراً في كثير من المتفلسفة والمتكلمة وجهال أهل الحديث والمتفهمة والصوفية¹

فالقرآن فيه تفصيل كل شيء كما قال تعالى { مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } يوسف 111 وقال { وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ } النحل 89 ومعلوم أن الأمة مأمور بتبليغ القرآن لفظه ومعناه كما أمر بذلك الرسول ولا يكون تبليغ رسالة الله إلا كذلك وأن تبليغه إلى العجم قد يحتاج إلى ترجمة لهم فيترجم لهم بحسب الإمكان والترجمة قد تحتاج إلى ضرب أمثال لتصوير المعاني فيكون ذلك من تمام الترجمة²

ما ذكره من أحوال الامم الماضية يقاس عليها أحوال الامم المستقبلية

¹درء التعارض ج: 1 ص: 26 و مجموع الفتاوى ج: 3 ص: 295

²مجموع الفتاوى ج: 4 ص: 117

قال تعالى {وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ} النور 34 وهو ما ذكره من أحوال الامم الماضية التي يعتبر بها ويقاس عليها أحوال الامم المستقبلية كما قال {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ} يوسف 111 فمن كان من أهل الايمان قيس بهم وعلم أن الله يسعده في الدنيا والآخرة ومن كان من أهل الكفر قيس بهم وعلم أن الله يشقيه في الدنيا والآخرة كما قال في حق هؤلاء {أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أَوْلِيكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ} القمر 43 وقد بين سبحانه وتعالى أن السنة لا تتبدل ولا تتحول في غير موضع و السنة هي العادة التي تتضمن أن يفعل في الثاني مثل ما فعل بنظيره الاول ولهذا أمر سبحانه وتعالى بالاعتبار وقال {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ} يوسف 111 والاعتبار أن يقرن الشيء بمثله فيعلم أن حكمه مثل حكمه كما قال ابن عباس هلا اعتبرتم الاصابع بالاسنان فاذا قال {فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ} الحشر 2 وقال {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ} يوسف 111 أفاد أن من عمل مثل أعمالهم جوزى مثل جزائهم ليحذر أن يعمل مثل أعمال الكفار وليرغب في أن يعمل مثل أعمال المؤمنين اتباع الانبياء قال تعالى {قَدْ خَلتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ} آل عمران 137¹

وقد قص الله علينا في القرآن اخبار الانبياء وما اصابهم وما أصاب اتباعهم المؤمنين من الاذى في الله ثم انه تعالى نصرهم وجعل العاقبة لهم وقص علينا ذلك لنعبر به قال تعالى {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} يوسف 111²

قص الله علينا أخبار الأمم المكذبة للرسول وما صارت اليه عاقبتهم وأبقى آثارهم وديارهم عبرة لمن بعدهم وموعظة وكذلك مسخ من مسخ قرده وخنازير لمخالفتهم لأنبيائهم وكذلك من خسف به وأرسل عليه الحجارة من السماء وأغرقه في اليم وأرسل عليه الصيحة وأخذه بأنواع العقوبات وإنما ذلك بسبب مخالفتهم للرسول واعراضهم عما جاءوا به واتخاذهم أولياء من دونه وهذه سنته سبحانه فيمن خالف رسله وأعرض عما جاءوا به واتبع غير سبيلهم ولهذا أبقي الله سبحانه آثار المكذبين لنعبر بها ونتعظ لئلا نعمل كما فعلوا فيصيبنا ما أصابهم كما قال تعالى {إِنَّا مُنزلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} {34} {وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} {35} العنكبوت 34- 35 وقال تعالى {ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ} {136} {وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ} {137} {وَبِاللَّيْلِ أَفْلا تَعْقِلُونَ} {138} الصافات 136-138 أي تمرن عليهم نهارا بالصباح وبالليل ثم قال {أَفْلا تَعْقِلُونَ} الصافات 138 وقال تعالى في مدائن قوم لوط {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ} {74} {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُنْتَوِسِّمِينَ} {75} {وَإِنَّهَا لِبِسْبِيلٍ مُّقِيمٍ} {76} الحجر 74-76 يعنى مدائنهم

¹مجموع الفتاوى ج: 13 ص: 17

²مجموع الفتاوى ج: 35 ص: 377

بطريق مقيم يراها المار بها وقال تعالى { **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ** } يوسف 109 وهذا كثير في الكتاب العزيز يخبر الله سبحانه عن إهلاك المخالفين للرسول ونجاة اتباع المرسلين ولهذا يذكر سبحانه في سورة الشعراء قصة موسى وإبراهيم ونوح وعاد وثمود ولوط وشعيب ويذكر لكل نبي إهلاكه لمكذبيهم والنجاة لهم ولأتباعهم ثم يختم القصة بقوله { **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ** } 190 { **وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** } 191 { الشعراء 190-191 فختم القصة باسمين من اسمائه تقتضيها تلك الصفة وهو العزيز الرحيم فانتم من أعدائه بعزته وانجى رسله واتباعهم برحمته ¹

وما يثنى ذكره من القصص في القرآن كقصة موسى وغيرها ليس المقصود بها أن تكون سمرا بل المقصود بها أن تكون عبرا كما قال تعالى { **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ** } يوسف 111 فالذي وقع شيء واحد وله صفات فيعبر عنه بعبارات متنوعة كل عبارة تدل على صفة من الصفات التي يعتبر بها المعتبرون وليس هذا من التكرير في شيء ²

الله سبحانه كما ينكر التسوية بين المختلفات فهو يسوي بين المتماثلات

قال تعالى { **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** } يوسف 111 فإنه سبحانه إذا حكم في الأمور المتماثلة بحكم فإن ذلك لا ينتقض ولا يتبدل ولا يتحول بل هو سبحانه لا يفوت بين المتماثلين وإذا وقع تغيير فذلك لعدم التماثل وهذا القول أشبه بأصول الجمهور القائلين بالحكمة في الخلق والأمر وأنه سبحانه يسوي بين المتماثلين ويفرق بين المختلفين كما دل القرآن على هذا في مواضع كقوله تعالى { **أَفَجَعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ** } القلم 35 وقوله سبحانه وتعالى { **أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أَوْلِيكُمُ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ** } القمر 43 وقوله { **كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ** } آل عمران 11 ³

هذا الوعيد المذكور فصار تحذيرا لغيره من أن يفعل مثل فعله قال تعالى { **فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا** } البقرة 66 و قال تعالى عن فرعون { **فَجَعَلْنَاهُمْ سَفَافًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ** } الزخرف 56 و قال تعالى { **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ** } يوسف 111 ⁴

¹مجموع الفتاوى ج: 19 ص: 98

²مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 186

³منهاج السنة النبوية ج: 3 ص: 89 و رسالة في لفظ السنة في القرآن ج: 1 ص: 56

⁴مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 171

القصص المذكورة في الكتاب ليست بمنزلة ما يفترى من القصص المكذوبة

فان نصوص الكتاب والسنة اللذين هما دعوة محمد يتناولان عموم الخلق بالعموم اللفظي والمعنوي او بالعموم المعنوي وعهود الله في كتابه وسنة رسوله تنال آخر هذه الأمة كما نالت اولها وانما قص الله علينا قصص من قبلنا من الأمم لتكون عبرة لنا فنشبه حالنا بحالهم ونقيس اواخر الامم بأوائلها فيكون للمؤمن من المتأخرين شبه بما كان للمؤمن من المتقدمين ويكون للكافر والمنافق من المتأخرين شبه بما كان للكافر والمنافق من المتقدمين كما قال تعالى لما قص قصة يوسف مفصلة واجمل قصص الانبياء ثم قال **{لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى** {يوسف 111} اى هذه القصص المذكورة في الكتاب ليست بمنزلة ما يفترى من القصص المكذوبة كنحو ما يذكر في الحروب من السير المكذوبة وقال تعالى لما ذكر قصة فرعون { فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْأَخِرَةِ وَالْأُولَى {25} إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى {26} النازعات 25-26¹

اعظم صفات العقل معرفة التماثل والاختلاف

قال أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كل من عمل سوءا فهو جاهل وسبب ذلك أن العلم الحقيقي الراسخ في القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه من قول أو فعل فمتى صدر خلافه فلا بد من غفلة القلب عنه أو ضعف القلب عن مقاومة ما يعارضه وتلك أحوال تناقض حقيقة العلم فيصير جهلا بهذا الاعتبار ومن هنا تعرف دخول الأعمال في مسمى الإيمان حقيقة لا مجازا وإن لم يكن كل من ترك شيئا من الأعمال كافرا أو خارجا عن أصل مسمى الإيمان وكذلك اسم العقل ونحو ذلك من الأسماء ولهذا يسمي الله تعالى أصحاب هذه الأحوال موتى وعميا وصما وبكما وضالين وجاهلين ويصفهم بأنهم لا يعقلون ولا يسمعون ويصف المؤمنين بأولي الألباب والنهي وأنهم مهتدون وأن لهم نورا وأنهم يسمعون ويعقلون²

قال تعالى **{لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ {يوسف 111} وقال تعالى { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى {طه 54} أى العقول وقال تعالى { هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حُجْرٍ {الفجر 5} أى لذي عقل وقال تعالى { وَاتَّقُوا يَٰ أُولِي الْأَلْبَابِ {البقرة 197} وقال { إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ {الأنفال 22} وقال تعالى { إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ {يوسف 2} فإنما مدح الله وأثنى على من كان له عقل فأما من لا يعقل فإن الله لم يحمده ولم يثن عليه ولم يذكره بخير**

¹مجموع الفتاوى ج: 28 ص: 425

²اقتضاء الصراط ج: 1 ص: 78

قط بل قال تعالى عن أهل النار { وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ } الملك 10
 وقال تعالى { وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا
 يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ
 { الأعراف 179 وقال { أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ
 سَبِيلًا } الفرقان 44¹

ومن اعظم صفات العقل معرفة التماثل والاختلاف فاذا رأى الشيين المتماثلين علم ان هذا مثل هذا
 فجعل حكمها واحد كما اذا رأى الماء والماء والتراب والهواء والهواء ثم حكم بالحكم الكلي على
 القدر المشترك واذا حكم على بعض الاعيان ومثله بالنظير وذكر المشترك كان احسن في البيان فهذا
 قياس الطرد واذا رأى المختلفين كالماء والتراب فرق بينهما وهذا قياس العكس وما أمر الله به
 من الاعتبار في كتابه يتناول قياس الطرد وقياس العكس فانه لما اهلك المكذبين للرسول بتكذيبهم كان
 من الاعتبار ان يعلم ان من فعل مثل ما فعلوا اصابه مثل ما اصابهم فيتقى تكذيب الرسول حذرا من
 العقوبة وهذا قياس الطرد ويعلم ان من لم يكذب الرسول لا يصيبه ذلك وهذا قياس العكس وهو
 المقصود من الاعتبار بالمعذبين فان المقصود ان ما ثبت في الفرع عكس حكم الاصل لا نظيره
 والاعتبار يكون بهذا وبهذا وقال تعالى { لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ } يوسف 111
 وقال { قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ } آل عمران 13 الى قوله { إِنْ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَبْصَارِ } آل
 عمران 13 وقد قال تعالى { اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ } الشورى 17 وقال { لَقَدْ
 أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيُقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ } الحديد 25 والميزان
 فسره السلف بالعدل وفسره بعضهم بما يوزن به وهما متلازمان وقد أخبر تعالى انه انزل ذلك كما
 انزل الكتاب ليقوم الناس بالقسط فما يعرف به تماثل المتماثلات من الصفات والمقادير هو من
 الميزان وكذلك ما يعرف به اختلاف المختلفات²

أسماء القرآن

أسماء القرآن القرآن الفرقان الكتاب الهدى النور الشفاء البيان الموعظة الرحمة بصائر البلاغ
 الكريم المجيد العزيز المبارك التنزيل المنزل الصراط المستقيم حبل الله الذكر الذكرى تذكرة
 { وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ } يوسف 111³

¹مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 437

²مجموع الفتاوى ج: 9 ص: 239

³مجموع الفتاوى ج: 14 ص: 2

لطائف لغوية

1- قال تعالى { رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ } يوسف 101 لفظ الصلاح و الفساد فإذا أطلق الصلاح تناول جميع الخير وكذلك الفساد يتناول جميع الشر وكذلك اسم المصلح والمفسد قول يوسف { تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ } يوسف 101¹

2- قال تعالى بعد أن ذكر خبر يوسف الصديق { ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ } يوسف 102 أشار ب ذلك إلى ما تلاه قبل هذه الآية²

3- قال تعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا منه بريء وهو كله للذي أشرك وهذا كقوله تعالى { وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ } يوسف 106 سماه إيماناً مع التقييد وإلا فالمشرك الذي جعل مع الله إلهاً آخر لا يدخل في مسمى الإيمان عند الإطلاق وقد قال { يُؤْمِنُونَ بِالْحَبِيبِ وَالطَّاعُونَ } النساء 51 { فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } آل عمران 21 فهذا مع التقييد ومع الإطلاق فالإيمان هو الإيمان بالله والبشارة بالخير³

3- قال تعالى { قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } يوسف 108 والأمر بتسبيحه يقتضي أيضاً تنزيهه عن كل عيب وسوء وإثبات صفات الكمال له فإن التسييح يقتضي التنزيه والتعظيم يستلزم إثبات المحامد التي يحمد عليها فيقتضي ذلك تنزيهه وتحميده وتكبيره وتوحيده⁴

4- قال تعالى { قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } يوسف 108 عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك لفظ اتباع ما أنزل الله يتناول جميع الطاعات كقوله { اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ } الأعراف 3 وقوله { فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى } طه 123 وقوله { وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ } الأنعام 153 وقد يقرن به غيره كقوله { وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } الأنعام 155 وقوله { اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 84

²الجواب الصحيح ج: 2 ص: 274

³مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 573

⁴مجموع الفتاوى ج: 16 ص: 126

رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ { الأنعام 106 } وقوله { وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ } يونس 109¹

5- قال تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ } يوسف 109 قال تعالى { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لَأُولِي النُّهَىٰ } طه 54 أي العقول وقال تعالى { هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حُجْرٍ } الفجر 5 أي لدى عقل وقال تعالى { وَاتَّقُوا يَا أُولِي الْأَلْبَابِ { البقرة 197 } وقال { إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ } الأنفال 22 وقال تعالى { إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } يوسف 2 فإنما مدح الله وأثنى على من كان له عقل فأما من لا يعقل فإن الله لم يحمده ولم يثن عليه ولم يذكره بخير قط بل قال تعالى عن أهل النار { وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ } الملك 10 وقال تعالى { وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْإِنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْعَافِلُونَ } الأعراف 179 وقال { أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْإِنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا } الفرقان 44²

6- قال تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ } يوسف 109 عامة الأسماء يتنوع مسماها بالاطلاق والتقيد وكذلك إذا أفرد اسم طاعة الله دخل في طاعته كل ما أمر به وكانت طاعة الرسول داخله في طاعته وكذا اسم التقوى إذا أفرد دخل فيه فعل كل مأمور به وترك كل محظور قال طلق بن حبيب التقوى ان تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو رحمة الله وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عذاب الله وهذا كما في قوله { إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ } {54} فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ {55} القمر 54-55 وقد يقرن بها اسم آخر كقوله { وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا } {2} وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ } {3} الطلاق 2-3 وقوله { إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ } يوسف 90 وقوله { وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ } النساء 1³

7- قال تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ } يوسف 109 لفظ القرية والمدينة والنهر والميزاب وأمثلة هذه الأمور التي فيها الحال والمحال كلاهما داخل في الاسم ثم قد يعود الحكم على الحال وهو السكان وتارة على المحل وهو المكان وكذلك في النهر يقال حفرت النهر وهو المحل وجرى النهر وهو الماء ووضعت الميزاب وهو المحل وجرى الميزاب وهو الماء وكذلك القرية قال تعالى { وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً } النحل 112 وقوله { وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ } {4} فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 168

²مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 437

³مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 164

ظالمين {5} الأعراف 4-5 وقال في آية أخرى {أَقَامَنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ
 {الأعراف 97 فجعل القرى هم السكان وقال {وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي
 أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا تَاصِرَ لَهُمْ {محمد 13 وهم السكان وكذلك قوله تعالى {وَتِلْكَ الْقُرَى
 أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَّوْعِدًا {الكهف 59 وقال تعالى {أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ
 خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا {البقرة 259 فهذا المكان لا السكان لكن لابد أن يلحظ أنه كان مسكونا فلا
 يسمى قرية الا اذا كان قد عمر للسكنى مأخوذ من القرى وهو الجمع ومنه قولهم قرية الماء في
 الحوض اذا جمعت فيه ونظير ذلك لفظ الانسان يتناول الجسد والروح ثم الاحكام تتناول هذا
 تارة وهذا تارة لتلازمهما فكذلك القرية اذا عذب أهلها خربت واذا خربت كان عذابا لأهلها فما
 يصيب أحدهما من الشر ينال الآخر كما ينال البدن والروح ما يصيب أحدهما فقولهُ {وَاسْأَلِ
 الْقَرْيَةَ {يوسف 82 مثل قوله { قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً {النحل 112 فاللفظ هنا يراد به
 السكان من غير اضممار ولا حذف¹

8- قال تعالى { لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ
 الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ {يوسف 111 عامة الأسماء يتنوع
 مسماها بالاطلاق والتقييد وكذلك لفظ الهدى اذا أطلق تتناول العلم الذي بعث الله به رسوله
 والعمل به جميعا فيدخل فيه كل ما أمر الله به كما في قوله { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ {الفاحة 6
 والمراد طلب العلم بالحق والعمل به جميعا وكذلك قوله { هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ {البقرة 2 والمراد به أنهم
 يعلمون ما فيه ويعملون به ولهذا صاروا مفلحين وكذلك قول أهل الجنة { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا
 {الأعراف 43 وانما هداهم بأن ألهمهم العلم النافع والعمل الصالح ثم قد يقرن الهدى اما بالاجتباء
 كما في قوله { وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ {الأنعام 87 وكما في قوله { شَاكِرًا
 لِأَنْعَمِهِ اجْتَبَاءً وَهَدَاهُ {النحل 121 { اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ {الشورى 13
 وكذلك قوله تعالى { هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ {التوبة 33 والهدى هنا هو
 الايمان ودين الحق هو الاسلام واذا أطلق الهدى كان كالايمان المطلق يدخل فيه هذا وهذا²

9- قال تعالى { لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ
 الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ {يوسف 111 ورحمته اسم جامع
 لكل خير ودار الرحمة الخالصة هي الجنة³

¹مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 163

²مجموع الفتاوى ج: 7 ص: 166

³مجموع الفتاوى ج: 10 ص: 65

{ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً
تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ }
الحمد لله رب العالمين حمدا طيبا كثيرا كما ينبغي لجلال وجهه الكريم

###